

تفسير القشيري

المستقى

لطائف الاشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازنة بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلقه عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

المجلد الثالث

المحتوى:

أول سورة الروم - آخر سورة الناز



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsir al-Qushayri
"Laṭā'f al-'iṣārāt"
(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran

Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Quṣayri

Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Rahmān

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Pages: 1408 (3volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري
المسمى: لطائف الإشارات

التصنيف: تفسير قرآن

المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري

المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)

سنة الطباعة: 2007

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الثانية



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
جزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,	عزمون ، القبة
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.	مبنى دار الكتب العلمية
Tel : +961 5 804 810/11/12	هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٥٨٠٤ ٩٦١+
Fax: +961 5 804813	فاكس: ٨١٣ ٥٨٠٤ ٩٦١+
P.o.Box: 11-9424 Beirut-lebanon	ص. ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290	رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)

ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)



9 782745 128379

<http://www.al-ilmiyah.com>
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

بسم الله اسم عزيز شفيح المذنبين جوؤه، بلاء المتهمين قصوؤه، ضياء الموحدين عهوده. وسلوة المحزونين ذكره، وجرقة الممتحنين شكره.

اسم عزيز رداؤه كبرياؤه، وجبار سناؤه بهاؤه، وبهاؤه علاؤه.

العابدون حسبهم عطاؤه، والواجدون حسبهم بقاؤه.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي

يَضَعُ مِينِينَ﴾ .

الإشارة في «الألف» إلى أنه أَلِفٌ صُحْبَتَنَا مِنْ عَرَفَ عَظَمَتَنَا. وأنه أَلِفٌ بَلَاءَنَا مِنْ

عَرَفَ كَبْرِيَاءَنَا.

والإشارة في «اللام» إلى أنه لَزَمَ بَابَنَا مِنْ ذَاقَ مَحَابَّتَنَا، وَلَزَمَ بَسَاطَنَا مِنْ شَهِدَ

جَمَالَنَا.

والإشارة في «الميم» إلى أنه مُكِّنَ مِنْ قُرْبَانَا مَنْ قَامَ عَلَى خِدْمَتَنَا، وَمَاتَ عَلَى

وَفَانَا مَنْ تَحَقَّقَ بَوْلَانَنَا.

قوله ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾: سُرَّ الْمُسْلِمُونَ بِظَفْرِ الرُّومِ عَلَى الْعَجْمِ - وَإِنْ كَانَ الْكُفْرُ

يَجْمَعُهُمْ - إِلَّا أَنَّ الرُّومَ اخْتَصَمُوا بِالْإِيمَانِ بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ، وَأَنْزَلَ فِيهِمْ

الآية.. فكيف بمن يكون سروره لدين الله، وحزنه واهتمامه لدين الله؟.

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ

بِنَصْرٍ مِنْ بَيْنَاهُمْ وَهُوَ الْكَزِبُ الرَّجِيمُ﴾ .

﴿قَبْلُ﴾ إذا أطلق انتظم الأزل، «وبعد» إذا أطلق دل على الأبد؛ فالمعنى الأمر

الأزلي لله، والأمر الأبدي لله، لأنَّ الرَّبَّ الْأَزَلِيَّ وَالسَّيِّدَ الْأَبَدِيَّ اللَّهُ.

الله الأمر يوم العرفان، والله الأمر يوم الغفران.

الله الأمر حين القسمة ولا حين، والله الأمر عند النعمة وليس أي معين.

ويقال: لي الأمر ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وقد علمت ما تفعلون، فلا يمنعني أحد من تحقيق

عرفانكم، ولي الأمر ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ وقد رأيتُ ما فعلتم، فلا يمنعني أحدٌ من غفرانكم .
وقيل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ﴾ بتحقيق ودُكم، والله الأمر من بعد بحفظ عهدكم:

إني - على جفواتها - وبربها وبكل مُتصل بها مُتوسلٍ
﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ يَنْصِرَ اللَّهُ﴾:

اليومَ إرجافَ السرور وإنما يومَ اللِّقاءِ حقيقَةَ الإرجافِ
اليومَ ترخَّ وغداً فرح، اليومَ عبَرةً وغداً حَبِرةً، اليومَ أسفَ وغداً لطفَ، اليومَ
بكاءَ وغداً لقاءً .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

الكريمُ لا يُخلفُ وعده لا سيما والصدقُ نعته .

يقول المؤمنون: منا يومُ الميثاقِ وعدٌ بالطاعة، ومنه ذلك اليومُ وعدٌ بالجنة،
فإن وَقَع في وعدنا تقصيرٌ لا يقع في وعده قُصورٌ .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ﴾ .

استغراقهم في الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم في تعليق القلب بها... مَنَعَهُم عن
العلم بالآخرة. وقيمة كلِّ امرئٍ علمه بالله؛ ففي الأثر عن عليٍّ - رضي الله عنه - أنه
قال؛ أهل الدنيا على غفلةٍ من الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها في
غفلة عن الله .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ .

إنَّ مَنْ نَظَرَ حَقَّ النظر، وَوَضَعَ النظر موضعه أثمر له العلم واجباً، فإذا استبصر
بنور اليقين أحكامَ الغائبات، وَعَلِمَ موعوده الصادق في المستأنف - نجا عن كَدِّ التردد
والتجويز فسيبيلٌ مَنْ صحا عقله ألا يجنح إلى التقصير فيما به كمال سكونه .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

سَيَّرَ النفوس في أقطار الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وَسَيَّرَ القلوب بِجَوْلَانِ
الفِكْرِ في جميع المخلوقات، وغايته الظَّفَرُ بحقائق العلوم التي توجِبُ ثلج الصدر - ثم
تلك العلوم على درجات. وسير الأرواح في ميادين الغيب بنعت حرق سرادقات
الملكوت، وقصاراه الوصول إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة. وسير

الأشرار بالترقي عن الحدّثان بأسرها، والتحقّق أولاً بالصفات، ثم بالخمود بالكلية عمّا سوى الحقّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

مَنْ زَرَعَ الشوكَ لم يحصدُ الوَزدَ، وَمَنْ استنبت الحشيشَ لم يقطف الثمار، وَمَنْ سَلَكَ طريقَ الغيِّ لم يخللْ بساحةِ الرشد.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يبدأ الخلق على ما يشاء، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

شهودهم ما جحدوه في الدنيا عياناً، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعاً هو الذي يفتت أكبادهم، وبه تتمّ محنتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ

كافرين﴾.

تغلب العداوة مِنْ بعضٍ على بعضٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾.

فريقٌ منهم أهل الوصلة، وفريقٌ هم أهل الفرقة. فريقٌ للجنة والمئة، وفريقٌ للعذاب والمحنة. فريقٌ في السعير، وفريقٌ في السرور. فريقٌ في الثواب، وفريقٌ في العذاب. فريقٌ في الفراق، وفريقٌ في التلاقي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

فهم في رياضٍ وغياضٍ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

فهم في بوارٍ وهلاكٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

مَنْ كان صباحه لله بُورِكَ له في يومه، ومن كان مساءه بالله بورك له في ليله:

وإنَّ صَبَاحاً نلتقي في مسائه صَبَاحٌ على قلبِ الغريبِ حبيبٍ

شَتَانٌ بين عبدٍ صباحه مُفْتَتَحٌ بعبادته ومساؤه مُخْتَمَّتٌ بطاعته، وبين عبدٍ صباحه

مفتتح بمشاهدته ورواحة مفتتح بعزير قربته!

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات، والآية تتضمن الصلوات الخمس، وإرادة الحق من أوليائه بأن يجددوا العهد في اليوم واللييلة خمس مرات؛ فتقف على بساط المناجاة، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات.

قوله جل ذكره: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: الطير من البيض، والحيوان من النطفة.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: البيض من الطير، والنطفة من الحيوان.

والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

ويظهر أوقاتاً من بين أوقات؛ كالقبض من بين أوقات البسط، والبسط من بين أوقات القبض.

﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يحييها بالمطر، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء؛ كذلك يوم النشور يحيي الخلق بعد الموت.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

خلق آدم من التراب، ثم من آدم الذرية. فذكرهم نسبتهم لثلاثي يعجبوا بأحوالهم. ويقال الأصل تربة ولكن العيزة بالتربية لا بالتربة، القيمة لما منه لا لأعيان المخلوقات. اصطفى واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة؛ الجنة جواهر وبقايت، والبيت حجر! ولكن البيت مختاره وهذا المختار حجر! واختار الإنسان، وهذا المختار مدبر! والغني غني لذاته، غني عن كل غير من رسم وأثر.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

رَدَّ الْمِثْلَ إِلَى الْمِثْلِ، وَرَبَطَ الشَّكْلَ بِالشَّكْلِ، وجعل سكون البعض إلى البعض، ولكن ذلك للأشباح والصور، أما الأرواح فضخبت لها للأشباح كرة لا طوع. وأما الأسرار فمُعْتَمَدَةٌ لا تساكُن الأطلال ولا تتدنس بالأعلال.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَبَاطِئِكُمْ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي عُلُوِّهَا وَالْأَرْضَ فِي دُنُوِّهَا؛ هذه بنجومها وكواكبها، وهذه بأقطارها ومناكبها. وهذه بشمسها وقمرها، وهذه بمائها ومدرها.

ومن آياته اختلاف لغات أهل الأرض، واختلاف تسبيحات الملائكة الذين هم

سكان السماء . وإن اختصاص كل شيء منها بحكم - شاهد عدل ، ودليل صدق على أنها تناجي أفكار المتيقظين ، وتنادي على أنفسها . . أنها جميعها من تقدير العزيز العليم .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .

غلبه النوم بغير اختيار صاحبه ثم انتباهه من غير اكتساب له بوسع يدل على موته وبغيه بعد ذلك وقت نشوره . ثم في حال منامه يرى ما يسره وما يضره ، وعلى أوصاف كثيرة أمره . . كذلك الميت في قبره . الله أعلم كيف حاله في أمره ، وما يلقاه من خيره وشره ، ونفعه وضره ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

يلقي في القلوب من الرجاء والتوقع في الأمور ، ثم يختلف بهم الحال ؛ فمن عبد يحصل مقصوده ، ومن آخر لا يتفق مراده .

والأحوال اللطيفة كالبروق ، وقالوا: إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار^(١) ، فاللوائح في أوائل العلوم ، واللوامع من حيث الفهوم ، والطوالع من حيث المعارف ، والشوارق من حيث التوحيد .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ .

يُفْنِي هذه الأدوار ، وَيُغَيِّرُ هذه الأطوار ، ويبدل أحوالاً غير هذه الأحوال ؛ إماتة ثم إحياء ، وإعادة وقبلها إبداء وقبر ثم نشر ، ومعاتبه في القبر ثم محاسبة بعد النشر .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّكُمْ قَانُونٌ﴾ .

له ذلك ملكاً ، ومنه تلك الأشياء بدهاء ، وبه إيجاداً ، وإليه رجوعاً .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿وَهُوَ أَهْوَتُ عَلَيْهِ﴾ أي في ظنكم وتقديركم .

وفي الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لا تجوز .

(١) متع نهاره: كناية عن استمرار العطاء الإلهي والكشف الرباني بتمديد وقت النهار إلى الليل ، حتى يندم الليل :

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾: له الصفة العليا في الوجود بحق القِدَم، وفي الجود بنعت الكَرَم، وفي القدرة بوصف الشمول، وفي النصرة بوصف الكمال، وفي العلم بعموم التعلُّق، وفي الحكم بوجوب التحقق، وفي المشيئة بوصف البلوغ، وفي القضية بحكم النفوذ، وفي الجبروت بعين العزِّ والجلال، وفي الملكوت بنعت المجد والجمال.

قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ مَّخَافَتُهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي إذا كان لكم ممالِك لا تَرْضُونَ بالمساواة بينكم وبينهم، وأنتم متساكلون بكل وجه - إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم - فَمَا تقولون في الذي لم يَزَلْ، ولا يزال كما لم يزل؟

هل يجوز أن يُقدَّر في وصفه أن يُساوِيه عبِيدُه؟ وهل يجوز أن يكون مملوكُه شريكه؟ تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً!

قوله جل ذكره: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾.

أشدُّ الظلم متابعة الهوى، لأنه قريبٌ من الشُّرك، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فَمَنْ اتَّبَعَ هواه خالف رضا مولاه؛ فهو بوضعه الشيء غير موضعه صار ظالماً، كما أن العاصي بوضعه المعصية موضع الطاعة ظالمٌ. . . كذلك هذا بمتابعة هواه بدلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متمادياً.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أخْلِصْ قُضْدَكَ إِلَى اللهِ، واحْفَظْ عهدك مع الله، وأفِرْذْ عملك في سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتك لله.

﴿حَنِيفًا﴾: أي مستقيماً في دينه، مائلاً إليه، مُغرِضاً عن غيره، والزَّمْ ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي أثبتهم عليها قبل أن يوجد منهم فعلٌ ولا كَسْب، ولا شِرْكٌ ولا كُفْرٌ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولا عصيان. فاعرف بهذه الجملة، ثم افعَلْ ما أَمِرْتُ به، واحذرْ ما نُهِيت عنه.

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي اعْرِفْ واغْلَمْ أن فطرة الله التي فطر الناس عليها: تَجَرُّدُهُمْ عن أفعالهم، ثم اتصافهم بما يكسبون - وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله.

وعلى هذا تكون ﴿فَطَرَتْ﴾ الله منصوبة بإضمار اعْلَمَ - كما قلنا .

سبحانه فَطَرَ كُلَّ أَحَدٍ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي السَّعَادَةِ أَوْ الشَّقَاوَةِ، وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ، وَلَا تَحْوِيلَ لِمَا عَلَيْهِ فَطَرَهُ . فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ سَعِيداً أَرَادَ سَعَادَتَهُ وَأَخْبِرَ عَنِ سَعَادَتِهِ، وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ سَعِيداً . وَمَنْ عَلِمَ شَقَاوَتَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَقِيماً وَأَخْبِرَ عَنِ شَقَاوَتِهِ وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ شَقِيماً . . . وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ، هَذَا هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ وَالْحَقُّ الصَّحِيحُ .

قوله جل ذكره: ﴿مُيَبِّنَ إِلَيْهِ وَأَنْتَوُهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

أي راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفاته، منحرفين بكل وجه عن خلفه، مُتَّقِينَ صَغِيرِ الْإِثْمِ وَكَبِيرِهِ، قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، مُؤَثِّرِينَ يَسِيرَ وَفَاقَهُ وَعَسِيرِهِ، مَقِيمِينَ الصَّلَاةَ بَأَرْكَانِهَا وَسُنَنِهَا وَأَدَابِهَا جَهراً، مُتَحَقِّقِينَ بِمِرَاعَاةِ فُضَائِلِهَا سِراً .

قوله جل ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعاً كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ

فَرِحُونَ﴾ .

أقاموا في دنياهم في خمار الغفلة، وعناد الجهل والفترة؛ فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وتمولوا من كيس غيرهم، وظنوا أنهم على شيء . فإذا انكشف ضباب وقتهم، وانقشع سحاب جحدهم . . انقلب فرحهم ترحاً، واستيقنوا أنهم كانوا في ضلالة، ولم يعرفوا إلا في أوطان الجهالة .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ

إِذَا فَرِحُوا مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ .

إذا أظلمتهم المحنة ونالتهم الفتنة؛ وَمَسَّتْهُمْ الْبَلِيَّةُ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ بِأَجْمَعِهِمْ

مستعنيين، وبلطفه مستجيرين، وعن محتتهم مستكشفين .

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم: ﴿إِذَا فَرِحُوا

مِنْهُمْ﴾ لا كلهم - بل فريق منهم بربهم يشركون؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة في

الكفران، ويقابلون إحسانه بالنسيان، هؤلاء ليس لهم عهد ولا وفاء، ولا في مودتهم صفاء .

قوله جل ذكره: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آٰلَيْنَاهُمْ فَتَمَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

أي عن قريب سيحدث بهم مثلما أصابهم، ثم إنهم يعودون إلى التصرع،

ويأخذون فيما كانوا عليه بدءاً من التخشع، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس

خطاياهم .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ .

بين أنهم بنوا على غير أصل طريقهم، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم، وعلى غير شرع من الله أو حجة أو بيان أسسوا مذاهبتهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا الْبَآسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ .

تستميلهم طوارق أحوالهم؛ فإن كانت نعمة فالى فرح، وإن كانت شدة فالى قنوط وترح . . وليس وصف الأكابر كذلك؛ قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] .

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

الإشارة فيها إلى أن العبد لا يعلق قلبه إلا بالله؛ لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله، فالبسط الذي يسرهم ويونسهم منه وجوده، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصوله، فالواجب لزوم عشوة^(١) الأسرار، وقطع الأفكار عن الأغيار .

قوله جل ذكره: ﴿فَاتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَاللَّذِينَ فِي الْأَرْحَامِ حَقَّهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ .

القربة على قسمين: قرابة النسب وقرابة الدين، وقرابة الدين أمس، وبالمواساة أحق وإذا كان الرجل مشغلاً بالعبادة، غير متفرغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمان بحاله، وإشراف على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقدر ما يمكنهم، مما يكون له عون على الطاعة وفراغ القلب من كل علة؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقه أكذ، وتفقدته أوجب .

﴿ذَٰلِكَ خَبْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ : المرید هو الذي يُؤثر حق الله على حظ نفسه؛ فإشار المرید وجه الله أتم من مراعاته حال نفسه، فهتمته في الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على نظره لنفسه وعياله وما يهمه من خاصته .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَا مِن رَّبِّا لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَا مِن ذَكْوَرٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ .

إتاء الزكاة بأن تريد بها وجه الله، وألا تستخدم الفقير لما تبره به من رافقه، بل

(١) العقوة: الساحة، وما حول الدار والمحلة . (اللسان ٧٩/١٥ مادة: عفا) .

أفضل الصدقة على ذي رَحْمٍ كاشح^(١) حتى يكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيب لك فيه، فهؤلاء هم الذين يضاعف أجرهم: قهرهم لأنفسهم حيث يخالفونها، وفوزهم بالعوض من قبل الله.

ثم الزكاة هي التطهير، وتطهير المال معلوم ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة، وأصناف المال وأوصافه.

وزكاة البدن وزكاة القلب وزكاة السر. . كل ذلك يجب القيام به.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيذُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْرًا شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف يقتضي التراخي؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خلقه إياك أن يرزقك؛ كنت في ضعف أحوالك ابتداء ما خلقك، فأثبتك وأحياك من غير حاجة لك إلى رزق؛ فإلى أن خرجت من بطن أمك: إما أن كان يُغنيك عن الرزق وأنت جنين في بطن الأم ولم يكن لك أكل ولا شرب، وإما أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق - إن حق ما قالوا: إن الجنين يتغذى بدم الطمث^(٢). وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المعهود في الوقت المعلوم، فيسر لك أسباب الأكل والشرب من لبن الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات، وأرزاق للسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره.

﴿ثُمَّ يُعِيذُكُمْ﴾ بسقوط شهواتكم، ويميتكم عن شواهدكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بحياة قلوبكم ثم يحييكم بربكم.

ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق.

ويقال: لا مكتة لك في تبديل خلقك، وكذلك لا قدرة لك على تعسر رزقك، فالموسع عليه رزقه - بفضلِهِ سبحانه. . لا بمناقب نفسه، والمقتّر عليه رزقه بحكمه سبحانه. . لا بمعايب نفسه.

﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْرًا شَيْءٍ؟﴾ هل من شركائكم الذين أثبتوهم أي من الأصنام أو توهمتوهم من جملة الأنام. . من يفعل شيئاً من ذلك؟ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ تنزيهاً له وتقديساً.

(١) الكاشح: العدو المغض. (اللسان ٥٧٢/٢ مادة: كشح).

(٢) الطمث: دم الحيض.

قوله جل ذكره: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

الإشارة من البرّ إلى النفس، ومن البحر إلى القلب .

وفساد البرّ بأكل الحرام وارتكاب المحظورات، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشرّ والفسق . . وغير ذلك . وعقْد الإصرار على المخالفات من أعظم فساد القلب، كما أنّ العزم على الخيرات قبل فعلها من أعظم الخيرات .

ومن جملة الفساد التأويلات بغير حق، والانحطاط إلى الرخص في غير قيام بجِدِّ، والإغراق في الدعاوى من غير استحياء من الله تعالى .

﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ : بعض الذي عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب، وعدم التأسف على ما فاته من الحق .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَان أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ .

﴿سِيرُوا﴾ بالاعتبار، واطلبوا الحق بنعت الأفكار .

﴿فَانظُرُوا﴾ كيف كانت حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال، وقيسوا عليها حكمكم في جميع الأحوال . ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ كانوا أكثرهم عدداً، ولكن كانوا في التحقيق أقلهم وزناً وقدرأ .

قوله جل ذكره: ﴿فَاقْرَأْ وَجَنَّةَكَ لِلَّذِينَ الْفَتِيرِ مِن قَبْلُ أَن يَأْتِي يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ .

أخلص قُضدك وصدق عزمك للدين القيم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع . فمن لم يتأدب بمن هو إمام وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خسارته أتم من ربحه، ونقصائه أعم من نفعه^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِن رِّحْمَتِهِ وَلِيُنَجِّرِيَ أَفْئُكُم بِأَمْرِهِ وَلِيُنَبِّئَكُمْ مِّن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

يرسل رياح الرجاء على قلوب العباد فتكنس عن قلوبهم غبار الخوف وغشاء اليأس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بساط الجهد، وتكرمهم بقوى النشاط . ويرسل رياح البسط على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض، وينشر

(١) الآيتان (٤٤، ٤٥) لم تردا .

فيها إرادة الوصال . ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء، ويبشرها بدوام الوصال . . فذلك ارتياح به ولكن بعد اجتياح عنك .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا، فَمَنْ قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق، وَمَنْ عارضهم بالجحود أذقناهم عذاب الخلود، فانتقمنا من الذين أجرموا، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا، وشوشتنا عليهم ما أثلوا، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتنعّموا، وأخذنا بخناقهم فحاق بهم ما مكروا .

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوطنتهم بأعقاب أعدائهم، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم، وخرّبنا أوطان أعدائهم، وهدمنا بنيانهم، وأخذنا نيرانهم، وعطلنا عنهم ديارهم، ومخّونا بقهر التدمير آثارهم، فظلت شمسهم كاسفة، ومكيدة قهرنا لهم بأجمعهم خاسفة .

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

يرسل رياح عطفه وجوده مبشرات بوضله وجوده، ثم يُمطر جود غيبه على أسرارهم بلطفه، ويطوي بساط الحشمة عن ساحات قربه، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أزهار أنسه، ثم يتجلى لهم بحقائق قُذسه، ويسقيهم بيده شراب حبه، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحابهم - لا بهم - ولكن بنفسه، فالعبارات عن ذلك خُزس، والإشارات دونها طُمس .

قوله جل ذكره: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجَى الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

يحيي الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليُخرج زرعها وثمارها، ويحيي النفوس بعد نفرتها، ويوفقها للخيرات بعد فترتها، فتعمر أوطان الرفاق بصادق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، ويحيي القلوب بعد غفلتها بأنوار المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحسن المراعاة، ويهتدي بأنوار أهلها أهل العسر من أصحاب الإيرادات، ويحيي الأرواح بعد حجبها - بأنوار المشاهدات، فتطلع شمسها عن بُرج السعادة، ويتصل بمشام أسرار الكافة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب نفس إلا حظي منه بنصيب، ويُخبي الأسرار - وقد تكون لها وقفة في بعض الحالات - فتنتفي بالكلية آثار الغيرية، ولا يبقى في الدار ديار

ولا من سكانها آثار؛ فسَطَوَاتُ الحَقَائِقِ لا تثبت لها دَرَّةٌ من صفات الخلائق، هنالك الولاية لله.. سقط الماء والقطرة، وطاحت الرسوم والجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

إذا انسَدَّتْ البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات.. كذلك مَنْ حَقَّتْ عليهم الشقاوةُ جَرَّتْه إلى نفسها - وإن تَبَوَّأَ الجَنَّةَ منزلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

مَنْ فَقَدَ الحَيَاةَ الأَصْلِيَّةَ لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم، وإذا كان في السريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فَسَمِعَ الظاهر لا يفيدُه آكُذُ الحُجَّةِ. وكما لا يُسْمِعُ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ فكذلك لا يمكنه أن يهدي العُمى عن ضلالتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم:

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والشرى

كذلك في ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية في نعت التردد والحيرة في الطلب، ثم بعد قوة الوصل في ضعف التوحيد.

ويقال أولاً ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله، ثم قوة البيان في حال العرفان، لأنه بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخمود، لأنه الخمود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر.

ويقال ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾: أي حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود ثم بعده ضعف المسكنة، قال ﷺ: «أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنني في زمرة المساكين»^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

إنما كان ذلك لأحد أمرين: إمّا لأنهم كانوا أمواتاً.. والميت لا إحساس له، أو لأنهم عَدُوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يَرَوْنَ ذلك اليوم يسيراً. وإن أهل التحقيق يخبرونهم عن طول لُبْثهم تحت الأرض. وإن ذلك الذي يقولونه من جملة ما

(١) أخرجه الترمذي (زهد ٣٧)، وابن ماجه (زهد ٧).

كانوا يظهرون من جَخدمهم على موجب جهلهم، ثم لا يُسْمَعُ عُذْرُهُمْ، ولا يُدْفَعُ ضُرُّهُمْ.

وأخبر بعد هذا في آخر السورة عن إصرارهم وانهماكهم في غيِّهم، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم.

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم ومضارهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

السورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من سمعها أقر أنه لا يسمع مثلها، ومن عرفها أنف أن يسمع غيرها. كلمة من سمعها طابت قصته، وزالت بكل وجه غصته، وتمت من النعم في الدنيا والعقبى حصته، وزهد في دنياه من غير رغبة في عقابه؛ لأنها - وإن جلت - غير مولاه.

كلمة من سمعها لم يرغب في عمارة فئانه، ولم يتحشم سرعة وفائه.

قوله جل ذكره: ﴿الَّتِي تَلَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

الألف تشير إلى الآله، واللام تشير إلى لطفه وعطائه، والميم تشير إلى مجده وسنائه؛ فبالآله يرفع الجحد عن قلوب أوليائه، ويلطفه وعطائه يثبت المحبة في أسرار أصفيائه، وبمجده وسنائه مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه.

﴿تَلَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: المحروس عن التغيير والتبديل.

قوله جل ذكره: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

هو هدى وبيان، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله، والمقيمين عبادة الله كأنهم ينظرون إلى الله. وشروط المحسن أن يكون محسناً إلى عباد الله: دانيهم وقاصيهم، ومطيعيهم وعاصيهم.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر العورة، وتقديم الطهارة، واستقبال القبلة، والعلم بدخول الوقت، والوقوف في مكان طاهر. وفي الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السر عن العلائق، وستر عورة الباطن بتنقيته عن العيوب، لأنها مهما تكن فالله يراها؛ فإذا أزدت ألا يرى الله عيوبك فأخذزها حتى لا تكون. والوقوف في مكان طاهر، وهو وقوف القلب على الحد الذي أذنت في الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق، ورجم الله من وقف عند حده. والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التذلل والاستكانة. وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط، وتستقبل القبلة بنفسك، وتعلق قلبك بالله من غير تخصيص بقطر أو مكان.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحق آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا في الدنيا والعقبى فسلموا ونجوا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: ما يشغل عن ذكر الله، ويخجُب عن الله سماعه. ويقال: هو لغو الظاهر الموجب سهو الضمائر، وهو ما يكون خوضاً في الباطل، وأخذاً بما لا يعينك.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّا مُسْتَكْبِرِينَ كَانُوا لَمْ يَسْمَعُهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

المفترق بهم، والمتشتت بقلبه لا تزيده كثرة الوعظ إلا نفوراً وتبؤاً؛ فسماعه كلاً سماع، ووعظه هباءً وضياع، كما قيل:

إذا أنا عاتبْتُ المملوْلَ فإنما أُخطُّ بأقلامي على الماءِ أحرفاً

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ جَنَّتْ أَلْعِمَ خَلِيدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿آمَنُوا﴾: صدقوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: تحقّقوا؛ فاتصاف بتحقيقهم راجع إلى تصديقهم، فتجوا وسلموا؛ فهم في راحتهم مقيمون، دائمون لا يترحون.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضِ رَواسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَبْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ .

أمسك السموات بقدرته بغير عماد، وحفظها لا إلى سناد أو مشدودة إلى أوتاد، بل بحكم الله وبتقديره، ومشيئته وتدبيره.

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ . . .﴾ في الظاهر الجبال، وفي الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق، بهم يقىهم، وبهم يصرف البلاء عن قريبهم وقاصيهم.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . .﴾ المطر من سماء الظاهر في رياض الخضرة؛ ومن سماء الباطن في رياض أهل الدنوّ والخضرة.

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .

هذا خلق الله العزيز في كبرياته، فأروني ماذا خلق الذين عبدتم من دونه في أرضه وسمائه؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿الْحِكْمَةَ﴾ الإصابة في العقل والعقد والنطق. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث همة النفس. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ ألا تكون تحت سلطان الهوى. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ الكون بحكم من له الحكم. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ معرفة قدر نفسك حتى لا تمدّ رجلك خارجاً عن كسائك. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ ألا تستعصي على مَنْ تعلم أنك لا تقاومه.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾: حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاطفات الرَّبِّ. فهو مقلوب قولهم: كَشَّرَتْ عن أنيابها الداية؛ فيقال شكر وكشر مثل جذب وجذب.

ويقال الشكرُ تحقّقك بعجزك عن شكره. ويقال الشكر ما به يحصل كمال استلذاذ النعمة. ويقال الشكر فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب بالسرور؛ فينطلق بمدح المشكور. ويقال الشكر نعت كل غني كما أن الكفران وصف كل لثيم. ويقال الشكر قرع باب الزيادة. ويقال الشكر قيد الإنعام. ويقال الشكر قصة يملئها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]: لأنه في صلاحها ونصيبتها يسعى.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَكَ الشِّرْكَ لَظْمًا عَظِيمًا﴾.

الشركُ على ضربين: جلي وخفي؛ فالجلي عبادة الأصنام، والخفي حسابان شيء من الحدثان من الأنام. ويقال الشرك إثبات غير مع شهود الغيب. ويقال الشرك ظلم على القلب، والمعاصي ظلم على النفس، وظلم النفوس معروض للغفران، ولكن ظلم القلوب لا سبيل إليه للغفران.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾.

أوجب الله شكر نفسه وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يُكتفى فيه بمجرد النطق بالشناء عليهما علم أن شكر الحق لا يكفي فيه مجرّد القول ما لم تكن فيه موافقه العقل؛ وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة دون صرفها في الرذلة؛ فشكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإفناق والتوفير.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعَ مَسِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ .

إن جاهدك على أن تشرك بالله، أو تسعى بما هو زلة في أمر الله - فلا تطعهما، ولكن عاشرهما بالجميل؛ تخشين في تليين، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرج، وانفرد بسرك الله، ﴿وَأَتَّبِعَ مَسِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: وهو المنيب إليه حقاً من غير أن تبقى بقية في النفس.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْنِيْ إِيَّاهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ .

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمة فلا محالة تصل إلى المقسوم له بغير مرية . . . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: عالم بدقائق الأمور وخفاياها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْنِيْ أَقْرِ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ .

الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك، ومن لا حُكْمَ له عَلَى نَفْسِهِ لا ينفذ حكمه على غيره.

والمعروف الذي يجب الأمرُ به هو ما يُوصَلُ العبدُ إلى الله، والمنكرُ الذي يجب النهي عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ تنبيهٌ عَلَى أَنَّ مَنْ قَامَ لِلَّهِ بِحَقِّ امْتِحَانٍ فِي اللَّهِ؛ فسيبيله أَنْ يَصْبِرَ لِلَّهِ - فَإِنَّ مَنْ صَبَرَ لِلَّهِ لَا يَخْسِرَ عَلَى اللَّهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ .

يعني لا تتكبر عَلَى النَّاسِ، وطالغهم من حيث النسبة والتحقق بأنك بمشهد من مولاك. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ مَوْلَاهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَتَكَبَّرُ وَلَا يَتَطَاوَلُ بِلِ يَتَخَاضِعُ وَيَتَضَاعَلُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْبِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْعَمِيرِ﴾ .

كُنْ فَانِيَاً عَنِ شَوَاهِدِكَ، مُضْطَلَمًا^(١) عَنِ صَوْتِكَ، مَأْخُودًا عَنِ حَوْلِكَ وَقَوْتِكَ، مُتَشَشِقًا^(٢) مِمَّا اسْتَوْلَى عَلَيْكَ مِنْ كَشُوفَاتِ سِرِّكَ.

(١) اصطلم: استأصل.

(٢) انتشق الماء في أنفه واستنشقه: صبه فيه. (اللسان ١٠/٣٥٣).

وانظر مَنْ الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من خمار غفلتك؛ ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمَعِيرِ﴾: في الإشارة هو الذي يتكلم في لسان المعرفة من غير إذن من الحق. وقالوا: إنه الصوفي يتكلم قبل أوانه.

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات.

قوله جَلَّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

أثبت في كل شيء منها نفعاً لكم، فالسماوات لتكون لكم سقفاً، والأرض لتكون لكم فراشاً، والشمس لتكون لكم سراجاً، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب، والنجوم لتتهتدوا بها.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: الإسباغ ما يفضل عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة.

قوله: ﴿نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: تكلموا فيه فأكثروا. فالظاهرة وجود النعمة، والباطنة شهود المنعم. والظاهرة الدنيوية، والباطنة الدنيئة. والظاهرة حُسن الخلق، والباطنة حُسن الخلق. الظاهرة نفس بلا زلة، والباطنة قلب بلا غفلة. الظاهرة العطاء، والباطنة الرضاء. الظاهرة في الأموال ونماتها، والباطنة في الأحوال وصفاتها. الظاهرة النعمة، والباطنة العصمة. الظاهرة توفيق الطاعات، والباطنة قبولها. الظاهرة تسوية الخلق، والباطنة تصفية الخلق. الظاهرة صحبة الصالحين، والباطنة حفظ حُرْمَتِهِمْ. الظاهرة الزهد في الدنيا، والباطنة الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى. الظاهرة الزهد، والباطنة الوجد. الظاهرة توفيق المجاهدة والباطنة تحقيق المشاهدة. الظاهرة وظائف النفس، والباطنة لطائف القلب. الظاهرة اشتغالك بنفسك عن الخلق، والباطنة اشتغالك بربك عن نفسك. الظاهرة طلبه، الباطنة وجوده^(١). الظاهرة أن تصل إليه، الباطنة أن تبقى معه.

قوله جَلَّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبِّئُكَ مَا وَعَدَنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم، ولم يهتدوا إلى مَحْوَلِ أحوالهم. فأما من سمَّت نفسه، وخلص في الله فُضِّدَهُ فقد استمسك بالعروة الوثقى، وسلك المحجَّة المثلى: -

قوله جَلَّ ذكره: ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن الوجود بالرسالة ص ٦١ - ٦٤.

وعلى العكس: -

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

إلينا إياهم، ومثلاً عذابهم، وعلينا حسابهم. ولئن سألتهم عن خالقهم لأقروا، ولكن إذا عادوا إلى غيهم نقضوا وأصروا^(١).

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

لله ما في السموات والأرض ملكاً، ويُجزي فيهم حكمه حقاً، وإليه مرجعهم حتماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ

أَجْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام والبحار كانت مداداً، وبمقدار ما يقابله تُنفق القراطيس^(٢)، ويتكلف الكتاب حتى تتكسر الأقلام، وتنفى البحار، وتستوفي القراطيس، وتنفى أعمار الكتاب. ما نفدت معاني ما لنا معك من الكلام، والذي نسمعك فيما نخاطبك به لأنك معنا أبداً الأبد، والأبدى من الوصف لا يتناهى.

ويقال إن كان لك معكم كلام كثير فما عندكم ينفذ وما عند الله باق:

صحائفٌ عندي للعتابِ طَوَيْتُهَا سَتُنَشِّرُ يَوْمًا وَالْعَتَابُ يَطُولُ

قوله جل ذكره: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْزُبُكُمْ إِلَّا كَفَفِيسٌ وَاجِدُوا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

إيجاد القليل أو الكثير عليه وعنده سيان؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر، ولا من القليل راحة ويُسر، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] يقوله بكلمته ولكنه يكوّنه بقدرته، لا بمزاولة جهد، ولا باستفراغ وسع، ولا بدعاء خاطر، ولا بطرؤٍ غرض^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ

الْكَبِيرُ﴾.

﴿اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾: الكائن الموجود، مُحِقُّ الحق، و﴿مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾:

من العدم ظَهَرَ ومعه جواز العدم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

(١) الآيات (٢٤، ٢٥) لم تردا.

(٢) القراطيس: (ج) القراطاس: الصحيفة التي يكتب فيها.

(٣) الآية (٢٩) لم ترد.

في الظاهر سلامتهم في السفينة، وفي الباطن سلامتهم من حدثان الكون، ونجاتهم في سفائن العصمة في بحار القدرة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ وَقُوفٍ لَا يَنْهَزَمُ مِنَ الْبَلَايَا، شُكُورٍ عَلَى مَا يَصِيبُهُ مِنْ تَصَارِيفِ التَّقْدِيرِ مِنْ جِنْسِي الْبَلَايَا وَالْعَطَايَا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْآلِينَ فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْتَهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾.

إذا تلاطمت عليهم أمواج بحار التقدير تمنوا أن تلفظهم تلك البحار إلى سواحل السلامة، فإذا جاد الحق بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم:

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بِحِلْمِنَا أَحِبَاءَنَا: كم تجهلون وتُخْلِمُوا! قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْفُورًا رِيحًا وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

يخوفهم مرةً بأفعاله فيقول: ﴿وَأَنْفُورًا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨]، ومرةً بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] ومرةً بذاته فيقول: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾. يتفرد بعلم القيامة، ويعلم ما في الأرحام ذكورها وإناتها، شقيها وسعيدها، حسننها وقبيحها ويعلم متى يُنزل الغيث، وكم قطرة يُنزل، وبأي بقعة يُمطرها. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ما تدري نفس ماذا تكسب غداً من خير وشر، ووافق وشقاق، وما تدري نفس بأي أرض تموت؟ أتدرك مرادها أم يفوت؟

سورة السجدة

قوله جل ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرُّكُوعَ الرَّجِيحِ﴾ .

كلمة سماعها ربيع الجميع، من العاصي والمطيع، والشريف والوضيع. مَنْ أَصغى إليها بسمع الخضوع ترك طيب الهجوع، وَمَنْ أَصغى إليها بسمع المحاب ترك لذيذ الطعام والشراب.

قوله جل ذكره: ﴿الَّتِي نَزَّلْنَا الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتي فلا يصبرون عني، وَأَلِفَ العارفون تمجيدي فلا يستأنسون بغيري.

والإشارة في اللام إلى لقائي المُذخِر لأحبائي، فلا أبالي أقاموا على ولائي أم قَصروا في وفائي.

والإشارة في الميم: أي تَرَكَ أوليائي مرادهم لمرادي. . . فلذلك آثرتهم على جميع عبادي.

﴿نَزَّلْنَا الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]: إذا تَعَدَّرَ لقاء الأحبابِ فأعزَّ شيءٍ على الأحبابِ كتابٌ؛ أنزلتُ على أحبائي كتابي، وحمَلتُ إليهم الرسالةَ خطابي، ولا عليهم إن قرعَ أسماعهم عتابي، فهُم في أمانٍ من عذابي.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَأْتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ .

الذي لكم منا حقيقة، وإن التبس على الأعداء فليس يضيركم، ولا عليكم، فإنَّ صحبةَ الحبيب مع الحبيب ألذُّها ما كان مقرونًا بفقد الرقيب.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ .

وتلك الأيام خلَقها مِنْ خَلْقٍ غير الأيام، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه في وقتٍ؛ إذ الوقت مخلوق في غير الوقت وكما يستغنى في كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقت عن الوقت.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر، ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ولكن القديم ليس له حد، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البعد، استوى على العرش ولكنه أشد الأشياء تَعَطُّشًا إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة؟، ولكن العرش جماد. . وأنى يكون للجماد مراد؟! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا نِد، أَحَدٌ بلا حَد.

﴿مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا مُفِيعٍ﴾: إذا لم يُرذ بكم خيراً فلا سماء عنه تُظَلِّكم، ولا أرض بغير رضاه تُقَلِّكم، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم، ولا أحد - إذا لم يُغن بشأنكم في الدنيا والآخرة - ينظر إليكم. قوله جل ذكره: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِن السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

خاطَبَ الخَلْقَ - على مقدار أفهامهم ويجوز لهم - عن الحقائق التي اعتادوا في تخاطبهم.

﴿ذَٰلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْمَرْيُومِ الرَّحِيمِ﴾.

﴿الْمَرْيُومِ﴾ مع المطيعين ﴿الرَّحِيمِ﴾ على العاصين.

﴿الْمَرْيُومِ﴾ للمطيعين ليُخَيَّرَ صولتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ للعاصين ليرفع زلتهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾:

أَحْسَنَ صورة كل أحد؛ فالعرش ياقوتة حمراء، والملائكة أولو أجنحة منى وثلاث ورَبَاع، وجبريل طاووس الملائكة، والحدور العين - كما في الخير - «في جمالها وأشكالها، والجنان» - كما في الأخبار ونص القرآن. فإذا انتهى إلى الإنسان قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨] . . . كل هذا ولكن:

وكم أبصرت من حُسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري

خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن طِينٍ وَلَكِن ﴿يُخَيِّرُهُمْ وَيُخَوِّئُهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وخلق الإنسان من طين ولكن ﴿فَأَذْكُرُوا أَنذَرَكُمْ﴾ [البينة: ٨]، وخلق الإنسان من طين ولكن ﴿رَوَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١) [المائدة: ١١٩]!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ لَأَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

لو كانت لهم ذرّة من العرفان، وشمّة من الاشتياق، ونسمة من المحبة لما تعصّبوا كل هذا التعصب في إنكار جواز الرجوع إلى الله ولكن قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ بَنَوْنَكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

لولا غفلة قلوبهم وإلا لما أحال قبض ارواحهم على ملك الموت؛ فإن ملك الموت لا أتر منه في أحد، ولا له تصرفات في نفسه، وما يحصل من التوفي فمن خصائص قدرة الحق. ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الرب فخاطبهم على مقدار فهمهم، وعلّق بالأغيار قلوبهم، وكلّ يخاطب بما يختمل على قدر قوته وضعفه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ فَكُسُوا بُرُوسِهِمْ وَعِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

ملكنتهم الدهشة وغلبتهم الخجلة، فاعتذروا حين لا عذر، واعترفوا ولا حين اعتراف.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

لو شئنا لسهلنا سبيل الاستدلال، وأدمننا التوفيق لكل أحد، ولكن تعلقت المشيئة بإغواء قوم، كما تعلقت بإدناء قوم، وأردنا أن يكون للنار قطان، كما أردنا أن يكون للجنة سكان، ولأننا علمنا يوم خلقنا الجنة أنه يسكنها قوم، ويوم خلقنا النار أنه ينزلها قوم، فمن المحال أن نريد ألا يقع معلومتنا، ولو لم يحصل لم يكن علماً، ولو لم يكن ذلك علماً لم نكن إلهاً. ومن المحال أن نريد ألا نكون إلهاً.

ويقال: من لم يتسلط عليه من يحبه لم يجر في ملكه ما يكرهه.

ويقال: يا مسكين أفنيت عمرك في الكد والعناء، وأمضيت أيامك في الجهد والرجاء، غيرت صفتك، وأكثرت مجاهدتك. فما تفعل في قضائي كيف تبدله؟ وما تصنع في مشيتي بأي وسع تزدها؟ وفي معناه أنشدوا:

شكا إليك ما وجد من خائفة فيك الجالد
حيران لو شئت اهتدى ظمآن لو شئت ورذ

قوله جل ذكره: ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَبِئْتُمْ لِقَاءَ بَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قاس من الهوان ما استوجبتَه بعضيانك، واخُلدُ في دار الخزي لما أسلفته من كفرانك.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

التصديق والتكذيب ضدان - والضدان لا يجتمعان؛ التكذيب هو جحود واستكبار، والتصديق هو سجود وتحقيق، فَمَنْ اتَّصَفَ بِأَحَدٍ، الْقَسِمِينَ امْحَى عَنْهُ الثَّانِي.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾: سجدوا بظواهرهم في المحراب، وفي سرائرهم على تراب الخضوع وبساط الخشوع بنعت الذبول وحكم الخمود.

ويقال: كيف يستكبر مَنْ لا يجدُ كمالَ راحته ولا حقيقةً أنسه إلا في تدليله بين يدي معبوده، ولا يؤزُرُ آجلَ جحيمه على نعيمه، ولا شقاءه على شفائه؟!.

قوله جل ذكره: ﴿نَجَّاتٍ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

في الظاهر: عن الفرائض قياماً بحق العبادة والجهد والتهجد. وفي الباطن: تتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قدر النفس، وتوهم المقام - فإن ذلك بجملته حجاب عن الحقيقة، وهو للعبد سُمُّ قاتل - فلا يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم. ويفارقون مآلئهم، ويهجرون في الله معارفهم.

والليل زمان الأحباب، قال تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]: يعني عن كل شغل وحديث سوء حديث محبوبكم. والنهار زمان أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١]، أولئك قال لهم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

إذا ناجيتونا في ركعتين في الجمعة فعودوا إلى متجركم، واشتغلوا بحرفتك. وأما الأحباب فالليل لهم إما في طرب التلاقي وإما في حرب الفراق، فإن كانوا في أس القربة فليلهم أقصر من لحظة، كما قالوا:

زارني مَنْ هَوَيْتُ بعد بعدٍ بوصال مُجَدِّدٍ وودادٍ
ليلة كاد يلتقي طرفاها قصراً وهي ليلة الميعادِ
وكما قالوا:

وليلة زِنُ لِيَالِي الدهر قابلتُ فيها بدرها ببدر

لم تَسْتَبِينَ عَنْ شِقْقِي وَفَجِرٍ حَتَّى تَوَلَّيْتِ وَهِيَ بِكُرِّ الدَّهْرِ
 وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ مِقَاسَةِ فُرْقَةٍ وَإِنْفِرَادِ بَكْرِيَّةٍ فَلْيُلْهِمْ طَوِيلَ، كَمَا قَالُوا:
 كَمْ لَيْلَةٌ فِيكَ لَا صَبَاحَ لَهَا أَفْنَيْتُهَا قَابِضاً عَلَى كَيْدِي
 قَدْ غَضَّتِ الْعَيْنُ بِالدَّمْعِ وَقَدْ وَضَعْتُ خَدِي عَلَى بَنَانِ يَدِي
 قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]: قومٌ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ وَطَمَعًا
 فِي الشَّوَابِ، وَآخَرُونَ خَوْفًا مِنَ الْفِرَاقِ وَطَمَعًا فِي التَّلَاقِي، وَآخَرُونَ خَوْفًا مِنَ الْمَكْرِ
 وَطَمَعًا فِي الْوَصْلِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: يَأْتُونَ بِالشَّاهِدِ الَّذِي خَصَصْنَا لَهُمْ بِهِ؛ فَإِنْ طَهَّرْنَا
 أَحْوَالَهُمْ عَنِ الْكُدُورَاتِ حَضَرُوا بِأَحْوَالٍ مُقَدَّسَةٍ، وَإِنْ دَنَسُوا أَوْقَاتَهُمْ بِالْآفَاتِ شَهِدُوا
 بِحَالَاتٍ مُدْنَسَةٍ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾؛ فَالْعَبْدُ إِنَّمَا يَتَجَرَّ فِي الْبُضَاعَةِ الَّتِي يُوَدِّعُهَا
 لَدَيْهِ سَيِّئُهُ:

يَفْدِيكَ بِالرُّوحِ صَبٌّ لَوْ يَكُونُ لَهُ أَعَزُّ مِنْ رُوحِهِ شَيْءٌ فَدَاكَ بِهِ
 قوله جلَّ ذكره: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
 إِنَّمَا تَقَرُّ عَيْنُكَ بِرُؤْيَا مَنْ تَحِبُّهُ، أَوْ مَا تَحِبُّهُ؛ فَطَالِبُ قَلْبِكَ وَرَاعِ حَالِكَ، فَيَحْصُلُ
 الْيَوْمَ سُرُورُكَ، وَكَذَلِكَ غَدًا.. وَعَلَى ذَلِكَ تَحَشَّرْ؛ فَفِي الْخَبِيرِ:
 «مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا».

ثُمَّ إِنَّ وَصْفَ مَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ - مُحَالٌ، اللَّهُمَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا
 حَالٌ عَزِيزَةٌ، وَصِفَةٌ جَلِيلَةٌ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾.

أَفَمَنْ كَانَ فِي حَالِ الْوَصَالِ يَجْزَى أَذْيَالَهُ كَنْتَ هُوَ فِي مَذَلَّةِ الْفِرَاقِ يَقَاسِي وَبِأَلِهِ؟
 أَفَمَنْ كَانَ فِي رُوحِ الْقَرْبَةِ وَنَسِيمِ الزَّلْفَةِ كَمَنْ هُوَ فِي هَوْلِ الْعَقُوبَةِ يَعَانِي مَشَقَّةَ
 الْكَلْفَةِ؟

أَفَمَنْ هُوَ فِي رُوحِ إِقْبَالِنَا عَلَيْهِ كَمَنْ هُوَ مُحَنَةٌ إِعْرَاضِنَا عَنْهُ؟

أَفَمَنْ بَقِيَ مَعَنَا كَمَنْ بَقِيَ عَنَّا؟

أَفَمَنْ هُوَ فِي نَهَارِ الْعُرْفَانِ وَضِيَاءِ الْإِحْسَانِ كَمَنْ هُوَ فِي لِيَالِي الْكُفْرَانِ وَوَحْشَةِ
 الْعَصِيَانِ؟

أَفَمَنْ أَيْدَى بَنُورِ الْبِرْهَانِ وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمُوسُ الْعُرْفَانِ كَمَنْ رِبَطَ بِالْخَذْلَانِ وَوَسَمَ
 بِالْحَرَمَانِ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ وَلَا يَلْتَقِيَانِ!

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .
 ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ : صَدَقُوا، و﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ : بما حَقَّقُوا - فلهم حُسْنُ الحال،
 وحميدُ المَالِ وجزيلُ المنال، وأما الذين كَدُوا وجحَدُوا، وفي معاملاتهم أَسَاءُوا
 وأفسدُوا، فقصاراهم الخزيُّ والهوان، وفنونٌ من المحنِ وألوانٍ . . كلما راموا من
 محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً، ولكما أَمَلُوا نَجاةً جُرَعُوا وزيدوا ياساً^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .
 قومٌ عذابهم الأدنى مِحْنٌ الدنيا، والعذابُ الأكبرُ لهم عقوبة العنبي^(٢) .
 وقومُ العذابِ الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم في عبادتهم، والعذابُ الأكبرُ لهم قسوةٌ
 في قلوبهم تصيبهم .

وقومُ العذابِ الأدنى لهم وقفة في سلوكهم تُنبيهم، والعذابُ الأكبرُ لهم حجةٌ
 عن مشاهدتهم تآلهم، قال قائلهم:

أذبتني بانصرافِ قلبك عني فانظر إلي فقد أحسنت تأديبي

ويقال العذاب الأدنى الخذلان في الزلّة، والأكبر الهجران في الوصلة .

ويقال العذاب الأدنى تكذُّرُ مشاربهم بعد صفوها، كما قالوا:

لقد كان ما بيني زماناً وبينه كما بين ريح المسك والعنبر الورد

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ الغياب من غير تبينٍ آخِرٍ لها، كما قيل:

تطاول نأينا يا نور حتى كأن نسجت عليه العنكبوت

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ .

إذا نُبِّهَ العبدُ بأنواع الرُّجْر، وحُرِّك - لتركيه حدودَ الرقاق - بصنوف من التآديب
 ثم لم يرتدع عن فعله، واعتَرَّ بطول سلامته، وأمينٌ من هواجم مكره، وخفايا سيئه . .
 أَخَذَهُ بغتةً بحيث لا يجد خرجةً مِنْ أخذته، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لِكُرْمِنَا لَا
 نُنْصِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥] .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرْبِئٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى
 لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ .

(١) الآية (٢٠) لم ترد .

(٢) العنبة: بشرة تخرج بالإنسان تعدي، تسمند، فترم، وتمتلىء ماء، وتوجع، تأخذ الإنسان في عينه وحلقه . (اللسان ١/ ٦٣٠ مادة: عنب) .

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا .

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ :

وهذا محمد ﷺ جُعلَ رحمةً للعالمين .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ .

لَمَّا صَبَرُوا على طلبنا سَعِدُوا بوجودنا، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى مُتبعيهم، وانبسط شعاعُ شمسهم على جميع أهلِهِم؛ فهم للخَلْقِ هُدَاةٌ، وفي الدين عيون، وللمسترشدين نجوم .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

يحكم بينهم، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول، والمهجور من الموصول، والرضي من الغوي، والعدو من الولي . . فكم من بهجةٍ دامت هنالك! وكم من مهجةٍ ذابت عند ذلك! .

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

﴿أُولَئِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ .

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوام كانوا في خبيرةٍ فصاروا عِبْرَةً، كانوا في سرورٍ فألوا إلى ثبور؛ فجميع ديارهم ومزارهم صارت لأغيارهم، وصنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وكما قيل:

نعمةٌ كانت على قوم زماناً ثم بانَتْ
هكذا النعمةُ والإحسانُ مذ كان وكانت

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ

مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (١) .

الإشارة فيه: تُسقى حدائقُ وُضُلِهِم بعد جفاف عُوْدِهَا، وزوال المأنوسِ من معهودِهَا، فيعود عودُهَا مورقاً بعد ذبوله، حاكياً بحاله حال حصوله .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا

يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ .

استبعدوا يومَ التلاقي وجحدوه، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة. والمنحنة إذا

شهدوه .

(١) الأرض الجرز: قيل: إنها أرض اليمن وقيل: أرض جزر لا نبات بها كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر. (اللسان ٣١٧/٥ مادة: جرز).

قوله جل ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾.

أعرض عنهم باشتغالك بنا، وإقبالك علينا، وانقطاعك إلينا.

﴿وَأَنْظِرْ﴾ زوائد وضيئنا، وعوائد لطفنا.

﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ هواجم مقتنا وخفايا مكرنا. . وعن قريب يجد كل منتظره

محتضراً.

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله شهود وجوده يوجب لك تلفاً في تَلْفٍ، ووجود جوده يوجب لك شرفاً في شرف، ففي تَلْفِكَ يكون (هو) عَنكَ الخلف، وفي شرفك تصل إلى كل لُطْفٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ اتِّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يا أيها المُشْرَفُ حالاً، المُفْخَمُ قَدْرًا مِثًا، المُعْلَى رُتْبَةً من قَبِيلِنَا. . يا أيها المُرَقَّى إلى أعلى الرُّتْبِ بِأَسْنَى القُرْبِ. . يا أيها المُخْبِرُ عَنَا، المأمونُ على أسرارنا، المُبْلَغُ خطابنا إلى أحببنا. . اتقِ الله أن تلاحظَ غيراً معنا، أو تساكِنَ شيئاً من دوننا، أو تُثَبِّتَ أحداً سوانا، أو تَتَوَهَّمْ شظيةً مِنَ الحداثان من سوانا. ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] إشفافاً منك عليهم، وطمعاً في إيمانهم بنا لو وافقتهم في شيء أرادوه منك.

والتقوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنعمهم في أنفاسهم، وسكناتهم، وحرركاتهم أن ينظروا إلى غيره - أو يُثَبِّتوا معه غيره - إلا منصوباً لقدرته، مصرفاً بمشيئته، نافذاً فيه حُكْمُ قضيته.

التقوى لجامٍ يكبحك عما لا يجوز، زمامٌ يقودك إلى ما تحب، سوطٌ يسوقك إلى ما أمرت به، شاخصٌ يحملك على القيام بحق الله، جِرَزٌ يعصمك من توصل أعدائك إليك، عُوْدَةٌ تشفيك من داء الخطأ.

التقوى وسيلةٌ إلى ساحات كرمه، ذريعةٌ تتوسل بها إلى عقوبة جوده.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

اتبِعْ ولا تبندع، واقْتِدِ بما نأمرك به، ولا تهتدِ باختيارك غير ما نختار لك، ولا تُعْرِجْ أوطان الكسل، ولا تجنح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بك.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

انسَلِخْ عن إيابك، واصدق في إيابك إلينا، وتشاغل عن حسابك معنا، واحذر ذهابك عنا، ولا تُقْصِرْ في خطابك معنا.

ويقال التوكل تحقُّقٌ ثم تَخَلُّقٌ ثم توثق ثم تملق؛ تحقُّقٌ في العقيدة، وتخلُّقٌ

بإقامة الشريعة، وتوثق بالمقسوم من القضية، وتملأ بين يديه بحسن العبودية.
ويقال التوكل تحقق وتعلق وتخلق؛ تحقق بالله وتعلق بالله ثم تخلق بأوامر الله.

ويقال التوكل استواء القلب في العدم والوجود.

قوله جل ذكره: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

القلب إذا اشتغل بشيء شُغِلَ عما سواه، فالمشتغل بما مِّن العدم منفصل عن له القِدَم، والمتصل بقلبه بمن نعته القِدَم مشتغل عما مِّن العدم. . . والليل والنهار لا يجتمعان، والغيب والغير لا يلتقيان.

﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تُمْسِكُونَ بِهَا لِبَاسَكُمْ وَمَا جَعَلَ أَبْيَاحَكُمْ أَبْيَاحَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

اللائي تظاهرتن منهن لسنن أمهاتكن، والذين تبينتم ليسوا بأبنائكن، وإن الذي صرتم إليه من افترائكن، وما نسبتم إلينا من آرائكن فذلك مردودٌ عليكم، غير مقبولٍ منكن، وإن أمسكتن عنه بعد البيان نجوتن، وإن تماريتن بعد ما أُعْلِمْتُن. أطلت المحنة عليكم.

قوله جل ذكره: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

راعوا أنسابهم، فإن أردتم غير النسبة فالأخوة في الدين تجمعكن، وقرابة الدين والشكلية أولى من قرابة النسب، كما قالوا:

وقالوا قريب من أب وعمومة فقلت: وإخوان الصفاء الأقارب

نناسبهم شكلاً وعِلماً وألفةً وإن باعدتهم في الأصول المناسب

قوله جل ذكره: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِن نَفْسِهِمْ وَأَرْوَاجُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾.

الإشارة من هذا: تقديم سنته على هواك، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به منك، وإيثار من تتوسل به سبباً ونسباً على أعزتك ومن والاك.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾:

ليكن الأجانب منك على جانب، ولتكن صلتك بالأقارب. وصلة الرحم ليست بمقاربة الديار وتعاقب المزار، ولكن بموافقة القلوب، والمساعدة في حالتي المكروه والمحبوب:

أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وغدت أشباحنا بشامٍ أو خراسان
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

أخذ ميثاق النبيين وقت استخراج الذرية من صلب آدم - فهو الميثاق الأول، وكذلك ميثاق الكل. ثم عند بعث كل رسول وثبوت كل نبي أخذ ميثاقه، وذلك على لسان جبريل عليه السلام، وقد استخلص الله سبحانه نبينا عليه السلام، فأسمعه كلامه - بلا واسطة - ليلة المعراج. وكذلك موسى عليه السلام - أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا - ﷺ - زيادة حال؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشف الرؤية.

ثم أخذ الموثاق من العباد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه، فلكل من الأنبياء والأولياء والأكابر على ما يؤهلهم له، قال ﷺ «لقد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي قَعْمَرٌ»^(١) وغير عمر مشارك لعمر في خواص كثيرة، وذلك شيء يتم بينهم وبين ربهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَتِ الْصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يسألهم سؤال تشريف لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب. والصدق ألا يكون في أحوالك شوب ولا في اعتقادك زنب، ولا في أعمالك عيب. ويقال من أمارات الصدق في المعاملة وجود الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق. والصدق في الأحوال تصفيتها من غير مداخلة إعجاب.

والصدق في الأقوال سلامتها من المعارض فيما بينك وبين نفسك، وفيما بينك وبين الناس التباعد عن التلبس، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبري من الحول والقوة، ومواصلة الاستعانة، وحفظ العهود معه على الدوام.

والصدق في التوكل عدم الانزعاج عند الفقد، وزوال الاستبشار بالوجود^(٢).

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣) والترمذي (مناقب ١٧)، وأحمد بن حنبل ٦، ٥٥.

(٢) ربما كان (الموجود) وبذلك يكون القشيري قد استفاد من قول أبو عبد الله بن خفيف بهذا المعنى: القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستفناء عن الموجود. (الرسالة القشيرية ص ١٦٠) والشاكر الذي يشكر على المفقود. (الرسالة القشيرية ص ١٧٥). وقد وردت في قول أحمد النوري (الوجود) حيث قال: نعت الصوفي السكون عند العدم والإيثار عند الوجود. (الرسالة القشيرية ص ٢٨١).

فهنا الوجود ضد العدم، أي وجود الأشياء وفقدانها. لكن يستحسن أن يقتصر اصطلاح الوجود على أنه هو بعد الارتقاء عن الوجد، ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة. (الرسالة القشيرية ص ٦٢).

والصدق في الأمر بالمعروف التحرُّز من قليل المداهنة^(١) وكثيرها، وألا تترك ذلك لِفَرَعٍ أو لِبَطْمَعٍ، وأن تَشْرَبَ مما تَسْفِي، وتتصف بما تأمر، وتنهى (نَفْسِكَ)^(٢) عما تَزْجُرُ.

ويقال الصدق أن يهتدي إليك كلُّ أحد، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد. ويقال الصدق ألا تجنح إلى التأويلات.

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُودًا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ذكر نعمة الله مقابلتها بالشكر، ولو تذكرت ما دَفَعَ عنك فيما سَلَفَ لهانت عليك مقاساة البلاء في الحال، ولو تذكرت ما أولاك في الماضي لَقَرُبْتَ من قلبك الثقة في إيصال ما تَوَمَّلَهُ في المستقبل.

ومن جملة ما ذكَّره به: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُودًا﴾ كم بلاء صَرَفَهُ عن العبد وهو لم يشعر! وكم شُغْل كان يقصده فصَّده ولم يعلم! وكم أمرٍ عَوَّقَهُ والعبدُ يَضْحُ وهو - (سبحانه) - يعلم أن في تيسيره له هلاك العبد فَمَنَعَهُ منه رحمةً به، والعبدُ يَتَّهَمُ ويضيق صَدْرُهُ بذلك!

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونًا﴾.

أحاط بهم سُرَادِقُ البلاء، وأحدق بهم عَسْكَرُ العدو، واستسلموا للاجتياح، وبلغت القلوب الحناجر، وتَقَسَّمَتِ الظنون، وداخَلَتْهُم كوامِنُ الارتياح، وبدا في سويدانهم جَوْلَانُ الشكِّ.

﴿هُنَالِكَ آتَتْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأُزْلِفُوا لِرِزْقٍ لَازِلٍ﴾.

ثم أزال عنهم جملتها، وقَشَعَ عنهم شدتها، فانجاب عنهم سحبها، وتفرقت عن قلوبهم همومها، وتَفَجَّرَتْ ينابيع سكينتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

صَرَّحُوا بالتكذيب - لما انطوت عليه قلوبهم - حين وجدوا للمقال مجالاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَرَسْتُمْ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(١) المداهنة: المصانعة.

تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما سئلت لهم شياطينهم من وشك ظفر الأعداء .
 قوله: ﴿وَسْتَئْتِدُنَ فَرِيقٌ﴾ يتعللون بانكشاف بيوتهم وضياع مخلفاتهم، ويكذبون فيما
 أظهروه عُذراً، وهم لم يَحْمِلْهُمْ على فعلهم غير جُنَيْهِمْ وقلَّةٌ يَقيِنُهُمْ^(١) .
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآدْبُرَ وَكَانَ عَاهِدُ اللَّهِ
 مَسْئُولًا﴾ .

ولكن لما عزم الأمر، وظهر الجذ لم يساعدهم الصدق، ولم يذكروا أنهم
 سيُسالون عن عهدهم، ويُعاقبون على ما أسلفوه من ذنبهم .
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

لأن الآجال لا تأخير لها ولا تقديم عليها، وكما قالوا: «إِنَّ الْهَارِبَ عَمَّا هُوَ
 كَائِنٌ فِي كَفِّ الطَّالِبِ يَتَقَلَّبُ» .
 ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ : فَإِنَّ مَا يَذْخُرُهُ الْعَبْدُ عَنِ اللَّهِ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ نَفْسٍ
 أَوْ قَرِيبٍ لَا يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَجِدُ بِهِ مَنَعَةً، وَلَا يُرْزَقُ مِنْهُ غِبْطَةً .
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً
 وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِليًا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

من الذي يحقق لكم من دونه مَرَجُوا؟ ومن الذي يصرف عنكم دونه عَدُوا؟
 قوله جل ذكره: ﴿﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ
 الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصره النبي عليه السلام، ويمنعون غيرهم
 ليكون جمعهم أكثر وكيدهم أخفى، وهم لا يعلمون أن الله يُطْلِعُ رسوله عليه السلام
 عليهم ثم دَكَرَ وَضَفَّهِمْ فقال:
 ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ .

إذا جاء الخوف طاشت من الرعب عقولهم، وطاحت بصائرهم، وتعطلت عن
 النصره جميع أعضائهم . وإذا ذهب الخوف زَيَّنُوا كلامهم، وقدموا خداعهم، واحتالوا
 في أحقاد خستهم . . أولئك هذه صفاتهم؛ لم يباشر الإيمان قلوبهم، ولا صدقوا فيما
 أظهروا من ادعائهم واستسلامهم .

(١) الآية (١٤) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ مِنْكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

يحبسون الأحزاب لم يذهبوا، ويخافون من عودهم، ويفزعون من ظل أنفسهم إذا وقعوا على آثارهم، ولو اتفق هجوم الأعداء عليكم ما كانوا إلا في حرز سيوفهم ودرية^(١) رماحهم .

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ .

«كان» صلة ومعناها: لكم في رسول الله أسوة حسنة، به قدوتكم، ويجب عليكم متابعتها فيما يرسمه لكم . وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله على الوجوب إلى أن يقوم دليل التخصيص، فأما أحواله فلا سبيل لأحد إلى الإشراف عليها، فإن ظهر شيء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مكتسباً من قبله فيلحق في الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله، وإن كان غير مكتسب له فهي خصوصية له لا ينبغي لأحد أن يتعرض لمقابلته لاختصاصه - ﷺ - بعلو رتبته .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ .

كما أن المنافقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهل اليقين ازدادوا ثقةً، وعلى الأعداء جراءة، ولحكم الله استسلاماً، ومن الله قوة .

قوله جل ذكره: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ .

شَكَرَ صَنِيعَهُمْ فِي الْمِرَاسِ^(٢)، ومدح يقينهم عند شهود الباس، وسماهم رجالاً إثباتاً لخصوصية رتبته وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلو الحالة والمنزلة، فمنهم من خرج من دنياه على صدقه ومنهم من ينتظر حكم الله في الحياة والممات، ولم يزيغوا عن عهدهم، ولم يراوغوا في مراعاة حدّهم؛ فحقيقة الصدق حفظ العهد وتزك مجاوزة الحد .

ويقال: الصدق استواء الجهر والسر .

(١) الدرية: دابة يستتر بها الصائد الذي يرمي الصيد ليبيده، فإذا أمكنه رمى . (لسان العرب ١٤/٢٥٥ مادة: دري).

(٢) المراس: القوة على ممارسة الأمور .

ويقال: هو الثبات عندما يكون الأمرُ جدًّا.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَافُوًّا رَحِيمًا﴾.

في الدنيا يجزي الصادقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية، وفي الآخرة بجميل الثواب وجزيل المآب والخلود في النعيم المقيم والتقديم على الأمثال بالتكريم والتعظيم.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ على الوجه الذي سبق به العلم، وتعلقت به المشيئة.

ويقال: إذا لم يجزم بعقوبة المنافق وعلّق القول فيه بالرجاء فبالحري ألا يُخَيَّبَ المؤمن في رجائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾.

لم يُشمت بالمسلمين عدوًّا، ولم يُوصل إليهم من كيدهم سوءًا، ووضع كيدهم في نحورهم، واجتثهم من أصولهم، وبيّن بذلك جواهر صدقهم وغير صدقهم، وشكر من استوجب شكره من جملتهم، وفضح من استحقّ الذم من المدلسين منهم. ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسُرُونَّ فَرِيقًا﴾.

إن الحقّ - سبحانه - إذا أجمل أكمل، وإذا شفى كفى، وإذا وفى أوفى. فأظفر المسلمين عليهم، وأورثهم معاقلتهم، وأذلّ متعزّزهم، وكفاهم بكلّ وجه أمرهم، ومكّنهم من قتلهم وأسره ونهب أموالهم، وسبى ذراريهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ وَأَسْرَحْتُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لم يرِدْ أن يكون قلب أحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شغل، أو يعود إلى أحد منه أذى أو تعب، فخيرٌ - ﷺ - نساءه، ووفق الله سبحانه عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حتى أخبرت عن صدق قلبها، وكمال دينها وبقينها، وبما هو المنتظر

(١) الذراري: (ج) الذرية: النسل.

الآية (٢٧) لم ترد.

من أصلها وتربيتها، والباقي جرير على منهاجها، وَتَسْعَجْنَ عَلَىٰ مَنَآئِلِهَا .
قوله جل ذكره: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ يَفْحَشْنَ مُبِينًا يُضَعَفَنَّ لَهَا الْعَذَابُ
ضَعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ .

زيادة العقوبة على الجزم من أمارات الفضيلة، ولذا فضل حد الأحرار على
العبيد وتقليل ذلك من أمارات النقص؛ فلما كانت منزلتهن في الشرف تزيد على منزلة
جميع النساء ضاعف عقوبتهن على أجرامهن، وضاعف ثوابهن على طاعتهن. وقال:
﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَاَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا
كَرِيمًا﴾ .

ثم قال:

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ
مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ .

نهاهن عن التبذل، وأمرهن بمراعاة حُرمة الرسول ﷺ، والتصاون عن تطمع
المنافقين في مُلايبتهن.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ
وَأَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيرًا﴾ .

«الرجس»: الأفعال الخبيثة والأخلاق الدنيئة؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ما ظهر
منها وما بطن، وما قل وما جل. والأخلاق الدنيئة الأهواء والبِدَع كالبخل والشح
وقطع الرِّجْم، ويريد بهم الأخلاق الكريمة كالجود والإيثار والسخاء وصِلَة الرِّجْم،
ويديم لهم التوفيق والعصمة والتسديد، ويُطهرهم من الذنوب والعيوب.

قوله جل ذكره: ﴿وَأذْكُرَنَّ مَا بُدِّلَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ .

أذْكُرَنَّ عظيم النعمة وجليل الحالة التي تجري في بيوتكن؛ من نزول الوحي
ومجيء الملائكة، وحُرمة الرسول - ﷺ - والنور الذي يقتبس في الآفاق، ونور
الشمس الذي يَنبسط على العالم، فاعرفن هذه النعمة، وارعين هذه الحُرمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ .

الإسلام هو الاستسلام، والإخلاص، والمبالغة في المجاهدة والمكابدة.
﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ .

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات، ويقال هو التصديق والتحقيق، ويقال هو انتسأء الحقيقة في القلب. ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل، ولقوم بالعلم، ولآخرين، بالفهم عن الله، ولآخرين بالتوحيد، ولآخرين بالمعرفة، ولآخرين إيمانهم حياة قلوبهم بالله.

﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينَتِ﴾ .

القنوت طول العبادة.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ .

في عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ .

على الخصال الحميدة، وعن الصفات الذميمة، وعند جريان مفاجآت القضية.

﴿وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ﴾ .

الخشوع إطراق السريرة عند بوايه الحقيقة.

﴿وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ .

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحد خصومة فيما نالوا منهم، أو قالوا فيهم^(١).

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ .

المسكين عمأ لا يجوز في الشريعة والطريقة.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ .

في الظاهر عن الحرام، وفي الإشارة عن جميع الآثام.

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ .

بالستهم وقلوبهم وفي عموم أحوالهم لا يفترون، ولا يتدأخلهم نسيان.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

فهؤلاء لهم جميل الحسنى، وجزيل العقبى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ .

الافتيات عليه في أمره والاعتراض عليه في حكمه وتزك الانقياد لإشارته. قرع

لباب الشرك، فممن لم يمسك عنه سريعاً وقع في هدمته.

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٦ - ٢٣١).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أنعم الله عليه بأن ذكره وأفرده من بين الصحابة باسمه.

ويقال: أنعم الله عليه بإقبالك عليه وتبنيك له. ويقال: بأن أعتقته، ويقال: بالإيمان والمعرفة. وأنعمت عليه بالعتق وبأن تبنيته. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إقامة للشريعة مع علمك بأن الأمر في العاقبة إلى ماذا يؤول؛ فإن الله أطلعك عليه، وقلت له: «اتق». قوله: ﴿وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: أي لم تظهر لهم أن الله عرفك ما يكون من الأمر في المستأنف.

﴿وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ﴾ من ميلك ومحبتك لها لا على وجه لا يحل. ﴿وَخُفِيَ النَّاسُ﴾ أي وتخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة من قصة زيد، وكانت تلك الخشية إشفاقاً منك عليهم، ورحمة بهم.

ويقال: وتستحي من الناس - والله أحق أن تستحي منه.

ويقال: تخشى الناس ألا يطبقوا سماع هذه الحالة ولا يقفوا على تحمليها، فربما يخطر ببالهم ما ينفي عنهم وسعهم.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ لكي لا يكون عليك حرج، ولكي لا يكون على المؤمنين حرج في الزواج بزوجات أدعيائهم، وإنما ذلك يُحرّم في الابن إذا كان من الصلب.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

لا يُعَارِضُ ولا يُنَاقِضُ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْحَد. وما كان على النبي من حرج بوجه لكونه معصوماً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنُوا بِاللَّهِ حَابِسِينَ﴾.

«ويخشونه»: علماً منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضرراً ولا محذوراً ولا مكروهاً إلا بتقديره؛ فيفردونه بالخشية إذ علموا أنه لا شيء لأحدٍ من دونه.

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

لم يكن مضافاً إلى ولدٍ فله عليكم شفقة الآباء . . . ولكن ليس بأبيكم .
ويقال نَسَبُهُ ظَاهِرٌ . . . ولكن إنما يُعْرَفُ بي لا بِنَسَبِهِ؛ فقلماً يقال: محمد بن عبد
الله، ولكن إلى أبد الأبد يقال: محمد رسول الله. وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيدِ - بعد
لا إله إلا الله - محمدٌ رسولُ الله .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ .
الإشارة فيه أحيوا الله؛ لأنَّ النبي - ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ»
فيجب أن تقول: الله، ثم لا تنسَ الله بعد ذكرك الله .

ويقال: اذكروا الله بقلوبكم؛ فإنَّ الذكْرَ الذي تمكن استدامته ذكرُ القلب؛ فأما
ذِكْرُ اللسانِ فإدامته مُسْرَمداً كالمتعذر .

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: التسيخُ من قبيل الذكر، ولكنه ذكْرَه بلفظين لثلاث تعتريك
سامة .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

الصلاةُ في الأصلِ الدعاءُ؛ فصلاته - سبحانه - دعاؤه لنا بالتقريب، وصلاةُ
الملائكة دعاؤهم إليه لنا: بالغفرانِ للعاصي، وبالإحسانِ للمطيع .

ويقال الصلاةُ من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة .

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أي يعصمكم من الضلال بزوح الوصال .

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير .

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر في قلوبكم .

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق، والتحقق بأوصاف
الجمع .

ويقال يصونكم من الشُّركِ، ويثبتكم بشواهد الإيمان .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿تَجِيئَتُهُمْ يَوْمَ يَقْوَمُهُمْ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ .

التحيةُ إذا قُرِنَتْ بالرؤية، واللقاء إذا قُرِنَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية
البَصَرِ .

والسلام خطاب يفتح به الملوك إخباراً عن علو شأنهم ورتبتهم، فإلقاؤه حاصل
وخطابه مسموعٌ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر .

﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾: الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة، وكريماً أي حسناً .

وفي الإشارة أجرهم موفور على عمل يسير؛ فإن الكريم لا يستقصي عند البيع والشراء في الأعداد، وذلك تعريف بالإحسان السابق في وقت غيبتك.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

يأيتها المُشْرِفُ مِنْ قِبَلِنَا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا بُوْحْدَانِيَتِنَا، وَشَاهِدًا تُبَشِّرُ بِمَتَابِعَتِنَا، وَتَحذِّرُ مِنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِنَا، وَتُعَلِّمُ النَّاسَ مَوَاضِعَ الْخَوْفِ مِنَّا، وَدَاعِيًا إِلَيْنَا بِنَا، وَسِرَاجًا يَسْتَضِيئُونَ بِهِ، وَشَمْسًا يَنْبَسِطُ شِعَاعُهَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ صَدَّقَكَ، وَأَمَّنْ بِكَ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ وَخَدَمَكَ، وَصَدَّقَكَ وَقَدَّمَكَ.

﴿وَنَبِّئِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِفَضْلِنَا مَعَهُمْ، وَنَبْلِهِمْ طَوْلْنَا عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِنَا إِلَيْهِمْ. وَمَنْ لَمْ تَوْثِرْ فِيهِ بَرَكَهٌ إِيْمَانَهُ بِكَ فَلَا قَدْرَ لَهُ عِنْدَنَا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

لَا تَوَافِقْ مَنْ أَعْرَضْنَا عَنْهُ، وَأَضَلَلْنَا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَأَهْلِ الْبِدْعِ وَالشَّقَاقِ. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بِدَوَامِ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ، وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ نَرَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَنَعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

إِذَا أَثَرْتُمْ فِرَاقَهُنَّ فَمَنَعُوهُنَّ لِيَكُونَ لِهِنَّ عَنْكُمْ تَذْكَرَةٌ فِي أَيَّامِ الْفِرَاقَةِ فِي أَوَانِهَا إِلَى أَنْ تَتَوَطَّنَ نَفْسُهُنَّ عَلَى الْفِرَاقَةِ.

﴿وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: لَا تَذْكَرُوهُنَّ بَعْدَ الْفِرَاقِ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا تَسْتَرِدُوا مِنْهُنَّ شَيْئًا تَخْلَفْتُمْ بِهِ مَعَهُنَّ، فَلَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِنَّ الْفِرَاقَ بِالْحَالِ وَالْأَضْرَارَ مِنْ جِهَةِ الْمَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَمَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَوَاتِ عَمَلِكَ وَنَوَاتِ خَالِكَ وَنَوَاتِ خَلِيلِكَ النَّبِيِّ هَاجِرًا مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِنَّ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِيَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وَسَعْنَا الْأَمْرَ عَلَيْكَ فِي بَابِ النِّكَاحِ بِكُمْ شَيْئًا؛ فَإِنَّكَ مَأْمُونٌ مِنْ عَيْبِ عَدَمِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَهُنَّ وَعَدَمِ مِرَاعَاةِ حَقُوقِهِنَّ، وَمِنْ الْحَيْفِ عَلَيْهِنَّ. وَالتَّوْبِيعَةُ فِي بَابِ النِّكَاحِ تَدُلُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ كَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ.

قوله جل ذكره: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَأُ مِنْتَهُنَّ وَقَوِيَّ إِلَيْكَ مَن نَّشَأُ وَمَن آتَيْنَتْ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضَّيْتِ بِمَا آتَيْنَتْهُنَّ كُفُّهُنَّ وَاللَّهُ بِعَلْمٍ﴾.

﴿مَن نَّشَأُ﴾: على ما تتعلق به إرادتك، ويقع عليه اختيارك، فلا حرج عليك ولا جناح.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْبَغْيُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.

لَمَّا اخْتَرْتَهُنَّ أثبت الله لهن حُرْمَةً، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْبَغْيُ مِنْ بَعْدِ﴾ فكما اخترتك فلا تختز عليهن امرأة أخرى تطيباً لقلوبهن، ونوعاً للمعادلة بينه وبينهن، وهذا يدل على كَرَمِهِ - والحِفَاطُ كَرَمٌ وَدِينٌ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَّظِيرِ بْنِ إِدْنَةَ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ الآية.

أمرهم بحفظ الأدب في الاستئذان، ومراعاة الوقت، ووجوب الاحترام؛ فإذا أُذِنَ لَكُمْ فادخلوا على وجه الأدب، وحفظ أحكام تلك الحاضرة، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا، ولا تتغافلوا عنكم، ولا يَمْنَعَنَّكُمْ حُسْنُ خُلُقِهِ مِنْ حِفْظِ الْأَدَبِ، ولا يحملنكم فرط احتشامه على إبرامه.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾: حُسْنُ خُلُقِهِ - ﷺ - جَرَّهُمْ إِلَى الْمَبَاسِطَةِ مَعَهُ، حتى أنزل الله هذه الآية.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾: نَقَلَهُمْ عَنْ مَأْلُوفِ الْعَادَةِ إِلَى مَعْرُوفِ الشَّرِيعَةِ وَمَفْرُوضِ الْعِبَادَةِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْبَشَرَ بَشَرٌ - وَإِنْ كَانُوا مِنَ الصَّحَابَةِ، فقال:

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

فلا ينبغي لأحد أن يأمن نفسه - ولهذا يُشَدُّ الْأَمْرُ فِي الشَّرِيعَةِ بِأَلَا يَخْلُوَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ بَيْنَهُمَا مَخْرَمَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وهذا من خصائصه - ﷺ، وفي هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا، فيهتم بالاتصال مَنْ لَهُ مِثْلُ الْيَهُودِ بغيرهن بعد وفاته - وَإِنْ كَانَ التَّحَرُّزُ عَنْهُ - وَعَنْ أَمْثَالِ هَذَا مِنْ تَرْكِ الْحِظْوَةِ - أَنْتُمْ وَأَعْلَى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ .

حِفْظُ الْقَلْبِ مَعَ اللَّهِ، ومراعاة الأمر - بينه وبين الله - على الصَّحَةِ في دوام الأوقات لا يَقْوَى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور .

قوله جل ذكره: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي مَا بَاءَيهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخْوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ الآية .

لما نزلت آيةُ الحجابِ شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

أراد الله - سبحانه - أن تكون للأمة عنده - ﷺ - يدٌ خدمة كما له بالشفاعة عليهم يدٌ نعمة، فأمرهم بالصلاة عليه، ثم كافأ - سبحانه عنه؛ فقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيَّ عَشْرَ مَرَّاتٍ»^(١) وفي هذا إشارة إلى أن العبد لا يستغني عن الزيادة من الله في وقتٍ من الأوقات؛ إذ لا رتبة فوق رتبة الرسول، وقد احتاج إلى زيادة صلوات الأمة عليه .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نَعَمَّا لَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَاللَّهِ يَكْفُرُ بِالْمُشْرِكِينَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بعمل المعاصي التي يستحقون بها العقوبة، ويؤذون أولياءه . ولما قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فكذلك مَنْ أذى رسوله وأنبياؤه عليهم السلام والمؤمنين فقد آذاه، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات ربتهم .

ثم ذكر قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ وذكر عقوبتهم، فجعل إيذاء الرسول مقرونًا بما ذكر من إيذاء الله، ثم ذكر إيذاء المؤمنين، ويدل ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول ﷺ .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

هذا تنبيهٌ لهن على حِفْظِ الْحُرْمَةِ وإثبات الرتبة، وصيانة لهن، وأمر لهن

(١) أخرجه النسائي (أذان ٣٧)، (سهو ٥٥)، وأحمد بن حنبل ٢، ١٦٨، ٣٧٢، ٣٧٥، ٤٨٥ .

بالتصاون والتعطف. وقرن بذلك تهديده للمنافقين في تعاطيهم ما كان يشغل قلب الرسول ﷺ من الإرجاف^(١) في المدينة: -

قوله جل ذكره: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نَقُفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

إنهم إن لم يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سنتنا في التدمير على من سلف من الكفار.

ثم ذكر مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك، ثم استعجالهم قيامها من غير استعداد لها، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التي علم أنه يعذبهم بها، وما يقع عليهم من الندامة على ما فرطوا^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

نسبوه إلى الأذرة^(٣)، وأن به عيباً في الخلقة، ولكنه كان رجلاً حياً، وكان إذا اغتسل لا يتجرد (من ثوبه)^(٤)، فتوهموا به ذلك. وذات يوم خلا ليغسله، ووضع ثيابه على حجر فأمشى الله الحجر بثيابه، وموسى يعدو خلفه حتى توسط بني إسرائيل، وشاهدوا خلقتة سليمة، فوقف الحجر، وأخذ موسى ثيابه ولبسها، وهذا معنى قوله: ﴿فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ في القدر والمنزلة. والوجاهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس، فقبول الناس لا عبرة به ولا خطر له، لا سيما العوام فإنهم يقبلون بلا شيء، ويردون بلا شيء قال قائلهم:

إن كنت عندك يا مولاي مطرحاً فعند غيرك محمول على الحدق
وقالوا: فإن أك في شزاركم قليلاً فلإني في خياركم كثير

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

القول السديد كلمة الإخلاص، وهي الشهادتان عن ضمير صادق.

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب (ج) أراجيف.

(٢) الآيات من (٦٣ حتى ٦٨) لم ترد.

(٣) الأذرة: نفخة في الخصية. (اللسان ٤/١٥ مادة: أذر).

(٤) ما بين قوسين زيادة يقتضيهما السياق.

ويقال سدادُ أقوالِكُم سدادُ أعمالِكُم، ولقد هَوَّنَ عليكم الأمرَ فَمَن رَضِيَ بالقالة - وهي الشهادة بأن تَرَكَ الشُّرْكَ - وقالها بِصِدْقٍ أصلح اللهُ له أعماله الدنيوية من الخَلَلِ، وَعَفَّرَ له في الآخرة الزَّلْزَلِ؛ أي حصلت له سعادةُ الدارين.

ويقال ذَكَرَ ﴿أَعْمَلَكُمْ﴾ بالجمع، وقَدَّمها على العُفْران؛ لأنه ما لم يُضْلِحْ لك في حالِك أعمالَك وإن لم يَكْفِكَ ما أَهَمَّكَ من أشغالِك.. لم تنفرغُ إلى حديث آخِرَتِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

هنا إضمار أي: أهل السموات والأرض والجبال.

وقيل أحيائها وأعقلها، وهو كقولها: ﴿أَفَبِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

[فصلت: ١١].

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾: أي أبين أن تُحَنُّ فيها، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: أي خان فيها. وهم مراتب: فالكفار خانوا في الأصل الأمانة - وهي المعرفة - فكفروا. ومن ذُوهم خانوا بالمعاصي، وبعضهم أشدَّ وبعضهم أهون، وكل احتقب من الوزرِ مقداره.

ويقال «أبين» إباءً إشفاقٍ لا إباءً استكبارٍ، واستعفين... فعفا عنهم، وأعفاهن من حَمَلها.

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: قَبَلها ثم ما رعوها حقَّ رعايتها.. كلُّ بقدره.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمًا جَهُولًا﴾ بصعوبة حَمَلِ الأمانة في الحال، والعقوبة التي عليها في المآل. وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانة على السموات والأرض وعَرَضَها على الإنسان، فهن استعفين وهؤلاء لم يستعفوا ولم يراعوا.

ويقال: الأمانة القيام بالواجبات أصولها وفروعها.

ويقال: الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً.

ويقال: لَمَّا حَمَلَ آدمُ الأمانة وأولاده قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾

[الإسراء: ٧٠].. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

ويقال حمل الإنسان بالله لا بنفسه. ويقال ظَلَمَ نَفْسَه حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه السموات والأرضون. والظَلَمُ وَضَع الشيء في غير موضعه.

ويقال كاشَفَ السموات والأرض بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا، وكاشَفَ آدمَ وَذُرِّيَّتَه بوصف اللطف فقبلوا وحملوا، وفي حال بقاء العبد يا الله يحمل السموات والأرض بشعرة من جَفْنِهِ. ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجثث والمباني فأشفقوا من حَمَلِ الأمانة. والحِمْلُ إنما تحمله القلوب. وآدم كان صاحبَ معنى فَحَمَلَ، وأنشدوا:

حملت جبال الحكم فوقي وإنني لأعجزُ عن حمل القميص وأضعفُ

ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخَلْقِ عَلَّقَ آدمُ بها هِمَّتَهُ، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها، فلما أبوا وأشفقوا حَمَلَهَا الإنسانَ طوعاً لا كرهاً.
 قوله جلَّ ذكره: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

اللام في «ليعذب» للضرورة والعاقبة؛ أي صارت عاقبةً هذا الأمرِ عذابَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز. (تَمَّتِ السُّورَةُ) قد يقال: المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات والعاصون من المؤمنين والمؤمنات وَزَدَ ذكرهم. . فأين العابدون وذكرهم؟

ولكنهم في جملة مَنْ مَضَى ذِكْرُهُمْ، وليسوا في المشركين ولا في المنافقين، فلا محالة في جملة العاصين الذين تاب عليهم.
 فيأبها العاصي، كنت تعذر أن يُخْرِجَكَ العابدون من جملتهم، فاشهد الجِبَارَ - في هذا الخطاب - كيف أدرجك في جملتهم؟!

سورة سبأ

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله كلمة سَلَابَةٌ غَلَابَةٌ، نَهَابَةٌ، وَهَابَةٌ؛ تسلب القلوب.. ولكن لا كل قلب، وتغلب الألباب ولكن ليس كل لب، وتنهب الأرواح ولكن من الأحباب، وتَهَبُّ الارتفاع.. ولكن لقوم مخصوصين من الطلاب.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

افتتح السورة بذكر الشاء على نفسه، ومدَّحه لنفسه إخباراً عن جلاله، واستحقاقه لنعوت عزه وجماله، فهو في الأزل حامدٌ لنفسه محمودٌ، وواحدٌ موجود، في الأزال معبود، وبالطلبات مقصود.

﴿الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: المُلْكُ لا يكون بالشركة؛ فلا مَلِكٌ إلا الله. وإن أجرى هذا الاسم على مخلوق بالزنجي لا يتغير لونه وإن سُمِّيَ كافوراً!

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ من الذين أعتقهم، وفي النعمة أغرقهم.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتخليد قوم في الجنة، وتأبيد قوم في النار.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الحَبِّ تحت الأرض، والماء يرسب فيها، والأشياء التي تُلْقَى عليها، والناس يُقْبَرُونَ في الأرض..

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والأزهار، والموتى يُبعثون.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من القَطْرِ والمَلَكِ، والبركة والرزق، والحُكْم.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الصحف، وحوائج الناس: وهِمَمِ الأولياء.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بعباده، ﴿الْغَفُورُ﴾ لجميع المذنبين من المسلمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا

يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ .

كزّر في القرآن تكذيبهم بالساعة، واستبعادهم لذلك، والردّ عليهم. وأخبر عن سابق علمه بهم، وأنه لا يخرج شيء من معلوماته عن علمه، فأثبت علمه بكل شيءٍ وشموله لكل شيءٍ.. لأنه لو لم يكن له علم لكان نقصاً، ولأنه لو خرّج معلوم واحد عن علمه لكان بقدرته نقص، والنقص - بأي وصف كان - لا يجوز في صفته بحالٍ .

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَجْرَهُمْ وَلِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ .

المحسنون منهم يجازيهم بالخيرات المتصلة، والكافرون منهم يكافئهم على كفرهم بالعقوبات غير منفصلة.

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذي أتيت به حقاً وصدقاً. والذين كفروا قال بعضهم لبعض: إنهم يرون أن هذا الذي تقول به من النشر والحساب والبعث كذب، أو أن بك حجة، ثم أقام عليهم حجة التجويز بما أجرى به سُنَّته في الخلق والإبداع.. فما زادهم ذلك إلا جحوداً، وما قابلوه إلا عنوداً^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجَالُ أُوِّي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَمَلَ سِيفًا وَقَدَّرَ فِي السَّمَاءِ لِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِمَّا تَوَلَّوْنَ بِصِيرٍ﴾ .

«داود» اسم أعجمي، وقيل سمي داود لأنه داوى جرحه، ورَدّ في القصة أنه قال في إحدى مناجاته: يا رب، إنني أرى في التوراة ما أعطيت لأوليائك وأنبيائك من الرتب فأعطينها فقال: إنني ابتليتهم فصبروا، فقال: إنني أصبر على بلائك، فأعطني ما أعطيتهم، فأبلاه، فوقف، فأعطاه ما أعطاهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ : تكلموا في هذا الفضل؛ فمنهم من أراد ما ذكره بعده وهو قوله للطير: ﴿أُوِّي مَعَهُ﴾ : وكذلك الجبال، وكان في ذلك تنفيس في وقت حُزْنه وبكائه. وقيل ذلك الفضل رجوعه إلى الله - في حال ما وقع له - بالتنصل والاعتذار. ويقال هو شهوده موضع ضرورته وأنه لا يُضْلِح أمره غيره. ويقال طيب صوته عند قراءة الزبور حتى كان ليزغب في متابعتها من يسمع إليه. ويقال حلاوة صوته في المناجاة. ويقال حُسْنُ خُلُقِهِ مع أمته الذين اتبعوه، ويقال توفيقه للحكم بين أمته بالعدل... .

(١) الآيات من (٥ حتى ٩) لم ترد.

قوله: ﴿يَجِبَالٌ أَوْبَى مَعَهُمُ وَالطَّيْرُ﴾ أمر الجبال والطير بمجاوبته حتى خرج إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسه.

ويقال أوحى الله له: يا داود، كانت تلك الزلّة مباركة عليك! فقال. يا رب، وكيف؟ فقال: كنت تجيء قبلها كما يجيء المطيعون والآن تجيء كما يجيء أهل الذنوب!

يا داود، إن أتيت المذنبين أحب إلي من صراخ العابدين!
ويقال، كان داود يقول. اللهم لا تغفر للخاطئين، غيراً منه وصلابة في الدين... فلما وقع له ما وقع كان يقول. اللهم اغفر للمذنبين، فعسى أن تغفر لداود فيما بينهم.

ويقال لما تاب الله عليه، واجتمع الإنس والجن والطير بمجلسه، ورفع صوته، وأداره في حنكه على حسب ما كان من عادته تفرقت الطيور وقالوا. الصوت صوت داود والحال ليست تلك! فأوحى الله إليه هذه وخشة الزلّة، وتلك كانت أنس الطاعة.. فكان داود يبكي وينوح ويصيح والطير والجبال معه.

ويقال ليس كل من صاح وراءه معنى، فالمعنى كان مع داود لا مع الجبال والطير...

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾. ألان له الحديد، وجعل ذلك معجزة له، وجعل فيه توسعة رزقه، ليجد في ذلك مكسباً، ليقطع طمعه عن أمته في ارتفاقه بهم ليبارك لهم في أتباعه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاَ شَهْرًا وَرَوَاحَهَا شَهْرًا﴾.

أي آتينا سليمان الرّيح أي سخّرناها له، فكانت تحمل بساطة بالغدو مسيرة شهر؛ وبالرواح مسيرة شهر.

وفي القصة أنه لاحظ يوماً ملكه، فمال الرّيح ببساطه، فقال سليمان للريح: استوي، فقالت الرّيح: استوي أنت، فما دمت مستويّاً بقلبك كنت مستويّاً بك، فلما ملت ملت.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُمُ الْفِطْرَةَ وَالْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

أي وآتيناه ذلك، فكانت الشياطين مسخرة له، يعملون ما يشاء من الأشياء التي ذكرها سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿أَعْمَلُوا مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾.

أي اعملوا يا آل داود للشكر، فقوله: «شكراً» منصوب لأنه مفعول له.
ويقال شكراً؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّكْوَةِ
فَعِلُونَ﴾ [المؤمنين: ٤].

وقد مضى طَرَفٌ من القول في الشكر. والشكور كثير الشكر، والأصل في
الشكر الزيادة، والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها، ودابة شكور إذا أظهرت
من السَّمَنِ فوق ما تُعْطَى من العَلْفِ؛ فالشكور الذي يشكر على النعمة فوق ما يشكر
أمثاله وأضرابه. وإذا كان الناس يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره في البلاء.

والشاكر يشكر على البَذْلِ، والشكور على المنع^(١)... فكيف بالبدل؟
والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه وماله، والشاكر ببعض هذه.

ويقال في ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قليلٌ مَن يأخذ النعمة مني ولا يحملها على
الأسباب؛ فلا يشكر الوسائط ويشكرني. والأكثرُونَ يأخذون النعمة من الله، ويجِدُونَ
الخَيْرَ مِنْ قِبَلِهِ ثم يتقلدون المِثْلَ من غير الله، ويشكرون غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنْسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ تَيَنَّنْتَ الْإِنْسُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

كان سليمان - عليه السلام - يتكىء على عصاه وقتما قُبِضَ، وبقي على ذلك
الوصف مدة، والشياطين كانوا مُسَخَّرِينَ يعملون ما أمرهم به، ويتصرفون على الوجه
الذي رَسَمَ لهم، وينتهون عما رَجَرَهُم، فقد كانوا يتوهمون أنه حي. ثم إنَّ الأَرْضَ^(٢)
أكلت عصاه فَخَرَّ سليمانُ فَعَلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات، فرجعوا إلى أعمالهم
الخبیثة، وانفك عنهم ما كانوا عليه من التسخير؛ وهكذا المَلِكُ الذي يقوم مُلْكُهُ
بغيره، ويكون استمساكه بعصا. فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه، ومَن قام بغيره زال
بزواله.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ
رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لِمَ بَلَدَهُ طَبِئَةً وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

كانوا في رَعْدٍ من العَيْشِ وسلامة الحال ورفاهته، فأمرُوا بالصبر على العافية

(١) جاءت العبارة بالرسالة القشيرية ص ١٧٥: الشاكر الذي يشكر عند البذل، والشكور الذي يشكر عند
المطل.

(٢) الأرضة: ضربان: ضرب صغار مثل كبار الذر وهي آفة الخشب خاصة، وضرب مثل كبار النمل
ذوات أجنحة وهي آفة كل شيء من خشب ونبات، غير أنها لا تعرض للطرب وهي ذات قوائم،
والجمع أرض. (اللسان ١١٣/٧ مادة: أرض).

والشكر على النعمة، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق، وكفروا بالنعمة، وضيعوا الشكر، فَبَدَّلُوا وَبُدِّلَ بِهِمُ الْحَالُ، كما قالوا:

تبدلت وتبدلنا يا حسرةً لِمَن ابْتَغَى عِوَضًا لِسَلْمَى فَلَمْ يَجِدْ
قوله جلّ ذكره: ﴿فَاعْرَضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ^(١) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَنَنَيْنِ ذَوَاتِ
أَكْلٍ خَمْطٍ^(٢) وَأَقْلٍ^(٣) وَشَقِيحٍ مِّنْ سِدْرٍ^(٤) وَقَلِيلٍ﴾.

كذلك من الناس من يكون في رَعْدٍ من الحال، واتصالٍ من التوفيق، وطَرْبٍ من القلب، ومساعدةٍ من الوقت، فيرتكب زَلَّةً أو يسيء أديباً أو يتبع شهوةً، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به، فيتغير عليه الحال؛ فلا وقت ولا حال، ولا طرب ولا وصال؛ يُظْلِمُ عليه النهارُ وقد كانت ليلاليه مضيئةً، كما قلنا.

ما زلت أختال في زمانٍ وحالٍ حتى أمِنتُ الزمانَ مَكْرَهَ
حال عليّ الصدودُ حتى لم تَبْقَ مما شَهِدْتُ ذُرَّةَ
قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى أَلْتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِينٍ﴾.

ما عوملوا إلا بما استوجبوا، ولا سُقُوا إِلَّا مِمَّا نَبِطُوا^(٥)، وما وقعوا إلا في
الرَّهْدَةَ التي حَفَرُوا، وما قُتِلُوا إِلَّا بالسيف الذي صَنَعُوا!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى...﴾: ما كان من شأنهم إلا التماذي في عصيانهم،
والإصرار على غيهم وطفيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فَرَقْنَاهُمْ تَفْرِيقًا حَتَّى اتَّخَذَهُمُ النَّاسُ مَثَلًا مَّضْرُوبًا؛ يقولون: ذهبوا أيدي سبأ،

(١) العرم: السيل الشديد الذي لا يُطاق دفعه.

(٢) الخمط: ضرب من الأراك له حُخْلٌ يؤكل، وقيل: هو شجر قاتل أو سم قاتل، وقيل: شجر مثل السدر وحمله كالتوت، وقيل: يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط، وقيل غير ذلك. (اللسان ٢٩٦/٧ مادة: خمط).

(٣) الأثل: شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه وأجود عوداً تسوى به الأقداح الصفر الجياد. (اللسان ١٠/١١ مادة: أثل).

(٤) السدر: شجر شائك من فصيلة النبقيات مهدد فلسطين، ينمو برياً وزراعياً، وخشبه شديد الصلابة شائع الاستعمال، وله ثمر فيه حلاوة. واحدته سدر (ج) سدر.

(٥) نبطه: عوّقه وشغله وبتطاً به عنه.

وتفرقوا أيادي سبأ. وفي قصتهم آيات لكل صبار على العاقبة، شكور على النعمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

صدق عليهم إبليس ظنه - وإن كان لا يملك لنفسه أمراً، فإبليس مُسَلِّطٌ على أتباعه من الجن والإنس، وليس به من الإضلال شيء، ولو أمكنه أن يضُرَّ غيره لأمكنه أن يمسك على الهداية نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾: يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أنه بملكه متفرد، وفي الألوهية متوحد، وعن الأضداد والأنداد متعزِّز، وأنهم لا يملكون مثقال ذرة، ولا مقياس حبة، وليس منهم نصير، ولا شريك ولا ظهير، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن الملائكة في السماء بوصف الهيبة فرعون، وفي الموقف الذي أثبتهم الحق واقفون، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون^(١).

ثم قال جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَمَلَكٌ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

لم يقل أحد - مع شركه - إنه يُجِيلُ في الرزق على أحدٍ غيره، فكما لا شريك له في الرزق ولا شريك له في الخلق فلا شريك له في استحقاق العبادة والتعظيم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم... ويوم الجمع يحاسب الله كلاً على أعماله، ويُطَالِبُ كلاً بشأنه، لا يؤاخذ أحداً بعمل غيره، وكل يُعْطَى كتابه، ويطلبُ الله من كل واحدٍ حسابه.

وقد أجرى الله سُنته بأن يجمع بين عباده، ثم يعاملهم في حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم في حال افتراقهم. فللاجتماع أثر كبير في الشريعة، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص. وقد عاتب الله - سبحانه - الذين يتفرقون عن النبي ﷺ، ومدح من لا يتفرق إلا عن استئذان.

(١) الآيتان (٢٢، ٢٣) لم تردا.

والشيوخ ينتظرون في الاجتماع زوائد، ويستروحون إلى هذه الآية:
﴿قُلْ يَجْمَعُ...﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أَحَقَّتْ بِهِ، شُرَكَاءُ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، هو لك، تملكه وما ملك، لانهماكهم في ضلالتهم. وبعد تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر، ولا تسمع ولا تبصر، وقعت لهم شبهة استحقاها العبادة، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يقلدون أسلافهم... وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أرسلناك مُؤيِّداً بالمعجزات، مُشرفاً بجميع الصفات، سيداً في الأرضين والسموات، ظاهراً لأهل الإيمان، مستوراً عن بصائر أهل الكفران - وإن كنت ظاهراً لهم من حيث العيان، قال تعالى: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لكثرة ما يقولون هذا كثره الله في كتابه خيراً عنهم، والجواب إن لكم ميعاد يوم، وفي هذا الميعاد لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَرَيْتَ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

لو رأيتم يومذاك لرأيت منظرًا فظيماً؛ يرجع بعضهم إلى بعض القول، ويحيل بعضهم على بعض الجرم؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: أنتم أضللتمونا، ويُنكرُ الذين استكبروا ويقولون: بل أنتم اتبعتمونا... وهكذا أصحاب الزلات الأخطاء في الفساد، قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكذلك الجوارح والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض؛ فاليد تقول للجمله أخذت، والعين تقول أبصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة، ومن عمل بالمعاصي أخرج الله عايه كل من هو أطوع له، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولو علموا لاعتبروا، ولو اعتبروا لتابوا ووقفوا... ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً^(١).

(١) الآيتان (٣٢، ٣٣) لم تردا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .

أي قابلوا رُسُلَنَا بالتكذيب، وَصَبَرُ رُسُلُنَا... وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم؟ فهم لنجاتهم أرسلوا، ولصلاجهم دَعَوَا وَبَلَّغُوا، ولو وافقوهم لسعدوا... ولكن أقساماً سبقت، وأحكاماً حقت، والله غالبٌ على أمره.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ .

ليس هذا بكثرة الأموال والأولاد، وإنما هي بصائرٌ مفتوحة لقوم، وأخرى مسدودة لقوم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَةِ ءَامِنُونَ﴾ .

لا تستحق الزلْفى عند الله؛ بالمال والأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية، بل بالعناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ﴾: يضاعف على ما كان لِمَنْ تقدمهم من الأمم ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفَةِ ءَامِنُونَ﴾ مِنْ تَكْدُرِ الصَّفْوَةِ وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِتْنَةَ مَعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ .

هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حق اللّه في السر، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله، ثم في عذاب السقوط من عين الله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهٗ وَمَا أَنْفَقْتُمْ

مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

مَنْ الْخَلْفَ فِي الدُّنْيَا الرِّضَا بِالْعَدَمِ وَالْفَقْدِ، وَهُوَ أَتَمُّ مِنَ السُّرُورِ بِالْمَوْجُودِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ الْأَنْسُ بِاللَّهِ فِي الْخُلُوعِ؛ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ التَّجْرِيدِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ إِنَّا كُنَّا عِبَادُونَ﴾ .

قوم كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم؛ فيتبرأون منهم وينزهون الله ويسبحونه، فيفتضح هؤلاء - والافتضاح عند السؤال من شديد العقوبة، وفي بعض الأخبار:

أَنْ غَدَاً مَنْ يَسْأَلُهُمُ الْحَقَّ فَيَقَعُ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّعَجُّلِ مَا يَجْعَلُهُمْ يَقُولُونَ: عَذَّبْنَا رَبَّنَا

بِمَا شِئْنَا مِنْ أَلْوَانِ الْعُقُوبَةِ وَلَا تَعَذَّبْنَا بِهَذَا السُّؤَالِ!^(٢)

(٢) الآية (٤١) لم ترد.

(١) الآية (٣٦) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمَلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

الإشارة في هذا أن من علق قلبه بالأغيار؛ وظن صلاح حاله بالاحتتيال؛ والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزع الله الرحمة من قلوبهم؛ ويتركهم، ويشوش أحوالهم، فلا لهم من الأمثال والأشكال معونة، ولا لهم من عقولهم في أمورهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، وإن رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم، ويقول لهم: ذوقوا وبال^(١) ما به استوجبتم هذه العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِهَا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْآ كَانِ يَبْدَأُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الحكماء، والأولياء - الذين هم الأئمة في هذه الطريقة - إذا دلوا الناس على الله. قال بعض إخوان السوء - مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا لمريد: ما هذا؟ من الذي يطيق كل هذا؟ ربما لا تتمم الطريق!

لا بُد من الدنيا ما دُمت تعيش!... وأمثال ذلك، حتى يميل هذا المسكين عند قبول النصح، وربما كان له هذا من خواطره الدنية... فيهلك ويضل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾.

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة؛ يعارضون أصحاب القلوب فيما يجري من الأمور، بما تشوش إليهم نفوسهم، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقتضى تفرقة قلوبهم - على قياس ما يقع لهم - من غير استناد إلى إلهام، أو اعتماد على تقدير من الله وإفهام.

وأهل الحقائق - الذين هم لسان الوقت - إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم؛ لأن الذي يتكلم عن الفراسة^(٢) أو عن الإلهام، أو كان مُستتظفاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم. وأصحاب الغفلة ليس لهم إيمان بذلك، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيهلكون، فسيبيل هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا، ثم الأيام تجيب أولئك^(٣).

(١) ذاق فلان وبال عمله؛ أي ثقل فعله وعاقبته السيئة وجزاءه الوخيم.

(٢) الفراسة: مأخوذة من الثفرس وهو الثبث والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمّة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال. وقد تكون وهبية إلهامية يخلقها الله في القلب وهي المراد غالباً عند القوم.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَجْدِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفِقِينَ وَفَرَدَيْ تُرَا نَفَعَكُم مَّا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ .

يقول: إذا سؤلت لكم أنفسكم تكذيب الرسول فأنعموا النظر... هل ترؤن فيه آثار ما رميته به؟ هذا محمد ﷺ. قُلْتُمْ إنه ساحر - فأين آثار السحر على أحواله وأفعاله وأقواله؟ قُلْتُمْ إنه شاعر - فمن أي قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قُلْتُمْ إنه مجنون - فأبي جنونٍ ظهر منه؟

وإذ قد عجزتم عن ذلك... فهلاً عرفتم أنه صادق^(١)!

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ .

يقذف بالحق على باطل أهل الغفلة فتزول جيلهم، ويظهر عجزهم. ويقذف بالحق على أحوال أهل الخلاف فيضمحل اجترأؤهم، ويحيق بهم شؤم معاصيهم.

ويقذف بالحق - إذا حضر أصحاب المعاني - على ظلمات أصحاب الدعاوى فيخمد نائرتهم، ويفضحهم في الحال، ويفضح عوارضهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ جَاءَ الْهَلْكَ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ .

الباطل على مَمَرِ الأيام لا يزيد إلا زهوفاً، والحق على مَمَرِ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرْسِي إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ .

إن كنت مهتدياً فبربي لا بجهدي. وإن كنت عندكم من أهل الضلال فوبال ضلالتني عائد علي، ولن يضررك ذلك. فانظروا أنتم إلى أنفسكم... أين وقعتم؟ وأي ضرر يعود عليكم لو أطعتموني؟ لا في الحال تخسرون، ولا في أنفسكم تتعبون، ولا في جاهكم تنقصون.

وما أخبركم به نقص أصنامكم فبالضرورة أنتم تعلمون! فما لكم لا تبصرون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ .

أي لو رأيت ذلك لرأيت فظيماً، وأمرأ عظيماً؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستتصال.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ، وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَادُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ .

(١) الآية (٤٧) لم ترد.

إذا تابوا - وقد أُغْلِقَتْ الأبواب، وندموا - وقد تقطعت الأسباب... فليس إلا الحسرات والندم، ولات حين ندامة!

كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يستيق من غفلته يتجاوز عنه مرة، ويُغفى عنه كربة، فإذا استمكنت منه القسوة وتجاوز سوء الأدب حد الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة... يحصل له من الحق زد، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يُسمع له دعاء، ولا يُرحم له بكاء^(١)، كما قيل:

فَحَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَاءِ فليس لأيام الصفاء رجوع
قوله جل ذكره: ﴿وَحِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾.

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فات الوقت، والحضم يريد إرضاء فيستحيي أن يذكر في ذلك الوقت، وينسد لسانه ويعتقل؛ فلا يمكنه أن يُفصح بما في قلبه، ويود أن لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعد بعيد، ويتمنى أن يُطبع فلا تساعد القوة، ويتمنى أن يكون له - قبل خروجه من الدنيا - نفس... ثم لا يتفق.

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

سورة فاطر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» كلمة سماعها يوجب رَوْحاً لمن كان يشاهد الإتيان، ويوجب لَوْحاً لمن كان بوصف البيان؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان، واللَّوْحُ من شهود السلطان، وكلُّ مُصِيب، ولكلُّ من الحقَّ نصيب.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ .

استحق المدح والثناء على انفراده بالقدرة على خلق السموات والأرض.

﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَىٰ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ بَرِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ :

تَعَرَّفَ إلى العباد بأفعاله، وَتَدَبَّهَمَ إلى الاعتبار بها، فمنها ما نعلم منه ذلك معاينةً كالسموات والأرض وغيرها، ومنها ما سبيلُ الإيمان به الخبيرُ والنقلُ - لا بدليل العقل - والملائكةُ مِنْ ذلك؛ فلا نتحقق كيفية صُورِهِم وأجنتهم، وكيف يطيرون بأجنتهم الثلاثة أو الأربعة، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته، وصدق كلمته .

قوله: ﴿بَرِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ : قيل الخُلُقُ الحَسَنُ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ،

وقيل الصوتُ الحَسَنُ وقيل مَلَاخَةٌ العينين، وقيل الكياسة في الخيرة، وقيل الفصاحة في المنطق، وقيل الفهم عن الله، ويقال السخاء والجود، ويقال الرضا بالتقدير، ويقال علو الهمة، ويقال التواضع، ويقال العفة عند الفقر، ويقال الظرف في الشرائع، ويقال أن تكون مُحِبِّباً إلى القلوب، ويقال خفة الروح، ويقال سلامة الصدر من الشرور، ويقال المعرفة بالله بلا تأمل برهان^(١)، ويقال الشوق إلى الله، ويقال التعطف على الخَلْقِ بجملتهم، ويقال تحرُّرُ القلوب من رِقِّ الحدثنان بجملته، ويقال أَلَا يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ مَنزَلَةً فِي الدَّارَيْنِ .

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْوِلَ لَهَا مِنْ

بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

(١) انظر حديث القشيري عن المعرفة بالله بالرسالة القشيرية ص ٣١١ - ٣١٧ .

المَوْسَعُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ، والمحرومُ لا يُوسَعُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ .
ويقال: ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحاب يستره، ولا ضياء يقهره .

ويقال: ما يلزم قلوب أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ له، وما يُغْلَقُ على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فَاتِحَ له غيره - سبحانه .

ويقال الذي يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُمَسِّكَ له، والذي يمنعه عن أعدائه - بما يُلْقِيهِمْ فِيهِ من انغلاق الأمور واستصعابها - فلا مُيَسِّرَ له من دونه .

قوله جل ذكره: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِن خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَن تُوَفَّكُونَ﴾ .

مَنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ فَصَاحِبُ عِبَادَةٍ، ونائِلُ زيادة، وَمَنْ ذَكَرَ المُنْعِمَ فَصَاحِبُ إِرَادَةٍ، ونائِلُ زيادة . . . ولكن فرق بين زيادة وزيادة؛ ذلك زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته لقاءه: اليوم سِرّاً بِسِرٍّ من حيث المشاهدة، وغداً جَهراً بِجَهْرٍ من حيث المعاينة .
والنعمة على قسمين: ما دَفَعَ عنه من المَحْنِ، وما نَفَعَ به من المِنَّة؛ فذِكْرُهُ لِمَا دَفَعَ عنه يوجِبُ دوامَ العِصْمَةِ، وذكْرُهُ لِمَا نَفَعَ به يوجِبُ تمامَ النعمة .

﴿هَلْ مِن خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ . . .﴾؟ وفائدة هذا التعريف أنه إذا عَرَفَ أنه لا رازقَ غيره لم يُعَلِّقْ قلبه بأحدٍ في طلب شيء، ولم يتذلل في ارتفاقٍ لمخلوق، وكما لا يرى رِزْقَهُ من مخلوقٍ لا يراه من نفسه أيضاً؛ فيتخلص من ظلمات تدييره واحتياله، ومن تَوَهُّمِ شيءٍ من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالة يُخْلِصُ في توكله وتفويضه .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن يَكذِبُواكَ فَقدَ كذبت رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ وَلِىَ اللَّهُ تُرجِعُ الأُمُورُ﴾ .

هذه تسليّة للرسول ﷺ، وتسهيلٌ للصبر عليه؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله، وأنهم صَبَرُوا وأنَّ اللَّهَ كفاهم، فهو يسلك سبيلهم ويقتدي بهم، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه . وفي هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب في موقفهم من العوامِّ والأجانبِ عن هذه الطريقة، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، بينما أهل الحقائق أبدأ منهم في مقاساة الأذى إلا بستر حالهم عنهم .

والعوامُّ أقرب إلى هذه الطريقة من القُرَّاءِ المتقشفين، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون .

قوله جل ذكره: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ أَلْعِينَةُ الَّذِينَ إِلاَّ يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ .

وَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَنَّهُ يَكُونُ، فَوَعْدُهُ فِي الْقِيَامَةِ حَقٌّ، ووَعْدُهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ بِكَفَايَةِ الْأُمُورِ وَالسَّلَامَةِ حَقٌّ، ووَعْدُهُ لِلْمُطِيعِينَ فِي الْآخِرَةِ بِوُجُودِ الْكِرَامَةِ حَقٌّ، وللْعَاصِينَ بِالنَّدَامَةِ حَقٌّ، فإذا عَلِمَ الْعَبْدُ ذَلِكَ اسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ، ولم يهتم بالرزق، فيكفيه اللَّهُ شُغْلُهُ، فينشط الْعَبْدُ فِي اسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ ثِقَةً بِالْوَعْدِ، وَلَا يُلِمُّ بِالْمَخَالَفَاتِ خَوْفًا مِنَ الْوَعِيدِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

عدوأة الشيطان بدوام مخالفته؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يِعَاوَنُهُ بِالْقَوْلِ وَلَكِنْ يُوَافِقُهُ بِالْفِعْلِ، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالرب، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة. والشيطان لا يفتتر في عداوتك، فلا تَغْفُلْ أنت عن مولاك لحظة فيبرز لك عدوك؛ فإنه أبداً متمكن لك.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ وحزبه هم المعرضون عن الله، المشتغلون بغير الله، الغافلون عن الله. ودليل هذا الخطاب: إن الشيطان عدوكم فأبغضوه واتخذوه عدواً، وأنا وليكم وحببيكم فأجبروني وارضوا بي حبيباً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الذين كفروا لهم عذاب مُعَجَّلٌ وعذاب مُؤَجَّلٌ، فَمُعَجَّلُهُ تَفْرِقَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَنْسَادُ بَصَائِرِهِمْ وَوَقَاحَةُ هِمَّتِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ يَرْضُونَ بِأَن يَكُونَ الصَّنَمُ مَعْبُودَهُمْ. وأما عذاب الآخرة فهو ما لا تخفى على مسلم - على الجملة - صعوبته.

وأما ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فلهم مغفرة أي سترٌ لذنوبهم اليوم، ولولا ذلك لانفضحوا، ولولا ذلك لَهَلَكُوا.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفةِ، وما يناله في القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال. وفي الآخرة: تحقيقُ السُّؤْلِ وَتَيْلُّ ما فوق المأمول.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

معنى الآية: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً كمن ليس كذلك؟ لا يستويان! ومعنى ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أن الكافر يتوهَّم أن عمله حسن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبَنَّ أَنَّهُ يَمْحِشُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ثم الراجبُ في الدنيا يجمع حلالها وحرامها، ويحوش^(١) حطامها، ولا يفكر في زوالها، ولا في ارتحاله عنها قبل كمالها؛ فلقد زين له سوء عمله والذي يتبع شهواته ويبيع مؤبد راحاته في الجنة بساعةٍ فلقد زين له سوء عمله. وإن الذي يُؤثِرُ على ربِّه شيئاً من المخلوقات لهوٌ من جملتهم. والذي يتوهم أنه إذا وجدَ نجاته ودرجاته في الجنة - وأن هذا يكفيه. . . فقد زُين له سوء عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة. والذي هو في صحبة حظوظه ولا يُؤثِرُ حقوق الله فلقد زين له سوء عمله فرأه حسناً.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾: يعني إذا عرَفْتَ حقَّ التقدير، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله، ودَعَوْتَهُمْ جَهْرًا، وبَدَلْتَ لَهُمْ نُصْحًا، فاستجابتهم ليست لك، فلا تَجْعَلْ على قلبك من ذلك مشقةً ولا عناءً.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ مَكَابًا فَسَقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

أجرى سُنَّتَهُ بأنه يُظهِرُ فَضْلَهُ في إحياء الأرض بالتدريج؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب، ثم يوجِّه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد له تخصيصاً كيف يشاء، ويُمَطِّرُ هناك كيف يشاء. كذلك إذا أراد إحياء قلبٍ عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيزِيلُ أولاً رياحَ الرجاء، ويزعج بها كوامنَ الإرادة، ثم ينشئ فيها سُحْبَ الاهتياج، ولوَعَةَ الانزعاج، ثم يوجد بمطرٍ يُنْبِتُ في القلب أزهارَ البَسْطِ، وأنوارَ^(٢) الرُّوح، فيطيب لصاحبه العَيْشُ إلى أن تمَّ لطائف الأُنسِ.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُورُثُ﴾.

مَنْ كان يريد العزة بنفسه فَلْيَعْلَمْ أَنَّ العزةَ بجملتها لله، فليس للمخلوق شيءٌ من العِزَّة. ويقال مَنْ كان يريد العزة لنفسه فَلِلَّهِ العِزَّةُ جميعاً، أي فليطلبها من الله، وفي آية أخرى أثبت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وقال هاهنا ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ وَوَجْهُ الجميع بينها أن عِزَّ الربوبية لله وَضْفًا، وَعِزَّ الرسول، وَعِزَّ المؤمنين لهم فضلًا من الله ولطفًا؛ فإذا العِزَّةُ لله جميعاً. وعِزُّه سبحانه - قُدْرَتُهُ. أو ويقال العزيز هو القاهر الذي لا يُفْهَرُ؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين. . . ومن صفات ذاته على القول الآخر. ويقال العزيز هو الذي لا يُوصَلُ إليه مِنْ قَوْلِهِمْ: أرضٌ عَزَّازٌ إذا لم تستقر عليها الأقدام، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه.

(١) حوش المال: جمعه.

(٢) أنوار: (ج) النور: الزهر أو الأبيض منه. الواحدة: نورة.

ويقال العزيز الذي لا مثل له؛ من قولهم؛ عَزَّ الطعماء في اليد. فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو.

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدة طيبة - يعني الشهادتين - عن إخلاص. وأراد به صعوداً قَبُولِ، لأنَّ حقيقة الصعود في اللغة بمعنى الخروج - ولا يجوز في صفة الكلام.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: أي يقبله. ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. ويقال الكلم الطيب ما يكون موافقاً للسنة، ويقال هو ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف. ويقال هو نُطق القلب بالثناء على ما يستوجهه الربُّ. ويقال هو ما يكون دعاءً للمسلمين. ويقال ما يتجرد حقاً للحق ولا يكون فيه حظ للعبد. ويقال ما هو مُستخرج من العبد وهو فيه مفقود. ويقال هو بيان التنصل وكلمة الاستغفار.

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويقال الذي ليس فيه آفة ولا يُطلب عليه عوض.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيُوفَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

أي يُقْلَبُ عليهم مكْرهم فيما يتوهمونه من خيرٍ لهم يُقْلِبُهُ محنةٌ عليهم. ويقال: تَخْلِيئُهُ إياهم ومكْرهم - مع قدرته على عصمتهم، وكونه لا يعصمهم هي عذابهم الشديد.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ذَكَرَهُمْ نَسَبَتَهُمْ لثلاث يُعْجَبُوا بحالتهم، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريع التغير، قليل القوة في المُكْت، لكنه يُقْبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجود أعاده بعد انكساره بالذنوب.

وإذا كان لا يخفى عليه - سبحانه - شيء من أحوالهم في ابتداء خَلْقَتِهِمْ، فَمَنْ يُبَالِ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْصِي فلا يبالي أن يغيرَ لِمَنْ رآه يعصي.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَائِغَ شَرَابِهِ وَهَذَا يَلْحُ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَعَمَّا طَرِينًا وَنَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ يُتَنَفَّوْنَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

لا تستوي الحالتان: هذه إقبال على الله، واشتغال بطاعته، واستقلال بمعرفته. وهذه إغراض عن الله، وانقباض عن عبادته، واعتراض - على الله - في قسمته وقبضته.

هذه سبب وصاله، وهذه سبب هجره وانفصاله، وفي كل واحدة من الحالتين يعيش أهلها، ويُزجي أصحابها وقتها. ولا يستوي الوقتان: هذا بسطٌ وصاحبه في رُوح، وهذا قبضٌ وصاحبه في نُوح. هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح. هذا فَرْقٌ وصاحبه بوضف العبودية، وهذا جَمْعٌ وصاحبه في شهود الربوبية.

﴿وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: كذلك كُلُّ يتقربُ في حالته لربه، ويتزيّنُ على بابه، وهو جَلِيئُهُ التي بها يتحلّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

تغلب النَّفْسُ مرةً على القلب، ويغلب القلبُ مرةً على النَّفْسِ. وكذلك القبضُ والبسطُ فقد يستويان، ومرةً يغلب القبضُ على البسط، ومرةً يغلب البسطُ على القبض، وكذلك الصحو والسُّكْرُ، وكذلك الفناء والبقاء.

وسَخَّرَ شَمْسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾: فاروني شظيةً من النفي أو الإثبات لما تدعونه من دونه! وإذ لم يُمكنكُم ذلك.. فَهَلَّا أَفْرَزْتُمْ، وفي عبادته أخلصتم، وعن الأصنام تَبَرَّأْتُمْ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾.

إن استعنتم بأصنامكم لا يُعينوكم، وإن دَعَوْتُمُوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سَمِعُوا - على جهة ضَرْبِ المَثَلِ - لا يستجيبون لكم؛ لأنهم لا يَمْلِكُونَ نَفْعَ أَنفُسِهِمْ. فكيف يَمْلِكُونَ نَفْعَ غَيْرِهِمْ!؟

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: لا يؤمنون إلا في ذلك الوقت، ولكن لا ينفعهم الإيمانُ بعد زوال التكليف.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ أَنْتُمْ أَلْفَرَقَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْحَكِيمُ﴾.

الفقر^(١) على ضربين: فقر الخِلْقَةِ وفقر الصفة؛ فأما فقر الخِلْقَةِ فهو عامٌ لكلِّ أحدٍ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه، فهو قد حَصَلَ من العَدَمِ، فهو مفتقرٌ إليه ليبيده

(١) انظر حديث القشيري عند الفقر في الرسالة ص ٢٧١ - ٢٧٩.

وينشيه، ثم بعد ذلك مفتقرٌ - في حال بقائه إليه - لِيُدِيمَهُ وَيَقِيَهُ. فاللَّهُ - سبحانه - غنيٌّ، والعبْدُ فقيرٌ؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللَّهُ غنيٌّ بعينه.

وأما فقر الصفة فهو التجرُّد، فققرُ العوامِ التجرُّدُ من المال، وفقر الخواصِ التجرد من الأعلال لِيَسْلَمَ لهم الفقر.

والفقر على أقسام: فقر إلى الله، وفقر إلى شيء هو من الله؛ معلوم أو مرسوم وغير ذلك. ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنيُّ بالله، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله، فالمفتقر إلى الله مُسْتغْنَى بالله، والمستغني بالله مفتقرٌ إلى الله^(١).

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبر، وشرفُ العبد في فقره، وكذلك ذلُّه في توهمه أنه غنيٌّ: -

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرَّقَابُ تَقَرُّبًا مِّنَّا إِلَيْكَ فِعْزُهَا فِي ذُلِّهَا

ومن الفقر المذموم، أن يَسْتَرِ الحقُّ على صاحبه مواضع فقره إلى ربِّه، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَهُ الحقُّ مواضع فقره إليه.

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملك شيئاً ويملك كلَّ شيء.

ويقال: الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء.

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشْكُرِ عند كمالِ التَّكْسُرِ. ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوال الدعوى. ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى.

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السُّرِّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله.

ويقال: الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوَقْتِ من غير استكراه شيءٍ منه بكلِّ وجهٍ.

قوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: الإشارة منه أن يُعْطِيَ حتى يُخَمِّد.

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِنَاهُ لِأَحَدٍ فإِذَا لِلْمَفَاخِرَةِ أَوْ لِلْمَكَاثِرَةِ - وَجَلَّ قَدْرُ الْحَقِّ عن ذلك - وَإِذَا لِيَجُودَ وَيَتَفَضَّلَ عَلَى أَحَدٍ.

ويقال: لا يقول لنا أنتم الفقراء للإضرار بنا - فَإِنَّ كَرَمَهُ يَتَقَدَّسُ عن ذلك - وإنما المقصود أنه إذا قال: والله الغني، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا.

(١) قال القشيري برسالته: سُئِلَ الجَنِيدُ عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى: أهو أتم أم الاستغناء بالله تعالى؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل، فقد صح الاستغناء بالله تعالى، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يقال: أيهما أتم الافتقار أم الغنى؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى. (الرسالة القشيرية ص ٢٧٣).

ويقال إذا لم تدع ما هو صفته - من استحقاق الغنى - أولاك ما يُغنيك، وأعطاك فوق ما يكفيك .

قوله جل ذكره: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ .

عَرَّفَكَ أنه غني عنك، وأشهدك موضع فقرك إليه، وأنه لا بُدَّ لك منه، فما القصد من هذا لا إرادته لإكرامك وإيوائك في كَتَفِ إنعامه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ .

كُلُّ مُطَالَبٍ بعمله، وكلُّ محاسبٍ عن ديوانه، ولكلُّ معه شأن، وله مع كلِّ أحدٍ شأن . ومن العبادات ما تجري فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجري النيابة؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاة مفروضة، فلو قضى عنه ألف ولي وألف صفي تلك الصلاة الواحدة عن كل ركعة ألف ركعة لم تُقبل منه إلا أن يجيء هو: معاذ الله أن نأخذ إلا بمن وجدنا متاعنا عنده! فعتابك لا يجري مع غيرك والخطاب الذي معك لا يسمعه غيرك:

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَقَفَّ عَلَيْكَ مَحْبَتِي مَكَائِكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَصُونُ

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ .

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة، والخشية هي المخافة؛ فمعنى الآية، لا ينفع التخويف إلا لمن صاحب الخوف - وطير السماء على أشكالها تقع .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الظُّلُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ .

كما لا يستوي الأعمى والبصير لا تستوي الظلمات والنور، ولا يستوي الظل والحور، ولا الأحياء والأموات . . وكذلك لا يستوي الموصول بنا والمشغول عنا، والمجدوب إلينا، والمحجوب عنا، ولا يستوي من اصطفيناه في الأزل ومن أشقيناه بحكم الأزل، ولا يستوي من أشهدناه حقنا ومن أغفلنا قلبه عن ذكرنا:

أحبابنا شتان: وافي وناقض ولا يستوي قطُّ محبٍ وباغض

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أَشْءٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ .

أي وما من أمة ممن كانوا من قبلك إلا بعثنا فيهم نذيراً، وفي وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافة بالحق .

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: تضمنت الآية بيان أنه لم يُخل زماناً ولا قومياً من شرع. وفي وقته ﷺ أفرده بأن أرسله إلى كافة الخلائق، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له: قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

أي لو قابلوك بالتكذيب فتلك سنتهم مع كل نبي؛ وإن أصرؤا على سنتهم في الغي فلن تجد لسنة الله تبديلاً في الانتقام والخزي^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيُّبٌ سُودٌ﴾.

بيّن في هذه الآية وأمثالها أن تخصيص الفعل بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه، وفي إتقان الفعل وإحكامه شهادة على علم الصانع وإعلامه.

وكذلك ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ﴾: بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف، وهو دليل ثبوت مُشابهتها بنعت الجلال. قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

«إنما» كلمة تحقيق تجري من وجه مجرى التحديد أي التخصيص والقصر، فمن قَدَّ الْعِلْمَ بِاللَّهِ فَلَا خَشْيَةَ لَهُ مِنَ اللَّهِ.

والفرق بين الخشية والرهبه أن الرهبه خوفٌ يوجبُ هَرَبَ صاحبه فيجري في هربه، والخشية إذا حصلت كَبَحَتْ^(٢) جماح صاحبا فيبقى مع الله، فقدمت الخشية على الرهبه في الجملة.

والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالخشية قضية العلم، والهيبه توجب المعرفة.

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقّه. ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق.

ويقال حَدَرًا من أن يحصل لهم سوء أدبٍ وتزكُّ احترام، وانبساط في غير وقته بإطلاق لفظ، أو تَرُخِّص بِتَرْكِ الأولى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾.

(١) الآية (٢٦) لم ترد.

(٢) كبح فلاناً عن حاجته: رده عنها. وجمع الرجل: ركب هواه فلا يمكن رده.

الذين يستغرق جميع أوقاتهم قيامهم بذكر الله وبحقّه، وإتيانهم بأنواع العبادات وصنوف القرب فلهم القدر الأجل من التقريب، والنصيب الأوفر من الترحيب. وأما الذين أحوالهم بالصد فمآلهم على العكس. أولئك هم الأولياء الأعزّة، وهؤلاء هم الأعداء الأذلة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

ما عرفناك - من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك، وتقديمنا لك على الكافة - فعلى ما أخبرناك، وأنشدوا:

لا أبتغي بدلاً سواك خلية فثقي بقولي والكرام ثقات
قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾.

﴿أورثنا﴾: أي أعطينا الكتاب - أي القرآن - الذين اصطفينا من عبادنا، ودكر الإعطاء بلفظ الإرث توسعاً.

﴿اصطفيناً﴾: أي اخترنا. ثم ذكر أقسامهم، وفي الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «أمتي وربّ الكعبة»^(٢) ثلاث مرات.

وفي الآية وجوه من الإشارة: فمنها أنه لما ذكر هذا بلفظ الميراث فالميراث يقتضي صحة النسب على وجه مخصوص، فمن لا سبب له فلا نسب له، ولا ميراث له.

ومحلّ النسب ما هنا المعرفة، ومحلّ السبب الطاعة. وإن قيل محلّ النسب فضله، ومحلّ السبب فعلك: فهو وجّه. ويصح أن يقال محلّ النسب اختياره لك بدءاً ومحلّ السبب إحسانه لك تالياً.

ويقال أهل النسب على أقسام: - الأقوى، والأدنى كذلك في الاستحقاق. ويقال جميع وجوه التملك لا بُدّ فيها من فعل للعبد كالبيع، أمّا ما يملك بالهبة فلا يحصل إلا بالقبول والقسمه، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك. والوصية لا تُستحق إلا بالقبول، وفي الزكاة لا بُدّ من قبول أهل الشّهان، والميراث لا يكون فيه شيء من جهة الوارث وفعله، والنسب ليس من جملة أفعاله.

(١) الآية (٣٠) لم ترد.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٩٠).

ويقال الميراث يُسْتَحَقُّ بوجهين: بالفرض والتعصيب، والتعصيب أقوى من الفرض؛ لأنه قد يستحق به جميع المال، ثم الميراث يبدأ بذوي الفروض ثم ما يتبقى فللعصبة^(١).

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾: تكلموا في الظالم، فمنهم من قال هو الأفضل، وأرادوا به من ظلم نفسه لكثرة ما حملها من الطاعة.

والأكثر: إن السابق هو الأفضل، وقالوا: التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة، ولهذا نظائر كثيرة.

ويقال قَرَنَ باسم الظالم قرينة وهي قوله: «لنفس»، وقرن باسم السابق قرينة وهي قوله: ﴿إِذِنَ اللَّهُ﴾؛ فالظالم كانت له زلة، والسابق كانت له صولة، فالظالم رَفَعَ زَلَّتْه بقوله: لنفسه، والسابق كَسَرَ صَوْلَتَه بقوله: بإذن الله.

كانه قال: يا ظالم ارفع رأسك، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك، ويا سابق اخفض رأسك؛ سَبَقْتَ - ولكن بإذن الله.

ويقال إن العزيز إذا أرى ظالماً قَصَمَه، والكريم إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده، كأنه قال: يا ظالم، إن كان كونك ظالماً يوجب قَهْرَكَ، فكونك مظلوماً يوجب الأخذ بيدك. ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلَاتُهُ، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته، والسابقُ مَنْ زادت حسناته.

ويقال الظالمُ مَنْ زهد في دنياه، والمقتصدُ مَنْ رغب في عقباه، والسابقُ مَنْ آثر على الدارين مولاة.

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَمَ كوكبُ عقله، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرٌ عِلْمُه، والسابقُ مَنْ ذَرَّتْ شمسُ معرفته.

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَه، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَه، والسابقُ مَنْ بقي معه. ويقال الظالمُ مَنْ تَرَكَ المعصية، والمقتصدُ مَنْ تَرَكَ الغفلة، والسابقُ مَنْ تَرَكَ العلاقة.

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بماله، والمقتصدُ مَنْ لم يبخل بنفسه، والسابقُ مَنْ جاد بروحه.

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين، والمقتصدُ مَنْ له عين اليقين، والسابقُ مَنْ له حق اليقين.

(١) العَصْبَةُ: الذين يرثون الرجل عن كلاله، من غير والد ولا ولد. فأما في الفرائض فكل من لم تكن له فريضة مسمأة. فهو عَصْبَةٌ، إن بقي شيء بعد الفرائض أخذ. (اللسان ٦٠٥/١ مادة: عصب).

ويقال الظالم صاحب المودة، والمقتصد الخلة، والسابق صاحب المحبة.
ويقال الظالم يترك الحرام، والمقتصد يترك الشبهة، والسابق يترك الفضل^(١) في الجملة.

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء، والمقتصد صاحبُ جود، والسابق صاحبُ إثارة.
ويقال الظالم صاحب رجاء، والمقتصدُ صاحبُ بسْط، والسابق صاحبُ أُنس.
ويقال الظالم صاحب خوف، والمقتصد صاحب خشية، والسابق صاحب هيبة.
ويقال الظالم له المغفرة، والمقتصد له الرحمة والرضوان، والسابق له القربة والمحبة.

ويقال الظالم صاحب الدنيا، والمقتصد طالب العُقْبى، والسابق طالب المولى.
ويقال الظالم طالب النجاة، والمقتصد طالب الدرجات، والسابق صاحب المناجاة.

ويقال الظالم أَمِنَ من العقوبة، والمقتصد فاز بالمشوبة، والسابق متحقق بالقربة.
ويقال الظالم مضروبٌ بسَوِّطِ الحِرْصِ، مقتول بسيف الرغبة، مضطجعٌ على باب الحسرة. والمقتصدُ مضروبٌ بسوط الندامة، مقتولٌ بسيف الأسف، مضطجع على باب الجود.

والسابقُ مضروبٌ بسوط التواجد، مقتول بسيف المحبة، مُضْطَجِعٌ على باب الاشتياق.

ويقال الظالم صاحب التوكل، والمقتصد صاحب التسليم، والسابق صاحب التفويض.

ويقال الظالمُ صاحبُ تواجد، والمقتصد صاحب وَجْد، والسابق صاحب وجود.

ويقالُ الظالمُ صاحبُ المحاضرة، والمقتصد صاحب المكاشفة، والسابق صاحب المشاهدة.

ويقال الظالم يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرة، والمقتصد يراه في كل يوم مرة، والسابق غير محجوبٍ عنه ألبتة.

ويقال الظالم مجذوبٌ إلى فِعْله الذي هو فضله، والمقتصد مكاشفٌ بوصفه الذي هو عِزُّه، والسابقُ المستهلكُ في حَقِّه الذي هو وُجُودُه.
قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ لأنه ذكر الظالم مع السابق.

(١) الفضل: هنا الزيادة. يقول سهال بن عبد الله عن الحلال الصافي: هو الذي لا يُعصى الله تعالى فيه، وهو الذي لا يُنسى الله تعالى فيه. (الرسالة القشيرية ص ١١٢).

قوله جل ذكره: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

نبّه على أن دخولهم الجنة لا باستحقاق بل بفضل، وليس في الفضل تمييز.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

تحققوا بحقائق الرضا، والحزن سُمي حزنًا لحزونة^(١) الوقت على صاحبه وليس في الجنة حزونة وإنما هو رضا واستبشار.

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة. ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوء الأدب. ويقال هو سياسة النفس.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للعصاة، ﴿شَكُورٌ﴾ للطمّيعين. قدّم ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾: أي دار الإقامة، لا يبغون عنها حولا، ولا يتمنون منها خروجاً.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: إذا أرادوا أن يروا مولاهم لا يحتاجون إلى قطع مسافة، بل عرفهم يلقون فيها تحية وسلاماً، فإذا رآه لم يحتاجوا إلى تقليب حدقة أو تحديق مقلة في جهة؛ يروونه كما هم بلا كيفية.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾.

لا حياة يتمتعون بها، ولا موت يستريحون به، وهم مقيمون في العذاب والحجاب، لا يفر عنهم العذاب، وتزفّع عنهم العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فيقال لهم أو لم نعمركم...؟

(١) حزن المكان حزونة: خشن وغلظ، فهو حزن.

أما جاءكم النذيرُ قبل أن تبلغوا زمان المشيب؟

ويقال: ألم تستوفوا مدة الإمهالِ في النظر؟

﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾: الرسل، ويقال ضعف الشيخوخة، ويقال سقوط السنِّ،
ويقال تَقَوُّسُ الظَّهْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾.

أي عالم بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجحد
الكافرين.

عالمٌ يَمَنُ يريد بالناسِ سوءَ ويمَنُ يُحْسِنُ باللهِ الظنَّ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أهل كلِّ عصرٍ خليفٌ عَمَنُ تقدمهم؛ فَمِنَ قوم هم لِسَلْفِهِمْ حَمَالٌ^(١)، ومِنَ قوم
هم أراذل وأنذال؛ فالأفاضلُ زمانهم لهم محنة، والأراذل هم لزمانهم محنة. وقد
قالوا:

يَوْمَ وَحَسَبُ الْبَدْرِ مِنْ أَجْلِهِ حَيَاغِدٌ وَالْتَفَتِ الْأَمْسُ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

كَرَّرَ إسهادهم عَجَزَ أصنامهم، ونَقَصَ مَنْ اتخذوهم آلهة من أوثانهم؛ لِيُسَفَّهُ
بذلك آراءهم، وليُنَبِّهَهُمْ إلى ذمهم أحوالهم وأفعالهم، وخِسَّةِ هِمَمِهِمْ، ونُقْصَانِ
عقولهم.

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيء مما به يُطالَبُونَ، وليس لهم صواب عما يُسألُونَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ
أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

(١) الحمال: ما يتحملة الإنسان عن غيره من دية أو غرامة مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها
الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين. (لسان العرب ١١/ ١٨٠ مادة:
حمل).

أمسكها بقدرته، وأتقنهما بحكمته، وربّتهما بمشيئته، وخلّق أهلّهما على موجب قضيته، فلا شبيهة في إبقائهما وإفنائهما يُسَاهِمُهُ، ولا شريك في وجودهما ونظامهما يُقَاسِمُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِيمَانِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

ليس لقولهم تحقيق، ولا لِعَهْدِهِمْ وُضْمَانِهِمْ توثيق، وما يَعِدُونَ من أنفسهم فصريح زور، وما يُوهِمُونَ من وفائهم فَصْرَفٌ تغرير. . وكذلك المرید في أوان نشاطه تُمَنِّيهِ نَفْسُهُ فتظاهر أمام مَنْ تقدّمه حالاً بأنه عاهد الله، وأنه أَكَدَّ عقده مع الله. . فإذا عَضَّتْهُ شهوته، وأراد الشيطان أن يكذبه صَرَعه بكيده، وأركسه^(١) في هوة غيّه، ومُنِيَّة نَفْسِيهِ؛ فيسودّ وَجْهَهُ، وتذهب عند الله وَجَاهَتُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

في الجملة ما خاب له ولي، وما ربح له عدو، ولا ينال الحقيقة مَنْ انعكس قَضُدُهُ، بل يرتدّ عليه كَيْدُهُ؛ وهو سبحانه يُدْمِرُ على أعدائه تدميراً ويوسع لأوليائه فضلاً كبيراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِنَ دَابَّةٍ وَلَا يَكُن يُؤَخِّرُهُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَلِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَانَ اللَّهُ كَانَ يِعْبَادُوهُ بِبَصِيرَةٍ﴾.

لو عَجَلْ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهُم القليلة به، وما اتسعت أيامهم القصيرة له، فأخّر ذلك ليوم الحشر. . فإنّه طويل. والله على كل شيء قدير، وبأمر عباده خبير بصير.

(١) أركسه: ركسه أي ردّ أوله على آخره، وقلّبه على رأسه.

سورة يس

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» آية افتتح بها خطابه؛ فَمَنْ عَلِمَهَا أَجَزَلُ ثَوَابِهِ، وَمَنْ عَرَفَهَا أَكْثَرَ إِجَابِهِ، وَمَنْ أَكْبَرَ قَدْرَهَا أَكْرَمَ مَا بِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾.

يقال معناه: يا سيد. ويقال: الياء تشير إلى يوم الميثاق، والشين تشير إلى سيره مع الأحباب؛ فيقال بحق يوم الميثاق وسيرِّي مع الأحباب، وبالقرآن الحكيم: -

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي إِنَّكَ - يا محمد لَمِنَ المرسلين، وَإِنَّكَ لَعَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

أي هذا الكتاب تنزيل (العزیز): المتكبر الغني عن طاعة المطيعين، (الرحيم): الْمُتَفَضَّلُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنذِرْ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

أي خَصَصْنَاكَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لِتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا حَصَلُوا فِي أَيَّامِ الْفِتْرَةِ، وَانْقَرَضَ أَسْلَافُهُمْ عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي حَقَّ الْقَوْلُ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى أَكْثَرِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَى جَحْدِهِمْ، وَانْهَمَكُوا فِي جَهْلِهِمْ، فَالْمَعْلُومُ مِنْهُمْ وَالْمَحْكُومُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلَاقًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾.

سَجَّرُهُمْ إِلَى هَوَانِهِمْ وَصَغَرَهُمْ، وَسَنَدَقَهُمْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

أَغْرَقْنَاهُمُ الْيَوْمَ فِي بَحَارِ الضَّلَالَةِ وَأَخْطَنَّا بِهِمْ سَرَادِقَاتِ الْجَهَالَةِ. وَفِي الْآخِرَةِ سَتَّرْنَاهُمْ فِي النَّارِ وَالْإِنْكَالِ، وَنَضِيقُ عَلَيْهِمُ الْحَالَ، بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾: أَعْمَيْنَاهُمُ الْيَوْمَ عَنْ شُهُودِ الْحُجَّةِ، وَنُلْبِسُ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ سَبِيلَ

الْمَحَجَّةَ، فَيَتَعَثَّرُونَ فِي وَهْدَاتِ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ، وَيَبْقُونَ فِي حُرْقَاتِهَا مَهْجُورِينَ، مَطْرُودِينَ مَلْعُونِينَ، لَا تَقْطَعُ عَنْهُمْ مَا بِهِ يُعَذَّبُونَ، وَلَا تَرْحَمُهُمْ مِمَّا مِنْهُ يَشْكُونَ؛ تَمَادَى بِهِمْ جِزْمَانُ الْكُفْرِ، وَأَحَاطَتْ بِهِمْ سَرَادِقَاتُ الشَّقَاءِ، وَوَقَعَتْ عَلَيْهِمُ السَّيِّئَةُ بِالْفِرَاقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

مهجور الحق لا يصله أحد، ومردود الحق لا يقبله أحد. والذي قصمته المشيئة وأقمته القضية لا تنجعه فيه النصيحة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

أي إنما ينتفع بإنذارك من اتبع الذكر؛ فإن إنذارك - وإن كان عاماً في الكل وللكل - فإن الذين كفروا على غيرهم يصرون. . . ألا ساء ما يخكمون، وإن كانوا لا يعلمون قبح ما يفعلون. أما الذين اتبعوا الذكر، واستبصروا، وانفتحوا بالذي سمعوه منك، وبه عملوا - فقد استوجبوا أن تبشرهم؛ فبشرهم؛ وأخبرهم على وجه يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم.

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: كبير وافر على أعمالهم - وإن كان فيها خلل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾.

نحیی قلباً ماتت بالقسوة بما تُمطرُ عليها من صوب الإقبال والزلفة، ونكتب ما قدّموا.

﴿وَأَثَرَهُمْ﴾: خطاهم إلى المساجد، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا، وترقرق^(١) دموعهم على عرصات^(٢) خدودهم، وتضاعد أنفاسهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

أثبتنا تفصيله في اللوح المحفوظ. . . لا لتناسينا لها - وكيف وقد أحصينا كل شيء عدداً؟ - ولكننا أحيينا إثبات آثار أحيائنا في المكنون من كتابنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَحْصَيْنَاهُ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

انقرض زمانهم ونسي أوانهم وشأنهم! ولكننا نتذكر أحوالهم بعد فوات أوقاتهم، ولا نرضى بالآلا يجري بين أحيائنا وعلى ألسنة أوليائنا ذكراً الغائبين والماضين، وهذا مخلوق يقول في صفة مخلوق:

إِذَا نَسِيَ النَّاسُ إِخْوَانَهُمْ وَخَانَ الْمَوْدَةَ خِلَائِنَهَا

(١) ترقرق الدمع: دار في العين.

(٢) عرصات: (ج) عرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.

فَعُنْدِي لِإِخْوَانِيَ الْغَائِبِينَ صَحَائِفُ ذِكْرِكَ عَنْوَانُهَا
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن سَمَاءٍ إِنَّا نُنْتَهُ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (١).

قال الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وليس علمنا إلا بما أمرنا به من التبليغ والإندار (٢).

﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لنرجمكم، ولنضعنن، ولنفعلنن. فأجابهم الرسل: إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف تلقون ما توعدون (٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْئَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

في القصة أنه جاء من قرية فسماها مدينة، وقال من أقصى المدينة، ولم يكن أقصاها وأدناها ليتفاوتا بكثير، ولكنه - سبحانه - أجرى سُنَّتَه في استكثار القليل من فعل عبده إذا كان يرضاه، ويستنزُر الكثير من فضله إذا بذله وأعطاه.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْئَلْكُمْ أَجْرًا﴾ فأبلغ الوعظ وصدق النصح. ولكن كما قالوا:

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح

فلما صدق في حاله، وصبر على ما لقي من قومه، ورجع إلى التوبة، لقاها حُسن أفضاله، وآواه إلى كتف إقباله، ووجد ما وعده ربُّه من لُطف أفضاله (٤).

﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

تمنى أن يعلم قومه حاله، فحقق الله مَنَاه، وأخبر عن حاله، وأنزل به خطابه، وعرف قومه ذلك. وإنما تحنى وأراد ذلك إشفاقاً عليهم، ليعملوا مثلما عمل ليجدوا مثلما وجد.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

ما كانت إلا قضية مينا بعقوبتهم، وتغييراً لما كانوا به من السلامة إلى وصف البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْبِأْدِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(٣) الآية (١٩) لم ترد.

(٤) الآيات من (٢٢) حتى (٢٥) لم ترد.

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) الآية (١٧) لم ترد.

إن لم يتحسروا هم اليوم فلهم موضع التحسر؛ وذلك لانخراطهم في سلك واحد من التكذيب ومخالفة الرسل، ومناوئة أوليائه - سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ وَإِن كَلَّمْنَا جَمِيعًا لَّذِينَ نَحْنُ بِمُحْضَرُونَ﴾ .

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية، وما عاملنا به الأمم الخالية، فلم يرجع إليهم أحد، فكلمهم في قبضة القدرة، ولم يُقتل أحدًا، ولم يكن لواحد منهم علينا عون ولا مدد، ولا عن حكمتنا ملتحذ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّهُ هُمُ الْأَرْضُ أَلَمِيَّتُهُ أَحْيَيْبِنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْتُهُ يَا كُفْرُونَ﴾ .

لما كان أمر البعث أعظم شُبُهَيْهِمْ، وكَثُرَ فيه إنكارهم كان تكرار الله سبحانه لحديث البعث، وقد ضَرَبَ - سبحانه - المَثَلُ له بإحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات. والعَجَبُ مِمَّنْ يُنْكِرُ علومَ الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما في القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال، وتحكيم أدلة العقول؟ ولكن يَهْدِي اللُّهُ لنوره من يشاء. ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم، واشتغلوا بأهم شيء عندهم لَمَا ضَيَّعُوا أصول الدين، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد، وأدَعَوْا في الفروع رتبة الإمامة والتصدُّر. . ويقال في معناه:

يا مَنْ تَصَدَّرَ في دست الإمامة في مسائل الفقه إملاءً وتدريساً

غَفَلْتَ عن حجج التوحيد تُحْكِمُهَا شَيَّدْتَ فرعاً وما مهَّدت تأسيساً

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

تُنْبِئُهُ هذه الآية على التفكُّرِ في بديع صنعه؛ فقال: تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأشياء المتشاكلة في الأجزاء والأعضاء، من النبات، ومن أنفسهم، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون تفصيلها، كيف جعل أوصافها في الطعوم والروائح، في الشكل والهيئة، في اختلاف الأشجار في أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها في تفرُّقها واجتماعها، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ: الطبائع؛ في الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واختلاف الأحداث التي يخلقها اللُّهُ عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان. ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، فالأوقات متجانسة، والأزمان، متماثلة، والجواهر متشاكله. . وهذه الأحكام مختلفة، ولولا تخصيص حُكْم لكل شيء بما اختص به لم يكن تخصيص بغير ذلك أولى منه. وإنَّ مَنْ كَحَلَّ اللَّهُ عِيُونَ بصيرته بيئمن التعريف، وقرن أوقاته بالتوفيق، وأتمَّ نظره، ولم يصدده مانع. فما أقوى في المسائل حُجَّتَه! وما أوضح في السلوك نَهْجَه!

إِنَّهَا لِأَقْسَامٍ سَبَقَتْ عَلَى مَنْ شَاءَهُ الْحَقُّ بِمَا شَاءَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَلَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

نُبْطِلُ ضَوْءَ النَّهَارِ بهجوم الليل عليه، وتزِيلُ ظِلَامَ اللَّيْلِ بهجوم النهار عليه، كذلك نهارُ الوجود يدخل على ليالي التوقف، ويقود بيد كرمه عصاً مَنْ عَمِيَ عن سلوك رُشْدِهِ فيهديه إلى سَوَاءِ الطَّرِيقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾.

على ترتيب معلوم لا يتفاوت في فصول السنة، وكل يوم لها مشرق جديد ولها مغرب جديد. . وكل هذا بتقدير العزيز العليم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال، ضعيف، مختصر الفهم. . ثم يُفَكِّرُ حتى تزداد بصيرته. . إنه كالقمر يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلما ازداد من الشمس دُتُوا ازداد في نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفي ولا يُرَى. . ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بداراً - مَنْ الذي يُصَرِّفُه في ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيه الشمس عارفٌ أبدأ في ضياء معرفته، صاحبٌ تمكين غير مُتَلَوِّن^(١)، يشرق من برج سعاده دائماً، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحب.

وشبيه القمر عبدٌ تتلون أحواله في تنقله؛ فهو في حال من البسط يترقى إلى حدِّ الوصال، ثم يُرَدُّ إلى الفترة، ويقع في القبض مما كان به من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم وجود الحق - سبحانه - فيؤفِّقُه لرجوعه عن فترته، وإفاقته عن سكرته، فلا يزال يصفو حاله إلى أن يَقْرُبَ من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص

(١) انظر حديث القشيري عن التلويح والتمكين بالرسالة القشيرية ص ٧٨ - ٨٠.

والزوال . . كذلك حاله إلى أن يُحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله، كما قالوا:

ما كنت أشكو ما على بَدَنِي من كثرة التلوين من بُدْتِهِ^(١)
وأشدوا:

كُلُّ يَوْمٍ تَتَلَوْنَ غيرُ هذا بِك أَجْمَل
قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّ لَهْمَ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ .

الإشارة إلى حَمَلِ الخَلْقِ في سفينة السلامة في بحار التقدير عند تلاطم أمواجهها بفنونٍ من التغيير والتأثير . فكَم من عبِدِ غرق في اشتغاله في ليلة ونهاره، لا يستريح لحظة من كَدِّ أفعاله، ومقاساةِ التعب في أعماله، وجمَع ماله . فَجَرَّه ذلك إلى نسيانِ عاقبته ومآله، واستيلاء شُغْلِهِ بولده وعباله على فِكْرِهِ وباله - وما سَغِيه إلا في وباله!

وكم من عبِدِ غرق في لُجَّةِ هواه، فَجَرَّته مناه إلى تَحْمِلِ بلواه، وخسيس من أمر مطلوبه ومُبْتَنَاه . . ثم لا يَصِلُ قط إلى منتهاه، خَسِرَ دنياه وعقباه، وبَقِيَ عن مولاه!
ومن أمثال هذا وذلك ما لا يُحْصَى، وعلى عقلٍ مَنْ فَكَّرَ واعتبر لا يَحْفَى .

أمَّا إذا حفظ عبداً في سفينة العناية أفرده - سبحانه - بالتحرُّرِ من رِقِّ خسائس الأمور، وشغَلَه بظاهره بالقيام بحقِّه، وأكرمه في سرائره بفراغ القلب مع ربِّه، ورقَّاه إلى ما قال: «أنا جليسٌ مَنْ ذكرنِي» . . وقُل في علُوِّ شأنٍ مَنْ هذه صفته . . ولا حَرَجَ!
قوله جل ذكره: ﴿وَأِن نُّشَأُ نَفَرِفَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ .
لولا جُودُهُ وقَضْلُهُ لحلَّ بهم من البلاء ما حلَّ بأمثالهم، لكنه بِحُسْنِ الأفضال، يحفظهم في جميع الأحوال .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الآيات .
هذه صفاتٌ مَنْ سَيَّبَهُمْ^(٢) في أودية الخذلان، ووَسَمَهُم بِسِمَةِ الحرمان، وَأَصْمَهُم عن سماع الرُّشد، وصدَّهم بالخدلان عن سلوكِ القصد، فلا تأتيهم آيةٌ في الزُّجْرِ إلا قابلوها بإعراضهم، وتجافوا عن الاعتبار بها على دوام انقباضهم، وإذا أَمُرُوا بالإِنْفَاقِ والإطعام عارضوا بأنَّ الله رازقُ الأنام، وإن يَشَأْ نَظَرَ إليهم بالإِنْعَام^(٣) :
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِقُوا مَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ

أَلْطَمَهُمْ﴾ .

(٢) سيئه: أطلقه وتركه وخلاه يسبب حيث شاء .

(١) البدة: النصيب من كل شيء .

(٣) الآية (٤٦) لم ترد .

ثم قال جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

يستعجلون هجوم الساعة، ويستبطنون قيام القيامة - لا عن تصديق يُريحهم من شكهم، أو عن خوف يمنعهم عن غيهم، ولكن تكديباً لدعوة الرسل، وإنكاراً لصحة النبوة، واستبعاداً للنشر والحشر.

ويوم القيامة هم في العذاب مُخَضَّرُونَ، ولا يُكشَفُ عنهم، ولا يُنصَرُونَ.
قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا بُولِئَانَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ .
يموتون قهراً، ويُخشَرُونَ جَبْرًا، ويلقون أمراً، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً.

﴿قَالُوا يَا بُولِئَانَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يموتون على جهل، لا يعرفون ربهم، ويُبغثون على مثل حالهم، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهُمْ، ويعدون ما كانوا فيه في قبورهم من العقوبة الشديدة - بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْنَ من الآلام الجديدة - نوماً ورقاداً، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً، لا يذوقون بزداً ولا شراباً إلا حميماً وغمساقاً، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً^(١): فقد قال جل ذكره:-

﴿فَالْيَوْمَ لَا تَنْفَعُكُمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ .

إنما يضاف العبد إلى ما كان الغالب عليه ذكوره بمجامع قلبه، فصاحب الدنيا مَنْ في أسرها، وأصحاب الجنة مَنْ هم طُلابها والساعون لها والعاملون لِنيلها؛ قال تعالى مخبراً عن أحوالهم وأحوالهم: ﴿لِيُنزِلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾ [الصفافات: ٦١]. وهذه الأحوال - وإن جَلَّتْ منهم ولهم - فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تنقاصر، قال ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُله»^(٢) وَمَنْ كان في الدنيا عن الدنيا حُرّاً فلا

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٧٩/٨، ١٠/٢٦٤ - ٤٠٢)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٣٦١) والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/١٥٧، ٢٤٤، ٦٢٧، ٩/٢٣٦)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٨٦)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٢٨٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/١١٦٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٧)، وابن الجوزي في (العلل المنتاهية ٢/٤٥٢) يقال: رجل أبله بين البله والبلالة: وهو الذي غلب عليه سلامة الصدر وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. (لسان العرب ١٣/٤٧٧ مادة: بله).

يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حراً، والله يختص برحمته من يشاء.

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ وهم أهل الحضرة والدنو، لا تشغلهم الجنة عن أنس القربة، وراحات الوصلة، والفراغ للرؤية.

ويقال: لو عَلِمُوا عَمَّنْ شُغِلُوا لَمَا تَهَنَّأُوا بما شُغِلُوا.

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ كأنه يخاطبهم مخاطبة المعاينة إجمالاً لهم كما يقال: الشيخ يفعل كذا، ويُرَادُ به: أنت تفعل كذا.

ويقال: إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار، ولم يدخلوا الجنة بَعْدَ لِعِضْيَانِهِمْ؛ فيقول الحق: عبيدي.. أهل النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شُغْلٍ عنك لأنهم في لذاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم؛ فليس لك اليوم إلا نحن!

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم، وذلك من أتم الأشغال، وهي أشغال مؤنسة مريحة لا مُتَعَبَةٌ مَوْحِشَةٌ.

ويقال: الحق لا يتعلّق به حقٌّ ولا باطل؛ فلا تَنَافِي بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم، وشهودهم مولاهم، كما أنهم اليوم مشغولون مستديمون لمعرفته بأي حالة هم، ولا يَفِدُحُ اشتغالهم - باستيفاء حُظوظهم - في معارفهم.

ويقال شغّل نفوسهم بشهواتها حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبة من إحساس النَّفْسِ الذي هو أصعب الرُّقَبَاءِ، ولا شيء أعلى من رؤية الحبيب مع فُقْدِ الرقيب.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِكِ مُتَّكُونَ﴾.

﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾: قيل أشكالهم في الحال والمنزلة، كقوله: ﴿أَحْسُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا

وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢] وقيل حَظَايَاهُمْ^(١) من زوجاتهم.

﴿مَنْ فِيهَا فَكِيهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾.

﴿مَنْ فِيهَا فَكِيهَةٌ﴾: أي نصيب أنفسهم. ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت

دون حظوظ النفس.

﴿وَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾: ما يريدون، ويقال تسلم لهم دواعيهم، والدعوى - إذا كانت

بغير حق - معلولة.

(١) حظيت المرأة عند زوجها: تمكنت من قلبه وأحبها.

قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ .

يسمعون كلامه وسلامه بلا واسطة، وأكد ذلك بقوله: «قولا» .

ويقوله: ﴿مِّن رَّبِّ﴾ ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير .

﴿مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ والرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال ما يُسَلِّم عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة . ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنْقِيَهُمْ في حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبهم دهش، ولا تلحقهم حيرة .

ويقال إنما قال: ﴿مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفْسٌ، ولرجائهم مساع؛ فإن الذي يحتاج إلى الرحمة العاصي .

ويقال: قال ذلك ليعلم العبد أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه، وإنما وصل إليه برحمة ربه .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمْتَرُوا أَيَّامَ الْمَجْرُمُونَ﴾ .

غيبه الرقيب أتم نعمة، وإبعاد العدو من أجل العوارف^(١)؛ فالأولياء في إيجاب القرية، والأعداء في العذاب والحجة .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ أَعَاهَدَ إِلَيْكُمْ يَنْبِيءَ مَا دَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ .

لو كان هذا القول من مخلوق إلى مخلوق لكان شبه اعتذار؛ أي لقد نصحتكم ووعظتكم، ومن هذا حَدَرْتُكُمْ، وكم أوصلت لكم القول، وذكرْتُكُمْ فلم تقبلوا وِعْظِي، ولم تعملوا بأمرِي، فأنتم خالفتُم، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُم، وبذلك سَبَقَتْ القضية مِنَّا لكم^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنصِتُهُمْ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

اليوم سَخَّرَ الله أعضاء بَدَنِ الإنسان بعضها لبعض، وغداً ينقض هذه العادة، فتخرج بمض الأعضاء على بعض، وتجري بينها الخصومة والنزاع؛ فأما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مُبِيدَةٌ، وأما العَصَاة من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعض أعضائهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان، وكما قيل:

بيني وبينك يا ظلومُ الموقِفُ والحاكم العَدْلُ الجوادُ المُنصِفُ

(١) العوارف: (ج) العارفة: العطفية والإحسان .

(٢) الآيات من (٦٢ حتى ٦٤) لم ترد .

وفي بعض الأخبار المروية المُسْتَدَّةُ أَنَّ عَبْدًا تشهد عليه أعضاؤه بالزَّلَّةَ فيتطير شِعْرَهُ من جفن عينيه، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق: تكلمي يا شعرة جُفْنِ عَبْدِي واحتجبي عن عبدِي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، وينادي منادٍ: هذا عتيقُ الله بِشِعْرَةِ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

يُرَدُّه إذا استوى شبابه وقُوَّتُهُ إلى العكس، فكما كان يزداد في القوة يأخذ في النقصان إلى أن يبلغ أُرْدَلَ العمر في السن فيصير إلى مثل حال الطفولية في الضعف، ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شيء، كما قيل:

طوى العصران ما نشره مني وأبلى جدتي نَشْرَ وطِي
أراني كل يوم في انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع النقصان شيء

هذا في الحث والمباني دون الأحوال والمعاني؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حَدَّ الخَرْفِ^(٢) فَيَخْتَلُ رأيه وعَقْلُهُ. وأهل الحقائق تشيب ذوائبهم ولكن محاببهم ومعانيهم في عنفوان^(٣) شبابها، وطراوة جدتها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُوَّةٌ مُبِينٌ﴾.

كلامه ﷺ كان خارجاً عن أوزان الشعر، والذي أتاهم به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر، ولا من طرق الخطباء.

تَحَيَّرَ القَوْمُ في بابه؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق^(٤).

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئَانَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ذَكَرَ عَظِيمَ مِثْنِهِ عَلَيْهِم، وجميل نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه الانتفاع.

ولفظ ﴿أَيْدِيئَانَا﴾ تَوَسَّعَ؛ أي مما عملنا وخلقنا، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها، وبشرب ألبانها، وبالحنل عليها، وقطع المسافات بها، ثم بأصوافها وأوبارها وشعرها ثم بعظم بعضها. . فطالبتهم بالشكر عليها، ووصفهم بالتقصير في شكرهم.

(١) الآيتان (٦٦، ٦٧) لم تردا.

(٢) الخرف: فساد العقل من الكبر أو المرض.

(٣) يقال: هو في عنفوان شبابه؛ أي: في نشاطه وحدثه.

(٤) الآية (٧٠) لم ترد.

ثم أظهر - ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكاية - أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان:-

﴿وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَبْرَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَجِدُوا مُمْضِرُونَ﴾.

اكتفوا بأمثالهم معبودات لهم، ثم سأل نبيه - ﷺ بأن قال له:-

﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وإذا علم العبد أنه بمرأى من الحق هان عليه ما يقاسيه، ولا سيما إذا كان في الله.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

أي شدذنا أسرهم، وجمعنا نسرهم، وسوينا أعضاءهم، وزكبتنا أجزاءهم، وأودعناهم العقل والتمييز... ثم إنه ﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾: ينازعنا في خطابه، ويعترض علينا في أحكامنا بزعمه واستصوابه، وكما قيل:

أَعْلَمُهُ الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

قوله جل ذكره: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُنحِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ﴾.

مهّد لهم سبيل الاستدلال، وقال إن الإعادة في معنى الإبداء، فأى إشكال بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ وإن الذي قدر على خلق النار في الأغصان الرطبة من المرخ^(١) والعفار^(٢) قادر على خلق الحياة في الرمة^(٣) البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مثل الشيء كالقدرة عليه لاستوائهما بكل وجه، وإنه يحيي النفوس بعد موتها في العرصة كما يحيي الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، ويحيي القلوب بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوس أهل الكفر بالهوى والطغيان^(٤).

(١) المرخ: من العضاء وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سبلة قضبان دقاق، وينبت من شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به. (اللسان ٥٤/٣ مادة: مرخ).

(٢) العفار: شجر فيه نار، يسوى من أغصانه الزناد فيقتدح بها (اللسان ٥٨٩/٤ مادة: عفر).

(٣) الرمة: العظام البالية (ج) رمم ورمام.

(٤) الآية (٨١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يَخْلِقُهُ وَقَدْرَتُهُ . وَأَخْبَرْنَا أَنَّهُ تَتَعَلَّقُ بِالْمَكُونِ كَلِمَتُهُ عَلَى مَا يَجِبُ فِي صِفَتِهِ ، وَسَيِّانٍ عِنْدَهُ خَلْقُ الْكَثِيرِ فِي كَثْرَتِهِ وَالْقَلِيلِ فِي قَلَّتِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينَهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

أَيُّ بِقَدْرَتِهِ ظُهُورُ كُلِّ شَيْءٍ : فَلَا يَحْدُثُ شَيْءٌ - قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ - إِلَّا بِإِبْدَاعِهِ وَإِنْشَائِهِ ، وَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا بِإِبْقَائِهِ ، فَمَنْهُ ظُهُورُ مَا يُخْدِثُ ، وَإِلَيْهِ مُصِيرُ مَا يَخْلُقُ .

سورة الصافات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة إذا استولت على قلب أزالته عنه أولاً من الدارين أربّه، ثم ألزمت على وجه التبعية حرّبه، ثم شرّفت من حيث الهمة طلبّه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ . .

افتتح اللّه هذه السورة بالقسم بالصافات، وهم الملائكة المصطفّة في السماء وفي الهواء، وفي أماكنهم على ما أمرهم الحق - سبحانه - من المكان يلزمونه، والأمر يعانقون؛ يُسَبِّحُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ، وبما يأمرهم به يطيعونه.

﴿فَالرَّجْرَجَاتِ رَجْرًا﴾ .

عطفهم على ما تقدّم بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحاب. ويقال يزجرون الناس عن المعاصي. ويقال هي الخواطر الزاجرة عن المناهي.

﴿فَالثَّلَاثَاتِ ذِكْرًا﴾ .

يقال «الصافات» الطيور المصطفّة في السماء، ﴿فَالثَّلَاثَاتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة يتلون كتاب الله، ويتلون الوحي على الأنبياء عليهم السلام.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ .

هذا هو المقسوم عليه.

أخبر أنه سبحانه واحد في ملكه، وذلك لأنهم تعجبوا أن يقوم الواحد بجميع أحوال العالم. ومعنى كونه واحداً تفرّده في حقه عن القسمة، وتقدّسه في وجوده عن الشبية، وتنزّهه في ملكه عن الشريك؛ واحد في جلاله، واحد في استحقاق جماله، واحد في أفعاله، واحد في كبريائه بنعت علائه، ووصف سنائه.

قوله جل ذكره: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ .

مالك السموات والأرض وما بينهما، وخالقهما، وأكساب العباد داخلّة في هذا ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ مشارق النجوم والشمس والقمر، ومشارك القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِرِيَنَةِ الْكُوكَبِ وَحِفْظًا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ .

زَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بالنجوم، وقلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال، وحفظ السموات بأن جعل النجوم للشياطين رجوماً، وكذلك زَيْنَ القلوب بأنوار التوحيد، فإذا قُرِبَ منها الشيطان رَجَمَهَا بنجوم معارفهم^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن خَطَفَ النَّطْفَةَ فَاتَّبَعُهُ يَشَابُ نَمِيطٍ﴾ .

كذلك إذا اغتتم الشيطان من الأولياء أن يُلقِيَ إليهم شيئاً من وساوسه تَذَكَّرُوا، فإذا هم مُبْصِرُونَ، ورجعوا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَسْتَفْنِيهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ .

عَرَفَهُمْ عَجَزَهُمْ عن الإثبات، وضعفهم في كل حال، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ .

حقيقة التعجب تغير النفس مما لم تجر العادة بحدوث مثله. وتقرأ ﴿عَجِبْتَ﴾ بالفتح خطاباً بالرسول ﷺ. وبالضم فكأن الحق يقول ذلك من قبل نفسه بل عجب، ويقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشيء، إما في القدر، أو الإكثار في الذم أو في المدح. قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ .

إذا ذُكِّرُوا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكير فيها، ويقولون: ليس هذا الذي أتى به محمدٌ إلا سِحراً ظاهراً^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا أَوَدَا لَمُبْعُوثُونَ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ .

قالوا: أئذا متنا، تفرقت أجزاءنا، وصرنا رميمًا. . أئنا لمبعوثون؟ أو أبائنا الأولون يُبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد؛ فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مسدودة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ .

قل لهم يا محمد؛ نعم، وعلى وصف الصغر ما يبعثكم، وبزجرة واحدة يحشركم، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم.

(١) الآيتان (٨، ٩) لم تردا.

(٢) لزب الطين: لصق وصلب أو لزق. (اللسان ٧٣٨/١ مادة: لزب).

(٣) الآيتان (١٤، ١٥) لم تردا.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِي هُنَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ .
دوا بالويل على أنفسهم! ويقال لهم: هذا يوم الفصل الذي كنتم تكذبون به،
وقد عايتموه اليوم .

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْتَدَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ وَفَقُّوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ .

أراد بأزواجهم قرناءهم وأشكالهم ومن عمل مثل أعمالهم، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير . . . وكذلك في هذه الطريقة: من أعان صاحب فترة في فترته، أو صاحب زلة على زلته - كان مشاركاً له في عقوبته، واستحقاق طرده وإهانته .

قوله: ﴿وَفَقُّوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ﴾: مقام السؤال مقام صعب؛ قوم يسألهم المَلَكُ وقوم يسألهم المَلِكُ؛ فالذين تسألهم الملائكة أقوام لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف، وأقوام لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف، وهم قسمان: الخواص يسترهم الحق عن اطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة، وأقوام هم أرباب الزلات يرحمهم الله فلا يفضحهم، ثم إنهم يكونون في بعض أحوالهم بنعت الهيبة، وفي بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة، وفي الخبر: «أن قوماً يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك» وهؤلاء أصحاب الخصوص في التحقيق: فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم: ﴿كَفَىٰ يَنْفِسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فإذا قرؤوا كتابهم يقال لهم: من عمل هذا؟ وما جزاؤه؟ فيقولون: جزاؤه النار. فيقال لهم: أدخلوها بحكمكم .

ثم يقال لهم في بعض أحوال استيلاء الفرع عليهم:

قوله جل ذكره: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُّسْتَسْمِعُونَ وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ .
يُورِك بعضهم الذنب على بعض؛ فهذا يتبرأ من صاحبه، وصاحبه يتبرأ منه، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزي والهوان، ويجمعهم في اللعن والإبعاد^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنذَرْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ .
يشترون في العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم، كما أنهم يشتركون في الزلة ولكن تختلف مقادير زلاتهم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

احتجابهم بقلوبهم أوقعهم في هدة عذابهم؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته . ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

(١) الآيات من (٢٨ حتى ٣٢) لم ترد .

عَنْ عِبَادَتِهِ ﴿ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٣] فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَلَا لَذَّةَ لَهُ إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، قَالَ قائلهم:

ويظهرُ في الهوى عِزُّ الموالِي فيلزُمني له ذُلُّ العبيد
قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأْرَاكُمُ الْعَالَمِينَ لَشَاعِرٍ تَجْتُمِنُ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ
إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ .

لَمَّا لم يحتشموا من وصفه - سبحانه - بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب في وصف أنبيائه .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نَجْرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ .

الاستثناء راجع إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ .

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحق - سبحانه - بالعبودية، والذي يشوبُ عمله رياءً فليس بمخلص .

ويقال: الإخلاصُ تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وفي الخبر: «يا معاذ، أخلص العملَ كيفيك القليل منه» .

ويقال: الإخلاصُ فقدُ رؤية الأشخاص .

ويقال: هو أن يلاحظ محل الاختصاص .

ويقال: هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص .

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوْقَهُ وَهُمْ مُكَرَّمُونَ﴾ .

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ معينة، وفي وقت الرسول عليه السلام: «مَنْ كان له رزقٌ معلومٌ كان من جملة المياسير، وهذه صفة أهل الجنة؛ فلهم في الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم ولأسرارهم، فالأغنياء لهم رزقٌ معلوم لأنفسهم والفقراء لهم رزقٌ معلوم لقلوبهم وأسرارهم .

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مَكَرَهُمْ﴾ : من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ الله في كل وقت، وكذلك اليومَ الخطابُ واردةً من الله على قلوب الخواص في كل وقت بكل أمر .

قوله جل ذكره: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ .

يستأنس بعضهم برؤية بعض، ويستروح بعضهم إلى لقاء بعض .

قوله جل ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْعَاتٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ .

شراب يوجب لهم الطردَ ولا وحشةَ هناك، شراباً يُخضِرهم ولا يُسكِرهم، لأنه قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ .

فلا تغتال عقولهم، ولا تُزِيل حِشْمَتَهُمْ، ولا تَرْفَعُ عَنْهُمْ هَيْبَتَهُمْ؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر، وآخرون يُسْقَوْنَ في الحضور - وهم على نعت القُرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَلْبِرَاتُ الْطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّ بَيْضَ مَكُونٍ﴾.

لا يُنظَرْنَ إلى غير الولي، ثم الولي قد ينظر إليهم، وفيهم من لا ينظر إليهم:

جُنِينًا بِلَيْلَى وهي جُنُتٌ بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ...﴾.

يتذكرون فيما بينهم، ويذكرون من معارفهم من لا يؤمن باللّه، وما آمن به المؤمنون فيخلق اللّه لهم إطلاعا عليه وهم في النار يحترقون^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ تَاللّهِ إِنْ كِدَتْ لُكُوتِ لُؤْلُؤًا وَنَوْمًا رَمِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

نطق الولي بالحق ولكنه لم يُصرّح يعين التوحيد؛ إذ جعل الفضل واسطة، والأولى أن يقول: ولولا ربي لكنت من المحضرين^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِيُثِلَ هَذَا فليُثِلَ الْعَمِلُونَ﴾.

يقال: بل الملائكة يقولون لهم هذا، ويقال: الحق - سبحانه - إذا أراهم مقامهم في الجنة يقول لهم: ﴿لِيُثِلَ هَذَا فليُثِلَ الْعَمِلُونَ﴾.

ويقال إن كان العابد يقول هذا، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بدت شظية من الحقائق وتباشير الوصلة، أو ذرة من نسيم القربة فبالحرى أن يقول القائلون: ليُثِلَ هذه الحالة تُبَدِّل الأرواح.

على مثل سَلَمَى يَقْتُلُ المرء نفسه وإن بات من سَلَمَى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات، وتتناصر الإشارات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ سَجْرَةُ الزَّقُومِ﴾.

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء، وما هم به من صفة المذلة والعذاب في النار؛ من أكل الضريع، ومن شراب الزقوم التي هي في قُبْح صورة الشياطين، ثم إن مرجعهم إلى الجحيم... إلى آخر القصة^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنَعَمَ الْمُجِيبُونَ وَوَعَيْنَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

لَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِ جِين كَذْبُوهُ، ولم يسمعوا منه ما كان يقول من حديثنا.. رَجَعَ إِلَيْنَا، فحاطبنا وخطبناه، وكلمنا وكلمناه، ونادانا فناديناه، وكان لنا

(٢) الآيات (٥٨، ٥٩) لم تردا.

(١) الآيات من (٥١ حتى ٥٥) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٣ حتى ٧٤) لم ترد.

فَكُنَّا لَهُ، وَأَجَابْنَا فَأَجْبَاهُ. . . فَلَنِعْمَ الْمَجِيبُ كَانَ لَنَا وَلنِعْمَ الْمَجِيبُونَ كُنَّا لَهُ!

﴿مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾: شتان بين كُرْبِ نوح وبين كُرْبِ أهله!
وما يبكون مثل أخي ولكن أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا الْبَاقِينَ﴾.

لأنّ الناس كلهم من أولاد نوح، فإنّ مَنْ كان معه في السفينة لم يتناسلوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

يعني أنّ إبراهيم من شيعة نوح عليه السلام في التوحيد - وإنّ اختلفنا في فروع شرعيهما.

﴿قلب سليم﴾: لا آفة فيه. ويقال لذيغ من المحبة. ويقال: سليم من محبة

الأغيار. ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته. ويقال: مستسلم لله في قضائه واختياره.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوِيءَ مَاذَا عَبُدُونَ؟﴾.

سألهم على جهة الإنكار عليهم، والتنبيه لهم على موضع غلطتهم^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟﴾.

إذا لقيتموه - وقد عبّدتهم غيره. . . فما الذي تقولون له؟ وكيف بكم في مقام

الخجلة مما بين أيديكم وإن كنتم اليوم - غافلين عنه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

قيل أراد «إلى» النجوم فأقام «في» مقام «إلى».

﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: كانت تأتيه الحمى في وقت معلوم، فقال: قرُب الوتث الذي

أسقم فيه من أخذ الحمى إياي، فكأنه تعلل بذلك ليتأخّر عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم لتمشية ما كان في نفسه من كسر الأصنام.

ويقال كان ذلك من جملة المعاريض. وقيل أرى من نفسه موافقة قولهم في

القول بالنجوم لأنهم كانوا يقولون بالنجوم، فتأخّر بهذا السبب عنهم.

وكان إبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أن اللّة - عزّ وجلّ - قد عرفه بطريق

الوحي أنه يخلق - سبحانه - باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب.

(٢) الآية (٨٦) لم ترد.

(١) الآيات من (٧٩ حتى ٨٢) لم ترد.

ثم لما ذهبوا إلى عيدهم كَسَرُوا أَصْنَامَهُمْ، فلَمَّا رَجَعُوا قَالُوا مَا قَالُوا، وَأَجَابَهُمْ بِمَا أَجَابَهُمْ بِهِ^(١) إِلَى قَوْلِهِ:

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُمُ بَنِينَ فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

رَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ. وقد تعرَّضَ له جبريلُ - عليه السلام - وهو في الهواء وَقَدْ رُمِيَ مِنَ الْمُنْجِنِيقِ^(٢) فَعَرَّضَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ قَائِلًا: هل مِنْ حَاجَةٍ؟

فَأَجَابَ: أَمَا إِلَيْكَ... فلا!

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّئِينَ﴾.

يقال إنه طلب هداية مخصوصة؛ لأنه كان صاحب هداية، إذ لو لم تكن له هداية لَمَّا ذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ. ويحتمل أنه كان صاحب هداية في الحال وطلب الهداية في الاستقبال أي زيادة في الهداية، ويقال طلب الهداية على كيفية مراعاة الأدب في الحضور، ويقال طلب الهداية إلى نفسه لأنه فقد فيه قلبه ونفسه؛ فقال سيهدينني إلي لأقوم بحق عبوديته؛ فإن المستهلك في حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادة إلا بأن يُرَدَّ إلى حالة التفرقة والتمييز.

ومعنى ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى المكان الذي يُعْبَدُ فِيهِ رَبِّي.

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾: فأخبر عن قوله.

وأخبر عن موسى فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبر عن صفته لا عن قوله...

وقال في صفة نبيينا ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرِي بِعَبْدِهِ...﴾ [الإسراء: ١]. [فأخبر عن ذاته سبحانه]^(٣).

وفصلٌ بَيْنَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ؛ فإبراهيم كان بعين الفرق، وموسى بعين الجمع؛ ونبيينا كان بعين جمع الجمع.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

لَمَّا قَالَ «حليم» نَبَأَ عَلَى أَنَّهُ سَيَلْقَى مِنَ الْبَلَاءِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحِلْمِ فِي تَحْمَلِهِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ فَانظُرْ

مَاذَا تَرَى قَالَ يَكْتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

(١) الآيات من (٩٠ حتى ٩٦) لم ترد.

(٢) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنقات ومجانق ومجانيق.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيهما السياق.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ إشارة إلى وقت توطين القلب على الولد، رأى إبراهيم - عليه السلام - أنه يؤمر بذبح ابنه إسماعيل ليلة التروية، وسميت كذلك لأنه كان يُروى في ذلك طول يومه. هل هو حق أم لا؟ ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فعرف أن رؤياه حق، فسمي يوم عرفة.

وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات. أن اذبح ابنك، فقال لإسماعيل: ﴿يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى؟﴾ فقال إسماعيل: ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾: أي لا تحكم فيه بحكم الرؤيا، فإنها قد تصيب وقد يكون لها تاويل، فإن كان هذا أمراً فافعل بمقتضاه، وإن كان له تاويل فثبت، فقد يمكنك ذبح ابنك كل وقت ولكن لا يمكنك تلافيه.

ويقال بل قال: أترك حديث الرؤيا واحمله على الأمر، واحمل الأمر على الوجوب، ثم احمله على الفور ولا تُقصر.

ويقال قال له: إن كان يطيب قلبك بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبي أن يذبحني أبي لأجل الله.

ويقال قال إسماعيل لأبيه: أنت خليل الله وتنام.. ألم تعلم أن الخليل إذا نام عن خليله يؤمر بذبح ابنه؟ مالك يا أبت والنوم؟

ويقال في القصة: إنه رآه ذات يوم راكباً على فرس أشهب فاستحسنه، ونظر إليه بقلبه، فأمر بذبحه، فلما أخرجه عن قلبه، واستسلم لذبحه ظهر الفداء، وقيل له كان المقصود من هذا فراغ قلبك عنه.

ويقال في القصة: أمر إسماعيل أباه أن يشد يديه ورجليه لئلا يضطرب إذا مسه ألم الذبح فيعاتب، ثم لما هم بذبحه قال: افتح القيد عني حتى لا يقال لي: أمشدود اليد جنتني؟ وإنني لن أتحرك:

ولو بيد الحبيب سقيت سماً لكان السُّم من يده يطيب
ويقال أيهما كان أشد بلاء؟ قيل: إسماعيل؛ لأنه وجد الذبح من يد أبيه، ولم يتعود من يده إلا التربية بالجميل، وكان البلاء عليه أشد لأنه لم يتوقع منه ذلك.

ويقال بل كان إبراهيم أشد بلاء لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعده.
﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلم يأت إسماعيل بالدعوى بل تأدب بلفظ الاستثناء.

ويقال لو قال إسماعيل إما لا تقل: «يا بُني» بهذه اللطافة، وإما لا تقل: ﴿أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فإن الجمع بينهما عجيب!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَسَلَمَا وَلَّمَهُ لَجِينٍ وَوَدَّيْتَهُ أَنْ يَتَّيْرَهُمْ قَدْ صَدَقَتِ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَّاكُ
تَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قيل في التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكّين على حلقه والسكّين لا يُقَطِّعُ، فتعجّب إبراهيم، فنودي: يا إبراهيم، كان المقصودُ من هذا استسلامكما.

ويقال إن الله سترَ عليهما علمَ ما أريد منهما في حال البلاء، وإنما كُشِفَ عنهما بعد مُضِيِّ وقت المحنة لثلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء... وهكذا يكون الأمر عند البلاء؛ تَنَسَّدُ الوجوهُ في الحال؛ وكذلك كانت حالة النبي ﷺ في حال حديث الإفك^(١)، وكذلك حالة أيوب عليه السلام؛ وإنما يتبيّن الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها، وإلا لم تكن حينئذٍ محنة [إلا أنه يكون في حال البلاء إسبالٌ يُؤلَى مع مخامرة المحنة] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاء؛ قال تعالى:

﴿إِن كَذَّبْنَاكَ وَكَذَّبْتَهُ بِذَنْبِ عَظِيمٍ﴾ .

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى في الجنة قبله بأربعين خريفاً.

والناس في «البلاء» على أقسام: فبلاءٌ مستعصب وذلك صفة العوام، وبلاءٌ مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَدَّيْتَهُ يَأْمُرُكَ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَوَدَّيْتَهُ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ .

وكلُّ هذا بعد البلاء؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

مَنْ عليهما بالنبوة، وبالنجاة من فرعون وقومه، وبنصرته عليهما^(٣).

﴿وَأَيُّنَهُمَا الْكُذِّبَ الْمُسَيِّبِينَ﴾ .

يعني التوراة.

﴿وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

بالتبري عن الحول والقوة، وشهود عين التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَدَّيْتَهُمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَلِإِن لِّإِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤).

(١) الإفك: الكذب أو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء.

(٢) الآيات من (١٠٨ حتى ١١١) لم ترد.

(٣) الآيات (١١٥، ١١٦) لم ترد. (٤) الآيات (١٢١، ١٢٢) لم تردا.

«إلياس»: قيل هو إدريس، وقيل غيره، وكان بالشام، واسم صَنَمِهِم «بغل»، ومدينتهم بعلبك.. أنذر قومه فكذبوه، ووعظهم فما صدقوه، فأهلك قومه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

مضت قصته وكيف نجى أهله إلا امرأته التي شاركتهم في عصيانهم، فحق العذاب عليها مثلما عليهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة، ولكن لم يُغفَ، ثم استقبله ما استقبله، فلم يلبث حتى رأى نفسه في بطن الحوت في الظلمة^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَالْقَمَّةَ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أي بما يلام عليه، والحق - سبحانه - مُنَزَّةٌ عن الحيف في حُكْمِهِ؛ إذ الخلق خلقه، ثم الله راعى حقَّ تعبده، وحفظ ذمام ما سلف له في أداء حقه فقال: -
﴿فَلَوْلَا أَنَّمْ كَانَ مِنَ الْمَسْتَجِيبِينَ لِلَّيْلِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

فإن كَرَمَ الْعَهْدِ فينا من الإيمان، وهو ميثاً من جملة الإحسان، «فالمؤمن قد أخذ من الله خلقاً حسناً» - بذلك ورد الخبر.

قوله جل ذكره: ﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

«سقيم»: في ضعف من الحال لما أضر من كونه قضي وقتاً في بطن الحوت.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾.

لِيُظِلَّهُ، فإنه كان في الصحراء وشعاع الشمس كان يضربه، وقبض له الله ظبية ذات وليد كانت تجيء فيرضع من لبنها، فكان الحق أعاده إلى حال الطفولية. ثم إنه رجمه، ورجع إلى قومه، فأكرموا وآمنوا به، وكان الله قد كشف عنهم العذاب، لأنهم حينما خرج يونس من بينهم ندموا وتضرعوا إلى الله لما رأوا أوائل العذاب قد أظلمتهم، فكشف الله عنهم العذاب، وآمنوا بالله، وكانوا يقولون: لو رأينا يونس لو قرناه، وعظمناه، فرجع يونس إليهم بعد نجاته من بطن الحوت، فاستقبله قومه، وأدخلوه بلدهم مكرماً.

ويقال: الذئب والجُرْمُ كانا من قومه، فهم قد تَوَعَّدُوا بالعذاب. وأمّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا ألمَّ بمحذور، وخرج من بينهم، وكشف الله العذاب عنهم، وسلموا.. واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى اللتيا والتي^(٣) بعد نجاته؛ ويا عجباً

(١) الآيات من (١٣٤) حتى (١٣٨) لم ترد.

(٢) الآيات (١٤٠، ١٤١) لم تردا.

(٣) يقال: اللتيا والتي: يكونان بهما عن الشدة.

من سِرِّ تقديره! فقد جاء في القصة أن الله سبحانه - أوحى إلى يونس بعد نجاته أن قلْ لفلانِ الفَخَّارِ حتى يَكْسِرَ الجِرَارَ التي عملها في هذه السنة كُلِّها! فقال يونس: يا رب، إنه قَطَعَ مدةً في إنجاز ذلك، فكيف أمرُه بأن يَكْسِرَها كُلِّها؟

فقال له: يا يونس، يَرِقُّ قلبُك لِخِزَافٍ يُثَلِّفُ عَمَلَ سنةٍ . . . وتريدني أن أَهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي؟! يا يونس، إنك لم تخلقهم، ولو خَلَقْتَهُمْ لَرَجِمْتَهُمْ^(١).

قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿فَأَنْتَ فِتْنَتُهُمْ إِلَهِكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾.

لَمَّا قالوا في صفة الملائكة إنهم بناتُ الله بَيْنَ اللَّهِ فَبِخَ قولِهِم، فقال: سَلُّهُم من أين قالوا؟ وبأي حُجَّةٍ حكموا بما زعموا؟ وأي شُبُهَةٍ داخَلَتْهُم. ثم إنهم كانوا يستنكفون من البنات، ويؤثرون البنين عليهن . . . ومع كُفْرِهِم وقبيح قولِهِم وصفوا القديم - سبحانه - بما استنكفوا منه لأنفسهم^(٢).

قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿فَأَنْتَ كَرِيمٌ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَشْرَ عَلَيْهِ يَفْتَنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنِيمِ﴾.

أي ما أنتم بفاتنين من الناس إِلَّا من أغويته بحُكْمِي، فبه ضلُّوا لا بإضلالكم.

قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾.

الملائكة لهم مقام معلوم لا يتخَطَّوْنَ مقامَهُم، ولا يتعدَّوْنَ حدَّهُم، والأولياء لهم مقام مستورٌ بينهم وبين الله لا يُطْلَعُ عليه أحداً، والأنبياء لهم مقام مشهورٌ مؤيَّد بالمعجزات الظاهرة؛ لأنهم للخَلْقِ قدوة فأمرُهُم على الشَّهرِ، وأمرُ الأولياءِ على السَّترِ^(٣).

قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلِينَ﴾.

أي سبقت كلمتنا لهم بالسعادة، وتقدَّم حُكْمُنَا لهم بالولاية والرعاية، فهُم من

قِيلَنَا مبصرون:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

مَنْ نَصَرَهُ لَا يُغْلَبُ، وَمَنْ قَهَرَهُ لَا يَغْلِبُ.

وجُنْدُه الذين نَصَبَهُم لنشر دينه، وأقامَهُم لنُصْرِ الحقِّ وتبيينه. مَنْ أراد إذلالَهُم فعلى أذقانه يخرُّ، وفي حبل هلاكه ينجرُّ.

قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿قَوْلًا عَنْهُمْ حَقٌّ حِينٍ وَابْتِزَامٌ سَوَافٍ يَجِيرُونَ﴾.

تَوَلَّى عَنْهُمْ - يا محمد - إلى أن تنقضي آجالُهُم، وتنتهي أحوالُهُم. وانتظر انقضاء أيامِهِم، فإنه سينصرم حديثهم وشيكا:

﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْمِلُونَ﴾.

(١) الآيات (١٤٧، ١٤٨) لم ترد.

(٢) الآيات من (١٦٥ حتى ١٧٠) لم ترد.

(٣) الآيات من (١٥٠ حتى ١٦٠) لم ترد.

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرْطِ جهلهم، ثم لقلّة تصديقهم. فإذا نزل العذابُ بساحتهم، وأناخ البلاءُ بعقوتهم فساء صباحهم. فتولّ عنهم فَعَن قَرِيبٍ سيحصل ما منه يَخْذَرُونَ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿سُبْحٰنَ رَبِّكَ﴾: تقديساً له، وسلامٌ على أنبيائنا، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي هو المحمود على ما ساء أم سرّ، نَفَعَ أم ضَرَّ.

(١) الآيات (١٧٧، ١٧٨، ١٧٩) لم ترد.

سورة ص

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

اسمٌ عزيزٌ اعترفت المعارفُ بالقصور عن إدراكه، اسمٌ جليلٌ ثَقَنَتِ العلومُ خَجَلًا من الطمع في إحاطته، اسمٌ كريمٌ صَغُرَتْ الحوائجُ عند ساحات جوده، اسمٌ رحيمٌ تلاشت قطرات زلات عباده في تلاطم أمواج رحمته.

قوله جل ذكره: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

الصَّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصابغ... أقسم بهذه الأشياء وبالقرآن. وجواب القسم: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

ويقال: أقسم بصفاء مودة أحبائه والقرآن ذي الذكر أي: ذي الشرف... وشرفه أنه ليس بمخلوق.

قوله جل ذكره: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾.

في صلابة ظاهرة، وعداوة بيئة، وإعراض عن البحث للأدلة، والسُّرُّ للشواهد.

قوله جل ذكره: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَّآ رَبِّنا نَجِّنْنا مِنْ عَذَابِنا﴾.

بادوا حين هَجَمَ البلاءُ مستغيثين، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

عَجِبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتات آلهة، وهذه مناقضة ظاهرة. فلما تحيروا في شأن أنبيائهم رَمَوْهم بالسحر، وقَسَمُوا فيهم القول.

قوله جل ذكره: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ لِلْهَذَا وَحْدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم، وبعدوا عن ذلك تجويزاً، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحكماً، فلا عَرَفُوا الإلهَ ولا معنى الإلهية؛ فإنَّ الإلهية هي القدرة على الاختراع. وتقديرُ قَادِرِينَ على الاختراع غيرُ صحيحٍ لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه، ثم إنَّ ذلك يمنع من كمالهما، ولو لم يكونا كاملَي الوصف لم يكونا إلهين، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطٍ فهو مطروحٌ باطل.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنطَلَقَ اللَّأْمُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْبُوا وَأَصْبُوا عَلَى الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

إذا تَوَاصَى الكَفَارُ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى آلِهِمْ، فَالْمُؤْمِنُونَ أَوْلَى بِالصَّبْرِ عَلَى عِبَادَةِ مَعْبُودِهِمْ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي دِينِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿مَا سِعَتَا يَدْنَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَقْتُ﴾.

ركنوا إلى السوء والعادة، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة، واستنابوا إلى التقليد والهوادة.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَنَّا﴾.

أي لو استبصروا في دينهم لَمَا أَقْدَمُوا عَلَى مَا أَسْرَفُوا فِيهِ مِنْ جُحُودِهِمْ، وَلَوْلَا أَنَا أَدْمُنَا لَهُمُ الْعَوَافِي لَمَا تَفَرَّغُوا إِلَى طُغْيَانِهِمْ.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَعَّابِ﴾.

أي: هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا، وكذبوا واحتجوا... أعندهم شيء من هذه الأشياء؟ أم هل هم يقدرون على شيء من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا، ويعطوا من شأؤوا، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحي على من أرادوا^(١)؟

﴿جُنُدٌ مِمَّا هُتِلَكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾.

بل هم جُند من الأحزاب المتحزبين. كُلُّهُمْ عَجْزَةٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، مَهْزُومُونَ. شَبَّهَهُمْ فِي بَقَائِهِمْ عَنْ مَرَادِهِمْ بِالْمَهْزُومِينَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ لَيْسَ مَعَهُمْ حُجَّةٌ، وَلَا لَهُمْ قُوَّةٌ، وَلَا لِأَصْنَامِهِمْ أَيْضًا مِنَ النَّعْ وَالضَّرِّ مُكْتَنَةٌ، وَلَا فِي الرَّدِّ وَالِدْفَعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ قُدْرَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ...﴾ الآيات.

ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْجَمْعِ، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْإِفْرَادِ، وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْإِفَادَةِ بِكُلِّ وَجْهِ^(٢). ثم قال:

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

أي ما كان منهم أحدٌ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّتْ الْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ، وَاسْتَوْجَبَ الْعَذَابَ. ثم قال:

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقِ﴾.

أي ليسوا ينتظرون إلا القيامة، وما هي إلا صيحة واحدة، وإذا قامت فإنها لا تسكن.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجَلٌ لَنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

(٢) الآية (١٣) لم ترد.

(١) الآية (١٠) لم ترد.

اضْبِرْ - يا محمد - على ما يقولون، فإنه لن تطول مُدَّتْهم، ولن نَمُدَّ - في مقاساتِكَ أذاهم - لُبَّتْكَ ومُكَّتْكَ، وعن قريب سينزل الله نَصْرَه، ويصدق لك بالتحقيق وَغَدَه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة، ولم تكن قُوَّتُه قوةَ نفس، وإنما كانت قوته قوةَ فعل؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً - وهو أشدُّ الصوم، وكان قوياً في دين الله بنَفْسِه وقلبه وهمته.

﴿أَوَّابٌ﴾ رَجَاع.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِثَىٰ وَالْإِنْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾.

كان داود يُسَبِّح، والجبال تُسَبِّح، وكان داود يفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيص له بالكرامة والمعجزة.

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبح الله، وداود كان يعرف تسبيح الطير؛ وكلُّ مَنْ تَحَقَّقَ بحاله ساعده كلُّ شيء كان بقُرْبِه، ويصير غير جنسه بحُكْمِه، وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ ورقاء ^(١) هتوف بالضحى	ذات شجو صرخت في فتن ^(٢)
ذكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً	وبكث شوقاً فهاجث حزني
فبُكائي رُبَّما أرقها	وبكاهار بما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها	ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى ^(٣) أعرفها	وهي أيضاً بالجوى تعرفني

قوله جل ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَمَآئِنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾.

أي قوينا ملكه بأنصاره، وفي التفسير: كان يحفظ ملكه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل.

قوله جل ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَمَآئِنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾.

أي شددنا ملكه بنصرنا له ودفعنا البلاء عنه.

ويقال شدنا ملكه بالعدل في القضية، وحسن السيرة في الرعية.

(١) الورقاء: الحمامة أو التي لونها كالرماد فيه سواد (ج) ورق.

(٢) الفنن: الغصن الفص الورق أو المستقيم.

(٣) الجوى: الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن.

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدي الظلمة .

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين .

ويقال شددنا ملكه بأن رأى النصره ميئاً، وتبرأ من حوله وقوته .

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلونه على ما فيه صلاح ملكه .

ويقال بتيقظه وحسن سياسته . ويقال بقبوله الحق من كل أحد .

ويقال برجوعه إلينا في عموم الأوقات .

﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْفُطَايِبِ﴾ : أي أعطيناه الرشد والصواب، والفهم

والإصابة .

ويقال العلم بنفسه وكيفية سياسة أمته .

ويقال الثبات في الأمور والحكمة، وإحكام الرأي والتدبير .

ويقال صحبة الأبرار، ومجانبة الأشرار .

وأما ﴿وَفَصَّلَ الْفُطَايِبِ﴾ فهو الحكم بالحق، وقيل : البينة على من ادعى واليمين

على من أنكر . ويقال : القضاء بين الخصوم .

قوله جل ذكره : ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبَ نَبؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الآيات .

أرسل الله إلى داود عليه السلام ملكين من السماء على صورة رجلين فتحاكما

إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تزوجه بامرأة أوريا، وكان تزك ذلك أولى - هذا على

طريق من رأى تنزيه الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب .

وأما من جوز عليهم الصغائر فقال : هذا من جملته . وكفى الخضمان باسم

النعجة عن النساء .

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى : إنني لأجد في التوراة أنك

أعطيت الأنبياء الرتب فأعطينيها، فقال : إنهم صبروا فيما ابتليتهم به، فوعد داود من

نفسه الصبر إذا ابتلاه طمعاً في نيل الدرجات، فأخبر الله تعالى أنه يبتليه يوم كذا،

فجعل داود ذلك اليوم يوم عبادة، واختلى في بيته، وأمر حراسه ألا يؤذيه أحد

بالدخول عليه، وأغلق على نفسه الباب، وأخذ يصلي زماناً، وقرأ التوراة زماناً

يتعبد . أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غلق باب السماء . وأمر حرسه أن يدفعوا

عنه الناس وكانوا ثلاثين ألف رجل - ويقال أربعة آلاف - ولكن لم يمكنهم أن يدفعوا

عنه حكم القضاء، ولقد قال الحكماء : الهارب مما هو كائن في كف الطالب يتقلب .

وكانت في البيت كوة يدخل منها الضوء، فدخل طير صغير من الذهب، ووقع

قريباً منه، وكان لداود ابن صغير فهم أن يأخذه ليدفعه إلى ابنه، فتباعده عنه . وجاء في

التفاسير: أنه كان إبليس، قد تصوّر له في صورة طير، فَتَبِعَهُ داود، ولم يزل الطائر يتباعد قليلاً قليلاً، وداود يتبعه حتى خَرَجَ من الكوة، وَنَظَرَ داود في إثره فَوَقَعَ بِصَرِّهِ على امرأة أوريا وهي تغتسل متجردة، فعاد إلى قلبه منها شيء، فكان هذا السبب.

ويقال لم يَزَعْ الاهتمامَ بسبب وَلَدِهِ حتى فعل به ما فعل، وفي ذلك لأولي الأبصار عِبْرَةٌ.

ويقال لم يكن أوريا قد تزوّجَ بها بعدُ، وقد كان خَطَبَهَا، وأجابته في التزوج به، فَخَطَبَ داود على خِطْبَتِهِ. وقيل بل كانت امرأته وسأله أن ينزل عنها، فَنَزَلَ على أمره وتزوجها. وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقتل وتزوج بها. فلما تَسَوَّرَ الخصمان عليه، وقيل دَخَلَا من سور المحراب أي أعلاه ولذلك: -

﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَحْفَ خَصْمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا نُشِطُ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

نحن خصمان ظلم بعضنا بعضاً، فاحكمم بيننا بالعدل:

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي انزل عنها حتى أكفلها أنا، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾. أي غلبني،

فقال داود:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِي نَعِيمِكَ إِنَّ يَنْعَاهُ﴾.

فضحك أحدهما في وجه صاحبه، وصعد إلى السماء بين يديه، فعلم داود عند ذلك أنه تنبيه له وعتاب فيما سلف منه، وظن واستيقن أنه جاءته الفتنة الموعودة:

﴿فَأَسْتَعْفَرَ رَبِّي وَحَرَّ رَأْسِي وَأَنَابَ﴾.

أخذ في التضرع، وجاء في التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه من السجود إلا (للصلاة)^(١) المكتوبة عليه، وأخذ يبكي حتى نبت العشب من دموعه، ولم يأكل ولم يشرب في تلك المدة، حتى أوحى الله إليه بالمغفرة، فقال: يا رب، فكيف بحديث الخصم؟ فقال: إني استوهبتك منه، وقال تعالى:

﴿فَغَفَرْنَا لَمْ ذَلِكَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفَيْنِ وَحَسَنَ مَنَابٍ﴾.

إن له عندنا لثربة وحسن رجوع، وقيل: كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه. ويقال لما التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخاء وجد المغفرة والتجاوز... وهكذا من رجع في أوائل الشدائد إلى الله

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيهما السياق.

فَاللَّهُ يَكْفِيهِ مِمَّا يَنْوِيهِ، وكذلك مَنْ صَبَرَ إِلَى حِينٍ طَالَتْ عَلَيْهِ الْمُحَنَةُ. وَيُقَالُ إِنَّ زَلَّةَ أَسْفُكَ عَلَيْهَا يُوصلُكَ إِلَى رَبِّكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِنْ طَاعَةِ إِعْجَابِكَ بِهَا يُقْصِيكَ عَنْ رَبِّكَ.

قوله جل ذكره: ﴿يَنْدَاؤُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ أي بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَقِيلَ حَاكِمًا مِنْ قِبَلِي لِتُحْكَمَ بَيْنَ عِبَادِي بِالْحَقِّ، وَأَوْصَاهُ بِالْأَيْتِجِ فِي الْحُكْمِ هَوَاهُ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ جُنَايَاتِ الْعَبْدِ وَأَقْبَحَ خَطَايَاهُ مَتَابَعَةُ الْهَوَى.

ولما ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَعْقَبَهَا بِقَوْلِهِ:

﴿وَمَا سَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِطُلُوعِ ذَلِكَ لَظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

«باطلاً» أي وأنا مُبْطِلٌ فِي خَلْقِهِمَا، بَلْ كَانَ لِي مَا فَعَلْتُ وَأَنَا فِيهِ مُحِقٌّ.

ويقال ما خلقتهما للبطلان بل لأمرهما بالحق^(١).

ثم أخبر أنه لا يجعل المفسدين كالمحسنين قط، ثم قال:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿مُبَارَكٌ﴾ وهو القرآن، ومبارك أي كبيرُ النَّفْعِ، وَيُقَالُ مُبَارَكٌ أَي دَائِمٌ بَاقٍ لَا يَنْسَخُهُ كِتَابٌ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ بَرَكَ الطَّيْرُ عَلَى الْمَاءِ. وَيُقَالُ مُبَارَكٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ. ثُمَّ إِنَّهُ بَيَّنَّ أَنَّ الْبَرَكَهَ فِي تَدَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ لأنه كان أَوَّابًا إِلَى اللَّهِ، رَاجِعًا إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ فِي النِّعْمَةِ بِالشُّكْرِ، وَفِي الْمُحَنَةِ بِالصَّبْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِينَتُ الْأَيَّامُ﴾.

﴿الصَّفِينَتُ﴾ جَمْعُ صَافِنَةٍ وَهِيَ الْقَائِمَةُ، وَفِي التَّفَاسِيرِ هِيَ الَّتِي تَقُومُ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ؛ إِذْ تَرَفَعَ إِحْدَى الْيَدَيْنِ عَلَى سُنْبُكَيْهَا. وَجَاءَ فِي التَّفَاسِيرِ أَنَّ سَلِيمَانَ كَانَ قَدْ غَزَا أَهْلَ دِمَشْقَ، وَأَصَابَهَا مِنْهُمْ، وَقِيلَ وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ دَاوُدَ وَكَانَ قَدْ أَصَابَهَا مِنَ الْعَمَالِقَةِ، وَقِيلَ كَانَتْ خَيْلًا لَهَا أَجْنَحَةٌ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ.

وفي بعض التفاسير عُرِضَ عَلَيْهِ عَشْرُونَ أَلْفَ فَرَسٍ فَشَغَلَتْهُ عَنْ بَعْضِ أَذْكَارِهِ اللَّهُ.

﴿بِالْعَشِيِّ﴾: فِي آخِرِ النَّهَارِ، وَقِيلَ كَانَ ذَلِكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ.

(١) الآية (٢٨) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنُطِيقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قبل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد لها بعد أن فرغ من صلاته.

وقيل عَزَقَبَهَا (ليذبها فحَبَسَهَا بالعرقبة عن النفار)^(١)، وقيل وَضَعَ عَلَيْهَا الْكَيْئَ فَسَبَّلَهَا^(٢)، وإيش ما كان فكل ذلك كان جائزاً في شرعه.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ﴾.

أي لَصَفْتُ بِالْأَرْضِ لِحُبِّ الْمَالِ. ويقال لَمَّا سَبَّلَ هَذِهِ الْأَفْرَاسَ عَوَّضَهُ اللَّهُ - سبحانه - بِأَنْ سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ، وهذا أبلغ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِلَّهِ لَمْ يَخْسِرْ عَلَى اللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾.

اختلف الناس في هذه الفتنة؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال: «لَأَطُوفَنَّ عَلَى هَؤُلَاءِ فَيُولَدُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامٌ يِقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣) ولم يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ولم تَحْمِلْ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشَقِّ مَوْلُودٍ، فَأَلْقَتْهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ، فامتغفر ربه من تَرَكَ الْإِسْتِنَاءَ، وكان ذلك ترك ما هو الأوَّلَى.

وقيل كان له ابن، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه، فهُمَّوْا بِقَتْلِهِ، فاستودعه الرِّيحَ فِي الْهَوَاءِ لثَلَا تَصِلَ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، فمات الولد، وألقت الرِّيحَ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيْتاً. فالفتنة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء، وكان الأوَّلَى به التوكل والاستعانة بالرِّيحِ.

وقيل في التفاسير: إنه تزوج بامرأة كانت زوجة مَلِكٍ قَهَرَهُ سُلَيْمَانُ، وَسَبَّاهَا، فقالت له: إِنْ أَدُنْتُ لِي أَنْ اتَّخِذَ تَمَثَّالاً عَلَى صُورَةِ أَبِي لَأَتَسَلَّى بِنَظْرِي إِلَيْهِ؟ فَأَدُنَّ لَهَا، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواربها أربعين يوماً)، وكانت تبعده سِراً، فعوقب عليه.

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحَبِّ نَسَائِهِ إِلَيْهِ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خَاتَمَهُ وَدَفَعَهُ إِلَيْهَا، وهي على باب الخلاء، فإذا خَرَجَ اسْتَرَدَّهُ. وجاء يوماً شيطانٌ يُقَالُ لَهُ «صخر» على صورة سليمان وقال لامرأته: ادفعي إلي الخاتم فدفعته، ولبسه، وقعد على كرسية، يُمَشِّي أَمُورَهُ - إِلَّا التَّصَرَّفَ فِي نَسَائِهِ - فقد منعه اللُّهُ عَنْ

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيهما السياق.

(٢) سبَّلَ الْمَالُ: جعله في سبيل الخير وأنواع البر.

(٣) أخرجه البخاري (نكاح ١١٩)، (كفارات ٩)، ومسلم (إيمان ٢٢، ٢٤، ٢٥)، (نذور، ٧)،

والنسائي (إيمان ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٢/٢٢٩، ٢٧٥، ٥٠٦.

ذلك . فلما خرج سليمان طالِبَ المرأة بالخاتم، فقالت : الساعة دَفَعْتُهُ إِلَيْكَ . فظَنَّ أنه فُتِنَ، وكان إذا أخبر الناس أنه سليمان لا يُصَدِّقُونَهُ، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر)، وأصابته شدائد، وحمل سَمَكَ الصيادين بأجرة حتى يجد قُوتاً .

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطان (واستنكروا حُكْمَهُ) نشروا التوراة بين يديه، ففرَّ ورمى بالخاتم في البحر، وطار في الهواء . ولَمَّا أذِنَ اللَّهُ رَدَّ مُلْكِ سليمان إليه، ابتلعت سمكة خاتمه، ووقعت في حبال الصيادين، ودفعوها إلى سليمان في أجرته، فلَمَّا شَقَّ بَطْنَهَا ورأى خاتمه لبسه، وسَجَدَ له الملاحون، وعاد إلى سرير مُلْكِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْتَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ .

أي مُلْكًا لا يسلبه أحدٌ مني بعد هذا كما سُلِبَ مني في هذه المرة .

وقيل أراد انفراذه به ليكون معجزة له على قومه .

وقيل أراد أنه لا ينبغي لأحدٍ من بعدي أن يسأل المُلْكَ، بل يجب أن يكفل أمره إلى الله في اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء، ولكن قال لا ينبغي من بعدي لأحدٍ من الملوك .

وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس، وإنصاف بعضهم من بعض، والقيام بحق الله، ولم يسأله لأجل ميله إلى الدنيا . . . وهو كقول يوسف: ﴿أَجْمَلِي عَلَيَّ خَزَائِنَ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] .

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهر، وإنما أراد به أن يملك نفسه، فإن المَلِكَ - على الحقيقة - مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ، وَمَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ لم يتبع هواه .

ويقال أراد به كمال حاله في شهود ربه حتى لا يرى معه غيره .

ويقال سأل القناعة التي لا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أن سِرُّ نبيِّنا - ﷺ - ألا يلاحظ الدنيا ولا ملكها فقال: ﴿لَا يَبْتَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] لا لأنه بخَلَّ به على نبيِّنا ﷺ ولكن ليعلمه أنه لا ينظر إلى ذلك .

قوله جل ذكره: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَّاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ .

شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ، وَسَخَّرَ له الرِّيحَ بَدَلًا من الأفراس؛ فلا يحتاج في إمساكها إلى العَلْفِ والمُؤْنِ .

﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَمَا حَرَمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِمَتَرٍ

حَسَابٍ﴾ .

كما سَخَرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ.

ثم قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا...﴾ أي فَأَعْطِ أَوْ أَمْسِكْ، واحفظ وليس عليك حساب. والمشى في الهواء للأولياء، وقَطَعَ المسافات البعيدة في مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً في هذه الأمة - وإن لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين. وإظهاره على خَدَمِ رسول الله ﷺ لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه - ﷺ - أشرف^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

أي بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البليّة، وقيل لما كان قال (أي الشيطان) لامرأته: اسجدي لي حتى أَرُدُّ عليكم ما سلبتكم.

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلوم فلم يَنْصُرْهُ... فابتلي.

ويقال استضاف الناس يوماً فلماً جاءه ابن فقير مَنَعَهُ من الدخول.

ويقال كان يغزو مَلِكاً كافراً، وكان لأيوب غَنَمٌ في ولايته، فداهنته لأجل غَنَمِهِ في القتال.

ويقال حَسَدَهُ إبليس، فقال: لَئِن سَلَطْتَنِي عَلَيْهِ لَمْ يَشْكُرْ لَكَ.

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحد، فَجَزَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم.

ويقال لبث أيوب في البلاء ثمانين سنة، وقيل أربعين سنة، وقيل سبع

سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

قوله جل ذكره: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

لَمَّا أَرَادَ اللُّهُ كَشْفَ البلاءِ عَنْهُ قَالَ لَهُ: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، فركض، فَظَهَرَتْ عَيْنُ ماءٍ بَارِدٍ فَاغْتَسَلَ بِهِ، فعاد إليه جماله وكمالُه. وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة، وَاغْتَسَلَ، وَرَدَّ اللَّهُ وَشَعْرَهُ وَبَشْرَهُ، وأحيا أولاده وأهله، وقيل بل يردُّهم إليه في الجنة في الآخرة^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ الضِّغْتًا فَاصْرِبْ بِهِ. وَلَا تَحْنُتْ إِنََّّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ

أَوَّابٌ﴾.

الضِّغْتُ الحزمة من القصبان، وقيل كانت مائة، وأمرَ بأن يضرب بها دفعةً على امرأته لثلاثي يحنث في يمينه، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائة خشبةٍ إِنْ صَحَّ (أنها أخطأت). فَشَكَرَ اللُّهُ لَهَا لبراءةٍ ساحتها، وصبرها على خدمته. وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليس: اسجدي لي؛ أخبرت أيوبَ بذلك، فغاضه حيث سمعت من إبليس

(٢) الآية (٤٣) لم ترد.

(١) الآية (٤٠) لم ترد.

ذلك وظننت أنه صادق. وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهم في ذلك ريبة، وكان أيوب يتعلق بذوائبها (إذا أراد القيام). وقيل رابه شيء منها فتحلف (أن يضربها بعد شفائه).

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا...﴾: والصبر ألا تعترض على التقدير.

ويقال الصبر الوقوف تحت الحكم. ويقال التلذذ بالبلاء، واستعداؤه دون استصعابه. ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب.

ولم ينف قوله ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] اسم الصبر عنه؛ لأن ذلك لم يكن على وجه الشكوى، ولأنه كان مرة واحدة، وقد وقف الكثير من الوقت ولم يقل مسني الضر؛ فكان الحكم للغالب.

﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِتْمَهُ أَوَّابٌ﴾ لم يشغله البلاء عن المبلي. ويزعم العبد لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عِنْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾.

﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾: أي القوة. ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ أي البصائر.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾: أي بفضيلة خالصة وهي ذكر الجنة والنار، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب من النار. ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء. ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكري الدار، ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾.

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾: قيل كان تكفل الله بعمل رجل صالح مات في وقته، وقيل كفل مائة من بني إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالم، فكان ينفق عليهم. ويقال كان اليسع وذو الكفل أخوين.

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّا لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَّآبٍ﴾.

أي هذا القرآن فيه ذكركم ما كان، وذكركم الأنبياء والقصص.

ويقال إنه شرف لك؛ لأنه معجزة تدل على صدقك، وإن للذين يتقون المعاصي لحسن المنقلب.

﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّنْ مَّنْعَةٍ لِّمَن أَعْتَبُ﴾.

أي إذا جاؤوها لا يلحقهم ذل الحجاب، ولا كلفة الاستئذان، تستقبلهم

الملائكة بالترحاب والتبجيل. متكئين فيها على أرائكهم، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب على ما يشتهون، وعندهم حورٌ عِين قاصراتُ الطُّرْفِ^(١) عن غير أزواجهن، (أتراب): لِيَدَاتٍ مُّسْتَوِيَاتٍ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالشَّكْلِ^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا وَرِثَ اللَّطِيفِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ﴾.

لَشَرِّ مَرْجِعٍ وَمُنْقَلَبٍ؛ وهي جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذِّبِينَ فيها، وبئس المكان ذلك^(٣)!

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾.

«حميم»: هو الماء الحلو، و«عساق» هو عصارة أهل النار، ويقال هو زمهرير^(٤) جهنم.

﴿وَوَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾.

أي فنون أخرى من مثل ذلك العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَنِجٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِتَّيْمُوا أَهْلَ النَّارِ﴾.

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم، ويقول الأتباع للمتبوعين: لا مرحباً بكم؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقناكم^(٥)، ويقولون:

﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾.

فيقال لهم كُلُّكُمْ فيها، ولن يفترّ العذابُ عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾.

يقول الكفار عندما يدخلون النار: ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدّهم في الدنيا من الأشرار والمستضعفين... فَلَسْنَا نَرَاهُمْ هَاهُنَا؟ أَمْ لَيْسُوا هَاهُنَا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُنَا؟ يقوله أبو جهل وأصحابه يعنون بلالاً والمستضعفين، فيُعرّفون بأنهم في الفردوس، فتزداد حسراتهم^(٦).

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

أي إن مخاصمة أهل النار في النار لحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا يَنْبَغِيهَا الْعَزِيزُ الْعَفْوَءُ﴾.

(١) يقال: امرأة قاصرة الطرف: خجلة حبيبة، لا تمد عينها إلى غير زوجها.

(٢) الآيات من (٥١ حتى ٥٤) لم ترد. (٣) الآية (٥٦) لم ترد.

(٤) الزمهرير: شدة البرد.

(٥) الآية (٦٠) لم ترد.

(٦) الآية (٦٣) لم ترد.

قل يا محمد: إنما أنا مُنذِرٌ مخوِّفٌ، مُبلِّغٌ رسالةَ ربي، وما من إلهٍ إلا الله الواحد الذي لا شريك له.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي الذي أتيتكم به من الأخبار عن القيامة والحشر، والجنة والنار، وما أخبرتكم به عن نبؤتي وصدقي هو نبأ عظيم، وأنتم أعرضتم عنه.

وما كان لي من علمٍ بالملا الأعلى واختصامهم فيه لولا أن الله عرّفني، وإلا ما كنتُ علمتُه. والملا الأعلى قومٌ من الملائكة في السماء العليا، واختصامهم كان في شأن آدم حيث قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها؟

وقد ورد في الخبر: «أن جبريل سأل الرسول ﷺ عن هذا الاختصام فقال: لا أدري. فقال جبريل: في الكفارات والدرجات؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء في السُّبُرَات^(١)، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وأما الدرجات فإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»^(٢)، وإنما اختلفوا في بيان الأجر وكمية الفضيلة فيها - فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا، ولكنهم في الأصل لا يجحدون.

... وهذا إنما يُوحى إليّ وأنا منذر مبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

إخباره الملائكة بذلك إنما يدلُّ على تفخيم شأن آدم؛ لأنه خلق ما خلق من الكونين، والجنة والنار، والعرش والكرسي، والملائكة، ولم يقل في صفة شيءٍ منها ما قال في صفة آدم وأولاده. ولم يأمر بالسجود لأحدٍ ولا لشيءٍ إلا لآدم، وسبحان الله! خلق أعزَّ خلقه من أدلُّ شيءٍ وأخسُّه وهو التراب والطين.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ﴾.

روح آدم - وإن كانت مخلوقة - فلها شرفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر، فلما سوى خلق آدم، وركب فيه الروح جلّله بأنوار التخصيص، فوقعت هيبته على الملائكة، فسجدوا لأمره، وظهرت لإبليس شقاوته، ووقع - بامتناعه - في اللعنة^(٣).

(١) السبرات: جمع سبرة، وهي الغداة الباردة. (اللسان ٤/ ٣٤١ مادة: سبر).

(٢) للحديث رواية أخرى «سألني ربي فقال: يا محمد فيم اختصم الملا الأعلى» أخرجه القرطبي في (التفسير ١٥/ ٢٢٦).

(٣) الآيتان (٧٣، ٧٤) لم تردا.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ .

من هنا وقع في الغلط؛ توهم أن التفضيل من حيث البنية والجوهرية، ولم يعلم أن التفضيل من حيث القسمة دون الخلق.

ويقال ما أودع الله - سبحانه - عند آدم لم يوجد عند غيره، ففيه ظهرت الخصوصية.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنَّا يَا نَكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

قال فخرج من الجنة، ومن الصورة التي كنت فيها، ومن الحالة التي كنت عليها، ﴿فَأَنكَ رَجِيمٌ﴾ مزمي باللعن مني، وبالشهب من السماء، وبالرجوم من قلوب الأولياء إن تعرضت لهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه، وتعلقت إرادته بسؤال إنظاره، فازداد إلى القيامة في سبب عقوبته، فأنظره الله، وأجابته، لأنه بلسانه سأل تمام شقاوته.

﴿قَالَ فِعْرِيكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ .

ولو عرّف عزّته لما أقسم بها على مخالفته.

ويقال تجاسره في مخاطبة الحق - حيث أصرّ على الخلاف وأقسم عليه - أفتبح وأولى في استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لآدم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول ﷺ:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلِلْعَالَمِينَ نَبَأٌ بَعْدَ

جبرين﴾ .

ما جنتكم من حيث أنا، ولا باختراري، وإنما أزيلت إليكم.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن، عظة لكم.

﴿وَلِلْعَالَمِينَ نَبَأٌ بَعْدَ جبرين﴾ وعلم صدقه بعد ما استمرت شريعته، فإن مثل ذلك إذا

كان باطلاً لا يدوم.

سورة الزمر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة سماعها يوجب للقلوب شفاءها، وللأرواح ضيائها، وللأسرار سناءها وعلاءها.

كلمة مَنْ سَمِعَهَا بِسْمِعِ الْعِلْمِ ازداد بصيرةً على بصيرة، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة. وَمَنْ سَمِعَهُ بِسْمِعِ الْوَجْدِ ظَلَّتْ أَلْبَابُهُ مَبْهُورَةً، وأسراره بقهر الكشوفات منشورة.

قوله جل ذكره: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

أي هذا كتاب عزيز نزل من رب عزيز على عبد عزيز بلسان ملك عزيز في شأن أمة عزيزة بأمر عزيز. وفي ورود الرسول به من الحبيب الأول نزهة لقلوب الأحياء بعد ذبول غصن سرورها، وارتياح عند قراءة فصولها.

وكتاب موسى في الألواح التي كان منها يقرأ موسى، وكتاب نبينا ﷺ نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى صلوات الله عليه... وفضل بين من يكون كتاب ربه مكتوباً في ألواح، وبين من يكون خطاب ربه محفوظاً في قلبه، وكذلك أمته، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

أي أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق، وأنا مُحِقٌّ في إنزاله.

والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع، وتكون بالنفس والقلب والروح؛ فالتى بالنفس بالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص، والتي بالقلب بالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص، والتي بالروح بالإخلاص فيها التنقي عن طلب الاختصاص.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ

إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أمر العبد أن يحتسب الأجر على طاعته فإطاعته لا

تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَالَمِ مُخْلِصٌ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ أي الذين عبدوا الأصنام قالوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ولم يقولوا هذا من قِبَلِ اللَّهِ ولا بأمره ولا بإذنه، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. وفي هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القُرْبِ بنشاطِ نَفْسِهِ من غير أن يقتضيه حُكْمُ الْوَقْتِ، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عَقُودٍ ثم لا يَبْقَى بِهَا... فكل ذلك اتباعُ هَوَى، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَةً رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

لا تهديهم اليومَ لدينه، ولا في الآخرة إلى ثوابه. والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرض لغير مقامه، ويدعي شيئاً ليس بصادقٍ فيه، فالله لا يهديه قط إلى ما فيه سداؤه ورُشْدُهُ. وعقوبته أَنْ يَحْرِمَهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي تَصَدَّى لَهُ بِدَعْوَاهِ قَبْلَ تَحْقِيقِهِ بِوَجُودِهِ وَذَوْقِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

خاطبهم على قَدْرِ عَقُولِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ حيث قالوا: المسيحُ ابنُ اللَّهِ، ومُغزِيٌّ وَلَدُ اللَّهِ؛ فقال: لو أراد أن يتخذَ وَلَدًا لِلتَّبْنِيِّ وَالْكَرَامَةِ لِاخْتَارَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ مُنْزَهُونَ عَنِ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَأَوْصَافِ الْخَلْقِ.

ثم أخبر عن تَقْدِيمِهِ عَنْ ذَلِكَ فقال: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ تنزيهاً له على اتخاذِ الْوَالِدِ... لا في الحقيقة لاستحالة معناه في نَفْتِهِ، ولا بالتبني لِتَقْدِيمِهِ عَنِ الْجِنْسِيَّةِ وَالْمَحَالَاتِ، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد؛ إذ لو كان ذلك فيكف كان يكون حُكْمُهُ؟ كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي خَلَقَهُمَا وَهُوَ مُجْتَبَى فِي خَلْقِهِمَا.

﴿يَكْوَرُ أَيْلٌ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى أَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

يُدْخِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ، ويدخل النهار على الليل في الزيادة والنقصان، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ. وقد مضى فيما تقدم اختلاف أحوال العبد في القبض والبسط، والجَمْعِ وَالْفَرْقِ، والأخذ والرد، والصحو والسُّكْرِ، ونجوم العقل وأقمار العلم،

وشموس المعرفة ونهار التوحيد، وليالي الشك والجحد ونهار الوصل، وليالي الهجر والفرق وكيفية اختلافها، وزيادتها ونقصانها.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفْرُ﴾ .

«العزیز» المتعزز على المحبين، «الغفار» للمذنبين .

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ .

﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] يعني آدم وحواء .

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي خلق لكم، ﴿ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ﴾ فمن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المواشي اثنين .

﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: أي يصوركم، ويركب أحوالكم .

﴿فِي ظُلْمَتٍ ثَلَاثٍ﴾: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة^(١) . ذكّرهم نسبتهم لثلاثي ينجبوا بأحوالهم .

ويقال بين آثار أفعاله الحكيمة في كيفية خَلْقِكْ - من قطرتين - أمشاجاً^(٢) متشاكلة الأجزاء، مختلفة الصور في الأعضاء، سخر بعضها محال للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة... وغير ذلك من أحوال القلوب، وسخر بعضها محال للحواس كالسمع والبصر والشم وغيرها .

ويقال هذه كلها نعم الله بها علينا فذكّرنا بها - والنفوس مجبولة، وكذلك القلوب على حب من أحسن إليها - استجلاباً لمحبتنا له .

﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ...﴾ أي إن الذي أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربكم . أي: أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صورثكم فأحسنتم صوركم، وأنا الذين أسبغت عليكم إنعامي، وخصصتكم بجميل إكرامي، وأغرقتكم في بحار أفضالي، وعرفتكم استحقاق جمالي وجلالي، وهديتكم إلى توحيددي، وألزمتكم رعاية حدوددي... فما لكم لا تنقظعون بالكلية إلي؟ ولا ترجون ما وعدتكم لدي؟ وما لكم في الوقت بقلوبكم لا تنظرون إلي؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ .

(١) المشيمة: ظاهر الغشاء الذي يكون فيه الجنين في البطن، ويخرج معه عند الولادة (ج) مشايم .

(٢) الأمشاج: هي الأخلاط، ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة . (اللسان ٣٦٧/٢ مادة: مشج) .

إن أعرضتم وأبئتم، وفي جحودكم تماديتم... فَمَا تَقْفِرُ إِلَيْكُمْ؛ إذ نحن أغنياء عنكم، ولكني لا أرضى لكم أن تبفروا عني!

يا مسكين... أنت إن لم تكن لي فأنا عنك غني، وأنا إن لم أكن لك فمن تكون أنت؟ ومن يكون لك؟ من الذي يُحسِنُ إليك؟ من الذي ينظر إليك؟ من الذي يرحمك؟ من الذي ينثر التراب على جراحك؟

من الذي يهتم بشأنك؟ بمن تسلو إذا بقيت عني؟ من الذي يبيعك رغباً بمثاقيل ذهب؟!.

عَبْدِي... أنا لا أرضى ألا تكون لي وأنت ترضى ألا تكون لي! يا قليل الوفاء، يا كثير التجني!

إن أظغنتني شكرتك، وإن ذكرتني ذكرك، وإن خطوت لأجلي خطوة ملأت السموات والأرضين من شكرك:

لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ الزِّيَارَةَ حَقٌّ لَفَرَشْنَا الخُدُودَ أَرْضاً لَتَرْضَى

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَمَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾.

إذا مسه ضرٌّ خضع وخضع، وإلى فُزبه فزع، وتملق بين يديه وتضرع. فإذا أزال عنه ضرره، وكفاه أمره، وأصلح شغلته نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، ويُشرك بمعبوده. هذه صفة... فسحقاً له وبُعداً، ولسوف يلقي عذاباً وخزياً.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ مَائَةَ أَلْيَلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَجُوا رَحْمَةً رَبِّهِمْ...﴾.

«قانتاً»: القنوت هو القيام، وقيل طول القيام. والمراد هو الذي يقوم بحقوق الطاعة أوقات الليل والنهار؛ أي في جميع الأوقات.

والهمزة للاستفهام أي أمن هو قانت كمن ليس بقانت؟ أمن هو قانت كالكافر الذي جرى ذكره؟ أي ليس كذلك.

ويقال القنوت القيام بأداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير. «يَحْذَرُ» العذاب الموعود في الآخرة، «ويرجو» الثواب الموعود. وأراد بالحدَرِ الخوف.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل! ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ : العِلْمُ في وصف المخلوق على ضربين : مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد، وموهوبٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ . ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علمٌ برهانٍ وعلمٌ بيانٌ ؛ فالعلومُ الدينية كلها برهانية إلا ما يحصل بشرط الإلهام .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ يَتَجَادَدُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .
أطيعوه واحذروا مخالفة أمره . ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بأداء الطاعات ، والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان) .

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ : أي لا تتعللوا بأذى الأعداء ؛ إن نبأ بكم منزل فتعللکم بمعادة قوم ومنعهم إياكم - لا يُسْمَعُ ، فأرضُ الله واسعةٌ ، فاخرُجوا منها إلى موضع آخر تتم لكم فيه عبادتكم^(١) .

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ . والصبر حبسُ النفس على ما تكرهه . ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراه ولا تعيس .
ويقال هو التهذُّفُ^(٢) لسهام البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ .
مضى القول في معنى الإخلاص . وفي الخبر : إن الله يقول : «الإخلاص سِرٌّ بين الله وعبيده»^(٣) .

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُهُ الشيطان ، ولا يَطْلُعُ عليه المَلَكَانُ .
﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ في وقتي وفي شرعي .
والإسلامُ الانقيادُ لله بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .
أخاف أصنافَ العذابِ التي تحصل في ذلك اليوم .

(١) قال القشيري برسائه حائناً على السفر: إن ابتلي مرید بجاه أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة، وليس هناك شيخ يدلّه على حلّ لهلك، فعند ذلك يحلّ له السفر والتحول عن ذلك الموضوع. (الرسالة القشيرية ص ٣٦٣).

(٢) التهذف: الدنو والاستقبال. (اللسان ٩/٣٤٥ مادة: هدف).

(٣) ورد الحديث في الرسالة القشيرية ص ٢٠٨: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «سَأَلْتُ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سَزَّ مِنْ سَرِيٍّ اسْتَوْدَعْتَهُ قَلْبَ مَنْ أَحَبَبْتَهُ مِنْ عِبَادِي». أخرجه القزويني في مسلسلاته عن حذيفة.

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ .

هذا غاية الزجر والتهديد، ثم بيّن أن ذلك غاية الخسران، وهو الخزي والهوان. والخاسير - على الحقيقة - من خسر دنياه بمتابعة الهوى، وخسر عقباه بارتكابه ما الرب عنه نهى، وخسر مولاه فلم يستح منه فيما رأى.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُمْ يَعْبَادُوا فَاتَّقُونَ﴾ .

أحاط بهم سردقها؛ فهم لا يخرجون منها، ولا يفتشون عنها. كما أنهم اليوم في جهنم عقاندهم؛ يستديم حجابهم، ولا ينقطع عنهم عقابهم.

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُمْ...﴾ . إن خفت اليوم كُفَيْت خوف ذلك اليوم وإلا فبين يدك عقبة كؤود.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ .

طاغوت كل إنسان نفسه؛ وإنما يجتنب الطاغوت من خالف هواه، وعانق رضا مولاه. وعبادة النفس بموافقة الهوى - وقليل من لا يعبد هواه، ويجتنب حديث النفس.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ : أي رجعوا إليه في كل شيء.

قوله جل ذكره: ﴿فَيَسِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ .

﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ يقتضي أن يكون الاستماع لكل شيء، ولكن الاتباع يكون للأحسن. «أحسنه»: وفيه قولان؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحسن ولا تكون الهمزة للمبالغة، كما يقال مَلِكٌ أَعَزُّ أَي عزيز. والثاني: الأحسن على المبالغة، والحسن ما كان ماذوناً فيه في صفة الخلق ويغلم ذلك بشهادة العلم، والأحسن هو الأولى والأصوب. ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له. ويقال من عَرَفَ اللَّهَ لا يسمع إلا بالله.

ويقال إن للعبد دواعي من باطنه هي هواجس النفس ووساوس الشيطان وخواطر المَلِكِ وخطاب الحق يُلقَى في الرُوع؛ فوساوس الشيطان تدعو إلى المعاصي، وهواجس النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النفس وأن لها في شيء نصيباً، وخواطر المَلِكِ تدعو إلى الطاعات والقرب، وخطاب الحق في حقائق التوحيد.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ : -

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة .
قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ .

الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب فريقان: فريقٌ حقت عليهم كلمةً بعذابهم في النار، وفريقٌ حقت عليهم كلمةً العذاب بالحجاب اليوم، فهم اليوم لا يخرجون عن حجاب قلوبهم، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان - وإن كانوا من أهل الإيمان .

قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّيْبُتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَاتِ﴾ .

وَعَدَّ المطيعين بالجنة - ولا محالة لا يُخْلِفُ، وَعَدَّ التائبين بالمغفرة - ولا محالة يغفر لهم، وَعَدَّ المرئدين بالوجود والوصول - وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالة مُصَدِّقٌ وَعَدَّهُ .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

أخبر أنه يُنَزَّلُ من السماء المطرَ فيُخْرِجُ به الزرعَ فيخضر، ثم يأخذ في الجفاف، ثم يصير هشيمًا . . . والإشارة من هذا إلى الإنسان، يكون طفلًا ثم شابًا ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم في آخره يخترم .

ويقال إن الزرع ما لم يأخذ في الجفاف لا يُؤَخَذُ منه الحَبُّ، فالحَبُّ هو المقصود منه . كذلك الإنسان ما لم يحصل من نفسه وصولاً لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمة .

ويقال إن كَوْنَ المؤمن بقوة عقله يوجب استفادةً له بعلمه إلى أن يبدو منه كمالٌ يُمكنُ من أنوار بصيرته، ثم إذا بدت لائحة من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة . فإذا بَدَتْ أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة، قالوا:

فلما استبان الصبحُ أدرج^(١) ضوءه بأنواره أنوار تلك الكواكب
قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .

جواب هذا الخطاب محذوف . . . أي أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن ليس كذلك؟

(١) أدرج الشيء في الشيء: لفه وطواه .

لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ سُئِلَ الرَّسُولُ - ﷺ - عَنِ الشَّرْحِ الْمَذْكُورِ فِيهَا، فَقَالَ: «ذَلِكَ نُورٌ يُقْذَفُ فِي الْقَلْبِ، فَقِيلَ: وَهَلْ لَذَلِكَ أَمَارَةٌ؟
قال: «نعم؛ التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»^(١).

والنورُ الَّذِي مِنْ قِبَلِهِ - سبحانه - نورُ اللّوائحِ بنجوم العلم، ثم نورُ اللوامعِ ببيان القهَم، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نورُ المكاشفة بتجلي الصفات، ثم نورُ المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد... وعند ذلك فلا وَجَدَ ولا فقد، ولا قُربَ ولا بُعدَ... كَلَّا بل هو الله الواحد القهار.

﴿قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أي الصلبة قلوبهم، لم تفرعها خواطرُ التعريف فبقيت على نكرة الجحد... أولئك في الضلالة الباقية، والجهالة الدائمة.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ بِغَايَةِ ضَلَالٍ﴾.

﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ لأنه غير مخلوق.

﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ في الإعجاز والبلاغة.

﴿مَّثَانِيَ﴾: يشي فيها الحكم ولا يملُ بتكرار القراءة، ويشتمل على نوعين: الشناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إذا سمعوا آيات الوعيد.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إذا سمعوا آيات الوعد.

ويقال: تقشعر وتلين بالخوف والرجاء، ويقال بالقبض والبسط، ويقال بالهيبه والأنس، ويقال بالتجلي والاستتار.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي فَمَنْ يَتَّبِعِ بوجهه سوء العذاب كَمَنْ ليس كذلك؟ وقيل إن الكافر يَلْقَى النَّارَ أَوَّلَ ما يلقاها بوجهه؛ لأنه يُرْمَى فيها منكوساً. فأما المؤمن فيوقى ذلك؛ وإنما يَلْقَى النضرة والسرور والكرامة؛ فوجهه ضاحكٌ مُسْتَبْشِرٌ.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/٣٢٧، ٣٢٨، ١٠/٢٥٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/٤٤، ٥/٣٢٥)، وابن كثير في (التفسير ٣/٣٢٨)، والقرطبي في (التفسير ٢/١٠٤، ٧/٨١).

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَلْبِهِمْ فَأَنَّهُمْ أَلْمَدَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أشدُّ العذاب ما يكون بغتةً، كما أنَّ أتمَّ السرور ما يكون فلتةً^(١).
ومن الهجران والفراق ما يكون بغتةً غير متوقع، وهو أنكى للفؤاد وأشدُّ وأوجعُ تأثيراً في القلب، وفي معناه قلنا:

فَبِتْ بِخَيْرٍ وَالذُّنَى مَطْمِئِنَةٌ وَأَصْبَحَتْ يَوْمًا وَالزَّمَانُ تَقَلَّبًا
وَأَتَمُّ السُّرُورِ وَأَعْظَمُهُ تَأْتِيْرًا مَا يَكُونُ فَجَاءَةً، قَالَ قَائِلُهُمْ:

بينما خاطر المُنَى بالتلاقي سابع في فؤاده وفؤادي
جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا فَالتَّقِينَا هَكَذَا صُدْفَةً بِلَا مِيعَادٍ^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَرَأَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ أَلْعَلَّهُمْ يَنْقُرُونَ﴾.

أي أوضحنا لهم الآيات، ووقفناهم على حقائق الأشياء.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مثل الكافر ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه متنازعون.

﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾: فالصنم يدعي فيه قومٌ وقومٌ آخرون؛ فهذا يقول: أنا صنَعْتُهُ، وذلك يقول: أنا استعملتُهُ، وثالث يقول: أنا عبدتُهُ.

أما المؤمن فهو خالصٌ لله عزَّ وجل، يشبه «عبدًا سلمًا لرجل» أي ذا سلامة من التنازع والاختلاف.

ويقال: ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ تتجاذبه أشغال الدنيا، شغلُ الولدِ وشغلُ العيال، وغير ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ المُشْتَتَةِ.

أما المؤمن فهو خالصٌ لله ليس لأحدٍ فيه نصيبٌ؛ ولا للدنيا معه سببٌ إذ ليس منها شيء، ولا للرضوان معه شغلٌ، إذ ليس له طاعاتٌ يُدِلُّ بها، وعلى الجملة فهو خالصٌ لله، قال تعالى لموسى: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِإِنْفِيسِي﴾ [طه: ٤١] أي أبقيتك لي حتى لا تصلح لغيره.

﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: الثناء له، وهو مُسْتَحِقٌّ لصفات الجلال.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ﴾.

(١) الفلتة: يقال: خرج الرجل فلتة؛ أي: بغتةً، وحدث الأمر فلتة أي: فجأة بلا روية (ج) فلتات.

(٢) الآية (٢٦) لم ترد.

نَعَاه - عليه السلام - إليه . وَنَعَى الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ فَفَزِعُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنْ مَأْتِمِهِمْ ، ولا تعزية في العادة بعد ثلاث . وَمَنْ لَمْ يَتَفَرَّغْ مِنْ مَأْتِمِ نَفْسِهِ وَأَنْوَاعِ هُمُومِهِ ، فليس له من هذا الحديث شمة ، فإذا فرغ قلبه من حديث نفسه ، وعن الكون بجملته فحينئذ يجد الخيرَ من ربه ، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم ، وأنشد بعضهم :

كتابي إليكم بعد موتي بليلة ولم أدري بعد موتي أكتب
قوله جل ذكره: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۗ ﴾ .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يبلغها ، وأدعى وجود أشياء لم يذُق شيئاً منها ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠] .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأما المدعي الذي لم يبلغ ما يدعيه فليس يكذب على ربه إنما يكذب على نفسه ؛ حيث ادعى لها أحوالاً لم يذُقها ولم يجدها ، فأما غير المتحقق الذي يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذي يقول في صفة الحق - سبحانه - ما يتقدس ويتعالى عنه ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَمَّا بَسَّأَهُمْ ۖ إِذْ جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَمَّا بَسَّأَهُمْ ۖ إِذْ جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَمَّا بَسَّأَهُمْ ۖ ﴾ .

الذي جاء بالصدق في أفعاله من حيث الإخلاص ، وفي أحواله من حيث الصدق ، وفي أسراره من حيث الحقيقة .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : «الإحسان» - كما جاء في الخبر - أن تعبد الله كأنك تراه ^(٢) . فَمَنْ كَانَتْ - اليومَ - مشاهدته على الدوام كانت رؤيته غداً على الدوام ، وَمَنْ لَا فَلَ .

(١) قال القشيري برسالته : ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وأدعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق ، تجري عليهم أحكامه ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم لو كوشفوا بأسرار الأحذية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، ويقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والثائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا .

هذه هي الصور التي يصور بها القشيري بعض متصوفي زمانه ، وهي أشبه بالصورة التي صور بها الكلاباذي بعض متصوفي زمانه ، ولكنها أحلك سواداً وأكثر إبلاماً . (الرسالة القشيرية ص ٣٧) .

(٢) أخرجه البخاري في (الصحیح ١٤٤/٦) ، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/١٠) وابن خزيمة في (الصحیح ٢٢٤٤) ، والهيثمي في (موارد الظمان ١٦) ، وابن حجر في (فتح الباري ٥١٣/٨) ، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٣٤/٨ ، ٩٤/١٠) ، وابن كثير في (التفسير ٣٥٦/٦) ، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩ - ٥٢٥٤) .

قوله جل ذكره: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

من لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة. ومن كان معه إيمان: فإذا كُفِّرَ عنه أسوأ ما عملَه فأسوأ أعماله كبائرُه؛ فإن غُفِرَتْ يَجْزِيَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ. وأحسنُ أعمالِ المؤمنِ الإيمانُ والمعرفة، فإن كان الإيمانُ مؤقتاً كان ثوابه مؤقتاً، وإن كان الإيمانُ على الدوام فثوابه على الدوام. ثم أحسنُ الأعمالِ عليها أحسنُ الثوابِ، وأحسنُ الثوابِ الرؤيَةُ فيجب أن تكون على الدوام - وهذا استدلالٌ قوي.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

استفهام والمراد منه التقرير؛ فالله كافٍ عبده اليوم في عرفانه بتصحيح إيمانه ومنع الشرك عنه، وغداً في غفرانه بتأخير العذاب عنه، وما بينهما فكفايته تامة وسلامته عامة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قرَّرَ عليهم علو صفاته، وما هو عليه من استحقاق جلاله فأقرُّوا بذلك، ثم طالبهم بذكر صفات الأصنام التي عبدوها من دونه، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجمادية، والبعد عن الحياة والعلم والقدرة والتمكُّن من الخلق، فيقول: كيف أشركتم به هذه الأشياء؟ وهلا استحييتم من إطلاق أمثال ذلك في صفته؟.

قُلْ - يا محمد - حَسْبِيَ اللَّهُ، عليه يتوكل المتوكلون؛ كافيُّ الله المتفرِّدُ بالجلال، القادرُ على ما يشاء، المتفَضِّلُ عليَّ بما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَقَوَّرُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَنُودٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

سوف ينكشف رينُّنا وخسرانكم، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم، وسوف نطالبكم فلا جواب لكم، ونُعذِّبكم فلا شفيح لكم، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريخ لكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ سَلَ فإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

(١) الآية (٣٧) لم ترد.

مَنْ أَحْسَنَ فإِحْسَانَهُ إِلَى نَفْسِهِ اِكْتَسَبَهُ وَمَنْ أَسَاءَ فَبِلَاؤِهِ عَلَى نَفْسِهِ جَلَبَهُ - وَالْحَقُّ غَنِيٌّ عَنِ التَّجْمُلِ بِطَاعَةِ مَنْ أَقْبَلَ وَالتَّنْقِصِ بِزَلَّةٍ مَنْ أَعْرَضَ .

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

يقبض الأرواح^(١) حين موتها، والتي لم تمُت من النفوس في حال نومها، فإذا نامت فيقبض أرواحها. وقبض الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح، ويخلق بدّل الاستشعار والعلم الغفلة والغيبة في محال الإحساس والإدراك. ثم إذا قبض الأرواح عند الموت خلق في الأجزاء الموت بدّل الحياة، والموت ينافي الإحساس والعلم. وإذا ردّ الأرواح بعد النوم إلى الأجساد خلق الإدراك في محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً، وقبض الله الأرواح في حال النوم وردت به الأخبار، وذلك على مراتب؛ فإن روحاً تُقبض على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى، وتكون لها تعريفات، ومعها مخاطبات «والله أعلم»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَرِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ﴾ .

أي أنهم - وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء يحكمهم لا بتعريف من قبيل الله أو إخبار - فإن الله تعالى لا يقبل الشفاعة من أحدٍ إلا إذا أُذِنَ بها، وإن الذي يقولونه إنما هو افتراء على الله .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

اشمأزت^(٣) قلوب الذين جحدوا ولم تسكن نفوسهم إلى التوحيد، وإذا ذُكِرَ الذين مِن دونه استأنسوا إلى سماعه: -

(١) القشيري هنا لا يكاد يميز بين النفس والروح. لكنه بالرسالة يميز بينهما حيث يقول: ويُحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القالب هي محل الأخلاق المعلولة، كما أن الروح لطيفة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة، وتكون (بشكل عام) مسخراً بعضها لبعض، والجميع إنسان واحد، وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة. (الرسالة القشيرية ص ٨٧).

ثم يقول: اختلف أهل التحقيق من أهل السنة في الأرواح فمنهم من يقول: إنها الحياة، ومنهم من يقول: إنها أعيان مودعة في هذه القوالب، لطيفة، أجرى الله العادة بخلق الحياة في القالب ما دامت الأرواح في الأبدان. (الرسالة القشيرية ص ٨٨).

(٢) الآية (٤٤) لم ترد. (٣) اشمأز: انقبض واقشعر ونفر.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

عَلَّمَهُ - عَلَّمَهُ - كيف يشي عليه - سبحانه .

وتشتمل الآية على الإشارة إلى بيان ما ينبغي من التتصل والتدليل، وابتغاء العفو والتفضل، وتحقيق الالتجاء بحسن التوكل . ثم أخبر عن أحوالهم في الآخرة فقال :
﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

لافتدوا به . . . ولكن لا يقبل منهم، واليوم لو تصدقوا بمشقال ذرة لقبيل منهم . كما أنهم لو بكوا في الآخرة بالدماء لا يرحم بكأؤهم، ولكنهم بدمعة واحدة - اليوم - يُمحى الكثير من دواوينهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ .

في سماع هذه الآية حسرات لأصحاب الانتباه .

وفي بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يؤمر بهم إلى النار فإذا وافوها يقول لهم ما ليك : من أنتم؟ إن الذين جاؤوا قبلكم من أهل النار وجوههم كانت مسودة، وعيونهم كانت مزرقة . . . وأنتم لستم بتلك الصفة، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نلقاك، وإنما انتظرنا شيئاً آخر! قال تعالى : ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ .

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِءُونَ﴾ .

حاق بهم وبأل استهزائهم وجزاء مكرهم .

قوله جل ذكره : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوْتَيْتُهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلِ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

في حال الضر يتبرؤون من الاستحقاق والحوال والقوة، فإذا كشف عنهم البلاء وقعوا في مغاليطهم، وقالوا : إنما أوتينا هذا باستحقاق منا، قال تعالى : ﴿بَلِ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ولكنهم لم يعلموا، ثم أخبر أن الذين من قبلهم مثل هذا قالوا وحسبوا، ولم يحصلوا إلا على مغاليطهم، فأصابهم شوؤم ما قالوا، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مثل ما أصاب أولئك^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

(١) الآيتان : (٥٠، ٥١) لم تردا .

أولم يَرَوْا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق: فَمِنْ مُوسِعٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ،
وَمِنْ مُضَيِّقٍ عَلَيْهِ، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ مِمَّا حُصِّصَ بِهِ مِنَ التَّقْلِيلِ أَوْ التَّكْثِيرِ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

التسمية «بإعبادي» مَذْحُ^(١)، والوصف بأنهم «أسرفوا» ذَمٌّ . فلَمَّا قَالَ:
﴿يٰعِبَادِيَ﴾ طمع المطيعون في أن يكونوا هم المقصودين بالآية، فرفعوا رؤوسهم،
ونكس العَصَاةَ رؤوسهم وقالوا: مَنْ نحن... حتى يقول لنا هذا؟! .

فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ فانقلب الحال؛ فهؤلاء الذين نكسوا رؤوسهم
انتعشوا وزالت ذلَّتُهُمْ، والذين رفعوا رؤوسهم أطرقوا وزالت صَوْلَتُهُمْ .

ثم أزال الأعجوبة عن القسمة بما قوي رجاءهم بقوله: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني إن
أَسْرَفْتَ فعلى نفسك أسرفت .

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾: بعد ما قطعت اختلافك إلى بابنا فلا ترفع قلبك عَنَّا .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الألف واللام في «الذنوب» للاستغراق والعموم،
والذنوب جمع ذنب، وجاءت «جميعاً» للتأكيد؛ فكأنه قال: أَغْفِرُ وَلَا أَتْرِكُ، وَأَعْفُو
وَلَا أَبْقِي .

ويقال إن كانت لكم جناية كثيرة عميمة فلي بشأنكم عناية قديمة .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا
تُصْرَفُونَ﴾ .

الإنباء الرجوع بالكلية . وقيل الرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائب يرجع من
خوف العقوبة، وصاحب الإنابة يرجع استحياءً لِكَرَمِهِ^(٢) .

(١) قال القشيري برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا
اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج،
وكان أشرف أوقاته في الدنيا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى﴾، وقال تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ فلو كان اسم أجل من العبودية لسمّاه به .
(الرسالة القشيرية ص ٢٠٠) .

(٢) قال القشيري بهذا الخصوص برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: التوبة على
ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة
أوسطهما . فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب
إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر، لا لرغبة في الثواب أو رهبة في العقاب فهو صاحب أوبة .

ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين . قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون﴾ والإنابة صفة =

﴿وَأَسْلِمُوا لَكُمْ﴾: وأخلصوا في طاعتكم، والإسلام - الذي هو بعد الإنابة - أن يعلم أن نجاته بفضلِهِ لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إنابته... لا بإنابته يصل إلى فضله.
﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ﴾ قبل الفراق. ويقال هو أن يفوته وقت الرجوع بشهود الناس ثم لا يتصرف عن ذلك^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بَحْرَتْنِي عَلَى مَا قَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاجِدِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يقال هذا في أقوام يَرُونَ أمثالهم تقدموا عليهم في أحوالهم، فيتذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم، وَيَرُونَ مَا وَفَّقَ إِلَيْهِ أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة^(٢) على أنامل الخيبة.

أو يقول: لو أن الله هداني لَكُنْتُ كذا، ويقول آخر: لو أن لي كَرَّةً فأكون كذا، فيقول الحق - سبحانه:

﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾.

فَذُقْ من العذاب ما على جُزْمِكَ استوجبت.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

هؤلاء الذين ادَّعوا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها، وأظهروا المحبة لله ولم يتحققوا بها، وكفاهم افتضاحاً بذلك! وأنشدوا:

ولمَّا ادَّعَيْتُ الحُبَّ قالت كَذَّبْتَنِي فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا؟!
فما الحُبُّ حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب المناديا^(٣)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَسْمَعُ أَسْوَأَ مِنَّا وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

كما وقَّاهم - اليوم - عن المخالفات، حماهم - غداً - من العقوبات، فالمتقون

= الأولياء المقربين، قال الله تعالى: ﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ والآية صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿بِعَمِّ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. (الرسالة الفشرية ص ٩٤).

(١) الآية (٥٥) لم ترد.

(٢) عضوا عليه بالنواجذ؛ أي حرصوا عليه.

(٣) البيتان في الرسالة الفشرية ص ٣٢٤. رواية البيت الثاني فيها:

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا

فازوا بسعادة الدارين؛ اليوم عصمة، وغداً نعمة. اليوم عناية وغداً حماية وكفاية.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

تدخل أكساب العباد في هذه الجملة، ولا يدخل كلامه فيه؛ لأن المخاطب لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿مَقَالِيدُ﴾ أي مفاتيح، والمراد منه أنه قادر على جميع المقدورات، فما يريد أن يوجدّه أوجدّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرَوتِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

أي متى يكون لكم طمّع في أن أعبد غيره... ويتوحيده ربّاني، وبتفريده غدّاني، وبشراب حبه سقّاني؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

لئن لاحظت غيري، وأثبتت معي في الإبداع سواي أخطت عمّلك، وأبطلت سعيك، بل الله - يا محمد - فاعبّد، وكُن من جملة عبادي الشاكرين^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ما عرفوه حقّ معرفته، وما وصفوه حقّ وصفه، وما عظّموه حقّ تعظيمه؛ فمن اتصف بتمثيل، أو جتنح إلى تعطيل حادّ عن الشئنة المثلّي وانحرف عن الطريقة الحسنی. وصفوا الحقّ بالأعضاء، وتوهموا في نغته الأجزاء، فما قدروه حقّ قدره؛ فالحلّق في قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، ويمينه قدرته. ولأنه أقسم أن يُفني السموات ويطويها فهو قادر على ذلك.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ تنزيهاً له عما أشركوا في وصفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَوَّقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

في النفخة الأولى تموتون، ثم في النفخة الثانية تُحشرون، والنفختان متجانستان؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح، وفي الأخرى حياة النفوس،

(١) الآية (٦٦) لم ترد.

لِيُعْلَمَ أَنَّ النَفْخَةَ لَا تَعْمَلُ شَيْئاً لِعَيْنِهَا، وَإِنَّمَا الْجِبَارُ بِقُدْرَتِهِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشَّهَادَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَوُضِيَ لِيَنظُرَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامة به، وذلك عند تكوير^(١) الشمس وانكدار^(٢) النجوم، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم. الكُفَّارُ يَبْقُونَ فِي الظلمات، والمؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم.

ويقال اليومُ إشراق، وغداً إشراق، اليومُ إشراق القلب بحضوره، وغداً إشراق الأرض بنور ربها. ويقال غداً أنوار التولي للمؤمنين، واليومُ أنوار التجلي للعارفين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

إن كان خيراً فَخَيْرٌ، وإن كان غير خَيْرٍ فغير خَيْرٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

الكفار يُسَاقُونَ إِلَى النار عنفاً، والمؤمنون يُسَاقُونَ إِلَى الجنة لطفاً؛ فالسوقُ يجمع الجنسين... ولكن شتان بين سوقٍ وسوقٍ!.

فإذا جاء الكفار قائلهم خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب؛ فلا تكريم ولا تعظيم، ولا سؤال ولا استقبال... بل خِزْيٌ وهوانٌ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبَّنَا قَدْ خَلَلْنَا خَلْدِينَ﴾.

سوقٌ ولكن بغير تعبٍ ولا نَصَبٍ، سوقٌ ولكن برُوحٍ وطَرَبٍ.

«زمرًا» جماعات، وهؤلاء هم عوامُ أهل الجنة، وفوق هؤلاء: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] وفوقهم مَنْ قال فيهم: ﴿وَأَرْزَلْنَا الْجَنَّةَ لِمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] وفرقٌ بين مَنْ يُسَاقُ إِلَى الجنة، وبين مَنْ تُقَرَّبُ منه الجنة... هؤلاء الظالمون، والآخرون المقتصدون، والآخرون السابقون.

(١) كوّرت الشمس: جمع ضوءها وصار كالكرة، أو اضمحلّت وذهب ضوءها.

(٢) انكدرت النجوم: تناثرت أو انحدرت وتساقت أو اظلمت وذهب نورها.

(٣) الآية (٧٢) لم ترد.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ وإذا وافوا الجنة تكون الأبواب مُفْتَحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار.

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاق، ولعل هؤلاء لا رغبة لهم في الجنة بكثير؛ فَلَهُمْ معه في الطريق قَوْلُ ﴿طَبَقًا﴾؛ أي أنهم يُسَاقون إلى الجنة بلطف دون عنف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

صَدَقْنَا وعده بإدخالنا الجنة، وإكمال المِثْمَةِ.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة؛ نتبوا منها حيث نشاء. وهؤلاء قوم مخصوصون، والذين هم قوم «الغرف» أقوام آخرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يُسَبِّحُونَ بحمد ربهم في عموم الأوقات... هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش.

وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحق، لهؤلاء دَرَكَات ولأولئك درجات... إلى غير ذلك من فنون الحالات. وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً في مقاماتهم على ما أَرَادَهُ الحق في عباداتهم.

سورة المؤمن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» كلمة من تحقق بها شرف من الحق مثاله، وصفت عنده أحواله، وخلع على نفسه رداء الأفضال، وألبس قلبه جلال الإقبال، وأفرد روحه بروح لطف الجمال، واستخلص سيره بكشف وصف الجلال.

قوله جل ذكره: ﴿حَمِّ﴾ .

أي حُم أمر كائن .

ويقال «الحاء» إشارة إلى حليمه، «والميم» إشارة إلى مجده أي: بحلمي ومجدي لا أخلد في النار من آمن بي .

ويقال هذه الحروف مفاتيح أسمائه .

﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

«العزیز»: المعز لأوليائه، «العليم» بما كان ويكون منهم، فلا يمنعه علمه بما سلف منهم عن قضائه .

قوله جل ذكره: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلْوِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي﴾ .

المصير﴾ .

كتاب معنون بقبول توبته لِعِبَادِهِ؛ عَلِيمٌ أَنَّ الْعَاصِيَ مُنْكَسِرُ الْقَلْبِ فَازَالُ عَنْهُ الْإِنْكَسَارَ بِأَنْ قَدَّمَ نَصِيحَتَهُ، فَقَدَّمَ اسْمَهُ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ. فَسَكَّنَ نَفْسَهُمْ وَقَلُوبَهُمْ بِأَسْمَائِهِ يُوَجِّبَانِ الرَّجَاءَ؛ وَهَذَا قَوْلُهُ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ .

ثم عقبهما بقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ثم لم يرض حتى قال بعدئذ ﴿ذِي الطَّلْوِ﴾ .

فَيَقَابِلُ قَوْلَهُ: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قَوْلَهُ: ﴿ذِي الطَّلْوِ﴾ .

ويقال: غافر الذنب لمن أصر واجترأ، وقابل التوب لمن أقر وندم، شديد العقاب لمن جحد وعتد، ذي الطول لمن عرف ووجد .

ويقال غافر الذنب للظالمين، وقابل التوب للمقتصدين، شديد العقاب للمشركين، ذي الطول للسابقين .

ويقال: سئئ الله أنه إذا خُوف العباد باسمٍ أو لفظٍ تدارك قلوبهم بأن يُبشّرهم باسمين أو بوضفين.

﴿إِنِّي الْمَصِيرُ﴾: وإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يُجَدَّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرَزُكَ تَقْلُبِهِمْ فِي الْبَلَدِ﴾.

إذا ظهر البرهانُ واتَّضحَ البيانُ استسلمت الأبوابُ الصاحبةُ للاستجابة والإيمان.

فأما أهل الكفرِ فلهم على الجمود إصرارٌ، وشؤمٌ شريكهم يحولُ بينهم وبين الإنصاف. . . وكذلك من لا يحترمون أولياء الله، ويصبرون على إنكارهم، ويعترضون عليهم بقلوبهم، ويجادلون في جحد الكرامات، وما يخصُّ الله به عباده من الآيات. . . فهؤلاء يميزون بين رجحانهم ونقصانهم، وسيفتضحون كثيراً.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجْدَلُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْجِسُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

كذلك من انقضى من الكفار كان تكذيب الرُّسلِ ذأبهم، ولكن الله - سبحانه - انتقم منهم، وعلى كُفْرهم احترمهم.

والمُنكِرُ لهذا الطريق يدين بإنكاره، ويتقربُ إلى الله به، ويعد وقيعته في أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته، ولكن الله - سبحانه - يعذبهم في العاجل بتخليتهم فيما هم فيه، وصد قلوبهم عن هذه المعاني، وحرمانهم منها.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

إذا انختم على عبد حُكْمُ الله بشقاوته فلا تنفعه كثرة ما يوردُ عليه من التُّصح. والله على أمره غالب. ومن أسرته يدُ الشقاوة فلا يخلُصه من مخالها جهْد ولا سعاية.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَمِيلُونَ أَلْعُرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

حملة العرش من حَوْل العرش من خواص الملائكة، مأمورون بالتسبيح لله، ثم بالاستغفار للعاصيين - لأن الاستغفار للذنب والتوبة إنما تحصل من الذنب - ويجتهدون في الدعاء لهم على نحو ما في هذه الآية وما بعدها؛ فيدعون لهم بالنجاة، ثم يرفع الدرجات، ويحيلون الأمر في كل ذلك على رحمة الله.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَرْوَجِيهِمْ وَدَرِّبْتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾: فلئن سلط عليك أراذل من خلقه - وهم الشياطين - فلقد قيض بالشفاعة أفاضل من خلقه ومن الملائكة المقربين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُسَادُونَ لِمَقْتِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَفْعَتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

أشد العقوبات التي يوصلها الحق إليهم آثار سخطه وغضبه، وأجل النعم التي يغروهم بها آثار رضاه عنهم. فإذا عرف الكافر في الآخرة أن ربه عليه غضبان فلا شيء أصعب على قلبه من ذلك؛ لأنه علم أنه لا بقاء ينفعه، ولا عناء يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يسمع له تضرع، ولا ترجى له حيلة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ آتَيْنَا فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

الإماتة الأولى إمامتهم في الدنيا ثم في القبر يحييهم، ثم يميتهم فهي الإماتة الثانية. والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر.

﴿فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾: أقروا بذنوبهم - ولكن في وقت لا ينفعهم الإقرار.

﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ مما نحن فيه من العقوبة، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندم والإقرار. فيقال لهم:-

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلْتُمْ بِهِ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ

الْكَبِيرِ﴾

أي تصدقوا المشركين لكفرهم. وهؤلاء إمامتهم محصورة، فأما أهل المحبة فلهم في كل وقت حياة وموت، قال قائلهم:

أموت إذا فقدتكم ثم أحياء فكم أحياء عليكم وكم أموت!

فإن الحق - سبحانه - يردد أبدأ الخواص من عباده بين الفناء والبقاء، والحياة والموت، والمحو والإنبات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾.

يريهم آيات فضله فيما يلاطفهم، ويريهم آيات قهره فيما يكاشفهم، ويريهم آيات عفوهِ إذا تَنَصَّلُوا، وآيات جوده إذا تَوَسَّلُوا، وآيات جلاله إذا هابوا فغابوا، وآيات

جماله إذا أبوا واستجابوا. ﴿وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات، ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾: يرجع من العادة إلى العبادة، ومن الشك إلى اليقين، ومن الخلق إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن التكره إلى العرفان.
قوله جل ذكره: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

شَرَطُ الدعاء تقديم المعرفة لتعرف من الذي تدعوه، ثم تدعو بما تحتاج إليه مما لا بُدَّ لك منه، ثم تنظر هل أعطاك ما تطلب وأنت لا تدري؟ والواجب ألا تطلب شيئاً تكون فيه مخالفةً لأمره، وأن تتباعد عن سؤالك الأشياء الدنيئة والدنيوية، وأن ترضى بما يختاره لك مولاك. ومن الإخلاص في الدعاء ألا ترى الإجابة إلا منه، وألا ترى لنفسك استحقاقاً إلا بفضلته، وأن تعلم أنه إن بقيت سؤالك عن مطلوبك - الذي هو حَظُّكَ - لا تَبْقَ عن عبادة ربك - التي هي حَقُّهُ «فإنَّ الدعاء مُخَّ العبادة»^(١) ومن الإخلاص في الدعاء أن تكون في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداءً جُزْماً لك، وتكون ضرورتك لسراية جناتك.

قوله جل ذكره: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنزِلَ يَوْمَ التَّلَافِ﴾.

رافع الدرجات للعصاة بالنجاة، وللمطيعين بالمشوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوي الحاجات بالكفايات، وللعارفين بتنقيبهم عن جميع أنواع الإيرادات.

ويقال درجات المطيعين بظواهرهم في الجنة، ودرجات العارفين بقلوبهم في الدنيا؛ فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكونين دون المساكنة إليهما. وأما المحبون فيرفع درجاتهم عن أن يطلبوا في الدنيا والعقبى شيئاً غير رضاء محبوبهم.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾: ذو الملك الرفيع. ويقال العرش الذي هو قبلة الدعاء، خَلَقَهُ أرفع المخلوقات وأعظمها جُثَّةً.

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٣٨٢٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) والحاكم في (المستدرک ١/٤٩٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١/٤٩)، والبغوي في (شرح السنة ٥/١٨٤)، والساعاتي في (منحة المعبود ١٢٥٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/٢٧٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/٣٠٦)، والشجري في (الأمال ١/٢٢٣ - ٢٣٥) والطبري في (التفسير ٢/٩٤، ٥١/٢٤)، والبخاري في (الأدب المفرد ٧١٤).

﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ روح بها ضياء أبدانهم - وهو سلطان عقولهم، وروح بهاء ضياء قلوبهم - وهو شفاء علومهم، وروح بها ضياء أرواحهم - والذي هو للروح رَوْحٌ - بقاءهم بالله.

ويقال: روحٌ هو روح إلهام، وروح هو روح إعلام، وروح هو روح إكرام.

ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة.

ويقال: روح بها بقاء الخلق، وروح بها ضياء الحق.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ هُمْ بَكَرُؤُنَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.

يعلم الحاصل الموجود، ويعلم المعدوم المفقود؛ والذي كان والذي يكون، والذي لا يكون مما عَلِمَ أنه لا يجوز أن يكون، والذي جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون.

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

لا يتقيد ملكه بيوم، ولا يختصُّ ملكه بوقت، ولكن دَعَاوَى الخَلْقِ - اليوم - لا أصل لها؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترتفع تلك الأوهام.

قوله جل ذكره: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

يجازيهم على أعمالهم بالجنان، وعلى أحوالهم بالرضوان، وعلى أنفاسهم بالقربة، وعلى محبتهم بالرؤية.

ويجازي المذنبين على توبتهم بالغفران، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء.

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾: أي أنه يستحيل تقدير الظلم منه، وكل ما يفعل فله أن يفعله. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ مع عباده؛ لا يشغله شأنٌ عن شأن، وسريع الحساب مع أوليائه في الحال؛ يطالبهم بالصغير والكبير، والتقير والقطمير.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِسَابٍ وَلَا يُفْعَلُ﴾.

قيامَةُ الكلِّ مؤجَّلةٌ، وقيامَةُ المحبين مُعجَّلةٌ؛ فَلَهُمْ فِي كُلِّ نَفْسٍ قِيَامَةٌ مِنَ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ وَالثَّوَابِ، وَالبُعَادِ وَالاقْتِرَابِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي حِسَابِ، وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْأَعْضَاءُ؛ فَالدمعُ يشهد، وَخَفَقَانُ الْقَلْبِ يَنْطِقُ، وَالنَّحْوَلُ يُخْبِرُ، وَاللُّوْنُ يُفْصِحُ... وَالْعَبْدُ يَسْتُرُ وَلَكِنَّ الْبَلَاءَ يَظْهَرُ:

يَا مَنْ تَغَيَّرَ صُورَتِي لَمَّا بَدَأَ لِجَمِيعِ مَا ظَنُّوا بِنَا تَصْدِيقًا

وأشدوا:

لي في محبته شهودٌ أربعٌ وشهودٌ كلُّ قضية اثنان
ذوبانٌ جسمي وارتعادٌ مفاصلي وخفوقٌ قلبي واعتقالٌ لساني
وقلوبهم - إذا أَرْفَ^(١) الرحيلُ بَلَّغَتِ الحناجرُ، وعيونهم شَرِقَتْ بدموعها إذا
نودي بالرحيل وشَدَّتِ الرواحلُ.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

فخائنة أعين المحبين استحسانهم شيئاً، ولهذا قالوا:

يا قُرَّةَ الْعَيْنِ: سَلَّ عَيْنِي هَلْ اكْتَحَلَتْ بِمَنْظَرِ حَسَنِ مُذْغِبَتْ عَنْ بَصَرِي
ولذلك قالوا:

فعيني إذا استحسنت غيركم أَمَرْتُ السُّهَادَ^(٢) بتعذيبها
ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السُّنَّةُ والسُّبَاتُ في أوقات المناجاة؛ وقد جاء في
قصة داود عليه السلامة: كَذَّبَ مَنْ ادَّعَى محبتي، فإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نام عَنِّي!
ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَيْرٌ بقلوبهم عما تقع عليه عيونهم.
ومن خائنة أعين الموحدين أن تخرج منها قطرةٌ دمعٍ تأسُفُ على مخلوقٍ يفوت
في الدنيا والآخرة، ولا على أنفسهم.

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأي وجهٍ كان، ففي الخبر:

«حُبُّكَ الشَّيْءَ يعمي ويصم»^(٣).

﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: فالحقُّ به خير.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(١) أَرْفَ: دنا واقترب أو عجل.

(٢) السُّهَادُ: الأرق.

(٣) أخرجه أبو داود في (السنن ٥١٣٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١٩٤/٥، ٤٥٠/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٧٦/٧، ٦٨٤/٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٠٨) والدولابي في (الكنى والأسماء ١٠١/١)، وأبو حنيفة في (المسند ١٦٨)، وفي (جامع مسانيد ٢٣/١، ٨٧)، وابن كثير في (التفسير ١٨١/١، ٤٧٣/٣)، والقرطبي في (التفسير ٣٠٧/١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١١٧/٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣١/٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣٢٥/٣، ٢٣٤/٤، ٨٩/٥، ٣٩٢/١٠)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/٤١٠)، والغفني في (تذكرة الموضوعات ١٩٩)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٤٠٣/١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٧).

يقضي للأجانب بالبعاد، ولأهل الوصال بالوداد، ويقضي يومَ القدوم بعزل عمال الصدود، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كبشٍ أملح فلا غرابة أن يُذْبَحَ الفراقُ على رأسِ سكة^(١) الأحبابِ في صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العبرة لينظر إلى أهل الحضرة.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

أو لم يسيروا في أقطار الأرض بنفوسهم، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها؟ أو لم يسيروا بقلوبهم في الملكوت بجولان الفكر ليشهدوا أنوار التجلي فيستبصروا بها؟ أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية ليستهلكوا في سلطان الحقائق، وليتخلصوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها؟

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاخْتَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

إن بغى من أهل السلوك قاصداً لم يصل إلى مقصوده فليغلب أن موجب حجبهِ اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته؛ فإن الشيوخ بمحل السفراء للمريدين. وفي الخبر: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَانَ وَقَدَرْتُمْ فَأَقَالُوا سِحْرًا كَذَّابًا﴾.

أكرم خلقه في وقته كان موسى عليه السلام، وأخس خلقه وأذلهم في حُكْمِهِ وأشدهم كفراً كان فرعون؛ فما قال أحدٌ غيره: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرَ﴾ [القصص: ٣٨].

فَبَعَثَ اللَّهُ - أَخْصَّ عِبَادَهُ إِلَىٰ أَحْسَبْ عِبَادَهُ، فقابله بالتكذيب، ونسبه إلى السحر، وأثبه بكل أنواع التائب. ثم لم يُعْجَلُ اللَّهُ عقوبته، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَهُ - إنه سبحانه حلِيمٌ بعباده.

(١) السكة: الطريق المستوي.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في (كتر العمال ٤٢٦٣٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٨٢/١)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ١٠٨٢)، والسيوطي في (اللآلئ المصنوعة ٨٠/١)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١٢/٢)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١٨٣/١)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٤٨٨)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩، ٣٣٩).

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

عَزَمَ عَلَى إِهْلَاكِهِ وَإِهْلَاكَ قَوْمِهِ، وَاسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ بِجُنْدِيهِ وَخَيْلِهِ وَرَجُلَيْهِ، وَلَكِنْ كَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، لِأَنَّهُ إِذَا حَضَرَ أَحَدٌ لِيُؤْيِي مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى حُفْرَةً مَا وَقَعَ فِيهَا غَيْرُ حَافِرِهَا... بِذَلِكَ أُجْرِيَ الْحَقُّ سُنَّتَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أَي لِيَسْتَعِينَ بِرَبِّهِ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ، وَأَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ الْمُفْسِدُ هُوَ فِرْعَوْنُ، وَهُوَ كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ: «رَمَثَنِي بِدَائِيهَا وَأَسْلَتُ» وَلَكِنْ كَادَ لَهُ الْكَيْدُ، وَالْكَائِدُ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْ كَيْدِهِ.

فَاسْتَعَاذَ مُوسَى بِرَبِّهِ، وَانْتَدَبَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَبِمُوسَى كَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ^(١):-

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَفَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾. . . الْآيَاتُ.

نَصَحَهُمْ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجَحْ فِيهِمْ نُضْحٌ وَلَا قَوْلٌ. وَكَمْ كَرَّرَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ الْقَوْلَ وَأَعَادَ لَهُمُ التُّنْضِحَ! فَلَمْ يَسْتَمِعُوا لَهُ؛ وَكَانَ كَمَا قِيلَ:

وَكَمْ سَقَّتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَةَ الْمَتَنَضِّحُ^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقًّا إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

بَيِّنٌ أَنْ تَكْذِيبَهُمْ كَتَكْذِيبِ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَكَمَا أَهْلَكَ أَوْلَادَكَ قَدِيمًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ بِهَؤُلَاءِ^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَيْنَ لِي صَرْمًا لَعَلِّي أَنْبَغُ الْأَسْبَابَ اسْتَبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾.

السَّبَبُ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ؛ أَي لَعَلِّي أَصِلُ إِلَى السَّمَاءِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ

(٢) الْآيَاتُ مِنْ (٢٩) حَتَّى (٣٣) لَمْ تَرُدْ.

(١) الْآيَةُ (٢٧) لَمْ تَرُدْ.

(٣) الْآيَةُ (٣٥) لَمْ تَرُدْ.

موسى . ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبودَ في السماء وبين الكافر إلا هذا لكفى به خِزياً لمذهبهم . وقد غَلِطَ فرعونُ حين تَوَهَّم أن المعبودَ في السماء ، ولو كان في السماء لكان فرعونُ مُصيّباً في طَلَبِهِ من السماء .

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ .

أخبر أن اعتقاده بأن المعبودَ في السماء خطأ، وأنه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُورُ أَنبِئُونَا هُدًى سَبِيلَ الرِّشَادِ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ .

أصرَّ على دعائه لهم وأصرُّوا على جحودهم وعُتُودهم .

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ : في المقدار لا في الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأة من الله عليها حسنة وليست بسيئة .

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني في الحال ، لأن مَنْ لا يكون مؤمناً في الحال لا يكون منه العملُ الصالح ، ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ : أي رزقاً مؤبداً مُخَلِّداً ، لا يخرجون من الجنة ولا يمًا هم عليه من المال .

﴿وَيَنْقُورُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾

وهذا كُلُّهُ مِنْ قَوْلِ مُؤْمِنٍ آلِ فرعونَ ، يقوله على جهة الاحتجاج لقومه ، ويلزمهم الحجة به .

﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ العَفْرِ﴾ .

تدعونني لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لي بصحة قولكم ، وأنا ادعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان ، وأقيم عليه البيان .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ المُشْرِكِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ .

لا جرمَ أن ما تدعونني إليه باطل ؛ فليس لتلك الأصنام حياة ولا علم ولا قُدرة ، وهي لا تنفع ولا تُضرُّ . ولقد علمنا - بقول الذين ظهر صدقهم بالمعجزات - كذِبَكم فيما تقولون .

﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَالْفَوْضُ آمُرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

أفوض أمري إلى الله، وأتوكل عليه، ولا أخاف منكم، ولا من كيدهم .
قوله جل ذكره: ﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ .
والآية تدل على عذاب القبر .

ويقال إن أرواح الكفار في حواصل طير سودٍ تُعرض على النار غدوًّا وعشيًّا إلى يوم القيامة حيث تدخل النار .

﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ : أي يا آل فرعون أدخلوا أشد العذاب، فنصبه على النداء المضاف . ويقرأ «أدخلوا» على الأمر .

﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ : أي أصعبه، وأصعبُ عذاب للكفار في النار يأْسهم من الخروج عنها . أمّا العصاة من المؤمنين فأشد عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يوم لقاء المؤمنين، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليوم أشد أيام عذابهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْتَابُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ .

يقول الضعفاء للذين استكبروا: أنتم أضللتونا، ويقول لهم المستكبرون: أنتم وافقتمونا باختياركم؛ فمحاجة بعضهم لبعض تزيد في غيظ قلوبهم، فكما يُعذَّبون بنفوسهم يعذبون بضيق صدورهم ويُبغض بعضهم لبعض .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ .

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية، فهم يُدْخَلُونَ واسطة بينهم وبين ربهم . ثم إن الله ينزع الرحمة عن قلوب الملائكة كي لا يستشفعوا لهم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ .

ننصرهم بالآياتِ وفنونِ التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظفرَ وضده من الله، والخيرَ والشرُّ من الله .

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غيرِ مرئيٍّ، من حيث

يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة وباليقين بأن الكائنات من الله، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك، ويعرفوا - بالاضطرار - أن التأثير من الله، وغاية النصرة أن يقتل الناصر عدو من ينصره، فإذا أراد ختفه تحقق بأن لا عدو على الحقيقة، وأن الخلق أشباح تجري عليهم أحكام القدرة؛ فالولي لا عدو له، ولا صديق له إلا الله، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ .

دليل الخطاب أن المؤمنين ينفعهم تنصلهم، ولهم من الله الرحمة، ولهم حُسن الدار، وما بقي من هذه الدنيا إلا اليسير .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَقِيَّةَ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

مضى طرّف من البيان في قصة موسى .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ .

الصبرُ في انتظار الموعود من الحق على حسب الإيمان والتصديق؛ فمن كان تصديقه وبقينه أتم وأقوى كان صبره أتم وأوفى .

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ : وهو - سبحانه - يُعطي وإن توهّم العبد أنه يُبطي .

ويقال الصبر على قسمين: صبر على العافية، وصبر على البلاء، والصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، فصبر الرجال على العافية وهو أتم الصبر^(١) .

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ . وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب، ولم يكن جميع استغفاره لأتمته لأنه قال في موضع آخر: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وهنا لم يذكر ذلك . ويمكن حمل الذنب على ما كان قبل النبوة؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزلّة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصل التوبة .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي سُؤْدِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ : أي بغير حجة .

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٨٣ - ١٨٩ .

﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبِيرًا﴾ أي ليس في صدورهم إلا كِبِيرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق، ويعيقون به عن الله، ولا يصلون إلى مرادهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي خَلَقُ السموات والأرض أكبر من بعثهم وخلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا رميماً؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخلق السموات والأرض، وينكرون أمر البعث.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أراد به: ما يستوي المؤمن والكافر، ولا المربوط بشهوته كالمبسوط بصفوته، ولا المجذوب بقربته كالمحجوب بعقوبته، ولا المرقي إلى مشاهدته كالمُبقي في شاهده، ولا المجدود بسعادته كالمردود لشقاوته.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إن مِقات الحساب لكان وإن وقعت المدَّة في أوانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

معناه: ادعوني أستجب لكم إن شئتم؛ لأنه قال في آية أخرى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

ويقال ادعوني بشرط الدعاء، وشرط الدعاء الأكل من الحلال؛ إذ يقال الدعاء مفتاحه الحاجة، وأسبابه اللقمة الحلال.

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إما بما يشاء له، أو بشيء آخر هو خير له منه.

ويقال الكافر ليس يدعوه؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك، وهو لا شريك له.

ويقال: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما من مؤمن يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه في الدنيا، فأما في الآخرة فيقول له: هذا ما طلبته في الدنيا، وقد اذخرته لك لهذا اليوم حتى ليتنمى العبد أنه ليته لم يُعط شيئاً في الدنيا قط.

ويقال ادعوني بالطاعات استجب لكم بالثواب والدرجات.

ويقال ادعوني بلا غفلة استجب لكم بلا مهلة. ويقال ادعوني بالتنصل استجب لكم بالفضل. ويقال ادعوني بحسب الطاقة استجب لكم بكشف الفاقة.

ويقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالثواب والأفضال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أن يستكبرون عن دعائي، سيدخلون جهنم صاغرين.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ الآيات.

سكون الناس في الليل على أقسام: أهل الغفلة يسكنون إلى غفلتهم، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم، وشتان بين سكون غفلة وسكون وصلة! قوم يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم، وقوم يسكنون إلى حلاوة أعمالهم؛ لبسطهم واستقلالهم، وقوم يعدمون القرار في ليلهم ونهارهم وأولئك أصحاب الاشتياق.. أبداً في الاحتراق.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي جعل سكونكم معه، وانزعاجكم له، واشتياقكم إليه، ومحبتكم فيه، وانقطاعكم إليه.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾: خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وجميع المخلوقات ولم يقل هذا الخطاب، وإنما قال لنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وليس الحسن ما يستحسنه الناس بل الحسن ما يستحسنه الحبيب:

ما حطك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مُعتاب
كانهم أثنوا - ولم يعلموا - عليك عندي بالذي عابوا
لم يقل للشموس في علائها، ولا للأقمار في ضيائها: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

ولما انتهى إلينا قال ذلك، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن الواشين قبحوا صوركم عندنا، بل الملائكة كتبوا في صحائفكم قبيح ما ارتكبتم.. ومولاكم أحسن صوركم، بأن محا من ديوانكم الزلات، وأثبت بدلاً منها الحسنات، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقْنَاكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

ليس الطيب ما تستطيه النفس إنما الطيب ما يستطيعه القلب، فالخبز القفار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغني المتسخط.

وَرَزَقَ الْفُؤُوسِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَرَزَقَ الْقُلُوبَ لِمَاذَا الطَّاعَاتِ .
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾: الذي لا يموت، ولا فضله يفوت، فادعوه بلسان القوت، وذلك عليه لا يفوت .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّي الْعَلَمِينَ﴾ .

قُلْ - يا محمد - إنني نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله، أي أمرت بالتبري عما عبدتم، والإعراض عما به اشتغلتم، والاستسلام للذي خلقني، وبالنبوة استخضني .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخًا﴾ .

فمن تربة إلى قطرة؛ ومن قطرة إلى علقة . . ثم من بطون أمهاتكم إلى ظهوركم في دنياكم . . ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً .
وهو الذي يحيي ويميت، ثم يبعث في أخرى الدارين^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَصْرُفُوهَا﴾ .

في آيات الله يتباعدون؛ فلا حجة يوردون، ولا عذاب عن أنفسهم يردون، سيعلمون حين لا ينفعهم علمهم، ويعتذرون حين لا يسمع عذرهم، وذلك عندما^(٢) .

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيرِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾
الآيات .

يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ وَالْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، ثُمَّ يُذَاقُونَ أَلْوَانَ الْعَذَابِ . . فإذا أقرؤا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم: أدخلوا جهنم خالدين فيها، فبئس مثواهم ومصيرهم، وساء ذهابهم ومسيرهم^(٣) .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ وَعَدُوا أَنْ تَوَفِّيَنَّاكَ فإِئْتِنَا يُرْجَمُونَ﴾ .

كُنْ بِقَلْبِكَ فَارغاً عَنْهُمْ، وانظر من بعد إلى ما يفعل بهم، واستيقن بأنه لا بقاء

(٢) الآية (٧٠) لم ترد .

(١) الآية (٦٨) لم ترد .

(٣) الآيات من (٧٣، ٧٦) لم ترد .

لجولة باطلهم . . فإن لقيت بعض ما نتوعدُهم به وإلا فلا تك في ريبٍ من مقاساتهم ذلك بَعْدُ . ثم أَكَّدَ تَسْلِيَتَهُ إِيَّاهُ وَتَجْدِيدَ تَصْيِيرِهِ وَتَعْرِيفَهُ بِقَوْلِهِ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِّنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَكَ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيقَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .

قصصنا عليك قصص بعضهم، ولم نخبرك عن قصص الآخرين .

ولم يكن في وسع أحدِ الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا . فكَذَلِكَ إِنْ طَالِبُوكَ بِآيَةٍ فَقَدْ أَظْهَرْنَا عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ مَا أَزْحَمْنَا بِهِ الْعُدْرَ، وَأَوْضَحْنَا صِحَّةَ الْأَمْرِ . . وما اقترحوه . . فإن شئنا أظْهَرْنَا، وإن شئنا تَرَكْنَا .

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَتَتَّبِعُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَطَلَبًا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَتُرَبِّكُمُ أَيُّهَا فَآئِ أَيُّهَا اللَّهُ تُشْكِرُونَ﴾ .

ذَكَرَهُمْ عَظِيمَ إِنْعَامِهِ بِتَسْخِيرِ الْأَنْعَامِ؛ فَقَالَ جَعَلَهَا لَكُمْ لِتَنْتَفِعُوا بِهَا بِالرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ وَالْعَمَلِ، وَلِتَسْتَقُوا أَلْبَانَهَا، وَلِتَأْكُلُوا لَحُومَهَا وَشَحُومَهَا، وَلِتَنْتَفِعُوا بِأَصَوَافِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَلِتَقْطَعُوا مَسَافَةَ بَعِيدَةً عَلَيْهَا . . فعلى الأنعام وفي الْفُلْكِ تَنْتَقِلُونَ مِنْ صُفْعٍ^(١) إِلَى صُفْعٍ . . وَأَنَا الَّذِي يَسَّرْتُ لَكُمْ هَذَا، وَأَنَا الَّذِي أَلْهَمْتُكُمْ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ؛ فَتَقُوا فِي ذَلِكَ وَاعْرِفُوهُ .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآمَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آخَرَهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . . الْآيَاتِ أَمَرَهُم بِالْإِعْتِبَارِ بِمَنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ؛ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَطْوَلَ أَعْمَارًا، فَانْجَرُوا فِي جِبَالِ آمَالِهِمْ، فَوَقَعُوا فِي وَهْدَةٍ غُرُورِهِمْ، وَمَا بَقِيَ الْحَقُّ عَنْ مَرَادِهِ فِيهِمْ، وَاغْتَرُوا بِسَلَامَتِهِمْ فِي مُدَّةٍ مَا أَرْخِينَا لَهُمْ عَنَانَ إِمْهَالِهِمْ، ثُمَّ فَاجَأْنَاَهُمْ بِالْعَقُوبَةِ، فَلَمْ يُعْجِزُوا اللَّهَ فِي مَرَادِهِ مِنْهُمْ .

فَلَمَّا رَأَوْا شِدَّةَ الْبَأْسِ، وَوَقَعُوا مَذَلَّةَ الْخِيْبَةِ وَالْيَأْسِ تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ أُعِيدُوا إِلَى الدُّنْيَا مِنَ الرَّأْسِ . . فَقَابَلَهُمُ اللَّهُ بِالْخِيْبَةِ؛ وَخَرَطَهُمْ فِي سَيْلِكَ مَنْ أَبَادَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالسَّخَطِ .

(١) الصقع: الناحية من البلاد.

سورة فصلت

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

أفصح مَنْ عرف «بسم الله»، وما ربح مَنْ بقي عن «بسم الله».

مَنْ صحب لسانه «بسم الله» و صحب جَنَانَهُ «بسم الله» كفى له شفيحاً «بسم الله» إلى مَنْ يُعِيدُنَا بِذِكْرِ «بسم الله».

قوله جل ذكره: ﴿حَمْدٌ تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بحقي وحياتي، ومجدي في صفاتي وذاتي.. هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم.

قوله جل ذكره: ﴿كَيْتَبٌ فَصِّلَتْ آيَاتُهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

بَيَّنَّتْ آيَاتُهُ ودلالاته.

﴿وَقُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: الدليل منصوبٌ للكافة ولكن الاستبصار به

للعالمين - دون المُعْرِضِينَ الجاحدين.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾: لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم.

﴿وَنَذِيرًا﴾: لِمَنْ أقمناهم، وعن شهود آياتنا أعميناهم.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عند دعائنا إياهم، فهم مُثَبِّتُونَ فيما أَرَدْنَاهم، وعلى ذلك

(الوصف) عَلِمْنَاهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا

وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ﴾.

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء، ولو قالوه عن بصيرة لكان ذلك منهم

توحيداً، فمُتُوا بِالْمَقْتِ لِمَا فَقَدُوا من تحقيق القلب.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَاسْتَقِيمُوا

إِلَيْهِ وَاسْتَفْرُوا وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنما أنا بشرٌ مثلكم في الصورة والبنية، والذات والخلقة. والفرقان بيني وبينكم

أنه يُوحَى إِلَيَّ أنما إلهكم إله واحد؛ فالخصوصية من قبيله لا من قبيلي، ولقد بَقِيْتُ

فيكم عمراً، ولقيتموني دهراً.. فما عثرتم مني على غير صواب، ولا وجدتكم في قولي شوب كذاب. وأمري إليكم أن استقيموا في طاعته، واستسلموا لأمره... وطوبى لِمَنْ أَجَابَ، والويلُ لِمَنْ أَصْرَّ وَعَابَ!

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿ءَامِنًا﴾: شاهدوا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: لازموا بساط العبودية.

﴿ءَامَنُوا﴾: شهدوا الحضرة، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وقفوا بالباب.

﴿ءَامَنُوا﴾: حضروا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بعد ما حضروا لم ينصرفوا.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: غير منقوص؛ فأجرُ النفوسِ الجنة، وأجرُ القلوب الرضا بالله، وأجرُ الأرواح الاستئناسُ بالله، وأجرُ الأسرار دوام المشاهدة لله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَأْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

خَلَقَ الزَّمَانَ ولم يكن قبله زمان، وَخَلَقَ الْمَكَانَ، ولم يكن قبله مكان؛ فالحقُّ- سبحانه- كان ولا مكان ولا زمان، فهو عزيزٌ لا يُدْرِكُهُ الْمَكَانُ، ولا يَمْلِكُهُ الزمان.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَأْدَادًا﴾... وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل نداءً للذي لم يَزَلْ.. ولا يزال كما لم يزل! ذلك ربُّ العالمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا رُؤُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنذِرَ﴾.

الجبَالُ أوتادُ الأرضِ في الصورة، والأولياءُ أوتادُ ورواسٍ للأرضِ في الحقيقة.

﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾: البركةُ الزيادة.. فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياءِ، ويندفع عنهم البلاءُ ببركاتِ الأولياءِ.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: وجعلها مختلفةً في الطَّعْمِ والصورةِ والمقدارِ. وأرزاقُ القلوبِ والسرائرِ كما مضى ذكره فيما تقدم.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

﴿اسْتَوَىٰ﴾ أي قَصَدَ، وقيل فعل فعلاً هو الذي يعلم تعيينه.

ويقال رَبَّتْ أَقْطَارُهَا، وَرَكَّبَ فِيهَا نَجْمَهَا وَأَزْهَارَهَا.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾: هذا على ضرب المثل؛ أي لا يتعسر عليه شيء مما خلقه، فله مِنْ خَلْقِهِ ما أَرَادَهُ. وقيل بل أحياهما وأعقلهما

وأنطقهما فقلنا ذلك . وجعل نفوس العابدين أرضاً لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فلماً لنجوم علمه وشموس معرفته .

وأوتاد النفوس الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة . وفي القلوب ضياء العرفان، وشموس التوحيد، ونجوم العلوم والعقول والنفوس . والقلوب بيده يُصَرِّفُهَا عَلَى مَا أَرَادَ مِنْ أَحْكَامِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ، وَزَيَّنَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِمَصَابِيحٍ هِيَ قُلُوبُ الْأَحْبَابِ؛ فَاهْلُ السَّمَاءِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى قُلُوبِ الْأَوْلِيَاءِ بِاللَّيْلِ فَذَلِكَ مَنَظَرُهُمْ كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ اسْتَأْنَسُوا بِرُؤْيَةِ الْكَوَاكِبِ .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .

أَي أَخْبِرَ الْمُكذِّبِينَ لَكَ أَنَّ لَكُمْ سَلْفًا . فَإِنَّ سَلَكْتُمْ طَرِيقَهُمْ فِي الْعِنَادِ، وَأَبَيْتُمْ إِلَّا الْإِصْرَارَ الْحَقْنَائِكُمْ بِأَمْثَالِكُمْ .

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ .

رَكَنُوا إِلَى قُوَّةِ نَفْسِهِمْ فَخَانَتْهُمْ قُوَاهُمْ، وَاسْتَمَكَّتْ مِنْهُمْ بِلُؤَاهُمْ .

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْغُرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُصْرُونَ﴾ .

فَلَمْ يَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْمَدْيَنِ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً

الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَبَعَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ .

قِيلَ إِنَّهُمْ فِي الْإِبْتِدَاءِ ءَامَنُوا وَصَدَّقُوا، ثُمَّ ارْتَدُّوا وَكذَّبُوا، فَأَجْرَاهُمْ مَجْرَىٰ إِخْوَانِهِمْ فِي الْإِسْتِصْوَاحِ .

﴿وَبَعَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ : مِنْهُمْ مَنْ نَجَّاهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ رَأَوْا النَّاسَ؛ فَعَبَّرُوا الْقَنْطَرَةَ

وَلَمْ يَعْلَمُوا، وَقَوْمٌ كَالْبُرْقِ الْخَاطِفِ وَهُمْ أَعْلَاهُمْ، وَقَوْمٌ كَالرَّكَضِ . . وَهُمْ أَيْضًا مِنَ الْأَكَابِرِ، وَقَوْمٌ عَلَى الصَّرَاطِ يَسْقُطُونَ وَيُرْذَعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى الصَّرَاطِ . فَبَعْدَ وَبَعْدَ .

قَوْمٌ بَعْدَمَا دَخَلُوا النَّارَ فَمِنْهُمْ مَنْ تَأَخَّذَهُ إِلَى كَعْبِيهِ ثُمَّ إِلَى رَكْبَتَيْهِ ثُمَّ إِلَى حَقْوَيْهِ^(١)، فِإِذَا

(١) الحقو: الخصر.

ما بلغت النار القلب قال الحق لها: لا تحرقى قلبه؛ فإنه محترق في. وقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا^(١) فصاروا حُمماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ جُودِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيكَ تَرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

شهدت عليهم أجزاؤهم، ولم يكن في حسابهم أن الله سينطقها وهو الذي أنطق كل شيء، ولم يذُرْ بخلدتهم ما استقبلهم من المصير الأليم.

﴿ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾: وكذا من قعد في وصف الأقوال، ووسم موضعها، وحكم لنفسه أنه مُقَدَّمٌ بلده. فلا يُسْمَعُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله، فإن خالف الحال قوله فلا يُعْتَمَدُ عليه بعد ذلك.

والظن بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق، أما إذا كان نتيجة الغرور وغير مأذون به في الشرع فإنه يُزْدِي صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

فإن يصبروا على موضع الخسف فسيتقلبون إلى النار، وإن يستعتبوا - فعلى ما قال - فما هم بمعتين.

﴿وَقِيَّضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

إذا أراد الله بعبده خيراً قَيَّضَ له قرناً خيراً يُعِينُونَهُ على الطاعات، وَيَحْمِلُونَهُ عليها، ويدعونه إليها. وإذا كانوا إخواناً سوء حملوه على المخالفات، ودَعَوَهُ إليها. ومن ذلك الشيطان؛ فإنه مُقَيَّضٌ مُسَلِّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات. وشرُّ من ذلك النَّفْسُ. فإنها بشس القرين!! فهي تدعو العبد - اليوم - إلى ما فيه هلاكه، وتشهد عليه غداً بفعل الزلْمِ. فالنفس - وشرُّ قرين للمرء نفسه - والشياطينُ وشياطينُ الإنسِ.. كلها تُزَيِّنُ لهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الزلْمِ، والتسوية في التوبة، والتقصير في الطاعة.

(١) محشت النار جلده: أحرقت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوَىٰ فَبِعَلْمِكُمْ تَقْبَلُونَهُ﴾ .

استولى على قلوبهم الجحذ والإنكار، ودام على العداوة فيهم الإصرار؛ فاحتالوا بكل وجه، وتواصوا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب، ويسلب العقول، وكل من استمع إليه صبا إليه .

وقالوا: إذا أخذ محمد في القرآن فأكثرُوا عند قراءته اللغو واللغظ حتى يقع في السهو والغلط .

ولم يعلموا أن الذي نُور قلبه بالإيمان، وأُيد بالفهم، وأُمد بالنصرة، وكوشف بسماع السر من الغيب هو الذي يسمع ويؤمن . والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمان قلبه، ولا يباشر السماع سيره .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيُذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَثْوَابًا الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

اليوم بإدامة الحرمان الذي هو الفراق، وغداً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق .

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَائِ اللَّهِ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ .

لهم فيها الخزي والهوان بلا انقطاع ولا انصرام .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَّا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْمَعُهُمَا مَحْتًا أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ .

من الجن إبليس . ومن الإنس قاييل بن آدم فهو أول من سنّ المعصية (حين قتل أخاه)^(١) .

﴿نَجْمَعُهُمَا مَحْتًا أَقْدَامِنَا﴾ ؛ هذه الإرادة وهذا التمني زيادة في عقوبتهم أيضاً؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمني؛ فهم يجدون أنه لا نفع لهم من ذلك إذ لن يُجابوا في شيء، ولن يُمنع عنهم العذاب .

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبرّي فيما بينهم، فبعضهم يتبرأ من بعض، كما يفيد بأن الندم في غير وقته لا جدوى منه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ .

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

«ثم» استقاموا: ثم حرف يقتضي التراخي، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون مستقيمين، ولكنه معناه استقاموا في الحال، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانهم إلى وقت خروجهم من الدنيا، وهو آخر أحوال كونهم مُكَلَّفِينَ.

ويقال: قالوا بشرط الاستجابة أولاً، ثم استبصروا بموجب الحجة، ولم يشبثوا على وصف التقليد، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة.

«استقاموا»: الاستقامة هي الثبات على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلال بشيء من أقسامها. ويقال: هم على قسمين:

مستقيم (في أصول) التوحيد والمعرفة.. وهذه صفة جميع المؤمنين.
ومستقيم في الفروع من غير عصيان.. وهؤلاء مختلفون؛ فمنهم.. ومنهم،
ومنهم.

﴿وَأَبَشِرُوا بِأَلْحَنَةِ﴾: الذي لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد، ولم يشرك. فله الأمان من الخلود. ويقال: مَنْ كَانَ لَهُ أَصْلُ الْإِسْتِقَامَةِ أَمِنَ مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، وَمِنْ كَمَالِ الْإِسْتِقَامَةِ أَمِنَ مِنَ الْوَعِيدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَهُ سُوءٌ بِحَالٍ.. ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم؛ فمستقيم في عهده، ومستقيم في عقده، ومستقيم في جهده ومراعاة حدّه، ومستقيم في عقده وجهده وحدّه وحبّه. وودّه.. وهذا أتمهم.

ويقال: استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله.

ويقال: استقاموا في تصفية العقد ثم في توفية العهد ثم صحة القصد بدوام الوجد.

ويقال: استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم.

ويقال: أقاموا على طاعته، واستقاموا في معرفته، وهاموا في محبته، وقاموا بشرائط خدمته.

ويقال: استقامة الزاهد ألا يرجع إلى الدنيا، وألا يمنعه الجاه بين الناس عن الله. واستقامة العارف ألا يشوب معرفته حظ في الدارين فيحجبه عن مولاه. واستقامة العابد ألا يعود إلى فترته واتباع شهوته، ولا يتداخله رياء وتصنع واستقامة المُحِبِّ ألا يكون له أرب من محبوبه، بل يكتفي من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه ووجوده.

﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: إنما يكون الخوف في المستقل من الوقت، من حلول

مكروه أو فوات محبوب فالملائكة يبشرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون، وكل محذور لهم لا يكون.

والحزن من حُزونه الوقت، ومن كان راضياً بما يجري فلا حزن له في عيشه. والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزنه في أحوالهم، وإنما هم الرّوح والراحة.

﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾: أي بحسن المآب، وبما وَعَدَ اللَّهُ من جميل الثواب.

والذي هو موعودٌ للأولياء بسفارة المَلَكِ موجودٌ اليومَ لخواصّ عباده بعباء المَلِكِ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت؛ فلا يكون له خوفٌ؛ لأن الخوف - كما قلنا من قبل - ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمّا من زوالٍ محبوبٍ أو حصولٍ مكروه، وإن الذي بصفة الرضا^(١) لا حزونة في حاله ووقته.

ويمكن القول: ﴿لا تخافوا﴾ من العذاب، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتم من الأسباب، ﴿وَأبشروا﴾ بحسن الثواب في المآب.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ من عزل الولاية، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما أسلفتم من الجنابة، «وَأبشروا» بحسن العناية في البداية.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ مما أسلفتم، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتم، ﴿وَأبشروا﴾ بالجنة التي لها تكلفتم.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ المذلة، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما أسلفتم من الزلة، ﴿وَأبشروا﴾ بدوام الصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَيرِ رَحِيمٍ﴾.

الولاية من الله بمعنى المحبة، وتكون بمعنى النصرة.

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ الملائكة الذين تنزلوا عليهم، ويحتمل أن يكون ابتداءً خطابٍ من الله.

والنصرة تصدر من المحبة؛ فلولم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة في الحال.

ويقال: ﴿مَنْ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بتحقيق المعرفة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتحصيل المغفرة.

ويقال ﴿مَنْ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالعناية، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بحسن الكفاية وجميل الرعاية.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٩٢، ١٩٧.

﴿وَفِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمشاهدة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالمعاينة.

في الدنيا الرضاء بالقضاء، وفي الآخرة باللقاء في دار البقاء.

في الدنيا بالإيمان، وفي الآخرة بالغفران.

في الدنيا بالمحبة، وفي الآخرة بالقربة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾: الولاية نقدًا، وتحصيل

الشهوات وعدًا، فَمَنْ يَشْتَغَلْ بِنَقْدِهِ قَلَّمَا يَشْتَغَلْ بُوَعْدِهِ.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾: أي ما تريدون، وتدعون الله ليعطيكم.

﴿تُزَلَّ﴾: أي فضلًا وعطاءً، وتقدمة لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال

ووجوه المبار.

﴿مِنْ عَفْوٍ رَحِيمٍ﴾: وفي ذلك مساعً لآمال المذنبين؛ لأنهم هم الذين يحتاجون

إلى المغفرة، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي لا أحد أحسن قولاً منه، ويكون المراد منه النبي ﷺ ويحتمل أن يكون

جميع الأنبياء عليهم السلام.

ويقال هم المؤمنون. ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله.

وقيل هم المؤذنون. ويقال الداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاء

بالله وترك طالب العوض من الله، ويكل أمره إلى الله، ويرضى من الله بقسمة الله.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: أي كما يدعو الخلق إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه.

ويقال هم الذين عرفوا طريق الله، ثم سلكوا طريق الله، ثم دعوا الناس إلى الله.

ويقال بل سلكوا طريق الله؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله، ثم

دعوا الخلق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه.

﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: المسلمون لحكمه هم الراضون بقضائه وتقديره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافأة، وبالتجاوز

والصفح عن الزلة، وترك الانتصاف^(١).

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظر حديث القشيري عن الفتوة برسائله ص ٢٢٦، ٢٣١).

﴿فَإِذَا أَلَىٰ يَدَيْكَ وَيَدَاؤُهُ كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَمِيمٍ﴾ يُشَبِّهُ الْوَلِيَّ الْحَمِيمَ - وَلَمْ يَصِرْ وَلِيًّا مَخْلَصًا. . وهذا من جملة حُسْنِ الْأَدَبِ فِي الْخِدْمَةِ فِي حَقِّ صَحْبَتِكَ مَعَ اللَّهِ؛ تَحْلُمُ مَعَ عِبَادِهِ لِأَجْلِهِ.

ومن جملة حُسْنِ الْخُلُقِ فِي الصَّحْبَةِ مَعَ الْخَلْقِ أَلَّا تَنْتَقِمَ لِنَفْسِكَ، وَأَنْ تَعْفُوَ عَن خَصْمِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يُقَلِّدُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقَلِّدُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

لا يقوم بحق هذه الأخلاق إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ بِتَوْفِيقِ الصَّبْرِ، وَرُقِّيَ عَن سَفْسَافِ الشِّيمِ إِلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ. ولا يصل أحسن الدرجات إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى مَقَاسَةِ الشَّدَائِدِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

إِذَا اتَّصَلَتْ بِقَلْبِكَ نَزَغَاتُ الشَّيْطَانِ فَبَادِرْ بِذِكْرِ رَبِّكَ، وَارْجِعْ إِلَيْهِ قَبْلَ آيَةِ خَطْوَةٍ^(١). . . فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَخَالَفْ أَوَّلَ هَاجِسٍ مِنْ هَوَاجِسِ الشَّيْطَانِ صَارَ فِكْرُهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ الْعِزْمُ عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ. . . فَإِذَا لَمْ تَتَدَارَكَ ذَلِكَ تَجْرِي الزَّلَّةُ، وَإِذَا لَمْ تَتَدَارَكَ ذَلِكَ بِحُسْنِ الرَّجْعِيِّ صَارَ فَسْقًا. . . وَبِتَمَادِي الْوَقْتِ تَصْبِحُ فِي حَظَرِ كُلِّ آفَةٍ.

ولا يتخلص العبدُ من نزغات الشيطان إِلَّا بِصَدَقِ اسْتِعَانَةِ وَصَدَقِ اسْتِغَاثَةِ وَبِذَلِكَ يَنْجُو مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]؛ فَكُلَّمَا أَزْدَادَ الْعَبْدُ فِي تَبَرُّيهِ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَأَخْلَصَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ بِتَضَرُّعِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِعَاذَتِهِ زَادَ اللَّهُ فِي حِفْظِهِ، وَدَفَعَ الشَّيْطَانَ عَنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أَوْضَحَ الْآيَاتِ، وَالْأَخَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَزَاحَ عِلَّةَ مَنْ رَامَ الْوَصُولَ. وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَدَوْرَانُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ جَمَلَةِ أَمَارَاتِ قُدْرَتِهِ، وَدَلَالَاتِ تَوْحِيدِهِ.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ فِي عِلَاتِهَا، ﴿وَالْقَمَرِ﴾ فِي ضِيَانِهِ، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فَقَدْ غَارَ^(٢) عَلَيْكَ أَنْ تَسْجُدَ لغيره.

(١) ربما كانت (خطرة) فالقشيري يقول برسالته عند حديثه عن الخواطر: الخواطر خطابات ترد على الضمائر، فقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه وقالوا: كل خاطر لا يشهد له ظاهره فهو باطل. (الرسالة القشيرية ص ٨٣، ٨٤).

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الغيرة: الغيرة كراهية مشاركة الآخرين، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة، فمعناه: أنه لا يرضى بمشاركة غيره معه، فيما هو حق له من طاعة عبده. (الرسالة القشيرية ص ٢٥٥).

والشمس - وإنِ عَلَتْ، والقمر - وإنِ حَسُنُ . . فلاجلك خلقناهما، فلا تسجد لهما، واسجد لنا.

ويقال: خلق الملائكة - ومع كثرة عبادتهم، ومع تقدمهم في الطاعة - قال لهم: اسجدوا لآدم، وحين امتنع واحد منهم لعن إلى الأبد. وقال لأولاد آدم العصاة المذنبين: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فشتان ما هما!! .

والحق - سبحانه وتعالى - يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر . . وأنت لأجل كل حظ حسيس تنقل قدمك إلى كل أحد؛ وتدخل بمحيالك على كل أحد!! قوله جل ذكره: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ .

أي إن ترفع الكفار فلا خلل؛ لأن الحق غني عن كل أحد، ثم إن الملائكة - الذين هم سكان الآخر - يسجدون له بالليل والنهار، وهم لا يسأمون من عبادته . قوله جل ذكره: ﴿وَمِن مَّا يَتَذَكَّرُ أَلَّا تُؤْمِنُوا بِاللَّحْمِ الْمَمْتُورِ﴾ .

الأرض تكون جذبة يابسة في الشتاء، فإذا نزل عليها المطر اهتزت بالنبات واخضرت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما ألمت به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه، فظهرت فيها بركات الندم، وعفا عن أربابها ما قصرُوا في صدق القدم. وكذلك إذا وقعت للعبد فترة في معاملاته، أو غيبة عن بساط طاعته، ثم تعمده الحق - سبحانه - بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوار الوفاق، فيعود إلى مألف مقامه، ويرجع عود سداذه غصاً طرياً، ويصير شجر وفاقه - بعد ما أصابته الجدوبة - بماء العناية مستقيماً.

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة، أو حدثت لهم من جراء سوء أدب بدر منهم حجة ثم نظر الحق - سبحانه - إليهم بالرعاية . . اهتزت رياض أنسهم، واخضرت مشاهد قريهم، وانهمزت وفود وقتهم .

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : إن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء النفوس بالحشر والنشر. وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجة .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَرُونَ عَلَيْنَا أَفَنُؤَلِّقُ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّن يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه . . فليعملوا ما شاءوا . . فليسوا . . يسعون إلا في ذمهم، وليسوا يمشون إلا إلى هلاكهم بأقدامهم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُم لَكِنْتَبٌ عَزِيزٌ﴾.

الجواب محذوف ومعناه: بقوا عناءً، ووقعوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد.

﴿وَإِنَّهُم لَكِنْتَبٌ عَزِيزٌ﴾: كتاب عزيز لا مثل له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله.

كتاب عزيز غالب ليشبه المبتدعين والكفار.

عزيز لا يقدر على معارضته أحد.. من قولهم أرض عزاز.

كتاب عزيز لأنه كلام رب عزيز إلى رسول عزيز بسفارة ملك عزيز إلى أمة

عزيزة.

كتاب عزيز على المؤمنين لأنه كتاب حبيبهم.. وكتاب الحبيب إلى الحبيب

عزيز.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

أي لا ينقضه كتاب آخر لا مما تقدمه من الكتب، ولا مما يأتي من بعده.. أي

لا كتاب بعده، ولا نسخ له.

ويقال لا يدفع^(١) معناه لفظه، ولا يخالف لفظه معناه..

ويقال لا يقدر أحد أن يأتي بمثله.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ وَدُوٌّ

عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أصول التوحيد لا تختلف بالشرائع؛ فجوهرها في الأحكام واحد: هو أنه تجب

موافقة أوامره، واجتناب مزاجره. ثم إن الله تعالى قال في كل كتاب، وشرع لكل أمة

أن يعرفوا أنه للمطيعين ميثب، وللكافرين ذو عذاب شديد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ ءَأَنجَمِي وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ

يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

أخبر أنه أزاح العلة أن يعرف صدق الدعوة، وصحة الشريعة.

ثم وصف الكتاب بأنه شفاء للمؤمنين، وسبب شفاء للكافرين.

وهو شفاء حيث استراحوا به عن كد الفكر وتحير الخواطر.

وهو شفاء لضييق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته، والتلذذ بالتفكير فيه.

(١) دفع الشيء: نجاه ورده بقوة أو شاقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَاةٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَرَيْتُ إِنَّ لِي عِندَهُمُ لِلْحُسْنَىٰ فَلْيُنْتِزِعُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلِيُذَيِّقَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ .

لئن كَشَفْنَا عنه البلاءَ، وأوجبنا له الرجاء لادِّعاه استحقاقاً أو اتفاقاً، وما اعتقد أن ذلك مِنَّا فضلٌ وإيجاب .

ويقول: لو كان حشرٌ ونشرٌ لكان لي من الله لطفٌ وخير، وغداً يعلم الأمر، وأنه بخلاف ما تَوَهَّم . . . وذلك عندما نذيقه ما يستوجبُه من عذاب .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ﴾ .

هو لا يميز بين البلاء والعطاء؛ فكثيرٌ مما يتوهمه عطاءٌ هو مكرٌ واستدراج . . وهو يستديمه . وكثيرٌ مما فضلٌ وصرْفٌ وعطاءٌ يظنه من البلاء فيعافُه ويكرهه .

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحبه بالبَطْر، وإذا أبليناها قابله بالضرر .

ويقال إذا أنعمنا عليه أعجبَ بنفسه، وتكبرَ مختالاً في زهوه، لا يشكر ربّه، ولا يذكر فضله، ويتباعد عن بساط طاعته .

والمستغني عنّا يهيم على وجهه، وإذا مسّه الشرُّ فذو دعاءٍ كثير، وتضرعٍ عريض، وابتهاجٍ شديد، واستكشافٍ دائم .

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عُثُوّه وتُبُوّه عَوْدٌ، ولسوء طريقتِه في الجحود إعادة .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي سِقَاكِ بَعِيدٍ سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ﴾ .

﴿سَأُرِيهِمْ﴾: السين للاستقبال؛ أي سيظهر لهم من الآيات، ومن الأحداث التي تجري في أحوال العالم، وما سيحلُّ بهم من اختلاف الأمور ما يبيِّن لهم من خلاله أن هذا الدين حقٌّ، وأن هذا الكتاب حقٌّ، وأن محمداً - ﷺ - حقٌّ، وأن المُجْرِي لهذه الآيات والأحداث والأمور والمنشئ له هو الحقُّ - سبحانه .

ومن تلك الآيات ما كان من قَهْر الكفار، وعُلُوّ الإسلام، وتلاشي أعداء الدين .

ويقال من تلك الآيات في الأفاق اختلاف أحكام الأعيان مع اتفاق جواهرها في

التجانس . . وهذه آيات حدوثِ العالم، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته .

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ : من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصافِ ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ للعلماء، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا أَلْمُوا بِذَنْبٍ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط، وجمع وقرق، وحجبٍ وجذبٍ . . وما يجدونه بالضرورة في معاملاتهم ومنازلاتهم .

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شٰهِدٌ﴾ : هو الكافي، ولكنهم - أي الكفار - في مزيةٍ من لقاء ربهم في القيامة . والإشارة فيه : أن العوامَّ لفي شكٍ من تجويز ما يُكاشَفُ به أهلُ الحضورِ من تعريفات السرِّ .

﴿أَلَا إِنَّتُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ : عالمٌ لا يخفى عليه شيء .

سورة الشورى

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الْكَفْرَ الْزَيْبَةَ﴾ .

سلوة العاصين في سماع رحمة الله، وحظوة العابدين في رجائهم نعمة الله، وراحة الفقراء في رضاهم بقسمة الله. لكل من حاله نصيب، وكل في مُتَنَفِّسِهِ مُصِيبٌ .

قوله جلّ ذكره: ﴿حَدَّ عَسَقَ﴾ .

الحاء مفتاح اسمه: حلیم وحافظ وحكيم، والميم مفتاح اسمه: مَلِكٌ وماجد ومجيد ومثان ومؤمن ومهيمن، والعين مفتاح اسمه: عالم وعدل وعالٍ، والعين مفتاح اسمه: سيّد وسميع وسريع الحساب، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقُدوس .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين من قبلك كذلك يوحى إليك العزيز الحكيم، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم .

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ .

له ما في السموات وما في الأرض مُلْكاً .

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ : عُلُوّه وعظمته استحقاقه لأصاف المجد؛ أي وجوب أن

يكون بصفات المجد والجلال .

قوله جلّ ذكره: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

أي تكاد السموات تتشقق من عظمة من فوقهن وهو الله تعالى، والفوقية هنا

فوقية رتبة؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله .

ويقال من ثَقَلِ الملائكة الذين هم فوق السموات لكثرتهم . وفي الخبر:

«أطت»^(١) السماء أطاً وحق لها أن تثط؛ ما من موضع قَدَمٍ في السموات إلا وعليه قائم

أو راعع أو ساجد»^(٢) .

(١) الأبطط: صوت الرجل والإبل من ثقل أحمالها. (اللسان ٧/٢٥٦ مادة: أبطط).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند (١٧٣/٥).

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشق له . . وهنا تُفصح قول المشركين ولجراتهم على الله تعالى، ولعظم قولهم كادت السموات تنشق . قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِجْرُ الْجِبَالِ هَذَا أَنْ دَعَوْنَا لِلرِّحْمَنِ وَلَكَّا﴾ [مريم: ٨٩ - ٩١] وعلى هذا التأويل: ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْ قَوْفِهِنَّ﴾ أي إلى أسفلهن، أي تنفطر جملتها.

ومع أن أولاد آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون، ويستغفرون لمن في الأرض . . ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: أي يغفر لهم مع كثرة عصيانهم. وفي الوقت الذي يرتكب فيه الكفار هذا الجرم العظيم بسبب شركهم فإنه - سبحانه - لا يقطع رزقه ونفعه عنهم - وإن كان يريد أن يعذبهم في الآخرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

المشركون اتخذوا الشياطين أولياء من دونه، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم. وليس يخفى على الله أمرهم، وسيعذبهم بما يستوجبونه. ولست - يا محمد - بمسلط عليهم.

وفي الإشارة: كل من يعمل بمتابعة هواه ويترك لله حداً أو ينقض له عهداً فهو يتخذ الشياطين أولياء، والله يعلمه، ولا يخفى عليه أمره، وعلى الله حسابه . . ثم إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قَوْلَنَا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

أنزلنا عليك قرآناً يتلى بلغة بالعرب لتخوف به أهل مكة والذين حولها. وجميع العالم مخلوق بالكعبة ومكة لأنها سرّة الأرض.

﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ تنذرهم بيوم القيامة. والإنذار الإعلام بموضع المخافة. ويوم الجمع - وهو اليوم الذي يُجمع فيه الخلق كلهم، ويُجمع بين المرء وعمله، وبين الجسد وروحه وبين المرء وشكله في الخير والشر - لا شك في كونه. وفي ذلك اليوم فريق يُبعث إلى الجنة وفريق يحصل في السعير. وكما أنهم اليوم فريقان؛ فريق في راحة الطاعات وحلاوة العبادات، وفريق في ظلمة الشرك وعقوبة الجحد . . فكذلك غداً؛ فريق هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء والبلاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

إن أراد أن يجمعهم كلهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع . . . وإذا لازين لهم . ولو شاء أن يجمعهم كلهم على الفساد والعناد لم يكن دافع - وإذا لاشين منه . وحيث خلّفهم مختلفين - على ما أراد - فلا مبالاة بهم . . . إنه إله واحد جبارٌ غيرُ مأمور، متولٍ جميع الأمور؛ من الخير والشر، والنفع والضرر . هو الذي يحيي النفوس والقلوب اليومَ وغداً، ويميت النفوس والقلوب اليومَ وغداً . . . وهو على كل شيء قدير^(١) .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: أي إلى كتاب الله، وسنّة نبيه ﷺ، وإجماع الأئمة، وشواهد القياس . والعبرة بهذه الأشياء فهي قانون الشريعة، وجملتها من كتاب الله؛ فإنّ الكتاب هو الذي يدل على صحة هذه الجملة .

ويقال: إذا لم تهتدوا إلى شيءٍ وتعارضت منكم الخواطر فدعوا تدبيركم، والتجئوا إلى ظلّ شهود تقديره، وانتظروا ما ينبغي لكم أن تفعلوه بحكم تيسيره .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم؛ لا تدرون أبا لسعادة جرى حُكْمُكُمْ أم بالشقاوة مضى اسمُكم؟ فكلّوا الأمر فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله دون التفكير فيما ليس لكم سبيل إلى علمه عن عواقبكم .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

جَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ «أزواجاً»: أي أشكالا؛ فَخَلَقَ حِوَاءَ مِنْ آدَمَ . وَخَلَقَ - بسبب بقاء التناسل - جميع الحيوانات أجناساً .

﴿يَذُرُّكُمْ﴾: يُكثِرُ خَلْقَكُمْ . «فيه» الهاء تعود إلى البطن أي في البطن، وقيل: في الرّجَم، وقيل: في التزويج .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: لأنه فاطر السموات والأرض، ولأنه لا مثل يضارعه، ولا شكل يشاكله . والكاف في ليس «كمثل» صلة أي ليس مثله شيء . ويقال: لفظ «مثل» صلة؛ ومعناه ليس كهو شيء . ويقال معناه ليس له مثل؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثل شيء وهو هو، فلمّا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فمعناه ليس له مثل، والحق لا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أحكامه .

وقد وقع قومٌ في تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدّ والنهية والكون في

(١) الآية (٩) لم ترد .

المكان، وأقبح قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات؛ فظنوا أن بصره في حذقة، وسَمَعَه في عضو، وقدرته في يد. . . إلى غير ذلك.

زقومٌ قاسوا حُكْمَه على حُكْمِ عبادِه؛ فقالوا: ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمِنه قبيح، وما يكون من الخَلْقِ حسناً فمِنه حَسَنٌ!! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه - والحقُّ مستحقٌّ للتنزيه دون التشبيه، مستحقٌ للتوحيد دون التحديد، مستحقٌ للتحصيل دون التعطيل والتمثيل.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

«مقاليد» أي مفاتيح، والمفاتيح للخزائن، وخزائنه مقدوراته. وكما أن في الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال؛ فبعض القلوب معادن المعرفة، وبعضها معادن المحبة، وبعضها للشوق، وبعضها للأُنس. . . وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والرضا. وفائدة التعريف بأن المقاليد له: أن يقطع العبد أفكاره عن الخَلْقِ، ويتوجَّه في طلب ما يرد من الله الذي ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، والذي هو ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: يوسِّع ويضيق أرزاق النفوس وأرزاق القلوب حسبما شاء وحكَّم وعَلِمَ.

قوله جل ذكره: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾﴾.

﴿شَرَعَ﴾: أي بيَّن وأظهر. ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ أراد به أصول الدين؛ فإنها لا تختلف في جميع الشرائع، وأما الفروع فمختلفة، فالآية تدلُّ على مسائل أحكامها في جميع الشرائع واحدة.

ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾﴾. . . وفي القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شرَّع في زمان نوح عليه السلام.

قوله جل ذكره: ﴿﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾﴾.

يعني أنهم أصرُّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عُدْر ولا شك. ﴿﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾﴾. . . وهو أنه حكَّم بتأخير العقوبة إلى يوم القيامة لعجل لهم ما يتمنونه. . .

قوله جل ذكره: ﴿﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ مَآ مَنَعْتُ

يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾.

أي أذُع إلى هذا القرآن، وإلى الدين الحنيفي، واستقيم في الدعاء، وفي الطاعة. أمر الكل من الخلق بالاستقامة، وأقرده بذكر التزام الاستقامة.

ويقال: الألف والسين والتاء في الاستقامة للسؤال والرغبة؛ أي سل مني أن أقيّمك، ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَمْوَالَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: أمرت بالعدل في القضية، وبأن أعلم أن الله إله الجميع، وأنه يحاسب غداً كلاً بعمله، وبأن الحجة لله على خلقه، وبأن الحاجة لهم إلى مولاهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِشُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

يجادلون في الله من بعد ما استجيب لدعاء محمد ﷺ يوم بدر على المشركين. حجة هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل، وهم من الله مستوجبون للعنة والعقاب.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

أنزل الكتاب، وأنزل الحكم بالميزان أي بالحق. ويقال ألهمهم وزن الأشياء بالميزان، ومراعاة العدل في الأحوال. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: يزرهم عن طول الأمل، وينبههم إلى انتظار هجوم الأجل.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ءَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

المؤمنون يؤمنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة، ويكفون أمورهم إلى الله؛ فلا يتمنون الموت حذر الابتلاء، ولكن إذا ورد الموت لم يكرهوه، وكانوا مستعدين له.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾. ﴿لَطِيفٌ﴾ أي عالم بدقائق الأمور وغوامضها. واللطيف هو المُلطف المحسن.. وكلاهما في وصفه صحيح. واللطف في الحقيقة قدرة الطاعة، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليوم هو لطف منه به.

وأكثرُ ما يستعمل اللطف - في وصفه - في الإحسان بالأمور الدينية .

ويقال : خَاطَبَ العابدين بقوله : ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ : أي يعلم غوامض أحوالهم من دقيق الرياء والتصنع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ العُصاة بقوله : «لطيف» : لئلا يياسوا من إحسانه .

ويقال : خاطَبَ الأغنياء بقوله : «لطيف» : ليعلموا أنه يعلم دقائق معاملاتهم في جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراء . بقوله : «لطيف» أي أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء .

ويقال : سماعُ قوله : «اللَّهُ» يوجبُ الهيبةَ والفرع ، وسماعُ «لطيف» يوجبُ السكونَ والطمأنينة . فسماعُ قوله : «اللَّهُ» أوجب لهم تهويلاً ، وسماعُ قوله : «لطيف» أوجب لهم تأملاً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطي قَدْرَ الكفايةِ وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مَنْ لُطِفَ بالعبدِ عِلْمُهُ بأنه لطيف ، ولولا لُطْفُهُ لَمَا عَرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَهُ دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ إبهام عاقبته عليه ؛ لأنه لو علم سعادته لا تُكَلِّ عليه ، وأقلُّ عمله ولو عِلِمَ شقاوته لا يَسْ وَلَتَرَكَ عَمَلَهُ . فأراد أن يستكثر في الوقت من الطاعة .

ويقال : من لطفه بالعبد إخفاء أجله عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أجله .

ويقال : من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيهِ ما عمله في الدنيا من الزلّة ؛ لئلا يتنصص عليه العيشُ في الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نُورِ الأسرارِ ، وحفظ على عبده ما أودع قلبه من الأسرار ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار .

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهُ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ .

﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ : نَزَدَهُ - اليومَ - في الطاعات توفيقاً ، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقاً . وَنَزَدَهُ في الآخرة ثواباً واقتراباً وفنونَ نجاةٍ وصنوفَ درجاتٍ .

﴿وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ : مكتفياً به نؤته منها ما يريد ، وليس له في الآخرة نصب .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّ يَتَّبِعُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾: أي ليس ذلك مما أمر به، وإنما هو افتراء منهم .
 ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ﴾ . . أي ما سبق به الحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة . .
 قوله جلّ ذكره: ﴿تَرَى الْقَالِيلِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
 الْكَبِيرُ﴾ .

إذا حصل الإجماع فالى وقت ما لا يُعَذَّبُهُم الله في الغالب، ولكنه لا محالة يعذبهم . وربما يثبُت ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسفون، ويعلمون أنّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم، أمّا الكفار . . فغداً يُشْفِقُونَ مما يقع بهم عند ما يقرؤونه في كتابهم، لأنّ العذاب - لا محالة - واقع بهم .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾: في الدنيا جنان الوصلة، ولذاذة الطاعة والعبادة، وطيب الأُنس في أوقات الخلوّة . وفي الآخرة في روضات الجنة: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: إنّ أرادوا دوام اللطيف دام لهم، وإنّ أرادوا تمام الكشف كان لهم . . ذلك هو الفضل الكبير .

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ .
 ذلك الذي يُبَشِّرُ اللّهُ عباده قد مضى ذكره في القرآن متفرقاً؛ من أوصاف الجنة وأطايها، وما وعد اللّهُ من المثوبة . . ونحو ذلك .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ .
 قُلْ - يا محمد - لا أسألكم عليه أجراً . مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً، ولكنّ اللّهُ - وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيه بما لهم من الكرامات الأبدية - لم يطلب عليه أجراً؛ فاللّهُ - سبحانه - لا يطلب عِوَضاً، وكذلك نبيه - ﷺ - لا يسأل أجراً؛ فإنّ المؤمن قد أخذ من الله خُلُقاً حَسَناً . . فمتى يطلب الرسول منهم أجراً؟! وهو - صلوات الله عليه - يشفع لكلّ مَنْ آمَنَ به، والله - سبحانه - يعطي الثواب لكلّ مَنْ آمَنَ به .

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾: أراد أن تثبت مودتك في القربى؛ فتودّ مَنْ يتقرّب إلى الله في طاعته .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَرَفَّ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .
 تضعيف الثواب في الآخرة للواحد من عَشْرَةِ إلى سبعمائة . . هذه هي الزيادة . ويقال: الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا .
 ويقال: إذا أتى زيادة في المجاهدة تفضّلنا بزيادة . . وهي تحقيق المشاهدة .

ويقال مَنْ يَقْتَرِفَ حَسَنَةَ الْوِظَائِفِ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنَ اللَّطَائِفِ .

ويقال: تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوْقِ الْبَشَرِ .

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا يَكْفُرُونَ﴾ .

أي أَنَّكَ إِنِ افْتَرَيْتَهُ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ، ولكنك لم تكذب على ربك .
ومعنى الآية أَنَّ اللَّهَ يَتَصَرَّفُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ: مِنْ إِبْعَادٍ وَتَقْرِيبٍ، وَإِدْنَاءٍ وَتَبْعِيدٍ .

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾ .

﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ الألف واللام للجنس مطلقاً، وهي هنا للعهد؛ أي تلك السيئات التي تكفي التوبة المذكورة في الشريعة لقبولها؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء .
﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾: من الأعمال على اختلافها .

وهو «الذي» . . . الذي من الأسماء الموصولة التي لا يتم معناها إلا بِصِلَةٍ، فهو قد تعرَّف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد؛ فالزَّلَّةُ - وإن كانت توجِبُ للعبد ذميمة الصِّفَةِ - فَإِنَّ قبولها يوجبُ للحقِّ حميداً الاسم .

ويقال: قوله: «عباده» اسم يقتضي الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)^(١) حتى تمتئى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حساب الأولين والآخرين لعلَّه يقول له: عبدي .
ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود في ﴿التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾؛ وإذا فلا ينبغي لهم أن يتمنوا كذلك، وعليهم أن أن يتوبوا لكي يصلوا إلى ذلك .

ويقال لَمَّا كَانَ حَدِيثُ الْعَفْوِ عَنِ السَّيِّئَاتِ ذَكَرَهَا عَلَى الْجَمْعِ وَالتَّصْرِيحِ فَقَالَ: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ . ثم لَمَّا كَانَ حَدِيثُ التَّهْدِيدِ قَالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾ فذكره على التلويح؛ فلم يقل: ويعلم زلتك - بل قال ويعلم «ما» تفعلون، وتدخل في ذلك الطاعة والزَّلَّةُ جميعاً .

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ .

(أي إذا دَعَوَهُ استجاب لهم)^(٢) بعظيم الثواب في الآخرة .

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يقول المفسرون من أهل السُّنَّةِ في هذه الزيادة إنها الرؤية .

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

ذَكَرَ التَّوْبَةَ وَأَهْلَهَا، وذكر العاصيين بوصفهم، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . فلَمَّا وصل إلى الزيادة - التي هي الرؤية - قال: «ويزيدهم» على الجمع؛ والكناية إذا تَلَّتْ مذكوراتٍ رجعت إليها جميعاً؛ فيكون المعنى أن الطاعات في مقابلها الدرجات، وتكون بمقدارها في الزيادة والنقصان، وأمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل . . والفضل ليس فيه تمييز .

ويقال: لِمَا ذكر أن التائبين تُقْبَلُ توبتهم، وَمَنْ لم يَتُبْ غفر زلته، وَأَنَّ المطيعين لهم الجنة . . فربما خَطَرَ ببالِ أَحَدٍ: وإذا فهذه النارُ لِمَنْ هي؟! فقال جل ذكره:

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ .

فالعصاة من المؤمنين لهم عذاب . . أمَّا الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ؛ لأنَّ دليلَ الخطاب يقتضي هذا وذلك؛ يقتضي أن المؤمنين لهم عذابٌ . . ولكن ليس بشديد، وأمَّا عذابُ الكافرين فشديدٌ .

ويقال: إن لم يَثْبُ العبدُ خوفاً من النار، ولا طمعاً في الجنة لَكَانَ من حَقِّه أن يتوب لِيَقْبَلَ الحقُّ - سبحانه .

ويقال إن العاصي يكون أبداً منكسراً القلب، فإذا عَلِمَ أن اللّهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أن ليت له طاعةٌ مُيسِّرةٌ ليقبلها، فيقول الحقُّ: عبيدي، إن لم تُكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إن أتيت بها تصلح لقبولها .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ .

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في تخاطب الآدميين . والمعنى: أنني لم أبسط عليك أيها الفقير في الدنيا لِمَا كان لي من العلم أنني لو قَسَمْتُ عليك الدنيا لَطَعَيْتَ، ولَسَعَيْتَ في الأرض بالفساد .

ويقال: قوله: «ولكن . .»: لكن كلمة استدراك، فالمعنى: لم أوسِّع عليك الرزق بمقدار ما تريد؛ ولم أمنع عنك (الكل)؛ لأنِّي أَنْزَلُ بِقَدَرٍ ما أشاء .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيلُ الْحَمِيدُ﴾ .

الله - سبحانه مُخَيِّي القلوب؛ فكما أنه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، فبعدهما أصابت الأرضُ جدوبةً، وأبطأ نزولُ الغيثِ، وقنطَ الناسُ من مجيء الماطر، وأشرفَ الوقتُ على حدِّ القَوَاتِ يُنَزِّلُ اللّهُ بفضله الغيثَ، ويحيي الأرضَ بعد قنوط أهلها . . فكذلك العبد؛ إذا ذَبَلَ عُضُنُ وقته، وتكدَّرَ صَفْوُ ودّه،

وكسفت شمسُ أُنسِيه، وَبَعَدَ عن الحضرةِ وساحاتِ القربِ عَهْدُهُ فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته؛ فينزل على سيره أمطارَ الرحمة، ويعود عودُهُ طريًا، وَيُنْبِتُ في مشاهد أُنسِيه ورداً جَيِّتًا . . وأشدوا:

إن راعني منك الصدود فلعل أيامي تعود
ولعل عهدك باللوى يحيا فقد تحيا العهود
والغصن ييبس تارة وتراه مُخضراً يמיד^(١)

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ .

جعل الله في كل شيء من المخلوقات دلالة على توحيده في جلاله، وتفريده بنعت كبريائه وجماله .

﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾: والإشارة منها أن الحق - سبحانه - يغار على أوليائه أن يسكن بعضهم بقلبه إلى بعض؛ فأبدأ يُبَدِّدُ شملهم، ولا تكاد الجماعة من أهل القلوب تتفق في موضع واحد إلا نادراً، وذلك لمدى يسيرة . . كما قالوا:

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنهم بأكنافِ أطرافِ السماءِ نجومُ

وفي بعض الأحيان قد يتفضل الحق عليهم فتدنو بهم الديار، ويحصل بينهم - في الظاهر - اجتماع والتقاء، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحق - سبحانه - بفضله إلى أن في اجتماعهم بركات لحياة العالم .

وهذا - وإن كان نادراً - فإنه على جمعهم - إذا يشاء - قدير .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مَّصِيكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ

كثير﴾ .

إذا تحقَّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظية أو حالة مما يسوءه، وعلم أن ذلك جزاء له، وعقاب على ما بدَّر منه من سوء الأدب لاستحيى بخجلته من فعله، ولشغله ذلك عن رؤية الناس، فلا يحاول أن ينتقم منهم أو يكافئهم أو يدعو عليهم، وإنما يشغله تلافي ما بدَّر منه من سوء الفعل عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلط عليه من الخلق . . تاركاً الأمر كله لربه .

ويقال: إذا كثرت الأسباب من البلايا على العبد، وتوالى عليه ذلك . . فليُنْفِزْ

في أفعاله المذمومة . . كم يحصل منه حتى يبلغ جزاء ما يفعله - مع العفو الكثير - هذا

(١) يמיד: يتمايل .

المبلغ؟! فعند ذلك يزداد حُزْنُهُ وتأسُّفُهُ؛ لِعِلْمِهِ بكثرة ذنوبه ومعاصيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ آتَيْتَهُ الْمَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَى﴾.

يريد بها السفن التي تجري في البحار؛ يرسل اللُّهُ الرِّيحَ فَتُسَيِّرُهَا مرةً، وَيُسَكِّنُهَا أخرى، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة. . وهو بهذا يَحُثُّهُمْ على التَّفَكُّرِ والتَّنَبُّه دائمًا.

والإشارة في هذا إلى إمساك الناس في خلال فترّة الوقت عن الأنواء المختلفة، وحفظهم في إيواء السلامة، فالواجبُ الشُّكْرُ في كل حالة، وإذا خَلَصَ الشُّكْرُ استوجب جزيلَ المزيّد^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

يعني أنّ الرّاحاتِ في الدنيا لا تصفو، ومن المشائب لا تخلو. وإن اتفق وجود البعض منها في أحايين فإنها سريعة (الزوال)، وشيكة الارتحال.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب الموعود «خير» من هذا القليل الموجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

﴿كَبِيرَ الْأَيْمِ﴾: الشُّرْكُ. و ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾: ما دون ذلك من الزلّات. فإذا تركوها لا يتجرّعون كاساتِ الغضب بل تسكن لديهم سُورَةُ النَّفْسِ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم في عموم الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾: فيما دعاهم إليه وما أمرهم به من فنون الطاعات؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسنُ الثوابِ وحميدُ المآبِ. والمستجيبُ لرَبِّهِ هو الذي لا يبقى له نَفْسٌ إلا على موافقة رضاه، ولا تَبْقَى منه لِنَفْسِهِ بقية.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾: لا يستبدُّ أحدهم برأيه؛ لأنه يَتَهَمُ أمره ورأيه أبدأ ثم إذا أراد القطع بشيء يتوكل على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصِرُونَ﴾.

«البغي»: الظلم، فيعلم أحدهم أن الظلم الذي أصابه هو من قبيلِ نَفْسِهِ، فيتنصر

(١) الآيات من (٣٣) حتى (٣٥) لم ترد.

على الظالم وهو نفسه؛ بأن يكبح عنانها عن الركض في ميدان المخالفات.
قوله جل ذكره: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ﴾.

(يعني لا تجاوزوا حد ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام).

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: مَنْ عفا عن الجاني، وأصلح ما بينه وبين الله -
أصلح الله ما بينه وبين الناس. ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: فالذي للعبد من الله وعلى الله، وعند
الله خير مما يعمله باختياره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عَلِمَ اللهُ أن الكُلَّ من عباده لا يجد التحرر من أحكام النَّفْسِ، ولا يتمكن من
محاسن الخلق فرخص لهم في المكافأة على سبيل العدل والقسط - وإن كان الأولى
بهم الصّفح والعفو.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ...﴾: السبيل بالملامة لمن جاوز الحد، وعدا
الطُّور، وأتى غير المأذون له من الفعل... فهؤلاء لهم عذاب أليم.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

صَبَرَ على البلاء من غير شكوى، وَغَفَرَ - بالتجاوز عن الحُصْم - ولم تبق لتفسيه عليه
دعوى، بل يُبرئ حُصْمَهُ من كل دعوى، في الدنيا والعقبى... فذلك من عزم الأمور.
قوله جل ذكره: ﴿وَعَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَائِيٍّ وَمَنْ يَعِدْ وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ
يَقُولُونَ هَلْ إِيَّانَا مَرَدٌّ مِنْ سَبِيلِ﴾.

إن الذين أضلهم الله، وأعمى أبصارهم وبصائرهم، وأوقعهم في كد عقوبتهم،
وحرمهم برّد الرضا لحكم ربهم ليس لهم ولي من دون الله، ولا مانع لهم من عذابه.
وتراهم إذا رأوا العذاب يطلبون منه النجاة فلا ينالونها.

وتراهم يُغرضون على النار وهم خاشعون من الذل؛ لا تنفعهم ندامة، ولا تُسمع
منهم دعوة، ويُعيرهم المؤمنون بما ذكروهم به فلا يسمعون، فالיום لا ناصر
ينصرهم، ولا راحم يرحمهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ
مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾.

(١) الأبتان (٤٥، ٤٦) لم تردا.

الاستجابة لله الوفاء بعهده، والقيام بحقه، والرجوع عن مخالفته إلى مرافقته، والاستسلام.

في كل وقتٍ لحكمِهِ. والطريقُ اليومُ إلى الاستجابة مفتوحٌ. وعن قريبٍ سيُغلقُ البابُ على القلبِ بفتنةٍ، ويؤخذُ فلتةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْعُ﴾.

فإن أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة، ثم نحن أعلم بما نعاملهم به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.

إذا أذقنا الإنسان مِنَّا رفاهيةً ونعمةً فرحَ بتلك الحالة، وقابلها بالبَطْرِ، وتوصلَ بتمام عافيته إلى المخالفة، وجعل السلامةً ذريعةً للمخالفة. وإن أصابته فتنةٌ وبليّة، ومَسَتْهُ مصيبةٌ ورزيةٌ فإنه كفورٌ بنعمائنا، جحودٌ لآياتنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ...﴾.

يهب لمن يشاء الذكور، ولمن يشاء الإناث، ولمن يشاء الجنين، ويجعل من يشاء عقيماً، فلا اعتراض عليه في تقديره، ولا افتيات في اختياره، فهو أولى بعباده من عباده^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾.

لله بحقُّ مُلكِهِ أن يفعل ما يشاء، ويعطي مَنْ يشاء مِنْ عباده ما يشاء، ولكن أجرى العادة وحكّم بأنه لا يفعل إلا ما وَرَدَ في هذه الآية؛ فلم يُكلم أحداً إلا بالوحي، أو من وراء حجاب؛ يعني وهو لا يرى الحق، فالمحجوب هو العبد لا الرب، والحجاب أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية. . تعالى الله عن أن يكون من وراء حجاب؛ لأن ذلك صفة الأجسام المحدودة التي يُسبَلُ عليها ستر. إنه «عليّ»: في شأنه وقدره، «حكيمٌ»: في أفعاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(١) الآية (٥٠) لم ترد.

أي ذلك مثلما أوحينا إليك «روحاً» من أمرنا يعني القرآن؛ سَمَّاهُ رُوحاً لَأَنَّهُ مَنَ أَمَّنْ بِهِ صَارَ بِهِ قَلْبُهُ حَيًّا .

ويقال: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: أي جبريل عليه السلام، ويسمى جبريل روح القدس .

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتَبُ . . ﴾: ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن، «ولا

الإيمان»: أي تفصيل هذه الشرائع .

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾: أي القرآن «نوراً» نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين .

﴿أَلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾: لأن منه ابتداء الأمور .

سورة الزخرف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

بسم الله: اسمٌ عزيزٌ من وثيقٍ بجوده وكرمه لم يُعلّق بغيره صواعد هَمِّه، ولم يقف على سُدّة مخلوقٍ بقدميه في ابتغاء كرمه. اسمٌ عزيزٌ من عودعه خفايا لطفه لم يتدلّ في طلب شيءٍ من غيره، ولم يرجع إلى غيره في شره وخيره.

قوله جل ذكره: ﴿حَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

الحاء تدل على حياته والميم على مجده.. وهذا قسمٌ؛ ومعناه: وحياتي ومجدي وهذا القرآن إن الذي أخبرت عن رحمتي بعبادي المؤمنين حقٌ وصِدْقٌ. وجعلناه قرآنًا عربياً ليتيسرَ عليكم فهمُ معناه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ فِي أَرْسِ الْكِتَابِ لَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ .

﴿فِي أَرْسِ الْكِتَابِ لَدِينًا﴾: أي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ لعلِّي القدر، حكيمٌ الوصف؛ لا تبديل له ولا تحويل.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ .

أي أننا لا نفعل ذلك؛ (فيكون معنى الاستفهام)^(١) أفنقطع عنكم خطابنا وتعريفنا إن أسرفتم في خلافكم؟ لا... إننا لا نرفع التكليف بأن خالفتم، ولا نهجركم - بقطع الكلام عنكم - إن أسرفتم.

وفي هذا إشارة لطيفة وهو أنه لا يقطع الكلام - اليوم - عمّن تمادى في عصيانه، وأسرف في أكثر شأنه. فأحرى أن من لم يقصّر في إيمانه - وإن تَلَطَّحْ بعصيانه، ولم يَدْخُلْ خَلْلٌ في عرفانه - ألا يَمْنَعَ عنه لطائف غفرانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

ما أتاهم من رسولٍ فقابلوه بالتصديق، بل كذّب به الأكثرون وجحدوا، وعلى غيِّهم أصرّوا...

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ .

أي لم يُعجزنا أحدٌ منهم، ولم نعادِزْ منهم أحداً، وانتقمنا من الذين أساؤوا.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ﴾ .

كانوا يُقرُّون بأنَّ اللهَ خالقَهُم، وأنَّه خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وإنما جحدوا
حديثَ الأنبياءِ، وحديثَ البعثِ وجوازه.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾ .

كما جَعَلَ الأرضَ قراراً لأشباحهم جَعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم؛ فالخَلْقُ سُكَّانُ
الأرضِ، فإذا انتهت المدةُ - مدةُ كَوْنِ النفوسِ على الأرضِ - حَكَمَ اللهُ بخرابها. .
كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّةِ قضى اللهُ بخرابها.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ
نُخْرِجُونَ﴾ .

يعني كما يُخيي الأرضَ بالمطرِ يُخيي القلوبَ بحسنِ النَّظَرِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ .

أي الأصنافَ من الخَلْقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ .

كذلك جَسَسَ عليكم الأحوالَ كلها؛ فمِنْ رغبةٍ في الخيراتِ إلى رهبةٍ مما
توعدُّكم به من العقوباتِ. ومن خوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزَّلَّاتِ إلى رجاءِ بيعتكم
على فعلِ الطاعاتِ طمعاً في المثوباتِ. . وغير ذلك من فنونِ الصِّفَاتِ.

﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ .

يعني الفُلْكَ وَالْأَنْعَامِ. .

﴿ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا

كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾ .

مطيعين، وكما سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحرِ، والدوابَّ للركوبِ، وأعظمَ عليهم
المنةُ بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنينِ مركبَ التوفيقِ فَحَمَلَهُم عليه إلى بساطِ الطاعةِ،
وسَهَّلَ للمريدينِ مركبَ الإرادةِ فَحَمَلَهُم عليه إلى عَرَصَاتِ الجودِ، وسَهَّلَ للعارفينِ
مركبَ الهَمِّ فأناخوا بعِفْوَةِ العِزَّةِ. وعند ذلك مَحَطَّ الكافةِ؛ إذ لم تخرقِ سرادفاتِ

العزّة همة مخلوق: سواء كان ملكاً مُقرباً أو نبياً مُرسلاً أو ولياً مُكرمًا، فعند سطاتِ العزّة يتلاشى كلُّ مخلوق، ويقف وراءها كلُّ مُحدثٍ مسبق^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾.

هم الذين قالوا: الملائكة بنات الله؛ فجعلوا البنات لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته. . . تَعَسَّأَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ وَخِزْيًا!! فردّ عليهم ذلك قائلاً:

﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾.

قال لهم على جهة التوبيخ، وعابهم بما قالوا؛ إذ - على حدّ قولهم - كيف يُؤزّرهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات؟! ففي قولهم ضلالٌ؛ إذ حكموا للتقديم بالوُلد. وفيه جهلٌ؛ إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبنين - وهم يستكفون من البنات. . . ثم. . . أي عيب في البنات؟ ثم. . . كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ - وهم لم يشاهدوا خَلْقَتَهُمْ؟

كلُّ ذلك كان منهم خطأ محظوراً^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

إنما قالوا ذلك استهزاءً واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً فقال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولاً.

ثم قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

أي ليس كذلك، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليد لا يُفضي إلى العلم، فقال:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ عِلْقٍ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

فنحن نقتدي بهم، ثم قال:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ عِلْقٍ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

سلكوا طريق هؤلاء في التقليد لأسلافهم، والاستنامة إلى ما اعتادوه من السيرة والعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَوْ جِئْتُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ لَأَبَاهُ أَكْبَرُ مِنْكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

(٢) الآيات من (١٧ حتى ١٩) لم ترد.

(١) الآية (١٤) لم ترد.

فلم ينجع فيهم قوله، ولم ينفعهم وَغْظُهُ، وَأَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ، فانتقمَ الحقُّ - سبحانه - منهم كما فعل بالذين من قبلهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

أخبر أن إبراهيم لما دعا أباه وقومه إلى الله وتوحيده أبوا إلا تكذيبه؛ فبجراً منهم بأجمعهم، وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عقبه وقومه^(٢).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقّاً جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾

أَرْحَمْنَا عَنَانَ إِمهالهم مدة، ثم كان أمرهم أن انتصرنا منهم، ودمرناهم أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

إما أبي مسعود الثقفي^(٣) أو أبي جهل، وهذا أيضاً من فزط جهلهم.

﴿أَمْ يَرْفَعُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أهم يَفْسُمُونَ - يا محمد - رحمة ربك في التخصيص بالنبوة؟ أياكون اختياراً لله

- سبحانه - على مقتضى هواهم؟ بش ما يحكمون!

﴿نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ...﴾ فلم نجعل القسمة في الحياة الدنيا لهم... فكيف

نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء؟!...

والإشارة من هذا: أن الحق - سبحانه - لم يجعل قسمة السعادة والشقاوة

إلى أحد، وإنما المردود من رده بحكمه وقضائه وقدره، والمقبول - من جملة

عباده - من أراد وقبيله... لا لعلّة أو سبب، وليس الرد أو القبول لأمر

مكتسب...

ثم إنه قسم لبغض عباده النعمة والغنى، وللبعض القلة والفقير، وجعل لكل

واحد منهم سكناً يسكنون إليه يستقلون به؛ فللأغنياء وجود الإنعام وجزيل الأقسام..

فشكروا واستبشروا، وللفقراء شهود المنعم والقسام.. فحمدوا وافتخروا. الأغنياء

وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا، والفقراء سمعوا قوله: «نحن» فاشتغلوا.

(١) الآية (٢٥) لم ترد.

(٢) الآيات (٢٧، ٢٨) لم تردا.

(٣) هو عروة بن مسعود بن معتب الثقفي (١٠٠ - ٩ هـ = ٦٣٠ م) صحابي مشهور، كان كبيراً في قومه بالطائف، ولما أسلم استأذن النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم للإسلام، فقال: أخاف أن يقتلوك. قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فأذن له، فرجع، فدعاهم إلى الإسلام فخالفوه، ورماه أحداهم بسهم فقتله.

الأعلام ٤/٢٢٧، والإصابة ٥٥٢٨، وروضة الأمل ٥/٣٠.

وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للأَنْصار: «أما ترضون أن يرحع الناس بالغنى؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهليكم؟».

﴿لَيْسَتْخِذْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا..﴾: لو كانت المقادير متساوية لَتَعَطَّلَت المعاش، وَلَبَقِيَ كُلُّ عِنْدَ حَالِهِ؛ فجعل بعضهم مخصوصين بالرفق والمال، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال.. حتى احتاج الفقير في جَبْرِ حاجته إلى أَنْ يعمل للغني كي يرتفق من جهته بأجرته فيضلح بذلك أمر الغني والفقير جميعاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر؛ فالذي يبقى عتاً لو صَبَّنا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته. ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سُقْفًا من فضة ومعارج من فضة، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا.

ولو فعلنا.. لم يكن لِمَا أعطيناه حَطَرًا؛ لأنَّ الدنيا بأُسْرِها ليس لها عندنا خطر^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يَقْرَأْ﴾.

مَنْ لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع اللّهِ فحادَ عن ذكره، وأخلدَ إلى الخواطر الرديّة فيُضِّ اللّهُ له مَنْ يَشْغَلُهُ عن الله - وهذا جزاء مَنْ تَرَكَ الأدبَ في الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربه.. فلو تعرّض له مَنْ يشغله عن الله - وهذا جزاء مَنْ تَرَكَ الأدبَ في الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربه. فلو تعرّض له مَنْ يشغله عن ربه صرّفه الحق عنه بأي وجه كان، وصرّف دواعيه عن مفاتحته بما يشغله عن الله.

ويقال: أصعبُ الشياطين نَفْسُكَ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ حَطَرَ فراغ قلبه، وأتبع شهوته، وفتح ذلك الباب على نفسه بقي في يد هواه أسيراً لا يكاد يتخلص عنه إلا بعد مُدَّة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ حَقًّا إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقَرِينُ﴾.

الذي سولت له نفسه أمراً يَتَوَهَّمُ أنه على صواب، ثم يحمل صاحبه على موافقته في باطله، ويدعي أنه على حق. وهو بهذا يَضُرُّ بِنَفْسِهِ ويضر بغيره. ثم إذا ما انكشف - غداً - الغطاء تبين صاحبه خيائته، ونِدِمَ على صُخْبَتِهِ، ويقول: ﴿يَتَوَلَّقَن لَيْتَنِي لَوْ أَنَا أَخَذْتُ

(١) الآيات (٣٤، ٣٥) لم تردا.

فَلَا تَأْتِي خَلِيلًا ﴿ [الفرقان: ٢٨] و ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ . ولكن هذه الندامة لا تنفع حينئذ؛ لأن الوقت يكون قد فات، لهذا قال تعالى:

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرًا فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَتْ فِي صُلْبِهِ مُبِينٌ﴾ .

هذا الاستفهام فيه معنى النفي؛ أي أنه ليس يمكنك هداية من سدذنا بصيرته، ولئسنا عليه رُشدَه، ومن صببنا في مسامع فهمه رصاص الشقاء والحرامان . . . فكيف يمكنك إسماعه؟!

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَفِعُونَ﴾ .

يعني: إن انقضى أجلك ولم يتفق لك شهود ما تتوعدهم به فلا تتوهم أن صدق كلامنا يشوبه ميثن، فإن ما أخبرناك عنه - لا محالة - سيكون.

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ نُؤَيِّنَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ .

أثبتهُ عَلَى حدِّ الخوفِ والرجاء، ووقفهُ عَلَى وصفِ التجويز لاستبداده - سبحانه بعلم الغيب. والمقصود كذلك أن يكون كل أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير - فالله يفعل ما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَسْتَمِيعٌ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

اجتهذ من غير تقصير وتوكل على الله من غير فتور، وقف حيثما أمرت، وثق بأنك على صراط مستقيم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ .

أي إن هذا القرآن لذكرك لك؛ أي شرف لك، وحسن صيب، واستحقاق منزلة .

قوله جل ذكره: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءِإِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ .

حَسَرَ أرواح الأنبياء - عليهم السلام - ليلة الإسراء، وقيل له - ﷺ: «سألهم: هل أمرنا أحداً بعبادة غيرنا؟ فلم يشك النبي - ﷺ - ولم يسأل»^(١).

ويقال: الخطاب له، والمراد به غيره. . . فَمَنْ يرتاب في ذلك؟ ويقال: المراد منه سأل أقوامهم، لكي إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ في إبرام الحجة عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْضَكُونَ﴾ .

(١) للحديث رواية أخرى: «لا أسأل قد اكتفيت» أخرجه ابن الجوزي في (زاد المسير ٣١٩/٧).

كُرِّرَ قِصَّةَ مُوسَى غَيْرَ مَرَّةٍ فِي الْقُرْآنِ، وَأَعَادَهَا هُنَا مَجْمَلَةً؛ أُرْسِلْنَاهُ بِدَلَالَتِنَا، أُرْسِلْنَاهُ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ قَاهِرَةٍ، أُرْسِلْنَاهُ بِالْمُعْجَزَاتِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنَ الْقِبْطِ، فَقَبُولِ بِالْهَزْءِ وَالضَّحْكَ وَالتَّكْذِيبِ. وَمَعَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يُجْرِ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ شَيْئًا إِلَّا كَانَ أَوْضَحَ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَقَابِلُوهُ إِلَّا بِجَفَاءٍ أَوْحَشَ مِمَّا قَبْلَهُ. فَلَمَّا عَضُّهُمْ الْأَمْرُ قَالُوا: يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ، ادْعُ لَنَا رَبِّكَ لِيَكْشِفَ عَنَّا الْبَلِيَّةَ لِنُؤْمِنَ بِكَ، فَدَعَا مُوسَى.. فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، وَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

تَعَزَّزَ بِمُلْكِهِ مِصْرَ، وَجَرَى النِّيلُ بِأَمْرِهِ! وَكَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهُ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تَعَزَّزَ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَحَتَفَهُ وَهَلَاكُهُ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

اسْتَصْغَرَ مُوسَى وَحِدِيثَهُ، وَعَابَهُ بِالْفَقْرِ.. فَسَلَطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ هَلَاكُهُ بِيَدَيْهِ، فَمَا اسْتَصْغَرَ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا سَلَطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

أَطَاعُوهُ طَاعَةَ الرَّهْبَةِ، وَطَاعَةَ الرَّهْبَةِ لَا تَكُونُ مُخْلِصَةً، وَإِنَّمَا تَكُونُ الطَّاعَةُ صَادِقَةً إِذَا صَدَرَتْ عَنِ الرَّغْبَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿ءَاسَفُونَا﴾ أَغْضَبُونَا، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَغْضَبُوا أَوْلِيَاءَنَا، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ. وَهَذَا لَهُ أَصْلٌ فِي بَابِ الْجَمْعِ؛ حَيْثُ أَضَافَ إِسَاقِفَهُمْ لِأَوْلِيَاءِهِ إِلَى نَفْسِهِ... وَفِي الْخَبَرِ: أَنَّهُ يَقُولُ: «مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدَّنِي»^(٣).

وقال في قصة إبراهيم عليه: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾ [الحج: ٢٧].

وقال في قصة نبينا - ﷺ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾.

وَضُرِبَ الْمَثَلُ بِعِيسَى هُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ خَلَقَ عِيسَى بِلَا أَبٍ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِلَا أَبِيوَيْنَ. فَجَحَدُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ.

(١) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد.

(٢) الآية (٥٣) لم ترد.

(٣) للحديث رواية أخرى: «مرضت فلم يعدني ابن آدم» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٤٠٤).

الآية (٥٦) لم ترد.

وقيل هو قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. [الأنبياء: ٩٨] فقالوا: رضيينا بأن نكون في النار مع عيسى وعزير والملائكة، وليس لهم في الآية موضع ذكْر؛ لأنه سبحانه قال: «وما تعبدون، ولم يقل «ومن» تعبدون.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا يَا إِلَهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾: وذلك أنهم قالوا: إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقرَّ بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقرَّ بأن عيسى يصلح لأن يُعبد، وإن قال: ليس واحدٌ منهم خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه. وهم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه، ولم يكن سؤالهم للاستفادة. فكان جواب النبي ﷺ عليهم: «أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعبد؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام بمستحق أن يكون معبوداً من دون الله وهكذا بيَّن الله - سبحانه - لنبيه أنهم قوم جدلون، وأنَّ حُجَّتَهُم داحضةٌ عند ربهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَلَكًا يُبْرَأُ﴾. فليس عيسى إلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَجَلَةً فِي الْأَرْضِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ولو شئنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سَكَّانَ الأرض بدلَكم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمَّزُكُ بِهَا وَالْمُؤْمِنُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾: يعني به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للساعة، ﴿فَلَا تَمَّزُكُ﴾ بنزوله بين يدي القيامة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

ولا يصدنكم الشيطان عن الإيمان بالساعة، وعن اتباع الإيمان بهداي.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَبِالْبَيِّنَاتِ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فَيُؤْتَقَرُّوا اللَّهُ وَيُطِيعُونَ﴾.

ذكر مجيء عيسى عليه السلام أول مرة؛ حيث أتى قومه بالشرائع الواضحة،

(١) في الموسوعة قال رسول الله ﷺ: «لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب» أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٧١ رقم ٢٤٣)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٢٨/١) والأجري في (الشرعة ٣٨٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٧٢٢)، والقرطبي في (التفسير ٣١٥/١٠).

ودعاهم إلى دين الله، ولكنهم تحزّبوا عليه، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة.
قوله جلّ ذكره: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

ما كان لغير الله فمآله إلى الضياع. والأخلاء الذين اصطحبوا على مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو؛ يتبرأ بعضهم من بعض، فلا ينفع أحد أحداً.
وأما الأخلاء في الله فيشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

وشرط الخلة^(١) في الله؛ ألا يستعمل بعضهم بعضاً في الأمور الدنيوية، ولا يرتفق بعضهم ببعض؛ حتى تكون الصحبة خالصة لله لا لنصيب في الدنيا، ويكون قبول بعضهم بعض لأجل الله، ولا تجري بينهم مدهاتة، وبقدّر ما يرى أحدهم في صاحبه من قبول لطريق الله يقبله، فإن علم منه شيئاً لا يرضاه الله لا يرضى ذلك من صاحبه، فإذا عاد إلى تركه عاد هذا إلى مودته، وإلا فلا ينبغي أن يساعده على معصيته، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه، وألا يسكن إليه لغرض دنيوي أو لطمع أو لِعَوض.
قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِغْآدٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

يقال لهم غداً: ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم﴾ مما يلقاه أهل الجمع من الأهوال، ولا أنتم تحزنون فيما فُضِرْتُمْ من الأعمال...
أما الذنوب.. فقد غفرناها، وأما الأهوال.. فكفيناها، وأما المظالم.. فقضيناها. فإذا قال المنادي: هذا الخطاب يُطْمِعُ الكَلَّ قالوا: نحن عباده، فإذا قال:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

أيس الكفار، وقوي رجاء المسلمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

في رياض الجنة، وترتعون.

ويقال: ﴿تُحْبَرُونَ﴾ من لذة السماع.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَطَافٌ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْإِنْسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

العُباد لهم فيها ما تشتهي أنفسهم لأنهم قاسوا في الدنيا - بحكم المجاهدات - الجوع والعطش، وتحملوا وجوة المشاق، فيجازون في الجنة بوجوه من الثواب.
وأما أهل المعرفة والمحبتون فلهم ما يلد أعينهم من النظر إلى الله لطول ما

(١) يصلح هذا يُضاف إلى حديثه - أي القشيري - عن الصحبة بالرسالة ص ٢٩٤.

قاسوه من فَرْطِ الاشتياق بقلوبهم؛ وما عالجه من الاحتراق لشدة غليلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ لَئِنَّهُ الَّتِي أَوْرِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي يقال لهم - والخطاب للمطيعين غداً - : أنتم يا أصحاب الإخلاص في أعمالكم؛ والصدق في أحوالكم:

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

من الفاكهة الكثيرة تأكلون، وفي الأُنس تتقبلون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

هؤلاء هم الكفار المشركون، فهم أهل الخلود، لا يُفْتَرُّ عنهم العذاب ولا يُخَفَّفُ.

وأما أهل التوحيد: فقد يكون منهم قومٌ في النار. ولكن لا يخلدون فيها. ودليل الخطاب يقتضي أنه يُفْتَرُّ عنهم العذاب. ورد في الخبر الصحيح: أنه لا يُمَيِّتُهُمُ الْحَقُّ - سبحانه - إمامةً إلى أن يُخْرِجَهُمْ مِنَ النَّارِ - والميت لا يحسُّ ولا يتألم^(١).

﴿لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ﴾.

الإبلاس^(٢) من الخيبة، ويدل ذلك على أن المؤمنين لا يأس لهم فيها، وإن كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهي حسابهم.

ولقد قال الشيوخ: إنَّ حَالَ الْمُؤْمِنِ فِي النَّارِ - من وجوه - أَرْوَحُ لِقَلْبِهِ مِنْ حَالِهِ فِي الدُّنْيَا؛ فاليوم - خوفُ الهلاكِ، وغداً - يقينُ النجاة، وأنشدوا:

عَيْبُ السَّلَامَةِ أَنْ صَاحَبَهَا مَتَوَقَّعَ لِقَوَاصِمِ الظُّهْرِ
وَفَضِيلَةُ الْبَلَوِ تَرْتُقِبُ أَهْلِهَا - عَقَبَ الرَّجَاءِ - مَوَدَّةَ الدَّهْرِ

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾.

هذا الخطاب يُشْبِهُ كَلِمَةَ الْعُدْرِ - وإن جَلَّ قَدْرُهُ - سبحانه - عن ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَادَّوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْبُكَ قَالِ إِنَّكُمْ مَنكُوتُونَ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾.

لو قالوا: «يا مَلِكُ» لعل أقوالهم كانت أقرب إلى الإجابة، ولكن الأجنبية حالت بينهم وبين ذلك، فكان الجوابُ عليهم:

(١) الحديث: «فأماهم إمامة حتى إذا كانوا فحماً [...]». أخرجه مسلم (إيمان ٣٠٦)، وابن ماجه (زهدي ٣٧).

(٢) أبلس فلان: سكت غمًا (اللسان ٣٠/٦ مادة: بلس).

﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ فيها . . نُصِخْتُمْ فَلَمْ تَنْتَصِحُوا، ولم تقبلوا القول في حينه، وكان أكثرهم للحق كارهين .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَمْرًا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ .

بل أمورهم مُنْتَقِضَةٌ عليهم؛ فلا يتمشى لهم شيء مما دبروه، ولا يرتفع لهم أمر على نحو ما قَدَّرُوهُ - وهذه الحال أوضح دليل على إثبات الصانع .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ .

إنما خوفهم بسماع المَلَكِ، وبكتابتهم أعمالهم عليهم لغفلتهم عن الله - سبحانه، ولو كان لهم خبرٌ عن الله لما خَوْفَهُمْ بغير الله، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ أَعْمَالَهُ تُكْتَبُ عَلَيْهِ، وأنه يُطَالَبُ بمقتضى ذلك - قَلَّ إلمامه بما يخاف أن يُسأل عنه . .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ .

أي إن كان في ضميركم وفي حُكْمِكُمْ وفي اعتقادكم أنَّ للرحمن ولداً فانا أول مَنْ يَسْتَكِفُّ من هذه القالة .

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

تنزه الله تنزيهاً، وتقدُّس تقدُّساً عما قالوه . وفي هذه الآيات وأمثالها دليل على جواز حكاية قول المبتدعة - فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود - قصداً للردِّ عليهم، وإخباراً بتقبيح أقوالهم، وبطلان مزاعمهم .

ثم قال جل ذكره: ﴿فَدَرَهُمْ مَحُوسُوا وَيَلْعَبُونَ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ .

إذ ليس يفوت أمرهم، وهم لا محالة سيلقون صغرمهم . وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للعبد أن يَغْتَرَّ بطول السلامة فإنَّ العواقب غير مأمونة .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ .

المعبود - في السماء - الله، والمقصود - في طلب الحوائج في الأرض - الله . أهل السماء لا يعبدون غير الله، وأهل الأرض لا يقضي حوائجهم غير الله .

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في إمهاله للعصاة، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال العباد .

﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

تعالى وتقدُّس وتنزه وتكبر الذي له مُلْكُ السموات والأرض .

السموات والأرض بقدرته تظهر . . لا هو بظهورها يتعزز .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

يَسْمَعُونَ﴾ .

أي شهد - اليوم - بالتوحيد، فيثبت له الحقُّ حقَّ الشفاعة. وفي الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

فكيف لا يعتبرون؟ وكيف يتكبرون عن طاعة الله.

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَذَا قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي يعلم علم الساعة ويعلم ﴿قيله يا رب﴾.

﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أمهلهم، وقل لكم مني سلاماً.. ولكن سوف تعلمون عقوبة

ما تستوجبون.

سورة الدخان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ ذَكَرَهَا نال في الدنيا والعُقبى بهجته، وَمَنْ عَرَفَهَا بِذَلِكَ فِي طلبها مُهَجَّتْه.

كلمة إذا استولت على قلبٍ عَطَلَتْه عن كلِّ شُغْلٍ، كلمة إذا واطَبَّ على ذِكْرِهَا عَبْدٌ أَمَّتْه من كلِّ هَوْلٍ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمِّ وَالْكَتَبِ الْمُبِينِ﴾.

الحاء تشير إلى حقه؛ والميم تشير إلى محبته. ومعناه: بحقي وبمحبتي لعبادي، وبيكتابي العزيز إليهم: إني لا أعذبُ أهل معرفتي بفرقتي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿.

﴿فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾: قيل هي ليلة القَدْر، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصَّكِّ. أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كلَّ سَنَةٍ بِمَقْدَارِ مَا كَانَ جبريلُ ينزل به على الرسول ﷺ.

وسمَّاهَا: ﴿لَيْلَةَ مُبْرَكَةٍ﴾ لأنها ليلة افتتاح الوصلة. وأشدُّ الليالي بركةً ليلة يكون العبدُ فيها حاضرًا، بقلبه، مشاهدًا لرَبِّه، يتنعمُ فيها بأنوار الوصلة، ويجد فيها نسيم القربة.

وأحوال هذه الطائفة في لياليهم مختلفة، كما قالوا:

لا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي أَنْ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَزُولُ
لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ: قَصِيرٌ إِذَا جَادَتْ، وَإِنْ ضُنْتُ فَلَيْلِي طَوِيلٌ

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يكتب من أم الكتاب في هذه الليلة ما يحل في السنة كلها من أقسام الحوادث في الخير والشرِّ، في المحنِّ والمِنِّ، في النصر والهزيمة، في الخصب والقحط.

ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجذب، والوصل والفصل، والوفاق والخلاف، والتوفيق والخذلان، والقبض والبسط. فكم من عبدٍ ينزل له الحكم والقضاء بالبعْدِ والشقاء، وآخر ينزل حكمه بالرِّفْدِ والوفاء.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: وهي الرسول - ﷺ، قال صلوات الله عليه: «أنا رحمة مهداة»^(١).

ويقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رحمةً لنفوس أوليائنا بالتوفيق، ولقلوبهم بالتحقيق.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: «السميع» لأنين المشتاقين، «العليم» بحنين المحيين.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُّقْتَدِرِينَ﴾.

مالك السموات والأرضين، ومالك ما بينهما - وتدخّل في ذلك أكساب العباد.

وتملّكها بمعنى القدرة عليها، وإذا حصل مقدور في الوجود دلّ على أنه

مفعوله؛ لأن معنى الفعل مقدور وجد.

قوله جل ذكره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

هذه الكلمة فيها نفى ما أثبتوه بجهلهم، وإثبات ما نفوه بجدهم.

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: مُرَبِّي أهلكم ونسلكم.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

اللعب فعل يجري على غير ترتيب تشبيهاً باللعب الذي يسيل لا على نظام

مخصوص؛ فوصف المنافق باللعب؛ وذلك لتردده وتحير نتيجة شكّه في عقيدته.

قوله جل ذكره: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا من أشراف الساعة؛ إذ يتقدم عليها.

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجّلة (أي تتم هنا في هذه الدنيا) فيومهم الذي

تأتي السماء فيه بدخان مبين هو يوم غيبة الأحاب، وانسداد ما كان مفتوحاً من

الأبواب، أبواب الأنس بالأحاب وفي معناه قالوا:

فما جانب الدنيا سهل ولا الضحى بطلق ولا ماء الحياة ببارد

قوله جل ذكره: ﴿يَعْنَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وعذاب هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيم في الغالب، وهو عذاب مستعذب، أولئك

يقولون:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

وهؤلاء يستزبدون - على العكس من الخلق - العذاب، وفي ذلك يقول قائلهم:

فكل ما ربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

فهم يسألون البلاء والخلق يستكشفونه، ويقولون:

أنت البلاء فكيف أرجو كشفه إن البلاء إذا فقت بلاتي

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣١٩٩٥)، والقرطبي في (التفسير ٦٣/٤).

قوله جل ذكره: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ .

إن خالفوا دواعي قلوبهم من الخواطر^(١) التي تَرُدُّ من الحقِّ عليهم عوقبوا - في الوقت بما لا يتَّسع لهم ويُسعِفهم، فإذا أخذوا في الاستغاثة يقال لهم: أنَّى لكم الذكري وقد جاءكم الرسول على قلوبكم فخالفتكم؟!^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ .

حيث نورثكم حزناً طويلاً، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقيلاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَن أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكَرَّمُ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ .

فنتهم بعد ما أصرُّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشد من نفرة^(٣) عنودهم .

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ : يطالبهم بإزالة الظلم عن بني إسرائيل، وأن يستبصروا، واستنفرهم لله، وأظهر الحجَّة من قِبَلِ الله^(٤) .

﴿فَأَمَرَ بِيَعَادِي لِيَلَّا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ .

أمره بأن يسري بعباده المؤمنين، وعرفهم أنهم سيُنقذون، وأن عدوهم ﴿جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿كَرَّ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ وَرُزُوعٍ وَمَقَابِرِ كَرِيمٍ وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينِ﴾ .

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم .
﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ .

وأشكنا قوماً آخرين في منازلهم ودورهم .

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ .

لم يكن لهم من القدرِ والخطَرِ ما يتحرك في العالم بسببهم ساكن، أو يسكن متحرك فلا الخضراء بسببهم اغبرَّت، ولا الغبراء لغيبتهم اخضُرَّت. لم يبقَ منهم عينٌ

(١) انظر حديث القشيري عن الخواطر في الرسالة ص ٨٣، ٨٥.

(٢) الآية (١٤) لم ترد.

(٣) نفر من الشيء: فزع وانقبض غير راضٍ به، ونفرت المرأة من زوجها: أعرضت وصذت ونفرت من المكان: تركه إلى غيره.

(٤) الآيات من (١٩ حتى ٢٢) لم ترد.

ولا أثر، ولم يظهر من قبلهم على قلب أحد من عبادنا أثر. وكيف تبكي السماء لفقْد من لم تستبشر به من قبل؟ بعكس المؤمن الذي تُسرُّ السماء بصعود عمله إليها، فإنها تبكي عند غيابه وفقْده.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَخَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمِهِينَ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَقَدْ أَخْرَنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَيَّ الْعَالَمِينَ﴾.

نجَّاهم، وأقمى عدوَّهم، وأهلكه.

﴿وَلَقَدْ أَخْرَنَاهُمْ﴾ أي عَلِمْنَا ما يحتقبون من أوزارهم، فرفعنا - باختيارنا - من أقدارهم ما وَضَعَهُ فِعْلُهُمْ وتدنَّسَهُمْ بأوزارهم.

ويقال: «على علم منا» بأحوالهم أنهم يُؤثرون أمرنا على كل شيء.

ويقال: «على علم منا» بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا.

ويقال: «على علم منا» بما نودع عندهم من أسرارنا، وما نكاشفهم به من حقائق حقنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَلَيْنَاهُم مِّنَ الْأَلْبَتِ مَا فِيهِ بَلَكٌ مُّبِينٌ﴾.

من مطالبته بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الكدر والعناء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ فَأَنوَأ بِعِبَادِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

اقترح أبو جهل على النبي - ﷺ - أن يحيي لهم نفساً:

«لتخبرنا: هل أنت صادق أم لا؟» فأخبر الله - سبحانه - أنهم اقترحوا هذا بعد

قيام الحجَّة عليهم، وإظهار ما أراح لهم من العذر:

ثم قال جل ذكره: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«تُبِيع» هو ملك لليمن، وكان مسلماً، وكان في قومه كثرة، وأهلك الله سبحانه قومه على كثرة عددهم، وكمال قوتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

ما خلقناهما إلا بالحق، بالحكم الحق؛ وبالأمر الحق.. «أنا مُجِئٌ فِي خَلْقِهِمَا»: أي كان لي خَلْقُهُمَا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يَنْفَعِي مَوْلَىٰ عَن مَّوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

يومئذ لا يُغني ناصر عن ناصر ولا حميم عن حميم، ولا نسيب عن نسيب..
شيئاً. ولا ينالهم نصر إلا من رَحِمَهُ اللهُ؛ وبفضله ونِعْمَتِهِ.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ سَجَرَتَ الرَّقْمِوِ طَعَامُ الْأَيْمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي
الْحَمِيمِ﴾.

«الأييم» مرتكب الذنوب. «المهل» المذاب. «الحميم»: الماء الحار.
قوله جل ذكره: ﴿خُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾.
ادفعوا به إلى وسط الحميم. ويقال له:
﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

أنت كذلك عند قومك، ولكنك عندنا ذليل مهين.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَابِرِ أَيْمِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ﴾.
أيمين من المحن من جميع الوجوه، لباسهم من حرير، وفراشهم من سندس
واستبرق^(١)، «متقابلين»: لا يبرحون ولا يبغون عنها جِوَالًا^(٢).
قوله جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾.

تباح لهم صُحْبَتُهُنَّ، ولا يكون في الجنة عقد تزويج ولا طلاق، ويمكن الولي
بهذه الأوصاف من هذه الألفاظ. ثم قد يُختطف قومٌ من بين هذه الأسباب،
فيتحررون عن هذه الجملة؛ فكما أنهم في الدنيا مُخْتَطَفُونَ عن كلِّ العلائق فإنهم في
الآخرة تطمع الحور العين في صحبتهم فيستلبهم الحق عن كلِّ شيء.
الزاهد في الدنيا يحميه منها، والعارف في الجنة يحميه من الجنة^(٣).
قوله جل ذكره: ﴿لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا أَلْمُوتَ إِلَّا أَلْمُوتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ
الْجَحِيمِ﴾.

الموتة الأولى هي بقبض أرواحهم في الدنيا، ويقيهم الله في الآخرة العذاب
بفضله، وذلك هو الظفرُ بالبغية، ونجاح السؤل^(٤).
قوله جل ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾.
يا محمد، ليتذكر به أهلُك، فارتقب العواقب ترَّ العجائب. إنهم يرتقبون، ولكن
لا يرون إلا ما يكرهون^(٥).

(١) السندس: ضرب من رقيق الديباج أو الحرير المنسوج الذي يتلون ألواناً والاستبرق: الديباج الغليظ
أو ثياب من حرير وذهب (مع).

(٢) الآية (٥٣) لم ترد. (٣) الآية (٥٥) لم ترد.

(٤) الآية (٥٧) لم ترد. (٥) الآية (٥٩) لم ترد.

سورة الجاثية

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» باسم مَلِكٍ لا يستظهر بجيشه، أحدٍ لا يستمسك بعيشه، جبار ارتدى بكبريائه، قهارٍ اتصف بعزِّ سنائه .

«بسم الله» باسم كريم صَمَدٍ، لا يستغرق وجوده أمد، أبدي عظيم أحد، لا يوجد من دونه مَقَرٌّ ولا ملتحذ .

قوله جل ذكره: ﴿حَمَّ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ .

﴿الْعَزِيزِ﴾ : في جلاله، ﴿الْحَكِيمِ﴾ : في أفعاله .

﴿الْعَزِيزِ﴾ : في آزاله، ﴿الْحَكِيمِ﴾ : في لطفه بالعبد بوصف إقباله .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

شواهد الربوبية لائحة، وأدلة الإلهية واضحة؛ فَمَنْ صحا من سكرة الغفلة، ووضع سيره في محال العبرة حَظِي - لا محالة - بحقائق الوصلة .

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

إذا أنعم العبدُ نَظَرَه في استواء قَدِّه وقامته، واستكمال عقله وتام تمييزه، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوادثه، ثم فكَّر فيما عداه من الدواب؛ في أجزائها وأعضائها . ثم وقف على اختصاص وامتياز بني آدم من بين البرية من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم، ثم في الإيمان والعرفان ووجوه خصائص أهل الصفة من هذه الطائفة في فنون الإحسان - عَرَفَ تخصُّصهم بمناقبهم، وانفرادهم بفضائلهم، فاستيقن أن الله كَرَّمهم، وعلى كثير من المخلوقات قدَّمهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَخْلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيْفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

جَعَلَ اللهُ العلومَ الدينية كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل، مُحَقَّقةً بالشواهد . فَمَنْ لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُه عن الصراط المستقيم، ووقع في عذاب الجحيم؛ فالיום في ظلمة الحيرة والتقليد، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد .

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلًا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَمَا أُبَيِّدُ بَعْدَ اللَّهِ وَمَا أُنزِلُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يُرْمُونَ﴾ .
 فَمَنْ لا يؤمن بها فبأي حديث يؤمن؟ ومن أي أصل يستمد بعده؟ ومن أي بحر
 في التحقيق يغترف؟ هيهات! ما بقي للإشكال في هذا مجال .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنزَّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَيِّنَةٌ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

كل صامت ناطق، يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم .
 فَمَنْ استمع بسمع الفهم، واستبصر بنور التوحيد فاز بذخر الدارين، وتصدى
 لِعِزِّ المنزّلين . وَمَنْ تصامم بحكم الغفلة وقع في وهدة الجهل، ووَسِمَ بكَيِّ الهَجْر .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُرُوًّا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .
 قابله بالعناد، وتأوله على ما يقع له من وجوه المراد من دون تصحيح
 بإسناد . . . فهو لاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ : مُذِلٌّ .

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفات لا يتداخله فيها ريب، ولا
 يتخالجه منها شك فيما هو به من حاله . . . فإذا استهان بها وقع في دُلِّ الحجة وهوان
 الفرقة .

قوله جل ذكره: ﴿مِن رَّوَابِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

ف عند هذه الفترة، وفي وقت هذه المحنة فلا عُذْر يُقْبَلُ منهم، ولا خطاب يُسْمَعُ
 عنهم، ولهم عذاب متصل، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف:

فَحَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بِعَدَاكَ لِلْبِكَا - فليس لأيام الصفاء رجوع^(١)

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنْفِقُوا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

عندما يركبون البحر فلربما تُسَلِّمُ السفينةُ ولربما تفرق .

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير، تمشي به رياح العناية،
 وأشرعة التوكل مرفوعة، والسُّبُلُ في بحر اليقين واضحة . وطالما تهب رياح السلامة
 فالسفينة ناجية . أمّا إن هبَّت نكباتِ الفتنة فعندئذ لا يبقى بيد الملاح شيء، والمقاديرُ
 غالبة، وسرعان ما تبلغ قلوبُ أهل السفينة الحناجر .

(١) الآية (١١) لم ترد .

قوله جل ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: كلُّ ما خَلَقَ من وجوه الانتفاع بها - كلُّه منه سبحانه؛ فما من شيءٍ من الأعيان الظاهرة إلا - ومن وجوه - للإنسان به انتفاع . . . وكلها منه سبحانه؛ فالسماء لهم بناء، والأرض لهم مهاد . . . إلى غير ذلك. ومن العَبْنِ أن يستسخرك ما هو مُسَخَّرٌ لك! وَلَيْتَأْمَلُ الْعَبْدُ كُلَّ شَيْءٍ . . . كيف إن كان خَلَلٌ في شيءٍ منها ماذا يمكن أن يكون؟! فلولا الشمس . . . كيف كان يمكن أن يتصرَّف في النهار؟ ولم لم يكن الليل كيف كان يسكن بالليل؟ ولو لم يكن القمر . . . كيف كان يهتدي إلى الحساب والآجال؟ . . . إلى غير ذلك من جميع المخلوقات.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

نَدَّبَهُم إلى حُسْنِ الخُلُقِ، وجميلِ العِشْرَةِ، والتجاوِزِ عن الجهل، والتنقي من كدورات البشرية. ومقتضياتِ الشُّحِّ.

وَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ - سبحانه - لا يفوته أحدٌ. فَمَنْ أراد أن يعرف كيف يحفظ أوليائه، وكيف يُدَمِّرُ أعداءه. فَلْيَصْبِرْ أَيَّامًا قلائِلَ لِيَعْلَمَ كيف صارت عواقبهم.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ﴾.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَله مَهْنَاهُ، ومن ارتكب سيئةً قاسى بلواه . . . ثم مرجعه إلى مولاه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾.

كُرِّرَ في غير موضع ذِكْرُ موسى وذَكَرَ بني إسرائيل . . . بعضه على الحملة وبعضه على التفصيل. وهنا أجمَلُ في هذا الموضع، ثم عقبه حديث نبينا ﷺ^(١)، فقال:

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أفردناك بلطائف فاعرفها، وسننًا لك طرائق فاسلُكها، وأثبتنا لك حقائق فلا تتجاوزها، ولا تجنح إلى متابعة غيرك:

(١) الآية (١٧) لم ترد.

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْتَنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ .

إن أراد بك نعمة فلا يمنعها أحد، وإن أراد بك فتنة فلا يصرفها عنك أحد. فلا تعلق بمخلوق فكرك، ولا تتوجه بضميرك إلى شيء، وثق بربك، وتوكل عليه .

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

أنوار البصيرة إذا تلالأت انكشفت دونها تهمة التجويز .

ونظر الناس على مراتب: فمن ناظر بنور نجومه - وهو صاحب عقل، ومن ناظر بنو فراسته وهو صاحب ظن يقويه لؤخ - ولكنه من وراء السر^(١)، ومن ناظر بيقين علم بحكم برهان وشروط فكير، ومن ناظر بعين إيمان بوصف اتباع، ومن ناظر بنور بصيرة هو على نهار، وشمسه طالعة وسماؤه من السحاب مصحبة .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخِيهِمْ وَمَمَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

أمن خفضناه في حضيض الضعة كمن رفعناه إلى أعالي المنعة؟

أمن أخذنا بيده ورحمناه كمن داسه الخذلان فرجمناه؟

أمن وهبناه بسط وقت وأنس حال وروح لطف حتى خصصناه ورقيناه، ثم قريناه وأذنيناه كمن ترك جذه واستفراغ وسعه وإسبال ذمعه واحترق قلبه . . فما أنعشناه^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ

وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَةَ﴾ .

من لم يسلك سبيل الاتباع، ولم يستوف أحكام الرياضة، ولم يتسلخ عن هواه بالكلية، ولم يؤذبه إمام مقتدى فهو ينجرف في كل وهدية، ويهيم في كل ضلالة، ويضل في كل فج، خسارته أكثر من ربحه!! أولئك في ضلال بعيد؛ يعملون القرب على ما يقع لهم من نشاط نفوسهم، زمامهم بيد هواهم، أولئك أهل المكر . . استدرجوا وما يشعرون!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيًّا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ

مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .

لم يعتبروا بما وجدوا عليه خلقهم وسلفهم، وأزجوا في البهيمية عيشهم

(١) انظر حايث القشيري عن الفراسة برسالة ص ٢٣١ - ٢٤١ .

(٢) الآية (٢٢) لم ترد .

وَعُمَّرَهُمْ، وَأَعْفُوا عَنْ كَدِّ الْفِكْرَةِ قُلُوبِهِمْ... فلا بالعلم استبصروا، ولا من التحقيق استمدوا. رأس ما ليهم الظن - وهم غافلون.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

طلبوا إحياء موتاهم، وسوف يرزقون ما استبعدوا.

ثم أخبر أن ملك السموات والأرض لله، وإذا أقام القيامة يُخشِرُ أصحابُ البطلان، فإذا جاءهم يومُ الخصام:

﴿وَرَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كل بحسابه مطالب... فأما الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا، وأما الذين كفروا فهلكوا وبادوا. . . ويقال لهم: أنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عقباكم كذبتُم مولاكم؟ فاليوم - كما نسيتمونا - نساكم، والنارُ مأواكم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لله الحمد على ما يُبدي ويُنشئ، ويحيي ويُفني، ويُجري ويُمضي... إذ الحكمُ لله، والكبرياء لله، والعظمة والسَّناء لله، والرفعة والبهاء لله.

(١) الآيات من (٢٩ حتى ٣٥) لم ترد.

سورة الأحقاف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة للقلوب سالبة، للعقول غالبية، للمطيعين واهبة، للعارفين ناهية.. فالذين يهبهم فلهم لطفه، والذين ينهبهم فمن محقه فهو عنه خلفه.

قوله جل ذكره: ﴿حَمَّ تَزِيلُ الْكَتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

حَمَيْتُ قلوب أهل عنايةي فَصَرَفْتُ عنها خواطرَ التجويز، وَثَبَّتُها في مشاهد اليقين بنور التحقيق؛ فلاحت فيها شواهد البرهان، فأضفنا إليها لطائف الإحسان؛ فكمَلْ منالها من عين الوصلة، وغذيناهام بنسيم الأتس في ساحات القرية.

﴿الْعَزِيزِ﴾: المعز للمؤمنين بإنزال الكتاب عليهم.

﴿الْعَلِيمِ﴾، المُخَيَّم لكتابه عن التبديل والتحويل.

قوله جل ذكره: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾.

الكافرون مُعْرِضُونَ عن موضع الإنذار، مقيمون على حد الإصرار.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنذِرُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْتَرَقَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أروني.. أي أثر فيهم في الملك، أو القدرة على النفع والضرر؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ فأظهروها، أو دلالة فبينوها.. وإذا قد عجزتم عن ذلك فهلاً رجعتم عن غيركم وأقلعتم؟

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَسْأَلْ مَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾.

من أشد ضللاً ممن عبد الجماد الذي ليس له حياة ولا له في النفع أو الضرر إثبات؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوة بين الأصنام وعبادتها.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

رموا رُسُلَنَا بالسُّحْرِ ثم بالافتراء والمكر . . . قُلْ - يا محمد - كفى بالله بيني وبينكم شهيداً؛ أنتم أشركتم به، وأنا أخلصت له توحيداً. وما كنت بدعاً من الرسل؛ فلست بأول رسول أُرسِل، ولا بغير ما جاءوا به من أصول التوحيد جئت، إنما أمرتكم بالإخلاص في التوحيد، والصدق في العبودية، والدعاء إلى محاسن الأخلاق^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِنِ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وفي الآية دليل على فساد قول أهل القَدَرِ والبدع حيث قالوا: «إيلام البري قبيح في العقل». لأنه لو لم يَجْزُ ذلك لكان يقول: أعلم - قطعاً - أنني رسول الله، وأني معصوم . . . فلا محالة يغفر لي، ولكنه قال: وما أدري ما يُفَعَّلُ بي ولا بكم؛ لِيُعْلَمَ أن الأمر أمره، والحكم حكمه، وله أن يفعل بعباده ما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

تبيّن له أنه لا عُذْرَ لهم بحال، ولا أمانَ لهم من عقوبة الله. وما يستروحون إليه من حُجَجِهِمْ عند أنفسهم كلها - في التحقيق - باطل. وأخبر أن الكفار قالوا: لو كان هذا الذي يقوله من الحشر والنشر حق لم تتقاصر رتبنا عند الله عن رتبة أحد، ولتقدّمنا - في الاستحقاق - على الكل. ولما لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرّحوا:

﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ .

ولقد بعث الله أنبياءه - عليهم السلام - وأنزل عليهم الكتب، وبيّن في كل كتاب، وعلى لسان كل رسول بأنه يبعث محمداً رسولاً، ولكن القوم الذين في عصر نبينا - ﷺ - كتموه، وحسدوه^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . مضى تفسير الاستقامة. وإن من خرج على الإيمان والاستقامة حظي بكل كرامة، ووصل إلى جزيل السلامة.

(٢) الآية (١٢) لم ترد.

(١) الآية (٨) لم ترد.

وقيل: السين في «الاستقامة» سين الطَّلَب؛ وإن المستقيم هو الذي يتهل إلى الله تعالى في أن يُقِيمَه على الحق، وَيُثَبِّتَه على الصدق^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

أَمَرَ الْإِنْسَانَ بِرعاية حقّ والديه على جهة الاحترام، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام، وإذا لم يُحَسِّنِ الْإِنْسَانُ حُرْمَةَ مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِهِ فَهُوَ عَنْ حُسْنِ مِرَاعَاةِ سَيِّدِهِ أَبْعَد. ولو لم يكن في هذا الباب إلا قوله - ﷺ: «رضا الرب من رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»^(٢) لكان ذلك كافياً. ورعاية حق الوالد من حيث الاحترام، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام. وَوَعَدَ اللَّهُ الْوَالِدِينَ قَبُولَ الطَّاعَةِ بِقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الْصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

فقبول الطاعة وغفران الزلّة مشروطان ببرّ الوالدين. وقد ذمّ الله - سبحانه - الذي يتصف في حقهما بالتأفّف، وفي ذلك تنبيه على ما وراء ذلك من أي تعنّف، وعلى أنّ الذي يسلك ذلك يكون من أهل الخسران، وبالتالي يكون ناقص الإيمان. وسبيل العبد في رعاية حق الوالدين أن يَصْلِحَ ما بينه وبين الله، فحينئذٍ يَصْلُحُ ما بينه وبين غيره - على العموم، وأهله - على الخصوص.

وشرّ خصال الولد في رعاية حق والديه أن يتبرّم بطول حياتهما، ويتأذى بما يحفظ من حقهما. وعن قريب يموت الأصل ويبقى النسل، ولا بدّ من أن يتبع النسل الأصل، وقد قالوا في هذا المعنى:

رويدك إن الدهرَ فيه كفايةً لتفريق ذات البين . . فانتظر الدهرا^(٣)

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُم طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمَعْتُمْ بِهَا فَأَيُّكُمْ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

سبيل العبد ألا ينسى في كل حالٍ معبوده، وأن يتذكّر أنه معه في همه وسروره،

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ١٨٩٩)، والحاكم في (المستدرک ١٥٢/٤)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١٣٦/٨)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٣٣٠)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٥٢٠/١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٨٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٣٢٢).

(٣) الآيات (١٧، ١٨، ١٩) لم ترد.

وفي مناجاته عند رخائه وبلائه. فإن اتفق أن حصل له أنس، وغلب عليه رجاء وبسط ثم هجم على قلبه قبض أو مسه خوف. . فليخاطب ربّه حتى لا يكون من جملة من قيل له: ﴿أَذَهَبَتْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذَكَّرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ^(١) وَقَدْ خَلَّتِ الشُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ كُنَّا عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أخبر^(٢) بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب، وتوجه عليهم من العتاب، وأخذهم باليم العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.

فلم يُعِنْ عنهم ما آتيناهم. . وانظروا كيف أهلكتناهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس. وإن قوماً أتوه ليلة الجن وآمنوا به، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم، وآمن قومٌ منهم؛ فاليوم في الجن مؤمنون، وفيهم كافرون.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ الصيحة على الباب وفوق البساط غيبة؛ ولهذا لما حضر الجن بساط خدمته - ﷺ - تواصوا فيما بينهم بحفظ الأدب، وقالوا لما حضروا بساطه: ﴿أَنْصِتُوا﴾، فاهل الحضور صفتهم الذبول والسكون، والهيبة والوقار. والثوران أو الانزعاج يدل على غيبة أو قلة تيقظ أو نقصان اطلاع. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ يعني الوحي ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ وأخبروهم بما رأوه وسمعوه^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّمَ مِنْ عَذَابِ آلِيبِ﴾.

يقال الإجابة على ضربين: إجابة لله، وإجابة للداعي؛ فإجابة الداعي بشهود الوساطة - وهو الرسول ﷺ - . وإجابة الله بالجهر إذا بلغت الرسالة على لسان السفير، وبالسر إذا حصلت التعريفات من الواردات على القلب؛ فمستجيب بنفسه ومستجيب

(١) الأحقاف (ج) الحقف: من الرمل المعوج. وقيل: الأحقاف: ديار عاد وقيل: واحدها حقف وهو المستطيل المشرف. وقيل: الأحقاف في القرآن: جبل محيط بالدنيا من زبرجدة خضراء تلتهم يوم القيامة فتحشر الناس من كل أفق. (اللسان ٥٢/٩ مادة: حقف).

(٢) الآيات من (٢٢ حتى ٢٨) لم ترد.

(٣) الآية (٣٠) لم ترد.

بقلبه ومستجيبٌ بروحه ومستجيبٌ بسرّه . ومن توقف عن دعاء الداعي إيّاه ، ولم يبادر بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخاطب به ^(١) .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَدِيلًا عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

الرؤية هنا بمعنى العلم .

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَدِيلًا﴾ أي ولم يعجز ولم يضعف .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ .

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة:

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ هَذَا بِآلِحَتِهِمْ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ .

جزاء لكم على كُفركم .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزِيمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء في التفسير أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ . وقيل: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل: منهم يعقوب وأيوب ويونس .

والصبرُ هو الوقوفُ لحُكم الله ، والثباتُ من غير بثٍ ولا استكراه .

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّكُمْ يَوْمَ يَوْمِهِ مَا يُوعَدُونَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

ويقال مُدَّةُ الخلقِ: من مبتدأ وقتهم إلى مُنتهى آجالهم بالإضافة إلى الأزلية كـلحظةٍ بل هي أقلُّ؛ إذ الأزلُ لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأي خَطَرٍ لما حصل في لحظةٍ . . خيراً كان أو شراً؟!

(١) الآية (٣٢) لم ترد .

سورة محمد ﷺ

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

من ذكر «بسم الله» جلت رتبته، ومن عرف «بسم الله» صفت حالته، ومن أحب «بسم الله» أشلكت قصته، ومن صحب «بسم الله» امتحنت أثبته، وتلاشت - بالكلية - جملته.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: امتنعوا، وصدوا فمنعوا؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحجة والغيبة.

﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾: أي أحبطها.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما نزل على محمد، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أصلح حالهم، فالكفر للأعمال منحبط، والإيمان للتخليد مُسقط.

ويقال: الذين اشتغلوا بطاعة الله، ولم يعملوا شيئاً ما خالف الله - فلا محالة - تقوم بكفاية اشتغالهم بالله.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾.

أي يضرب أمثال هؤلاء لحسانتهم، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم.

ويكون اتباع الحق بموافقة السنة، ورعاية حقوق الله، وإيثار رضاه، والقيام بطاعته ويكون اتباع الباطل بالابتداع، والعمل بالهوى، وإيثار الحظوظ، وارتكاب المعصية.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا لَقِيتَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَدْ أَرَأَيْتَ إِنْ تَرَكَتَهُمْ فَتَدَاوَى أَلْفًا مَنًا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءُ حَقِّ الْحَرْبِ أَرْزَاقًا﴾.

إذا حصل الظفر بالعدو فالعفو عنهم وترك المبالغة في التشديد عليهم - للندم موجب، وللفرصة تضييع؛ بل الواجب إزهاق نفوسهم، واستئصال أصولهم، واقتلاع شجرهم من أصله.

وكذلك العبدُ إذا ظفر بنفسه فلا ينبغي أن يُبقي بعد انتفاش شوكة بقية من الحياة، فَمَنْ وضع عليها إصبعا بَثَّتْ سُمُّها فيه .

﴿إِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ ذلك إذا رجا المسلمون في ذلك غبطة أو فائدة؛ مثل إفراج الكفار عن قوم من المسلمين، أو بسبب ما يؤخذ من الفداء . . وأمثال هذا، فحينئذٍ ذلك مُسَلَّمٌ على ما يراه الإمام .

كذلك حال المجاهدة مع النفس: حيث يكون في إغفاء ساعة أو في إفطار يوم ترويحٍ للنفس من الكدِّ، وتقوية على الجهد فيما يستقبل من الأمر - فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصواب من شيخ المرید، أو فتوى لسانِ الوقت، أو فِراسة صاحب المجاهدة .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن يُبَدِّلْ أَعْمَالُكُمْ سَيَبْدِيهِمْ وَيُصَلِّحْ بِالْمَلِّمْ وَيُدْخِلُهُمُ ابْنَتَهُ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ .

إذا قُتِلَ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ تَوَلَّى وَرَثَتُهُ الْمَقْتُولِ بِأَحْسَنَ مِنْ تَوَلِيَةِ الْمَقْتُولِ .
وكذلك يَرَفَعُ دَرَجَاتِهِ؛ فَيُعْظِمُ ثَوَابَهُ، وَيُكْرِمُ مَا بِهِ .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .
نصرة الله من العبد نصره دينة بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرة الله للعبد بإعلاء كلمته، وقمع أعداء الدين ببركات سعيه وهمته .
﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ بإدامة التوفيق لثلاث ينهزم من ضولة أعداء الدين .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ .

تعسا لهم: لعنا وطردنا، وقمنا وبعدنا!

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: هتَكَ أَسْرَارَهُمْ، وَأظْهَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَسْرَارَهُمْ، وَأَخْمَدَ نَارَهُمْ .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ .
وكيف أهلكهم وأبادهم وأقامهم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ .

المولى هنا بمعنى الناصر؛ فالله ناصر للذين آمنوا، وأما الكافرون فلا ناصر

لهم .

أو المولى من الموالاتة وهي ضد المعاداة، فيكون بمعنى المحب؛ فهو مولى الذين آمنوا أي مُجِبُّهم، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْطَّاغُوتُ﴾ [البقرة:

٢٥٧].

ويصح أن يقال إن هذه أرجى آية في القرآن؛ ذلك بأنه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: مولى الزهاد والعبياد وأصحاب الأوراد والاجتهاد؛ فالمؤمن - وإن كان عاصياً - من جملة الذين آمنوا، (لا سيما و «آمنوا» فعل، والفعل لا عموم له). قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

مضى الكلام في هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَمَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

الأنعام تأكل من أي موضع بلا تمييز، وكذلك الكافر لا تمييز له بين الحلال والحرام. [كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها؛ بل في كل وقت تقتات وتأكل، وكذلك الكافر، وفي الخبر: «إنه يأكل في سبعة أمعاء»^(١). أما المؤمن فيكتفي بالقليل كما في الخبر: «إن كان ولا بُد فثَلُثْ للطعام وثَلُثْ للشراب وثَلُثْ للنفس»^(٢) و «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»^(٣).

ويقال: الأنعام تأكل على الغفلة؛ فَمَنْ كان في حال أكله ناسياً ربّه فأكله كأكل الأنعام.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْنَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿أَهْلَكْنَهُمْ﴾: يعني بها مَنْ أهلكهم من القرون الماضية في الأعصر الخالية.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ يَبْنَؤٍ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

«البيّنة»: الضياء والحُجّة، والاستبصار بواضح المحجة؛ فالعلماء في ضياء برهانهم، والعارفون في ضياء بيانهم؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبصرون، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون.

(١) أخرجه الموطأ (صفة النبي ٩، ١٠)، وأحمد بن حنبل ٢/٢١، ٤٣، ٧٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه (أطعمة ٥٠)، والترمذي (زهد ٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٨٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/١٣٢)، والدارمي في (السنن ٢١٣)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٣٨٧)، والقاضي عياض في (الشفاء ١/١٨٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٢٨٨، ١٣/٢٤٨)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢٧٨)، وابن الجوزي في (تلييس إبليس ٢١٤).

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ .

كذلك اليوم شأن الأولياء، فلهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفاء، ثم شراب الولاء، ثم شراب حال اللقاء.

ولكل من هذه الأشربة عمل، ولصاحبه سكر وضحو؛ فمن تحسى شراب الوفاء لم ينظر إلى أحد في أيام غيبته من أحبابه:

وما سرَّ صدري منذ شطَّ بك النوى أنيس ولا كأس ولا متصرف
ومن شرب كأس الصفاء خلص له عن كل شوب، فلا كدورة في عهده، وهو في كل وقت صافٍ عن نفسه، خالٍ من مطالباته، قائم بلا شغل - في الدنيا والآخرة - ولا أرب.

ومن شرب كأس الولاء عديم فيه القرار، ولم يغيب بسرّه لحظة في ليل أو نهار. ومن شرب في حال اللقاء أنيس على الدوام ببقائه؛ فلم يطلب - مع بقاءه - شيئاً آخر من عطائه؛ لاستهلاكه في علائه عند سطوات كبريائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتَعَوَّاْ آهْوَاءَهُمْ﴾ .

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل الله؛ لِمَا فِيهِ مِنْ افْتِضَاجِهِمْ .

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

﴿اهْتَدَوْا﴾: بأنواع المجاهدات، «فزادهم هدى»: بأنوار المشاهدات.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بتأمل البرهان، «فزادهم هدى»: بزوح البيان.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بعلم اليقين، «فزادهم هدى»: بحق اليقين.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بأداب المناجاة، «فزادهم هدى»: بالنجاة ورفع الدرجات.

﴿اهْتَدَوْا﴾: إلى ما فيه من الحق ولم يختلفوا في أنه الحق، «فزادهم هدى»

بالاستقامة على طرق الحق.

قوله جل ذكره: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ فَاَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ .

كان عالماً بأنه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فأمره بالثبات عليها؛ قال (ص): «أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له»^(١).

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣١/٨، ١٢٠/٩)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/١٢٢، ١٨١)، والرافعي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/١٥٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٥١٣).

ويقال: كيف قيل له: ﴿... فَأَعْلَزَ﴾ ولم يقل: عَلِمْتُ، وإبراهيم قيل له: ﴿أَسَلِمْتُ﴾ [البقرة: ١٣١] فقال: «سلمت...»؟ فُجَابُ بَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا قَالَ: «اسلمت» ابْتَلِي، وَنَبِيْنَا ﷺ لَمْ يَقُلْ: عَلِمْتُ فَعُوفِي.

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَهُ شَرْعَ كَشَفَ سِرِّهِ، وَنَبِيْنَا ﷺ لَمْ يَأْتِ بَعْدَهُ شَرْعٌ. ويقال: نَبِيْنَا ﷺ أَخْبَرَ الْحَقُّ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] والإيمان هو العلم - وإخبارُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ عَنْهُ أَمُّ مَنْ إِخْبَارُهُ بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ: «عَلِمْتُ».

ويقال: فَرَّقَ بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَحْتَاجَ إِلَى زِيَادَةِ الْعِلْمِ فَأَحْيَلَ عَلَى الْخَضِرِ، وَنَبِيْنَا ﷺ قَالَ لَهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]... فكم بين مَنْ أَحْيَلَ فِي اسْتِزَادَةِ الْعِلْمِ عَلَى عَبْدٍ وَبَيْنَ مَنْ أَمَرَ بِاسْتِزَادَةِ الْعِلْمِ مِنَ الْحَقِّ!!

ويقال لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿فَأَعْلَزَ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ كان يأمره بالانقطاع إليه عن الْخَلْقِ، ثم بالانقطاع منه - أي من الرسول - إليه... أي إلى الحق سبحانه. والعبد إذا قال هذه الكلمة على سبيل العادة والغفلة عن الحقيقة - أي كان بصفة النسيان - فليس لقوله كثير قيمة؛ كأن تُقال عند التعجب من شيء... فليس لهذا قَدْرًا. أمَّا إذا قالها مخلصاً فيها، ذاكرةً لمعناها، متحققاً بحقيقتها... فإن كان بنفسه فهو في وطن التفرقة... وعندهم هذا من الشُّرْكِ الْخَفِيِّ، وإن قالها بحق فهو الإخلاص. فالعبد يعلم أولاً رَبَّهُ بِدَلِيلٍ وَحُجَّةٍ؛ فَعِلْمُهُ بِنَفْسِهِ كَسْبِيٌّ... وهو أصل الأصول، وعليه ينبنى كل علم استدلالِيٌّ! ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج، ويتناقص علمه بنفسه لَعَلَّاتٍ ذَكَرَ اللَّهُ عَلَى الْقَلْبِ. فإذا انتهى إلى حال المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ضَرْوِيًّا. وَيَقْلُ إِحْسَاسُهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ عِلْمُهُ بِنَفْسِهِ كَالِاسْتِدْلَالِيِّ وَكَأَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ نَاسٍ لِنَفْسِهِ.

ويقال: الذي على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة، حتى إذا غرق في البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك^(١).

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ﴾: أي إذا عَلِمْتَ أَنَّكَ عَلِمْتَ فَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ مِنْ هَذَا؛ فَإِنَّ الْحَقَّ - عَلَى جَلَالِ قَدْرِهِ - لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ.

(١) استفاد القشيري هنا من الدقائق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قال في رسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجود يوجب استفراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر، وترتيب هذا الأمر قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم جمود، وبمقدار الوجود يحصل الخمود. (الرسالة القشيرية ص ٦٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَقَوْلِ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِقِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ...﴾ .

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحي، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي بسرعة فقال تعالى: ﴿لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ رأيت المنافقين يكرهون ذلك لما كان يشق عليهم من القتال، فكانوا يفتضحون عندئذ، وكانوا ينظرون إلى النبي ﷺ - بغاية الكراهة.

﴿... فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ .

تهديد.

قوله جل ذكره: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ .

وهو قولهم: ﴿لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ...﴾ .

ويقال: فأولى لهم طاعة منهم لله ولرسوله. ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ بالإجابة لما أمروا به عن الجهاد.

ويقال: طاعة وقول معروف أمثل بهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ .

إذا عزم الأمر - أي جدّ وفرض القتال - فالصدق والإجابة خير لهم من كذبهم ونفاقهم وتقاعدهم من الجهاد.

قوله جل ذكره: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ .

أي فلعلكم إن أعرضتم عن الإيمان - بمحمد ﷺ - ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا في الأرض، وتسفكوا الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامكم، وتعودوا إلى جاهليتكم.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ .

أصمهم عن سماع الحق وقبوله بقلوبهم، وأعمى بصائرهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ .

أي إن تدبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان، وأراحهم من ظلمة التحير.

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾: أقفل الحق على قلوب الكفار فلا يداخلها زاجر التنبيه،

ولا ينبسط عليها شعاع العلم، فلا يحصل لهم فهم الخطاب؛ فالباب إذا كان مقفلاً... فكما لا يدخل فيه شيء لا يخرج منه شيء؛ كذلك قلوب الكفار مقفلة، فلا الكفر الذي فيها يخرج، ولا الإيمان الذي هم يدعون إليه يدخل في قلوبهم.

وأهل الشرك والكفر قد سُدتْ بصائرهم وغطيت أسرارهم، ولُبس عليهم وجه التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آزَدُوا عَلَيْ آذْبَرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾.

الذي يطلع فجر قلبه، ويتلألأ نور التوحيد فيه، ثم قبل متوع نهار إيمانه انكسفت شمس يومه، وأظلم نهار عرفانه، ودجا ليل شكه، وغابت نجوم عقله... فحدث عن ظلماته...! ولا حرج!

ذلك جزاؤهم على مما لأنهم مع المنافقين، وتظاهروهم... فإذا توفقتهم الملائكة تتصل آلامهم، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾.

ليس الأمر كما توهموه، بل الله يفضحهم ويكشف تليستهم، ولقد أخبر الرسول عنهم، وعرفه أعيانهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَمَعَاتِهِمْ لَسِيمُهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

أي في معنى الخطاب، فالأسيرة تدل على السريرة، وما يخامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره:

لست ممن ليس يدري ما هو ان من كرامة

إن للحب وللبغض على الوجه علامة

والمؤمن ينظر بنور الفراسة، والعارف ينظر بنور التحقيق، والموحد ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء.

ويقال: بصائر الصديقين غير مغطاة، قال رسول الله ﷺ: «سدوا كل خوخة غير خوخة أبي بكر»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْرِمِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَمْثَارَكُمْ﴾.

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال، فيظهر المخلص، ويفتضح الماذق، وينكشف المنافق، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا، والذين كفروا وناقوا وقعوا في الهوان وأذلوا، ووسموا بالشقاوة وقطعوا.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا ءَعْمَلَكُمْ﴾.

(١) الآيات (٢٦، ٢٧، ٢٨) لم ترد.

(٢) أخرجه ابن كثير في (البداية والنهاية ١٢/١٣٦).

﴿وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: بالرياء والإعجاب والملاحظة.
 ﴿وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: بالمساكنة إليها. ﴿وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بطلب الأعداء عليها.

﴿وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله (١).
 قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْرِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾.
 أي لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة.
 أنتم الأعلون بالنصرة. قوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾. أي بالنصرة ويقال: لا تضعفوا بقلوبكم، وقوموا بالله؛ لأنكم - والله معكم - لا يخفى عليه شيء منكم، فهو على الدوام يراكم. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ سَيِّدَهُ يَرَاهُ يَتَحَمَّلُ كُلَّ مُشْتَغَلٍ بِرُؤْيَيْهِ:
 ﴿وَلَنْ يَرْكُزَ أَعْمَالَكُمْ﴾.
 أي لا ينقصكم أجر أعمالكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا لِلصَّيْرَةِ الدُّنْيَا لَمَبٌ وَلَهُوَ وَان تَوَسُّوْا وَتَنَقُّوْا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.

تجنبوا الشُّركَ والمعاصي حتى يفيكم أجوركم.
 والله لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة.
 ﴿إِنْ يَسْتَلْكُمْ مِنْهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخُّؤًا وَيُخْرِجْ أَصْفَانَكُمْ﴾.

«الإحفاء» الإلحاح في المسألة... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نفسه، فأما الإخوان وَمَنْ عَلَتْ رَتْبُهُمْ فِي بَابِ حَرِيَةِ الْقَلْبِ فَلَا يُسَامِحُونَ فِي اسْتِيفَاءِ ذَرَّةٍ، وَيُطَالِبُونَ بِبَذْلِ الرُّوحِ، وَالتَّزَامِ الْغَرَامَاتِ.

قوله جل ذكره: ﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾.

البخلُ مَنعُ الواجب، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه. لأنه لو لم يفعل ذلك لَحَصَلَ لَهُ الثَّرَاءُ - هكذا يظن.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.

«غني» بنفسه على قول، وغني بوصفه على القول الثاني. وغناه كونه لا تنقيد مراداته. أمَّا البعدُ فهو فقيرٌ بنفسه؛ لأنه لا يستغني عن مولاه؛ في الابتداء منذ خلقه إلى الانتهاء، وهو في دوام الأوقات مفتقرٌ إلى مولاه.

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

والفَقِيرُ الصَادِقُ مَنْ يَشْهَدُ افْتِقَارَهُ إِلَى اللَّهِ . وَصِدْقُ الْفَقِيرِ فِي شَهَادَةِ فَقْرِهِ إِلَى اللَّهِ . وَمَنْ افْتَقَرَ إِلَى اللَّهِ اسْتَعْنَى بِاللَّهِ ، وَمَنْ افْتَقَرَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَقَعَ فِي الذُّلِّ وَالْهَوَانِ .

ويقال: اللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ طَاعَتِكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى رَحْمَتِهِ .

ويقال: اللَّهُ غَنِيٌّ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ لِأَنَّكُمْ لَا بَدِيلَ لَكُمْ عَنْهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ .

يستبدل قوماً غيركم يكونون أشدَّ منكم طاعةً ، وأصدق منكم وفاءً؛ فهو قادرٌ على خَلْقِ أَمْثَالِكُمْ ثم لا يكونون أمثالكم في العصيانِ والإعراضِ وتَرْكِ الشُّكْرِ والوفاءِ . . . بل سيكونون خيراً منكم .

سورة الفتح

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» تشير إلى سُمُوهُ في أَرْزَلِهِ، وَعُغْلُوهُ في أَبْدِهِ؛ وَسُمُوهُ في أَرْزَلِهِ نَفْيُ الْبِدَايَةِ عَنْهُ بِحَقِّ الْقِدَمِ، وَعُغْلُوهُ في أَبْدِهِ نَفْيُ الْإِنْتِهَاءِ عَنْهُ بِاسْتِحَالَةِ الْعَدَمِ؛ فَمَعْرِفَةُ سُمُوهُ تَوْجِبُ لِلْعَبْدِ سُمُوًّا، وَمَعْرِفَةُ عُغْلُوهُ تَوْجِبُ لِلْعَبْدِ عُغْلُوًّا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

قضينا لك قضاءً بَيِّنًا، وَحَكَمْنَا لَكَ بِتَقْوِيَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالنَّصْرَةَ عَلَى عَدُوِّكَ، وَأَكْرَمْنَاكَ بِفَتْحِ مَا انْغَلَقَ عَلَى قَلْبِ مَنْ هُوَ غَيْرُكَ - مِنْ قَبْلِكَ - بِتَفْصِيلِ شَرَايِعِ الْإِسْلَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَتُوحَاتِ قَلْبِهِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

نزلت الآية في فتح مكة، ويقال في فتح الحديبية^(١).

ويقال: هديناك إلى شرائع الإسلام، وَبَسَّرْنَا لَكَ أُمُورَ الدِّينِ.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

كلا القسمين - المتقدم والمتأخر - كان قبل النبوة.

ويقال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ من ذنب آدم بحزمتك، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: من ذنوب أمتك.

وإذا حُمِلَ على ترك الأوتى فقد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك، قبل النبوة وبعدها.

ولما نزلت هذه الآية قالوا: هنيئاً لك! فأنزل الله تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. . . ويقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكَ مِنْ سَمَاءٍ مَعِينًا﴾.

يتم نعمته عليك بالنبوة، وبوفاء العاقبة، وببسط الشريعة، وبشفاعته لأمته، وبرؤية الله غداً، وبإظهار دينه على الأديان، وبأنه سيد ولد آدم، وبأنه أقسم بحياته، وخصه بالعيان. وبسماع كلامه سبحانه ليلة المعراج، وبأن بعثه إلى سائر الأمم. . . وغير ذلك من مناقبه.

(١) الحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. (معجم البلدان ٢/٢٢٩).

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يثبتك على الصراط المستقيم، ويزيدك هدايةً على هداية، ويهدي بك الخلق إلى الحق.

ويقال: يهديك صراطاً مستقيماً بترك حظك.

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

لا ذلَّ فيه، وتكون غالباً لا يغلبك أحد:

ويقال: ينصرك على هواك ونفسك، وينصرك بحسن خلقك ومقاساة الأذى من قومك.

ويقال نصراً عزيزاً: مُعزراً لك ولمن آمن بك.

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوه من الأفضال أكرم بها نبيه - ﷺ - وخصه بها من الفتح والظفر على النفس والعدو، وتيسير ما انغلق على غيره، والمغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة. . . ولكل من هذه الأشياء خصائص عظيمة.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

السكينة ما يسكن إليه القلب من البصائر والحُجج، فيرتقي القلب بوجودها عن حدِّ الفكرة إلى رُوح اليقين وتلج الفؤاد، فتصير العلوم ضرورة. . . وهذا للخواص.

فأما عوام المسلمين فالمراد منها: السكون والطمأنينة واليقين.

ويقال: من أوصاف القلب في اليقين المعارف والبصائر والسكينة.

وفي التفاسير: السكينة ريح هفافة. وقالوا: لها وجه كوجه الإنسان. وقيل لها جناحان.

﴿لِيَزَادُوا إيمَانًا مَعَ إيمَانِهِمْ﴾.

أي يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم. تطلع أقمار عين اليقين على نجوم علم اليقين، ثم تطلع شمس حق اليقين على بدر عين اليقين.

﴿وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقيل: هي جميع القلوب الدالّة على وحدانية الله.

ويقال: مُلك السموات والأرض وما به من قوى تقهر أعداء اللّه.

ويقال: هم أنصار دينه.

ويقال: ما سلطه الحق على شيء فهو من جنوده، سواء سلطه على وليه في الشدة والرخاء، أو سلطه على عدوه في الراحة والبلاء.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُنزِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾.

يَسْتُرْ ذُنُوبَهُمْ وَيَحِطُّهَا عَنْهُمْ . . . وذلك فوزٌ عظيم ، وهو الظفرُ بالبغية .
 وسؤال كلِّ أحدٍ ومأمولُهُ ، ومُبْتَغَاهُ ومقصودُهُ مختلفٌ . . . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفْرًا به .
 قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ
 ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ .

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .
 و ﴿ ظَلَمَ السَّوْءَ ﴾ : هو ما كان بغير الإذن ؛ ظنوا أَنَّ الله لا ينصر دينه ونبيّه عليه السلام .

﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ : عاقبته تدور عليهم وتحقيق بهم .
 ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ : أبعدهم عن فضله ، وحققت فيهم كلمته ، وما سبقت لهم - من الله سبحانه - قِسْمَتُهُ ^(١) .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .
 ﴿ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ : على أُمَّتِكَ يوم القيامة . ويقال : شاهداً على الرُّسُلِ والكتب .

ويقال : شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا . ويقال : شاهداً لأمتك بتوحيدينا .
 ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ : لهم ميثاً بالشواب ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للخلق ؛ زاجراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات .

ويقال : شاهداً مِنْ قِبَلِنَا ، وَمُبَشِّرًا بأمرنا ، ونذيراً من لَدُنَّا ولنا وميثاً .
 قوله جلَّ ذكره : ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقِرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
 وَأَصِيلًا ﴾ .

قرىء : «ليؤمنوا» بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أي ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أي الرسول ، ويوقروه : أي : يُعَظِّمُوا الرسولَ . وتُسَبِّحُوهُ : أي تُسَبِّحُوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً ^(٢) .

وقرىء : «لتؤمنوا» - بالتاء - أيها المؤمنون بالله ورسوله وتُعزروه - على المخاطبة . وتعزيره يكون بإيثاره بكلِّ وجه على نفسك ، وتقديم حُكْمِهِ على حُكْمِكَ . وتوقيره يكون باتباع سُنتِهِ ، والعلم بأنه سيُذَبِّرُ يَتَهُ .

(١) الآية (٧) لم ترد .

(٢) البكرة : الغدوة وهي أول النهار إلى طلوع الشمس .

الأصيل : الوقت حين تصفر الشمس لمغربها .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمْرَةَ^(١).

وذلك أن رسول الله - ﷺ - بعث عثمان رضي الله عنه إلى قريش ليُكَلِّمَهُمْ

فأرجفوا بقتله. وأتى عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ وقال:

جئت بأوشاب الناس لتنفض بيضتك بيدك، وقد استعدت قريش لقتالك، وكأني

بأصحابك قد انكشفوا عنك إذا مسهم حر السلاح! فقال أبو بكر: أنظن أنا نسلم

رسول الله ﷺ؟

فبايعهم النبي ﷺ على أن يُقاتلوا وألا يهربوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾: أي عقدك عليهم هو عقد الله.

قوله جل ذكره: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي ﴿يَدُ اللَّهِ﴾: في المنة عليهم بالتوفيق والهداية: ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالوفاء حين

بايعوك.

ويقال: قدرة الله وقوته في نصرته دينه ونصرة نبيه ﷺ فوق نصرهم لدين الله

ولرسوله.

وفي هذه الآية تصريح بعين الجمع كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾.

أي عذاب النكث عائد عليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً.

وإذا كان العبد بوصف إخلاصه، يعامل الله في شيء هو به متحقق، وله بقلبه

شاهد فإن الوسائط التي تظهرها أمارات التعريفات تجعله محوياً في أسرارِهِ. . والحكم

عندئذ راجع.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

لما قصد رسول الله ﷺ التوجه إلى الحديبية تخلف قوم من الأعراب عنه. قيل: هم

أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع، وقالوا: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وليس لنا من يقوم

(١) السمرة: هي الشجرة (شجرة طلع) التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية. (اللسان ٤/ ٣٧٩

مادة: سمر).

بشأننا وقالوا: انتظروا ماذا يكون؛ فما هم من قريش إلا أكله رأس. فلما رجع رسول الله ﷺ جاءوه مُتَعَذِّرين بأنه لم يكن لهم أحد يقوم بأمرهم! وقالوا: استغفر لنا.

فأطلعه الله - سبحانه - على كذبهم ونفاقهم؛ وأنهم لا يقولون ذلك إخلاصاً، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

فَضَحَهُمْ. ويقال: ما شغل العبد عن الله شؤم عليه.

ويقال: عذُرُ المماذِقِ وتوبةُ المنافِقِ كلاهما ليس حقائق.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ آلِهِمْ أَبَدًا وَرُبِمَا ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظُرُقَ السَّوَاءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

حسبتم أن لن يرجع الرسول والمؤمنون من هذه السفارة إلى أهلهم أبداً، وزئنت لكم الأمانى ألا يعودوا، وأن الله لن ينصرهم. ﴿وَكَُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين فاسدين.

ويقال: إنَّ العدو إذا لم يقدر أن يكيده بيده يتمنى ما تنقاصر عنه مُكْنَتُهُ، وتلك صفة كل عاجز، ونعت كل لئيم. ثم إن الله - سبحانه - يعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

ويقال: من العقوبات الشديدة التي يعاقب الله بها المُبْطِل أن يتصور شيئاً يتمناه ويوطن نفسه عليه لفرط جهله. ويلقى الحق في قلبه ذلك التمني حتى تسول له نفسه أن ذلك كالكائن... ثم يعذبه الله بامتناعه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وما هو آتٍ فقريب... وإن الله ليرخي عنان الظلمة ثم لا يفلتون من عقابه. وكيف - وفي الحقيقة - ما يحصل منهم هو الذي يجريه عليهم؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمَا يَشَاءُ وَإِنَّهُ يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

يغفر - وليس له شريك يقول له: لا تفعل، ويعذب من يشاء - وليس هناك مانع عن فعله يقول له: لا تفعل.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَفَازٍ إِتَّخَذُوهَا دُرُوعًا وَنَبَعَكُم يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾.

وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم الله خبيراً، وأن فيها سيظفر بأعدائه، فلما هم بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا في ذلك من الغنيمة، فقال النبي ﷺ: «إنما يخرج معي إلى خبير من خرج إلى الحديبية، والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا».

فقال المتخلفون: إنما يقول المؤمنون ذلك حسداً لنا؛ وليس هذا من قول الله! فأنزل الله تعالى ذلك لتكذيبهم، وليبين حكمه ألا يستصحبهم فهم أهل طمع، وكانت عاقبتهم أنهم لم يجدوا مرادهم وزدوا بالمذلة وافتضح أمرهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ آوَىٰ بِأَسِيْدٍ فُقِيلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ طَبَعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلَنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُم عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

جاء في التفاسير أنهم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة^(١) - وقد دعاهم أبو بكر وحاربه، فالآية تدل على إمامته. . وقيل هم أهل فارس - وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربه؛ فالآية تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبي بكر. ﴿أولى بأس شديداً﴾ أولى شدة. فإن أطمعتم استوجبتم الثواب، وإن تخلفتم استحققتهم العقاب. ودلت الآية على أنه يجوز أن تكون للعبد بداية غير مرضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح - كما كان لهؤلاء وأنشدوا:

إذا فسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه فرج له عَوْدَ الصلاح . . لعلَّه

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَؤَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

هؤلاء أصحاب الأعدار. . رفع عنهم الحرج في تخلفهم عن الوقعة في قتال المشركين.

وكذلك من كان له عذر في المجاهدة مع النفس. «فإن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يحب أن تؤتى عزائمه»^(٢).

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٢٢٦/٧، وفي الكامل لابن الأثير ١٣٧/٢ - ١٤٠، وفي شذرات الذهب ٢٣/١، وفي الروض الأنف ٣٤٠/٢.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المستد ١٠٨/٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٤٠/٣)، والهيتمي في (موارد الظمآن ٥٤٥، ٩١٣، ٩١٤)، والألباني في (إرواه الغليل ٩/٣)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١٦٢/٣)، وابن خزيمة في (الصحيح ٩٥٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١٠١/٢، ١٠٦/٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١٣٥/٢)، وابن كثير في (التفسير ٢٦/٣)، والسيوطي في (الدر المنثور ١٩٣/١)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٢٨٩/٢) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣٤٧/١٠)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٨، ٥١٩٩، ٥٢٠٠) والمفتي الهندي في (كنز=

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

هذا بيعة الرضوان، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ... الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة. وكانوا قصدوا دخول مكة، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صائدين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب، فقصده المشركون، ثم صالحوه على أن ينصرف هذا العام، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً)^(١) وكان النبي قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشر بذلك أصحابه، فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شيء، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمة حتى قال الصديق: لم يقل العام! فسكنت قلوبهم بنزول الآية؛ لأن الله سبحانه علم في قلوبهم من الاضطراب والتشكك. فأنزل السكينة في قلوبهم، وثبتهم باليقين. ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر بعد مدة يسيرة، وما حصلوا عليه من مغنم كثيرة من خيبر. وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة.

وفي الآية دليل على أنه قد تخطر ببال الإنسان خواطر مشككة، وفي الريب موقعة، ولكن لا عبرة بها؛ فإن الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيد قلبه، وقارن التحقيق سره فلا يضره كيد الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

﴿وَعَدَّكَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوتَهَا﴾ ويدخل في ذلك جميع ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجل لكم هذه - يعني خيبر، وقيل: الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ لما خرجوا من المدينة حرسهم الله، وحفظ عيالهم، وحمى بيضتهم حين هب اليهود في المدينة بعد خروج المسلمين، فمنعهم الله عنهم.

أو يقال: كف أيدي الناس من أهل الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ .

لتكون هذه آية للمؤمنين وعلامة يستدلون بها على حراسة الله لهم.

= العمال ٥٣٣٤، ٥٣٣٥، ٥٣٧٢، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخریج أحاديث الكشاف ١٣٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٥/١٧١٨، ٦/٢٣٦٣) والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٩٤)، والشهاب في (المستند ١٠٧٨، ١٠٧٩).

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيهما السياق.

﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: في التوكل على الله والثقة به .

ويقال: كف أيدي الناس عن العبد هو أن يزرُقَه من حيث لا يحتسب، لئلا يحتاج إلى أن يتكفَّف الناس .

ويقال: أن يزرُقَ عنه أيدي الظلِّمة .

ويقال: ألا تحمله المطالبة بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه؛ فيأخذ من الأشياء - برخصة التأويل - ما ليس بطيب .

قوله جل ذكره: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .

قيل: فتح الروم وفارس . وقيل: فتح مكة .

وكان الله على كل شيء قديرًا: فلا تعلقوا بغيره قلوبكم .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْنُرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِثْرًا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

يعني: خير وأسد وغطفان وغيرهم - لو قاتلوكم لانهزموا، ولا يجدون من دون الله ناصرًا .

قوله جل ذكره: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ .

أي سُنَّةَ اللَّهِ خذلائهم ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ .

قيل إن سبعين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل الله هذه الآية في شأنهم .

وقيل أخذ اثني عشر رجلاً من المشركين - بلا عهد - فمن عليهم الرسول ﷺ وقيل: هم أهل الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين، وحصل ترامي الأحجار بينهم؛ فاضطرهم المسلمون إلى بيوتهم، فأنزل الله هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا من عجز؛ فأما الكفار فكفوا أيديهم رُغْباً وخوفاً؛ وأما المسلمون فنهيهم من قبيل الله، لما في أصلابهم من المؤمنين - أراد الله أن يخرجوا، أو لِمَا عَلِمَ أن قوماً منهم يؤمنون .

والإشارة فيه: أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يسلم الناس منك، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك، فلا من أحد عليهم خيف، ولا منهم على أحد

حيث ولا حساب ولا مطالبة ولا صلح ولا معاتبه، ولا صداقة ولا عداوة. وكذا من كان بالحق - وأنشدوا:

فلم يبق لي وقتٌ لذكرِ مُخَالِفٍ ولم يبق لي قلبٌ لذكرِ موافقٍ
قوله جل ذكره: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّةٌ﴾.

﴿كَفَرُوا﴾ وجحدوا، ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديدية.
﴿وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا﴾: أي منعوا الهدْيَ أن يبلغَ مَنْحَرَهُ، فمعكوفاً حالٌ من الهدْيِ أي محبوساً.

وكان النبي ﷺ قد ساق تلك السُّنَّةَ سبعينَ بَدَنَةً.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعَلَّمُوهُمُ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

لو تسلطنتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرة منكم بغير علم لسلطنناكم عليهم ولاظفرناكم بهم. وفي هذا تعريف للعبد بأن أموراً قد تنغلق وتتعسر فيضيق قلب الإنسان.. والله في ذلك سيرٌ، ولا يعدم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري.. كما قالوا:

كم مرة حُفَّت بك المكاره خير لك اللُّهُ.. وأنت كاره
قوله جل ذكره: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

يعني الأنفة؛ أي دَفَعْتَهُمْ أَنْفَهُ الْجَاهِلِيَّةَ أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديدية، فأنزل اللُّهُ سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالجلُم.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي كلمة التوحيد تُضَدُّ عن قلبٍ صادق: فكلمة التقوى يكون معها الاتقاء من الشُّرك.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ حسب سابق حُكْمِهِ وقديم علمه.. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

ويقال: الإلزامُ في الآية هو إلزامُ إكرامٍ ولطف، لا الإلزامُ إكراهٍ وعُنفٍ؛ والإلزامُ بَرٌّ لا إلزامٌ جبر..

وكم باسطين إلى وذلنا أكفهمو.. لم ينالوا نصيبا!

ويقال كلمة التقوى: التواصي بينهم بحفظ حق الله.

ويقال: هي أن تكون لك حاجة فتسأل الله ولا تُبديها للناس.

ويقال: هي سؤالك من الله أن يحرسك من المطامع.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه؛ صدقه فيما أراه من دخول مكة ﴿ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأخبر أصحابه. فوطن أصحابه نفوسهم على دخول مكة في تلك السنة. فلما كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء، حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دخولهم في هذا العام، ثم أذن الله في العام القابل، فأنزل الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فكان ذلك تحقيقاً لما أراه، فرؤياه صلوات الله حق؛ لأن رؤيا الأنبياء حق.

وكان في ذلك نوع امتحانٍ لهم: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أنتم من الحكمة في التأخير.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ معناه إذ شاء الله كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقيل قالها على جهة تبيههم إلى التأذّب بتقديم المشيئة في خطابهم.

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى: إن شاء الله آمين أو غير آمين.

وقيل: يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلهم أو دخول بعضهم؛ فإنّ الدخول كان بعد سنة، ومات منهم قوم.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أرسل رسوله محمداً ﷺ بالدين الحنفي، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين؛ فما من دين لقوم إلا ومنه في أيدي المسلمين سير؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات.

وقيل: ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام.

وقيل: في القيامة حيث يظهر الإسلام على كل الأديان.

وقيل: ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل.

قوله جل ذكره: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿أَشِدَّاءُ﴾ جمع شديد، أي فيهم صلابة مع الكفار.

﴿رُحَمَاءَ﴾ جمع رحيم، وصفهم بالرحمة والتواد فيما بينهم.

﴿تَرَبَّئَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان.

﴿بِسَبَأِهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

أي علامة التخشع التي على الصالحين.

ويقال: هي في القيامة يوم تبيض وجوه، وأنهم يكونون غداً محجلين.

وقد قال ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»^(١).

ويقال في التفسير: «معه» أبو بكر، و ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر؛ و ﴿رُحَمَاءَ

بَيْنَهُمْ﴾. عثمان، و ﴿تَرَبَّئَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ علي رضي الله عنهم.

وقيل: الآية عامة في المؤمنين.

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّورَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى

سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

هذا مثلهم في التوراة، وأما مثلهم في الإنجيل فكزراع أخرج شطأه أي: فراخه.

يقال: أشطأ الزرع إذا أخرج صغاره على جوانبه. ﴿فَأَزَرَهُ﴾ أي عاونه.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي غلظ واستوى على سوقه؛ وأزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه

مع بعض. يعجب هذا الزرع الزرع ليعيظ بالمسلمين الكفار؛ شبه النبي ﷺ بالزرع

حين تخرج طاقة واحدة ما ينبت حولها فتشدد، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن

حوله من المسلمين.

فَمَنْ حَمَلِ الْآيَةَ عَلَى الصَّحَابَةِ: فمن أبغضهم دخل في الكفر، لأنه قال:

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي بأصحابه الكفار. ومن حملة على المسلمين ففيه حجة على

الإجماع، لأن من خالف الإجماع - فالله يغايظ به الكفار - فمخالف الإجماع كافر.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة للذنوب، وأجرًا عظيمًا في الجنة فقول: «منهم»

للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان.

(١) أخرجه ابن ماجه (إقامة ١٧٤).

سورة الحجرات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» اسم كريم من تنصل إليه من زلاته تفضل عليه بنجاته، ومن توسل إليه بطاعته تطول عليه بدرجاته .

«بسم الله» اسم عزيز من تقرب إليه بمناجاته قابله بلطف أفضاله، ومن تحبب إليه بإيمانه أقبل عليه بكشف جلاله وجماله .

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَأَنفَرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ : شهادة للمنادى بالشرف .

﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ أمر بتحمل الكلف . قدم الإكرام بالشرف على الإلزام بالكلف أي لا تقدموا بحكمكم ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ : أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله أي لا تعملوا من ذات أنفسكم شيئاً .

ويقال: قفوا حيثما وقفتهم، وافعلوا ما به أمرتهم، وكونوا أصحاب الاقتداء والاتباع . . لا أرباب الابتداء والابتداع .

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ .

أمرهم بحفظ حرمة، ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، وألا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخلقه يلاينهم فينبغي ألا يتبسطوا معه متجاسرين، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به من تخلفه عن حدودهم زائدين .

ويقال: لا تبدأوه بحديث حتى يفاتحكم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

هم الذين تقع السكينة عليهم من هيبة حضرته، أولئك هم الذين امتحن الله قلوبهم للنفقوى بانتزاع حُب الشهوات منها، فاتقوا سوء الأخلاق، وراعوا الأدب .

ويقال: هم الذين انسلخوا من عادات البشرية.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي لو عرفوا قَدْرَكَ لَمَا تَرَكَوا حُرْمَتَكَ، والتزموا هَيْبَتَكَ.
ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيراً لهم.

أمَّا أصحابه - صلواتُ الله عليه وسلامه - الذين يعرفون قدره فإنَّ أحدهم - كما في الخبر: «كأنه يقرعُ بابه بالأظافر».

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَنَسِيَئُوا أَنْ يُصَيِّبُوا قَوْمًا يَجَاهِلُونَ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

دلَّت الآية على تَرْكِ السكونِ إلى خَيْرِ الفاسقِ إلى أن يظهر صِدْقُهُ.

وفي الآية إشارة إلى تَرْكِ الاستماعِ إلى كلامِ الساعي والثَّمَامِ والمغتابِ للناس.

والآية تُدَلُّ على قبولِ خيرِ الواحدِ إذا كان عدلاً.

والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة^(١). ويقال هو الخارجُ عن حدِّ المروءة.

ويقال: هو الذي ألقى جِلْبَابَ الحياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنَنِمُّ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنُ وَرَزَقَكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾.

أي لو وافقكم محمدٌ رسولُ الله ﷺ في كثير مما تطلبون منه لوقعتم في العنتِ^(٢) - وهو الفساد. ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأصابتكم من ذلك شدة.

والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم في أكثر الأمور إذا لم يرَ في ذلك مصلحة لكم وللدِين.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنُ﴾: الإسلام والطاعة والتوحيد، وزَيَّنَّهَا في قلوبكم.

(١) مشتق من فسقت الرطبة من قشرها، وكان الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من حجرها على الناس. (لسان العرب ٣٠٨/١٠ مادة: فسق).

(٢) العنت: دخول المشقة على الإنسان، ولقاء الشدة. وقيل: العنت: الفجور والزنا وقيل: الجور والإثم والأذى. (لسان العرب ٦١/٢، ٦٢ مادة: عنت).

﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْمِصْيَانَ﴾: هذا من تلوين الخطاب .

وفي الآية دليل على صحة قول أهل الحق في القدر، وتخصيص المؤمنين بالطاف لا يشترك فيها الكفار . ولولا أنه يوفّر الدواعي للطاعات لَحَصَلَ التفریط والتقصير في العبادات .

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: أي فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ائْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

تدل الآية على أن المؤمن بنفسه - والفسق دون الكفر - لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين - لا سحالة - فاسقة إذا اقتتلا .

وتدل الآية على وجوب نصره المظلوم؛ حيث قال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ .

والإشارة فيه: أن النفس إذا ظَلَمَت القلب بدعائه إلى شهواتها، واشتغالها في فسادها فيجب أن يقاتلها حتى تشخن بالجراحة بسيف المجاهدة . فإن استجابت إلى الطاعة يُعْفَى عنها لأنها هي المطيئة إلى باب الله .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَأَقْبُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

إيقاع الصلح بين المتخاصمين من أوكد عزائم الدين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وَزْرِ الواشي والثام؛ والمضدر في إفساد ذات البين .

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صدق همة عبده في إصلاح ذات البين) فإنه يرفع عنهم تلك العصبية .

فأما شرط الأخوة: فَمِنْ حَقِّ الْأَخْوَةِ فِي الدِّينِ أَلَّا تُخَوِّجَ أَخَاكَ إِلَى الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك، وألا تُقْصِرَ فِي تَقْضِي أَحْوَالِهِ بِحَيْثُ يَشْكُلُ عَلَيْكَ مَوْضِعُ حَاجَتِهِ فيحتاج إلى مساءلتك .

ومن حقه ألا تُلْجِئَهُ إِلَى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَهُ؛ فَإِن أَشْكَلَ عَلَيْكَ وَجْهَهُ عُذْتُ بِاللَّائِمَةِ عَلَى نَفْسِكَ فِي خِفَاءِ عُذْرِهِ عَلَيْكَ وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَتُوبَ عَنْهُ إِذَا أَذْنَبَ، وَتَعُودَهُ إِذَا مَرَضَ . وَإِذَا أَشَارَ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ فَلَا تُطَالِبُهُ بِالدَّلِيلِ عَلَيْهِ وَإِبْرَازِ الْحُجَّةِ - كما قالوا:

إِذَا اسْتَشْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيَّةِ حَزْبٍ أَمْ لِأَيِّ مَكَانٍ

وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَحْفَظَ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ، وَأَنْ تُرَاعِيَ حَقَّهُ فِي أَهْلِهِ الْمُتَصِلِينَ بِهِ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَفِي حَالِ الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ - كَمَا قِيلَ:

وخليل إن لم يكن منصفاً كنت منصفاً
تتحنسى له الأمر ين وكُن ملاطفا
إن يَقل لك استوَ احترف ست رضى لا تكلُفا

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَخْرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَمَّوْ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَمَّوْ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسَسَ إِلَانِمَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

نهى الله - سبحانه وتعالى - عن ازدراء الناس، وعن العيبية، وعن الاستهانة بالحقوق، وعن ترك الاحترام.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ : أي لا يعيبن بعضكم بعضاً، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

ويقال: ما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلطَ عليه. ولا ينبغي أن يُعتَبَر بظاهر أحوال الناس فإن في الزوايا خبايا. والحق يستر أولياءه في حجاب الضعة^(١)؛ وقد جاء في الخبر:

«رُبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرُ ذِي طَمْرِينٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمُ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ .

النفس لا تصدق، والقلب لا يكذب. والتميز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ وَمَنْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ مِنْ حَظْوْظِهِ بَقِيَّةٌ - وَإِنْ قَلَّتْ - فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَدَّعِي بِيَانِ الْقَلْبِ بِلِ هُوَ بِنَفْسِهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَجِبُ أَنْ يَتَّهَمَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ مَا يَقَعُ لَهُ مِنْ نَقْصَانٍ غَيْرِهِ. . هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يخطب. «كلُّ الناس أفتة من عمر. . امرأة أفتة من عمر».

﴿وَلَا يَجَسَّسُوا﴾ . والعارف لا يتفرغ من شهود الحق إلى شهود الخلق. . فكيف

(١) الضعة: خلاف الرقعة في القدر. (لسان العرب ٣٩٧/٨ مادة: وضع).

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٢٣٤، ٢٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣/٢٠٣).

يتفرغ إلى تجسس أحوالهم؟ وهو لا يتفرغ إلى نفسه فكيف إلى غيره؟ ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَمَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾: لا تحصل الغيبة للخلق إلا من الغيبة عن الحق.

﴿أَيُّجُبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية. وأحس الكفار وأقلهم قدرًا من يأكل الميتة.. وعزيز رؤية من لا يعتاب أحداً بين يديك.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

إننا خلقناكم أجمعكم من آدم وحواء، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا لا لتكاثروا ولا لتنافسوا. فإذا كانت الأصول تربة ونطفة وعلقة.. فالتفاخر بماذا؟ أبا لحماً المسنون؟^(١) أم بالنطفة في قرار مكين؟ أم بما ينطوي عليه ظاهره مما تعرفه؟! وقد قيل:

إِنْ آثَارَنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ

أم بأفعالك التي هي بالرياء مشوبة؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة؟ أم بمعاملاتك التي هي ملأى بالخيانة؟

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؟ اتقاكم أي أبعدكم عن نفسه، فالتقوى هي التحرر من النفس وأطماعها وحظوظها. فأكرم العباد عند الله من كان أبعد عن نفسه وأقرب إلى الله تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلْنَاكُمْ

الإيمان هو حياة القلب، والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفس، والنفوس لا تموت ولكنها تغيب، ومع حضورها لا يتم خير، والاستسلام في الظاهر إسلام. وليس كل من استسلم ظاهراً مخلص في سره.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

في هذا دليل على أن محل الإيمان القلب. كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] ومرض القلب والإيمان ضدان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

جعل الله الإيمان مشروطاً بخصال ذكرها، ونص عليها بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي

(١) الحمأة والحمأ: الطين الأسود المتزن. (لسان العرب ١/ ٦١ مادة: حمأ).

للتحقيق الذي يقتضي طَرْدَ الْعَكْسِ؛ فَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذِهِ الشَّرَاطِطِ الَّتِي جَعَلَهَا لِلْإِيمَانِ فَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ قَوْلُهُ .

وَالْإِيمَانُ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ الْأَمَانَ، فَمَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ مُوجِباً لِلْأَمَانِ فَصَاحِبُهُ بغيره أَوْلَى .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

تدل الآية على أَنَّ الوقوف في المسائل الدينية يُعْتَبَرُ واجباً؛ فالأسامي منه تُؤخَذُ، والأحكامُ منه تُطَلَّبُ، وأوامره مُتَّبَعَةٌ .

قوله جل ذكره: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

مَنْ لَاحِظٌ شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّ رَأْيَهُ مِنْ نَفْسِهِ كَانَ شِرْكَاً، وَإِنْ رَأَى لِنَفْسِهِ كَانَ مَكْرَماً فَكَيْفَ يَمُنُّ الْعَبْدُ بِمَا هُوَ شِرْكَ أَوْ بِمَا هُوَ مَكْرَمٌ؟!

والذي يجب عليه قبول المِنَّةِ . . كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّةً؟! هذا لعمري فضيحة! بل المِنَّةُ لله؛ فهو وليُّ النعمة . ولا تكون المِنَّةُ مِنَّةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً في حاله، فأما إذا كان معلولاً في صفة من صفاته فهي محنةٌ لصاحبها لا مِنَّةً .

والمِنَّةُ تُكَدَّرُ الصَّنِيعَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَكِنْ بِالْمِنَّةِ تَطْيِبُ النِّعْمَةُ إِذَا كَانَتْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

وَمَنْ وَقَفَ هَاهُنَا تَكَدَّرَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ؛ إِذْ لَيْسَ يَدْرِي مَا غَيْبُهُ فِيهِ، وَفِي مَعْنَى هَذَا قَوْلُ الْقَائِلِ:

أبكي . . وهل تدرين ما يبكييني؟
أبكي حذاراً أن تفارقيني
وتقطعني وِضلي وتهجريني

سورة ق

«بسم الله» اسم جَبَرِ أحوالٍ مَنْ رَحِمَهُ، متَجَبَّرٌ بكبريائه على من أقماه فَقَهَرَهُ
وَحَرَمَهُ .

«بسم الله» لطيفٌ يعلم خفايا تصنعُ العابدين، غافرٌ لجلائلِ ذنوبِ العاصين .
قوله جلّ ذكره: ﴿قَبَّ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ .

قَ مفتاح أسمائه: «قوي وقادر وقدير وقريب» . . أقسم بهذه الأسماء وبالقرآن
المجيد .

وجوابُ القَسَمِ محذوفٌ ومعناه لَتُبْعَثُنَّ في القيامة .

ويقال جوابه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي لقد علمنا . .
وحذفت اللام لما تطاول الخطاب .

ويقال: جوابه قوله: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ .

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ .
﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾: هو محمد ﷺ .

والتعجبُ نوعٌ من تعبيرِ النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارجِ العادة لم يقع به عِلْمٌ
من قَبْلِ . وقد مضى القولُ في إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك:

﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ .

أي يَبْعُدُ عندنا أَنْ تُبْعَثَ بعد ما مِتْنَا . فقال جلّ ذكره:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ .

في هذا تسليةٌ للبعيد فإنه إذا وُسِدَ التراب، وانصرف عنه الأصحاب، واضطرب
لوفاته الأحباب . فَمَنْ يَتَفَقَّهُهُ وَمَنْ يَتَعَهَّدُهُ . . . وهو في شفير قبره، وليس لهم منه
شيءٌ سوى ذكره، ولا أحدٌ منهم يدري ما الذي يقاسيه المسكين في حُفْرَتِهِ؟ فيقول
الحقُّ - سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ ولعله يخبر الملائكة قائلاً: عَبْدِي الذي أَخْرَجْتَهُ من دنياه
- ماذا بقي بينه مَنْ يهواه؟ هذه أجزاؤه قد تَفَرَّقَتْ، وهذه عِظَامُهُ بَلِيَّتْ، وهذه أعضاؤه
قد تَفَقَّتَتْ!

﴿وَعِدْنَا كِتَابَ حَفِظْ﴾: وهو اللوح المحفوظ؛ أثبتنا فيه تفصيل أحوال الخلق من غير نسيان، وبيئنا فيه كل ما يحتاج العبد إلى تذكره.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

﴿مَرِيجٌ﴾ أي مختلط ومُلتبس؛ فهم يترددون في ظلمات تحيّرهم، ويضطربون في شكهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

أو لم يعتبروا؟ أو لم يستدلوا بما رفعنا فوقهم من السماء، رفعنا سَمَكها فسوّيناهما، وأثبتنا فيها الكواكب وبها زيناها، وأذنا فيها شمسها وقمرها؟ أو لم يروا كيف جَسَسنا عَينها ونوَعنا أُنزها؟

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

والأرض مددناها؛ فجعلناها لهم مهاداً، وجعلنا لها الجبال أوتاداً، وأثبتنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً. . كل ذلك:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

علامة ودلالة لكل من أناب إلينا، ورجع من شهود أفعالنا إلى رؤية صفاتنا، ومن شهود صفاتنا إلى شهود حقنا وذاتنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

أنزلنا من السماء ماءً مباركاً كثير النفع والزيادة، فأثبتنا به ﴿جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾: أي الذي يُحصَد - كما تقول مسجد الجامع.

الأجزاء متجانسة. . ولكن أوصافها في الطعوم والروائح والألوان والهيئات والمقادير مختلفة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَمَّا طَلَعَ نَبْهِيذٌ﴾.

والنخل باسقات: طويلات، لها طلع منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطلع أو لما فيها من الشمار. وكيف جعلنا بعض الشمار متفرقة كالتفاح والكمثرى^(١) وغيرهما، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب^(٢) وغيرهما. . كل ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي ينتفعوا به.

(١) الكُمثرى: معروف من الفواكه هذا الذي تسميه العامة الإجناس، مؤنث لا ينصرف. (لسان العرب ١٥٢/٥ مادة: كمثر).

(٢) الرُّطْب: نضيج البسر قبل أن يتمر، واحدته رطبة. (اللسان ٤٢٠/١ مادة: رطب).

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدة جفت نباتها، وكما فعلنا كل هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك - كذلك نجتمعكم في الحشر والنشر، فليس بعنكم بأبعد من هذا.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَنَمُودٌ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ .

إننا لم نعجز عن هؤلاء - الذين ذكر أسماءهم - وفيه تهديد لهم وتسلية للرسول.

﴿أَفَحْيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ لَمِ يَسْأَلْ مِنْ خَلْقِ جَدِيدٍ﴾ .

أي إننا لم نعجز عن الخلق الأول . . فكيف نعجز عن الخلق الثاني - وهو الإعادة؟ لم يعتص علينا فعل شيء، ولم نتعب من شيء . . فكيف يشق علينا أمر البعث؟ أي ليس كذلك .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَرْتَسُونَ بِهِ نَفْسَهُ وَعَمَّا أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ جَبَلِ الْوَرِيدِ﴾ .

نعلم ما توسوس به نفسه من شهوات تطلب استنفادها، مثل التصنع مع الخلق، وسوء الخلق، والحقد . . وغير ذلك من آفات النفس التي تشوش على القلب والوقت .

﴿وَعَمَّا أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ جَبَلِ الْوَرِيدِ﴾ فحبل الوريد أقرب أجزاء نفسه إلى نفسه، والمراد

من ذلك العلم والقدرة، وأنه يسمع قولهم، ولا يشكل عليه شيء من أمرهم .

وفي هذه الآية هيبة وفرع وخوف لقوم، وروح وسكون وأنس قلب لقوم .

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ يُلَاقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْجِبَيْنِ وَعَنِ الشَّامِائِ قَعِيدٍ﴾ .

خوفهم بشهود الملائكة وحضور الحفظة، وبكتابتهم عليهم أعمالهم، فهما قعيدا كل أحد: ويقال: إذا كان العبد قاعداً فواحد عن يمينه يكتب خيرا، وإذا كان يساره يكتب معاصيه، وإذا قام فواحد عند رأسه وواحد عند قدميه، وإذا كان ماشياً فواحد قائم بين يديه وآخر خلفه .

ويقال: هما اثنان بالليل لكل واحد، واثنان بالنهار .

ويقال: بل الذي يكتب الخيرات اليوم يكون غيره غداً، وأما الذي يكتب الشر

والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال: بل الذي يكتب المعصية اثنان؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلة اثنان

آخران لئلا يعلم من مساويك إلا القليل منها، ويكون علم المعاصي متفرقاً بهم^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ .

(١) الآية (١٨) لم ترد .

إذا أشرفت النفس على الخروج من الدنيا فأحوالهم مختلفة؛ فمنهم من يزداد في ذلك الوقت خوفه ولا يتبين إلا عند ذهاب الروح حاله. ومنهم من يكشف قبل خروجه فيسكن رزقه، ويحفظ عليه عقله، ويتم له حضوره وتمييزه، فيسلم الروح على مهل من غير استكراه ولا عبوس. . . ومنهم، ومنهم. . . وفي معناه يقول بعضهم:

أنا إن متُّ - والهوى حشو قلبي - فبداء الهوى يموت الكرام

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ .

سائق يسوقها إما إلى الجنة أو إلى النار، وشهيد يشهد عليها بما فعلت من الخير والشر.

ويقال له: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكُنْثْنَا عَنْكَ غِطَاءً كَ فَصْرِكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ .

المؤمنون - اليوم بصّرهم حديد؛ ينصرون رُشدهم ويحذرون شرهم .

والكافر يقال له غداً: ﴿فَصْرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: ها أنت علمت ما كنت فيه من التكذيب؛ فالיום لا يسمع منك خطاب، ولا يرفع عنك عذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ .

لا يخفى من أحوالهم شيء إلا ذكّر، إن كان خيراً يُجازون عليه، وإن كان غير خير يُحاسبون عليه: إماً برحمة منه فيغفر لهم وينجون، وإماً على مقدار جرمهم يُعذبون.

﴿الْيَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِفَاؤٍ عِنْدَ مَنَاجِئِ النَّعِيمِ مُتَعَدِّ مُرِيبٌ﴾ .

مناجئ للزكاة المفروضة .

ويقال: يمنع فضل مائه وفضل كلته عن المسلمين .

ويقال: يمنع الناس من الخير والإحسان، ويسيء القول فيهما حتى يزهد الناس فيهما .

ويقال: المناع للخير هو المغوان على الشر.

ويقال: هو الذي قيل فيه: ﴿وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧].

﴿مُرِيبٌ﴾: أي يشكك الناس في أمره لأنه غير مخلص، ويلبس على الناس حاله لأنه منافق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعِمْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ .

يقول الملك من الحفظة المؤكل به: ما أعجلته على الرزلة .

وإنما كتبتُها بعدما فعلها - وذلك حين يقول الكافر: لم أفعل هذا، وإنما أعجلني بالكتابة علي، فيقول الملك: ربنا ما أعجلته .

ويقال: هو الشيطان المقروء به، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطان: ما أكرهته على كفره، ولكنه فعل - باختياره - ما وسوستُ به إليه .
فيقول جل ذكره: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْبَئِيدِ﴾ .

لا تختصموا لدي اليوم وقد أمرتكم بالرشد ونهيتكم عن الغي .
قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ .
﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ و﴿نَقُولُ﴾: القول هنا على التوسع؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقاتل ذلك بل يُخَيِّبها حتى تقول ذلك .
﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: على جهة التعليل، والاستزادة من الكفار .

ويقال: بل تقول ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: أي ليس في زيادة كقوله عليه السلام لما قيل له: يوم فتح مكة: هل ترجع إلى دارك؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل داراً؟!»^(١) أي لم يترك، فإن الله - تعالى - يملأ جهنم من الكفار والعصاة، فإذا ما أخرج العصاة من المؤمنين ازداد غيظ الكفار حتى تمتلئ بهم جهنم .
قوله جل ذكره: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ .
يقال: إن الجنة تُقَرَّبُ من المتقين، كما أنَّ النار تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين .

ويقال: بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . . وهم خواص الخواص .

ويقال: هم ثلاثة أصناف: قوم يُحْشَرُونَ إلى الجنة مشاة وهم الذين قال فيهم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] - وهم عوام المؤمنين وقوم يحشرون إلى الجنة ركباناً على طاعتهم المصوِّرة لهم بصورة حيوان، وهم الذين قال فيهم جل وعلا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا﴾ [مريم: ٨٥] - وهؤلاء هم الخواص وأما خاص الخاص فهم الذين قال عنهم: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي تُقَرَّبُ الجنة منهم .

وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: تأكيد لقوله: «وأزلت» .

ويقال: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: من العاصين تطيباً لقلوبهم .

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ .

(١) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٣٤/٦)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ٣٠٤٢٩، ٣٠٦٨٥) .

الأَوَّابُ: الراجِعُ إلى الله في جميع أحواله.

﴿حَفِيطٌ﴾: أي محافظ على أوقاته، (ويقال محافظ على حواسه في الله حافظ لأنفاسه مع الله).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

الخشيّة من الرحمن هي الخشيّة من الفراق. (والخشيّة من الرحمن تكون مقرونة بالأُنْس؛ ولذلك لم يقل: من خشي الجبار ولا من خشي القهار).

ويقال الخشيّة من الله تقتضي العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسألُ عما يفعل.

ويقال: الخشيّة اللطف من الخوف، وكأنها قريبة من الهيبة^(١).

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾: لم يقل بِنَفْسٍ مطيعة بل قال: بقلب منيب ليكون للعصاة في هذا أمل؛ لأنهم - وإن قَصُرُوا بنفوسهم وليس لهم صِدْقُ القَدَمِ - فلهم الأسف بقلوبهم وصدق الندم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَدْخَلُوهَا بِسَلْطَنٍ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ﴾.

أي يقال لهم: ادخلوها بسلامة من كل آفة، ووجود رضوان ولا يسخط عليكم الحق أبداً.

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ: ادخلوها بسلام، ومنهم من يقول له: لكم ما

تشاؤون فيها - قال تعالى:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

لم يقل: «لهم ما يسألون» بل قال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾: فكل ما يخطر ببالهم فإن

سؤلهم يتحقق لهم في الوهلة، وإذا كانوا اليوم يقولون: ما يشاء الله فإن لهم غداً منه الإحسان... وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: اتفق أهل التفسير على أنه الروية، والنظر إلى الله سبحانه وقوم

يقولون: المزيد على الثواب في الجنة - ولا منافاة بينهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ

مُجْرِمِينَ﴾.

(١) قال القرطبي برسالته عند حديثه عن الخوف: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب: الخوف والخشيّة والهيبة. فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه. قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. والخشيّة: من شروط العلم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. والهيبة: من شروط المعرفة، قال الله تعالى: ﴿وَيُؤَذِّنُكُمْ اللَّهُ فَاسْتَكْبِرُوا﴾. وقال أبو القاسم الحكيم: الخوف على نوعين: رهبة وخشيّة، فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف، وصاحب الخشيّة يلتجئ إلى الرب. (الرسالة القرطبية ص ١٢٥، ١٢٦).

أَيِ اغْتَبِرُوا بِالَّذِينَ تَقَدَّمُوكُمْ؛ انهمكوا في ضلالتهم، وأصروا، ولم يقلعوا... فأهلكناهم وما أبقينا منهم أحداً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. قيل: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾: أي من كان له عقل. وقيل: قلب حاضر. ويقال قلب على الإحسان مقبل. ويقال: قلب غير قلب.

﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾: استمع إلى ما ينادى به ظاهره من الخلق وإلى ما يعود إلى سِرِّه من الحق. ويقال: لمن كان له قلب صاح لم يسكر من الغفلة. ويقال: قلب يعد أنفاسه مع الله. ويقال: قلب حي بنور الموافقة. ويقال: قلب غير معرض عن الاعتبار والاستبصار.

ويقال: «القلب - كما في الخير - بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١): أي بين نعمتين؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء، وما ينفعه به من النعماء، فكل قلب منح الحق عنه الأوصاف الذميمة وألزمه النعوت الحميدة فهو الذي قال فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

وفي الخبر: «إن الله أواني الأ وهي القلوب، وأقربها من الله مارق و صفا»^(٢). شبه القلوب بالأواني؛ فقلب الكافر منكوس لا يدخل فيه شيء، وقلب المنافق إناء مكسور، ما يلقى فيه من أوله يخرج من أسفله، وقلب المؤمن إناء صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمان ويبقى.

ولكن هذه القلوب مختلفة؛ فقلب ملطخ بالانفعالات وفنون الآفات؛ فالشراب الذي يلقى فيه يصحبه أثر، ويتلطح به.

وقلب صفا من الكدورات وهو أعلاها قدرأ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

وأنى يمسه اللغوب. وهو صمد لا يحدث في ذاته حادث؟

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

إن تأذ سمعك بما يقولون في من الأشياء التي يتقدس عنها نعتي فاصبر على ما يقولون، واستروخ عن ذلك بتسبيحك لنا.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٣٠٢).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٢٠٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيِّحُهُمْ وَأَذْبَرَ الشُّجُورَ﴾ .

فالليل وقت الخلوة - والصفاء في الخلوة أتم وأضفى .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادُ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ .

النداء من الحق - سبحانه - وارد عليهم، كما أن النجوى تحصل دائماً بينهم . والنداء الذي يرد عليهم يكون بغتة ولا يكون للعبد في فعله اختياراً .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ .

إلينا مزجج الكل ومصيرهم .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ .

هذا يسير علينا: سواء خلقناهم جملة أو فرادى؛ قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفَّةٍ وَحِدَةً﴾ [لقمان: ٣١] .

قوله جل ذكره: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ﴾ .

ما أنت عليهم بمتسلط تكرهم .

وإنما يؤثر التخويف والإنذار والتذكير في الخائفين، فأما من لا يخاف فلا ينجح فيه التخويف - وطير السماء على آلافها تقع .

سورة الذاريات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة عزيزة من ذكرها عزّ لسانه، ومن عرفها اهتزّ بصحبته جناه .
«بسم الله» كلمة للآلِبابِ غُلابة، كلمة لأرواح المحييين سُلابة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوجًا فَالْحَائِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسَّاتِ أَمْرًا إِنَّمَا نُوَدِّعُنَّ لَصَادِقٌ وَإِنَّ إِلَيْنَ لَرْجِعٌ﴾ .

والذاريات: أي الرياح الحاملات ﴿وِقْرًا﴾ أي السحاب ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ أي السفن .
﴿فَالْمُقَسَّاتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة . . . أقسم برّب هذه الأشياء ويقدرته عليها . وجواب القسم: ﴿إِنَّمَا نُوَدِّعُنَّ لَصَادِقٌ . . .﴾ والإشارة في هذه الأشياء أن من جملة الرياح . الرياح الصيحية تحمل أنين المشتاقين إلى ساحات العزّة فيأتي نسيم القربة إلى مشام أسرارِ أهل المحبة . . . فعندئذ يجدون راحةً من غلّبات اللوعة، وفي معناه أنشدوا:

وإني لأستهدي الرياح نسيمكم إذا أقبَلت من أرضكم بهبوب
وأسألها حملَ السلام إليكمو فإن هي يوماً بلّغَتْ . . . فأجيبني

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة، ويُؤذّن بهواجم الثوى والفرقة . فإذا عنّ لهم من ذلك شيء أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتغال، والتضرّع في السؤال استعادةً منها . . . كما قالوا:

أقول - وقد رأيتُ لها سحاباً من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحّت عزاليها^(١) بيّنين حوالينا الصدود ولا علينا
وكما قد يَحْمَلُ المَلأخ بعضُ الفقراء بلا أجره طمعاً في سلامة السفينة -
فهؤلاء يزجون أن يُحمَلُوا في فُلْكِ العناية في بحار القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .

وَمِنَ الملائكة مَنْ يَنْزِلُ لتفقد أهل الوصلة، أو لتعزية أهل المصيبة، أو لأنواع

(١) الأعرل: سحاب لا مطر فيه . (اللسان ١١/٤٤٣ مادة: عزل).

من الأمور تتصل بأهل هذه القصة، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم: هل عندهم خيرٌ عن فراقهم ووصالهم - كما قالوا:

بِرَبِّكُمَا يَا صَاحِبِيَّ قِفَا بِيَا أَسْأَلُكُمْ عَنْ حَالِهِمْ وَأَسْأَلَانِيَا

﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ﴾ : الحق - سبحانه - وَعَدَ الْمُطِيعِينَ بِالْجَنَّةِ، والتائبين بالرحمة، والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، ووعَدَ أرباب المصائب بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]، وهم يتصدون لاستبطاء حُسن الميعاد - واللَّهُ رُوْفٌ بِالْعِبَادِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكَ لِنَى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أُولَئِكَ﴾ .

﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي ذات الطرائق الحسنة - وهذا قَسَمٌ ثانٍ، وجوابه: ﴿إِنَّكَ لِنَى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ يعني في أمر محمد ﷺ فأحدهم يقول: إنه ساحر، وآخر يقول: مجنون، وثالث يقول: شاعر... وغير ذلك.

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان، وقمر المحبة، ونجوم القُرب... إنكم في باب هذه الطريقة لفي قولٍ مختلف؛ فَمِنْ مُنْكَرٍ يجحد الطريقة، وَمِنْ مُعْتَرِضٍ يعترض على أهلها يتوهم نقصانهم في القيام بحق الشريعة، ومن متعسفٍ لا يخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقّ أولياءه بالأحوال السنية، قال قائلهم:

قد سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسَ فِينَا قَوْلِهِمْ فِرْقَا
فَكَاذِبٌ قَد رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَ تَكْمٍ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا
قوله جلّ ذكره: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أُولَئِكَ﴾ .

أي يُضَرِّفُ عَنْهُ مَنْ صَرَفَ، وذلك أنهم كانوا يصدّون النَّاسَ عنه ويقولون: إنه لمجنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قِيلَ الْمُرْصُونُ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍو سَاهُونَ﴾ .

لَعِنَ الْكُذَّابُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةِ الضَّلَالَةِ وَظَلْمَةِ الْجَهَالَةِ سَاهُونَ لَاهُونَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُعْذَبُونَ دُوقُوا فَنَتَكَّرْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .

يسألون أيان يومُ القيامة؟ يستعجلون بها، فلاجل تكذيبهم بها كانت نفوسهم لا تسكن إليها. ويوم هم على النار يُحْرَقُونَ وَيُعَذَّبُونَ يقال لهم: قاسوا عقوبتكم، هذا الذي كنتم به تستعجلون.

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبُونَ في أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء، ويكذبون في أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب، ويكذبون على الله فيما يدعونه من الأحوال... قُتِلُوا وَلُعِنُوا... وسيلقون غِبًّا تلييسهم بما يُخْرَمُونَ من اشتمام رائحة الصدق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ رَبُّهُمْ وَإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

في عاجلهم في جَنَاتٍ وَضَلَّهِمْ، وفي آجلهم في جَنَاتٍ فَضَّلَّهِمْ؛ فغداً درجات ونجاة، واليوم قُرْبَاتٍ وَمَنَاجَاةٍ، فما هو مؤجَّلٌ حَظٌّ أَنفْسِهِمْ، وما هو معجَّلٌ حَقٌّ رَبُّهُمْ. هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم؛ يأخذون نصيبه منه بيدي الشكر والحمد، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربهم في الجنة من فنون العطاء والرِّفْدِ.

وَمَنْ كَانَ الْيَوْمَ آخِذَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ مِنْ حَيْثُ الْإِيمَانِ وَالْإِتْقَانِ، وملاحظة القسمة في العطاء والحرمان. كان غداً آخِذَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ فِي الْجَنَانِ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَالْعِيَانِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا^(١) ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا... فهم كما في الخبر: «أعبد الله كأنك تراه...»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُسْتَفْرَوْنَ﴾.

المعنى إما: كانوا قليلاً وكانوا لا ينامون إلا بالليل كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣] أو: كان نومهم بالليل قليلاً، أو: كانوا لا ينامون بالليل قليلاً.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُسْتَفْرَوْنَ﴾: أخبر عنهم أنهم - مع تهجدهم ودُعائهم - يُنْزِلُونَ أَنفُسَهُمْ فِي الْأَسْخَارِ مَنْزِلَةَ الْعَاصِينَ، فيستغفرون استصغاراً لِقُدْرِهِمْ، واستحْقاراً لِفِعْلِهِمْ.

والليل... للأحباب في أنس المناجاة، وللعصاة في طلب النجاة. والسهر لهم

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: سُئِلَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ عَنِ الْعَارِفِ فَقَالَ: رَجُلٌ كَاتِبٌ بَائِسٌ، وَقَالَ مَرَّةً: كَانَ فَيَّانٌ. (الرسالة القشيرية ص ٣١٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/١٣٢)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٢/٤٠، ٤/٢١٨) وابن حجر في (المطالب العلية ٣٠٩٦، ٣٠٩٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/٢٦٨، ٣/٥٩٢، ٤/٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/١٧٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/١١٥) وابن حجر في (فتح الباري ١١/٢٣٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/١٢٤، ٧/٤٥٣، ١٠/٥٩)، والمراعي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/١٠٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/٢٩٩) والمتقي الهندي في (كتر العمال ٥٢٥٠، ٥٢٥١، ٥٢٥٦، ٥٢٧٩، ٤٤١٥٤)، وابن أبي شيبه في (المصنف ١٣/٢٢٥).

في لياليهم دائماً؛ إما لَفَزَطِ أَسْفِ أو لِشِدَّةِ لَهْفِ، وإما لاشتياقٍ أو لفراقٍ - كما قالوا:

كم ليلة فيك لا صباح لها أفثيئتها قابضاً على كبدي
قد غصت العين بالدموع وقد وَصَفْتُ خدي على بنان يدي

وإما لكمال أنسٍ وطيب روح - كما قالوا:

سقى الله عيشاً قصيراً مضى زمان الهوى في الصبا والمجون
لياليه تحكي انسداداً لحاظٍ لَغِينِي عند ارتداد الجفون

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾.

السائل هو الْمُتَكَفِّفُ، والمحروم هو المتعفف - ويقال هو الذي يحرم نفسه بترك السؤال . . . هؤلاء هم الذين يُغَطُّون بشرط العلم، فأما أصحاب المروة: فغير المستحق لمالهم أو لى من المستحق. وأما أهل الفترة فليس لهم مال حتى تتوجه عليهم مطالبة؛ لأنهم أهل الإيثار - في الوقت - لكل ما يفتح عليهم به.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا تَوَعَّدُونَ﴾.

كما أن الأرض تحمل كل شيء فكذلك العارف يتحمل كل أحد.

ومن استقل أحداً أو تبرم برؤية أحدٍ فلغيبته عن الحقيقة، ولمطالعة الخلق بعين التفرقة - وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة.

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلقَى عليها كل قذارة وقمامة - ومع ذلك تُنبث كل زهر وتؤثر. . . كذلك العارف يتشرب كل ما يُسقى من الجفاء، ولا يترشح إلا بكل خُلُقٍ عَلِيٍّ وشيمة زكية^(١).

ومن الآيات التي في الأرض أن ما كان منها سبخاً يترك ولا يُعمر لأنه لا يحتمل العمارة - كذلك الذي لا إيمان له بهذه الطريقة يُهمل، فمقابلته بهذه الصفة كالقاء البذر في الأرض السبخة.

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي وفي أنفسكم أيضاً آيات، فمنها وقاحتها في همتها، ووقاحتها في صفتها، ومنها دعاواها العريضة فيما ترى منها وبها، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أن ذرة أو (. . .)^(٢) بها أو منها.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التصوف: قال الجنيد: الصوفي كالأرض، يُطرَح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مريح، وقال أيضاً إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يُظل كل شيء، وكالقطر يسقي كل شيء، وقال: إذا رأيت الصوفي يعني بظاهره فاعلم أن باطنه خراب. (الرسالة القشيرية ص ٢٨١).

(٢) بياض في الأصل.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: أي قسمة أرزاقكم في السماء، فالملائكة الموكّلون بالأرزاق ينزلون من السماء.

ويقال: السماء ها هنا المطر، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى.

ويقال: على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمَّنَهَا.

ويقال: قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ وها هنا وقف ثم تبدىء: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ نِزْلًا مَّا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾.

أي: إن البعث والنشر لَحَقٌّ.

ويقال: إن نصري لمحمدٍ ولديني، وللذي أتاكم به من الأحكام - لحقٌ مثل ما

أنكم تنطقون.

كما يقال: هذا حقٌ مثل ما أنك ها هنا.

ويقال: معناه: «أَنْ اللّٰهُ رازقُكم» - هذا القولُ حقٌ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُمْ: مَنْ

ربُّكم؟ وَمَنْ خالِقُكم؟ قلتُم: الله... فكما أنكم تقولون: إن الله خالقٌ - وهذا

حقٌ... كذلك القولُ بأنّ الله رازقٌ - هو أيضاً حقٌ.

ويقال: كما أن نُطَقَكَ لا يتكلّم به غيرُك فرزقُك لا يأكله غيرك.

ويقال: الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال برزقك على السماء، ولا سبيل

لك إلى العروج إلى السماء لتشتغل بما كلفك ولا تتعنى في طلب ما لا تصل إليه.

ويقال: في السماء رزقكم، وإلى السماء يُزْقَعُ عَمَلُكُمْ... فإن أَرَدْتَ أن ينزلَ

عليك رزقُك فأضِعْهُ إلى السماءِ عَمَلُكَ - ولهذا قالوا: الصلاةُ قرعٌ باب الرزق، وقال

تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

قيل في التفسير: لم يكن قد أتاه خبرهم قبل نزول هذه الآية.

وقيل: كان عددهم اثني عشر ملكاً. وقيل: جبريل وكان معه سبعة. وقيل:

كانوا ثلاثة.

وقوله: ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ قيل لقيامه - عليه السلام - بخدمتهم. وقيل: أكرم الضيف

بطلاقة وجهه، والاستبشار بوفودهم.

وقيل: لم يتكلّف إبراهيم لهم، وما اعتذر إليهم - وهذا هو إكرام الضيف - حتى

لا تكون من المضيف عليه مِنَّةٌ فيحتاج الضيف إلى تحملها.

ويقال: سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوّ عند الكرام كريم.

ويقال: ضيفُ الكرام لا يكون إلا كريماً.

ويقال: المكرمين عند الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

أي سلمنا عليك ﴿سَلِّمًا﴾ فقال إبراهيم: لكم مني ﴿سَلِّمًا﴾.

وقولهم: ﴿سَلِّمًا﴾ أي لك منا سلام، لأنَّ السلام: الأمان.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: أي أنتم قوم منكرون؛ لأنه لم يكن يعرف مثلهم في الأضياف.

ويقال: غُرَبَاءَ.

قوله جل ذكره: ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَبَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

أي عدل إليهم من حيث لا يعلمون وكذلك يكون الروغان.

﴿فَبَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ﴾ فشواه، وقربه منهم وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ وحين امتنعوا عن

الأكل:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

توهم أنهم لصوص فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: أي بشروه بالولد، وبقاء هذا الولد إلى أن يصير عليمًا؛

والعليم مبالغة من العلم، وإنما يصير عليمًا بعد كبره.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

﴿فِي صَرْفٍ﴾ أي في صيحة شديدة، ﴿فَصَكَتَ وَجْهَهَا﴾ أي فضربت وجهها بيدها

كفعل النساء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: أي أنا عجوز عقيم. وقيل: إنها يومها كانت ابنة

ثمان وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

أي قلنا لك كما قال ربك لنا، وأن نخبرك أن الله هو المُخَكِّمُ لأفعاله،

﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟﴾.

سألهم: ما شأنكم؟ وما أمركم؟ وبماذا أُرْسِلْتُمْ؟

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُصْرَفِينَ فَأَخْرَجْنَا

مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

هم قوم لوط، ولم نجد فيها غير لوط ومن آمن به.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون - دون القاسية قلوبهم^(١).

(١) الآيات من (٣٩ حتى ٤٦) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أي بحجة ظاهرة باهرة.

... إلى قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدِي وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]: أي جعلنا

بينها وبين الأرض سعة، «وإنا لقادرون»: على أن نزيد في تلك السعة.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

أي جعلناها مهاداً لكم ثم أثنى على نفسه قائلاً: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

دلّ بهذا كله على كمال قدرته، وعلى تمام فضله ورحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي صنفين في الحيوان كالذكر والأنثى، وفي غير الحيوان؛ كالحركة والسكون،

والسواد والبياض، وأصناف المتضادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَرِّءُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِّمٌ مُّبِينٌ﴾.

أي فارجعوا إلى الله - والإنسان بإحدى حالتين؛ إما حالة رغبة في شيء، أو حالة

رهبة من شيء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جلب نفع أو رفع ضرر... وفي

الحالتين ينبغي أن يكون فراؤه إلى الله؛ فإن النافع والضار هو الله.

ويقال: مَنْ صَحَّ فِرَاؤُهُ إِلَى اللَّهِ صَحَّ قَرَاؤُهُ مَعَ اللَّهِ.

ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التقى،

ومن الشك إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله.

ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من فعله - الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو

كفايته، ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه - حيث

قال: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى نفسه حيث قال: ﴿فَقَرِّءُوا عَلَى اللَّهِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

أخوفكم اليم عقوبته إن أشركتم به - فإنه لا يغير أن يشرك به.

ثم بيّن أنه على ذلك جرّت عادتهم في تكذيب الرّسل، كأنهم قد توصوا فيما

بينهم بذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنَّهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.

فأعرض عنهم فليست تلحقك - بسوء صنيعهم - ملامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذكّر العاصين عقوبتي ليرجعوا عن خالفية أمري، وذكّر المطيعين جزيل ثوابي

ليزدادوا طاعةً وعبادةً، وذكّر العارفين ما صرّفتم عنهم من بلائي، وذكّر الأغنياء ما

أَتَخْتُ لَهُمْ مِنْ إِحْسَانِي وَعَطَائِي، وَذَكَرَ الْفُقَرَاءَ مَا أَوْجِبْتُ لَهُمْ مِنْ صَرْفِ الدُّنْيَا عَنْهُمْ وَأَعَدَدْتُ لَهُ مِنْ لِقَائِي .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ .

الذين اصطفيتهم في آزالي، وخصصتهم - اليوم - بحسن إقبالي، ووعدتهم جزيل أفضالي - ما خلقتهم إلا ليعبدون.

والذين سخطت عليهم في آزالي، وربطتهم - اليوم - بالخذلان فيما كلفتهم من أعمالي، وخالقت النار لهم - بحكم إلهيتي ووجوب حُكْمِي فِي سُلْطَانِي - ما خلقتهم إلا لعذابي وأنكالي، وما أعددت لهم من سلاسل وأغلال.

ما أريد منهم أن يطعموا أو يرزقوا أحداً من عبادي فإن الرزاق أنا.

وما أريد أن يطعموا فإنني أنا الله ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ : المتين القوي .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَمِعُونَ﴾ .

لهم نصيب من العذاب مثل نصيب من سلف من أصحابهم من الكفار فلم يستعجال العذاب - والعذاب لن يفوتهم؟ .

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ .

وهو يوم القيامة .

سورة الطور

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة ما استولت على قلب عارفٍ إلا تيمّته بكشف جلاله، وما استولت على قلب متأفّفٍ إلا أكرمته بلطف أفضاله... فهي كلمة قهارة للقلوب... ولكن لا لكل قلب، مُذهبة للكروب... ولكن لا لكل كرب.

قوله جل ذكره: ﴿وَالطُّورِ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾.

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة)، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. والطور هو الجبل الذي كلّم عليه موسى عليه السلام؛ لأنه محلّ قدّم الأحياب وقت سماع الخطاب. ولأنه الموضع الذي سمع فيه موسى ذكراً محمدٍ ﷺ وذكراً أمته حتى نادانا ونحن في أصلاب آبائنا فقال: أعطيتكم قبل أن تسألوني ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ مكتوب في المصاحف، وفي اللوح المحفوظ.

وقيل: كتاب الملائكة في السماء يقرؤون منه ما كان وما يكون.

ويقال: ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده.

ويقال ما كتب من قوله: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

ويقال: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويقال: الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُغطى لعباده بأيمانهم وشمائلهم يوم

القيامة. ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾^(٢) يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب.

﴿وَأَلْبَيْتِ الْمُعْمَرِ﴾.

(١) أخرجه الحميدي في (المسند ١١٢٦)، وابن أبي عاصم في (السنن ٢٧٠/١)، والزيدي في (تحاف السادة المتقين ٥٥٦/٨، ٥٥٨/١٠)، وابن أبي الدنيا في (حسن الظن ١٣) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٩٦).

(٢) الرّق: الصحيفة البيضاء أو هو ما يكتب فيه وهو جلد رقيق. وقيل: الرق الصحائف التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة فأخذ كتابه يمينه وأخذ كتابه بشمال. (لسان العرب ١٢٣/١٠ مادة: رقق).

في السماء الرابعة ويقال: هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته .
ويقال: هي مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل: الكعبة .

﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ .

هي السماء . وقيل سماء هميمهم في الملكوت .

﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ .

البحار المملوءة .

أقسم بهذه الأشياء: ﴿إِنَّ عَذَابَهُ لَوَاقِعٌ﴾ وعذابه في الظاهر ما توعد به عباده العاصين، وفي الباطن الحجاب بعد الحضور، والستر بعد الكشف، والرد بعد القبول .

﴿مَا لَمْ يَنْ دَافِعٌ﴾ .

إذا ردَّ عبداً أبرم القضاء برده:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر - الدهر - تُقْبِلُ

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ .

﴿تَمُورُ﴾: أي تدور بما فيها، وتسير الجبال عن أماكنها، فتسير سيرا .

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ .

الويلُ كلمة تقولها العرب لمن وقع في الهلاك .

﴿فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾: في باطل التكذيب يخوضون .

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ أَلَيْسَ هَذَا آتًا أَنْتُمْ

لَا تُبْصِرُونَ﴾ .

يَوْمَ يُدْفَعُونَ إِلَى النَّارِ دَفْعًا، ويقال لهم: هذه هي النار التي كنتم بها

تُكْذِبُونَ . . .

ثم يسألون: أهذا من قبيل السحر على ما قلت أم غطيتي على أبصاركم؟!

قوله جل ذكره: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

والصبرُ على الجزاء في العاقبة لا قيمة له، لأن عذابهم عقوبة لهم:

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَيَسِيرُونَ فِيهَا إِنَّهُمْ رَنِيمٌ وَوَقْنُهُمْ رَنِيمٌ

عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وأجلاً . ﴿فَنَكِيهِينَ﴾ أي مُعْجِبِينَ بما آتاهم ربهم

وما أعطاهم .

ويقال: فاكهون: أي ذوو فاكهة: كقولهم رجل تامر أي ذو تمر، ولا بن أي ذو لبن.
قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطعمه ولذته، وقوم يصير هنيئاً لهم سماع قولهم عنه - سبحانه - هنيئاً، وقوم يصير لهم ذلك هيناً لينا وهم بمشهد منه:

فاشرب على وجهها كغمرتها مدامة في الكؤوس كالشرر^(١)
﴿مُتَكِّينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّحَتْهُمِ بِحُورٍ عِينٍ﴾.

يظنون في سرور وحبور، ونصيب من الأانس موفور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِذْنِنَا أَلْفَحْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

يُكْمَلُ عَلَيْهِمُ سُرُورُهُمْ بِأَنْ يُلْحَقَ بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ؛ فَإِنَّ الْإِنْفِرَادَ بِالنِّعْمَةِ عَمَّنِ الْقَلْبِ مُشْتَقِلٌ بِهِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالذَّرِيَةِ يُوَجِبُ تَنْغِصَ الْعَيْشِ.

وكذلك كلُّ من قلب الولي يلاحظه من صديق وقريب، وولي وخادم، قال تعالى في قصة يوسف: ﴿وَأَتَوْفٍ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

وفي هذا المعنى قالوا:

إني على جفواتها - فبريتها
لأحبها، وأحب منزلها الذي
وبكل مُتَّصِلٍ بِهَا مُتَوَسِّلٍ
نزلت به وأحب أهل المنزل
﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ شَيْءٌ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي ما أنقصنا من أجورهم من شيء بل وفينا ووفّرنا. وفي الابتداء نحن أولينا وزدنا على ما أعطينا.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ مُطَالَبٌ بِعَمَلِهِ، يَوْفَىٰ عَلَيْهِ أَجْرُهُ بِلَا تَأْخِيرٍ، وَإِنْ كَانَ ذَنْبًا فَالْكَثِيرُ مِنْهُ مَغْفُورٌ، كَمَا أَنَّهُ الْيَوْمَ مُسْتَوْرٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوَ فِيهَا وَلَا تَأْيِيمٌ﴾.

أي لا يجري بينهم باطل ولا يؤثمهم كما يجري بين الشرب^(٢) في الدنيا، ولا يذهب الشرب بقولهم فيجري بينهم ما يُخْرِجُهُمْ عَنْ حَدِّ الْأَدَبِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن المعلوم من يسقيهم، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه؟.

(١) المدامة: الخمر، الشرر: ما تطاير من النار، واحدته شررة.

(٢) الشرب: القوم يشربون، ويجمعون على الشراب. (لسان العرب ٤٨٨/١ مادة: شرب).

قوله جل ذكره: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زِلْمَانٌ لَّهُمْ كَانْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّكُونًا﴾ .

والقوم عن الدارِ وعمَّن في الدارِ مُخْتَطِّفُونَ لاستيلاء ما يستغرقهم؛ فالشراب يؤنسُهم ولكن لا يَمُنُّ يجانسهم؛ وإذا كان - اليومَ - للعبد وهو في السجن في طول عمره ساعة امتناع عن سماع خطاب الأغيار، وشهود واحد من المخلوقين - وإن كان ولدًا عزيزاً، أو أخاً شقيقاً - فَمِنَ المحال أن يُظنَّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى . . . إن كان من أهل القبول والجنة، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة . وإذا كان العبدُ في الدنيا يقاسي في غُرْبَتِهِ من مُقَاسَاة اللتيا والتي - فماذا يجب أن يقال إذا رجع إلى منزله؟ أيبقى على ما كان عليه في سفرته؟ أم يلقى غير ما كان يقاسي في سَفْرَتِهِ، ويتجرع غير ما كان يُسْقَى من كاسات كُرْبَتِهِ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ .

لولا أنهم قالوا: ﴿فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ لكانوا قد لاحظوا إشفاقهم، ولكن الحق - سبحانه - اختطفهم عن شهود إشفاقهم؛ حيث أشهدهم بيثته عليهم حتى قالوا: ﴿فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجْنُونٍ﴾ .

أي أنهم يعلمون أنك ليست بك كهانة ولا جنون، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه؛ فالتسفيه يسط لسانه فيمن يشبه بما يعلم أنه منه بريء .

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّبَ الْمُتَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ﴾ .

نتربص به حوادث الأيام؛ فإن مثل هذا لا يدوم، وسيموت كما مات من قبله كهانٌ وشعراء .

ويقال: قالوا: إن أباه مات شاباً، ورَجَوْنَا أن يموت كما مات أبوه، فقال تعالى:

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا . . .﴾ فإننا منتظرون، وجاء في التفسير أن جميعهم ماتوا. فلا ينبغي لأحد أن يؤمِّل موت أحد. فقل من تكون هذه صنعة إلا سبقتة المنيئة - دون أن يدرك ما يتمناه من الأمنية .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلُكُمْ بِبِدْعٍ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ .

أتأمرهم عقولهم بهذا؟ أم تحملهم مجاوزة الحد في ضلالهم وطغيانهم على هذا؟

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ فَقَوْلُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صدقيين﴾ .

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول من ذات نفسك فليأتوا بحديثٍ مثله إن

كانوا صادقين فيما رموك به!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ .

كلا ليس الأمر كذلك، بل الله هو الخالق وهم المخلوقون^(١).

أم هم الذين خلقوا السموات والأرض؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ .

— أي خزائن أرزاقه ومقدوراته؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُضَيَّبُونَ﴾ المُتَسَلِّطُونَ عَلَى النَّاسِ؟ .

أم لهم سُلْمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجري في السموات؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ

بِشَأْنِ مِثْبِينٍ﴾ ثم إنه سفة أحلامهم فقال:

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَتْلُوهُنَّ أَجْرًا فَهَمَّ مِنْ مَقَرِّرٍ مُثْقَلُونَ﴾ .

أم تسألهم على تبليغ الرسالة أجراً فهم مثقلون من العزم والإلزام في المال

(بحيث يزهدهم ذلك في اتباعك؟).

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ذلك؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي أن يمكروا بك مكرًا ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ .

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يفعل شيئاً مما يفعل الله؟ تنزيهاً له عن ذلك!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ بَرَأْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يُقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ .

أي إن رأوا قطعة من السماء ساقطة عليهم قالوا: إنه سحابٌ مركوم رُكِمَ بعضه على

بعض والمقصود أنهم مهما رأوا من الآيات لا يؤمنون. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى

شاهدوا بالعين لقالوا: إنما سكرت أبصارنا، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ .

أي فأعرض عنهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يموتون، يوم لا يغني عنهم

كيدهم شيئاً، ولا يُمنعون من عذابنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

دون يوم القيامة لهم عذاب القتل والسبي، وما نزل بهم من الهوان والخزي يوم

بدر وغيره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ : أَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ لِدِينِهِ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .

أنت بمرأى مِنَّا، وفي نصره مِنَّا.

(١) الآية (٣٦) لم ترد.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ : في هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسي الصبر .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ .

أي تقوم للصلاة المفروضة عليك .

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ .

قيل : المغرب والعشاء وركعتا الفجر .

وفي الآية دليل وإشارة إلى أنه أمره أن يذكره في كل وقت ، وألا يخلو وقت من

ذكره .

والصبر لحكم الله شديد ، ولكن إذا عرف اطلع الرب عليه سهل عليه ذلك

وهان .

سورة النجم

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ حلِيمٌ رحِيمٌ، يحلم فيما يعلم، ويستتر ما يبصر ويغفر، وعلى العقوبة يقدِر، يَرَى ويُخْفَى، وَيَعْلَم ولا يُبْدَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

والشريا إذا سقط وغرب. ويقال: هو جنس النجوم أقسم بها.

ويقال: هي الكواكب. ويقال: أقسم بنجوم القرآن على النبي ﷺ ويقال هي الكواكب التي تُرْمَى بها الشياطين.

ويقال أقسم بالنبي ﷺ عند مُنْصَرَفِهِ من المعراج.

ويقال: أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقول الطالبين.

وجواب القسم قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: أي ما ضلَّ عن التوحيد قط، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: العَيُّ: نقيض الرُّشد.. وفي هذا تخصيصٌ للنبي ﷺ حيث تولَّى - سبحانه - الذب عنه فيما رُمي به، بخلاف ما قال لنوح عليه السلام وأذن له حتى قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: 61]، وهود قال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: 67]. وغير ذلك، وموسى قال لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: 102]. وقال لنبينا ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: معناه ما ضلَّ صاحبكم، ولا غفل عن الشهود طَرْفَةً عين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

أي ما ينطق بالهوى، وما هذا القرآن إلا وحىٌ يُوحَى. وفي هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة؛ إذ قال لداود: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: 26].

وقال في صفة نبينا ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

﴿ومتى ينطق عن الهوى﴾ وهو في محل النجوى؟ في الظاهر مزموومٌ بزمام التقوى، وفي السرائر في إيواء المولى، مُصَفًى عن كدورات البشرية، مُرَقًى إلى شهود الأَحَدِيَّة، مُكَاشَفٌ بجلال الصمدية، مُخْتَلَفٌ عنه بالكُلِّيَّة، لم تبق منه إلا للحق بالحق بقية... ومن كان بهذا النعت... متى ينطق عن الهوى؟

قوله جل ذكره: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ .
 أي جبريل عليه السلام . و ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ : أي ذو قوة وهو جبريل . ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ
 الْأَعْلَى﴾ أي جبريل .

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ .

دنا جبريل من محمد عليه السلام ، فتدلى جبريل : أي نزل من العلو إلى محمد .
 وقيل : «تدلى» تفيد الزيادة في القرب ، وأن محمداً عليه السلام هو الذي دنا من
 ربه ذنواً كرامة ، وأن التدلى هنا معناها السجود .

ويقال : دنا محمد من ربه بما أودع من لطائف المعرفة وزوائدها ، فتدلى بسكون
 قلبه إلى ما أدناه .

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ : فكان جبريل - وهو في صورته التي هو عليها - من
 محمد ﷺ بحيث كان بينهما قدر قوسين أو أدنى .

ويقال : كان بينه - ﷺ - وبين الله قدر قوسين : أراد به ذنواً كرامة لا ذنواً
 مسافة .

ويقال : كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيق الألفة بينهم إصداق أحدهم قوسه
 بقوس صاحبه عبارة عن عقد الموالاة بينهما ، وأنزل الله - سبحانه - هذا الخطاب على
 مقتضى معهودهم . ثم رفع الله هذا فقال : ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ أي بل أدنى .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَىٰ﴾ .

أي أوحى الله إلى محمد ما أوحى . ويقال : أحمّله أحمالاً لم يطلع عليها أحد .

ويقال : قال له : ألم أجدك يتيماً فأويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟

ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟

ويقال : بشره بالحوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم
 حتى تدخلها أمثك . والأولى أن يقال : هذا الذي قالوه كله حسن ، وغيره مما لم
 يطلع أحد . . . كله أيضاً كان له في تلك الليلة وحده ؛ إذ رآه إلى ما رآه ، ولقاه
 بما لقاه ، وأدناه حيث لا دنواً قبله ولا بعده ، وأخذه عنه حيث لا غير ، وأصحاه له
 في عين ما صحاه عنه ، وقال له ما قال . . . دون أن يطلع أحد على ما كان بينهما
 من السر .

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ .

ما كَذَّبَ فؤادُ محمدٍ ﷺ ما رآه ببصره من الآيات . وكذلك يقال : رأى ربّه تلك الليلة على الوصف الذي عَلِمَهُ قبل أن يراه .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ أَفْتَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَوْنَ ﴾ .

أفتجادلونه على ما يرى؟

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

أي جبريلُ رأى اللّهَ مرةً أُخرى حين كان محمدٌ عند سدرَةِ المنتهى؛ وهي شجرة في الجنة، وهي منتهى الملائكة، وقيل: تنتهي إليها أرواحُ الشهداء . ويقال: تنتهي إليها أرواحُ الخَلْقِ، ولا يَعْلَمُ ما وراءها إلا الله تعالى - وعندها ﴿ جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ وهي جنة من الجنان .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ إِذْ يَفْشَى السِّدْرَةَ مَا يَفْشَى ﴾ .

يفشاها ما يفشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به .

وفي خبر: «يفشاها رفرِف طير خُضِرٍ» .

ويقال: يفشاها فَرَأَشُ من ذَهَبٍ .

ويقال: أُعْطِيَ رسول الله ﷺ عندها خواتيم البقرة، وُعْفِرَ لمن مات من أُمَّتِهِ لا يشرك بالله شيئاً .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى ﴾ .

ما مَالَ - صلوات الله عليه وسلامه - ببصره عمّا أُبَيح له من النظر إلى الآيات، والاعتبارِ بدلائلها .

فما جَاوَزَ حَدَّهُ، بل رَاعَى شروطَ الأدبِ في الحضرة .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ .

أي «الآية» الكبرى، وحَذَفَ الآية... وهي تلك التي رآها في هذه الليلة .
ويقال: هي بقاؤه في حال لقائه ربّه بوصفِ الصَّخْرِ، وحَفَظَهُ حتى رآه .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرْوَى وَمَنَازِلَ الْأَخْرَىٰ أَلَمْ تَكُونُوا أَنتُمْ بِهَا تُكْفَرُونَ ﴾ .

إِذَا قَسَمَ صَبْرًا ﴾ .

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها؛ فاللات صنمٌ لثيف، والعزى شجرةٌ لغطفان، ومناة صخرةٌ لهذيل وخزاعة .

ومعنى الآية: أخبرونا... هل لهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله من

القدرة أن تفعل بعائِدِ بها ما فعلنا نحن لمحمدٍ ﷺ من الرُتْبِ والتخصيص؟ .

ثم وبَّحهم فقال: أرايتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله؟ تلك إذا قسمة ناقصة!

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَهَاتَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾.

أنتم ابتدعتم هذه الأسماء من غير أن يكون الله أمركم بهذا، أو أذن لكم به. فأنتم تتبعون الظنَّ، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾: فأعرضوا عنه، وكما أن ظنَّ الكفار أوجب لهم الجهل والخيرة والحكم بالخطأ - فكذلك في هذه الطريقة: مَنْ عَرَّجَ عَلَى أوصاف الظنَّ لَا يَحْطَى بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِيقَةِ؛ فليس في هذا الحديث إلا القطع والتحقق، فنهارهم قد مَتَّعَ، وشمسهم قد طلعت، وعلومهم أكثرها صارت ضرورية.

أما الظنَّ الجميلُ بالله فليس من هذا الباب، والتباسُ عاقبة الرجل عليه ليس أيضاً من هذه الجملة ذات الظن المعلوم في الله، وفي صفاته وأحكامه.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾.

أي ليس للإنسان ما يتمناه؛ فإنه يتمنى طولَ الحياة والرفاهية وخضب العيش... وما لا نهاية له، ولكنَّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه.

ويقال: ما يتمناه الإنسان أن يرتفع مراده واجباً في كل شيء - وأن يرتفع مراد عبدي واجباً في كل شيء ليس من صفات الخلق بل هو الله، الذي له ما يشاء:

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾.

له الآخرة والأولى خلقاً ومِلْكَاً، فهو المَلِكُ المالك صاحبُ المُلْكِ التام. فأمَّا المخلوقُ فالنقصُ لازمٌ للكُلِّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾.

وهذا ردُّ عليهم حيث قالوا: إنَّ الملائكةَ شفاعونا عند الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأَثَىٰ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

هذه التسمية من عندهم، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً... بل ظناً - والظنُّ لا يفيد شيئاً.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعَالَمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَىٰ﴾ .

أي أعرض عمن أعرض عن القرآن والإيمان به وتدبر معانيه، ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة، وإن ربك عليهم بالضال، عليهم بالمهتدي... وهو يجازي كل بما يستحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ .

يجزي الذين أساؤوا بالعقوبات، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَمْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَثَرِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ .

الذنوب كلها كبائر لأنها مخالفة لأمر الله، ولكن بعضها أكبر من بعض. ولا شيء أعظم من الشرك. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ المعاصي.

﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: تكلموا فيه، وقالوا: إنه استثناء منقطع، واللمم ليس باثم ولا من جملة الفواحش.

ويقال: اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهاً - فأخبر أنه يغفرها.

ويقال: اللمم هو أن يأتي المرء ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة.

وقال بعض السلف: هو الوقعة من الزنا تحصل مرة ثم لا يعود إليها، وكذلك شرب الخمر، والسرقة... وغير ذلك، ثم لا يعود إليها.

ويقال: هو أن يهمل بالزلة ثم لا يفعلها.

ويقال: هو النظر. ويقال: ما لا حدَّ عليه من المعاصي، وتكفر عنه الصلوات.

(والأصح أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصي).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُرِّ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنشَأَ آجِنَةً فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ .

﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: يعني خلق آدم.

ويقال: تزكية النفس من علامات كون المرء محجوباً عن الله؛ لأنَّ المجذوب

إلى الغاية والمستغرق في شهود ربه لا يُزَكِّي نفسه.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾: لأنه أعلم بكم منكم.

ويقال: من اعتقد أن على البسيطة أحداً شراً منه فهو متكبر.

ويقال: المسلم يجب أن يكون بحيث يرى كل مسلم خيراً منه؛ فإن رأى

شيخاً، قال: هو أكثرُ مني طاعةً وهو أفضلُ مني، وإن رأى شاباً قال: هو أفضلُ مني لأنه أقلُّ مني ذنباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّنْ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَآكَدَكَا﴾ .

أعرض عن الحق، وتصدّق بالقليل. ﴿وَآكَدَكَا﴾ أي قطع عطاءه. ﴿أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ .

﴿فَهُوَ يَرَى﴾: فهو يعلم صِحَّةَ ذلك. يقال: هو المنافق الذي يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك:

﴿أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾: فهو يرى حاله في الآخرة؟

﴿أَمْ لَمْ يَلْبَأْ يَمًا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ .

أم لم يُنبأ هذا الكافر بما في صحف موسى، وصحف إبراهيم الذي وفّى؛ أي أتمّ ما طوّل به في نفسه وماله وولده.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا نُرِذُّ وَرِذَّةً وَرِذَّةً أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ .

الناس في سعيهم مختلفون؛ فمن كان سعيه في طلب الدنيا خسرت صفقته، ومن كان سعيه في طلب الجنة ربحت صفقته، ومن كان سعيه في رياضة نفسه وصل إلى رضوان الله، ومن كان سعيه في الإرادة شكّر الله سعيه ثم هداه إلى نفسه.

وأما المُذنب - فإذا كان سعيه في طلب غفرانه، وتَدَمَّ القلب على ما اسودّ من ديوانه، فسوف يجد من الله الثواب والقربة والكرامة والزلفة.

ومن كان سعيه في عدّ أنفاسه مع الله؛ لا يُعرج على تقصير، ولا يُفترط في مأمور فسيري جزاء سعيه مشكوراً في الدنيا والآخرة، ثم يشكره بأن يُخاطبه في ذلك المعنى بإسماعه كلامه من غير واسطة: عبدي، سعيك مشكور، عبدي، ذنبك مغفور.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾: هو الجزاء الأكبر والأجل، جزاء غير مقطوع ولا ممنوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ .

إليه المرجع والمصير، فابتداء الأشياء من الله خلقاً، وانتهاء الأشياء إلى الله مصيراً.

ويقال: إذا انتهى الكلام إلى الله تعالى فاسكتوا.

ويقال: إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفة الله فليس بعده شيءٌ إلا أطفافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحوالٍ... يُجربها على مرادِهِ - وهي حظوظُ للعباد.

قوله جَلَّ ذِكره: ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكُ وَأَبْكِي﴾.

أراد به الضحك والبكاء المتعارف عليهما بين الناس؛ فهو الذي يُجربه وَيُخْلُقُهُ.

ويقال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

ويقال: أضحك أهل الجنة بالجنة، وأبكى أهل النار بالنار.

ويقال: أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا، وأضحك الكافر في الدنيا

وأبكاه في الآخرة.

ويقال: أضحكهم في الظاهر، وأبكاهم بقلوبهم.

ويقال: أضحك المؤمن في الآخرة بغفرانه، وأبكى الكافر بهوانه.

ويقال: أضحك قلوب العارفين بالرضا، وأبكى عيونهم بخوف الفراق.

ويقال: أضحكهم برحمته، وأبكى الأعداء بسخطه.

قوله جَلَّ ذِكره: ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

أماته في الدنيا، وأحياه في القبر؛ فالقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة.

ويقال: أماته في الدنيا، وأحياه في الحشر.

ويقال: أمات نفوس الزاهدين بالمجاهدة، وأحيا قلوب العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات نفوسهم بالمعاملات، وأحيا قلوبهم بالمواصلات.

ويقال: أماتها بالهيبة، وأحياها بالأنس.

ويقال: بالاستتار، والتجلي.

ويقال: بالإعراض عنه، والإقبال عليه.

ويقال: بالطاعة، والمعصية.

قوله جَلَّ ذِكره: ﴿وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾.

سماهما زوجين لآزودواجهما عند خلقهما من التُّطفة^(١).

قوله جَلَّ ذِكره: ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾.

﴿أَغْنَى﴾: أعطى الغنى، ﴿وَأَقْنَى﴾: أكثر القنية أي المال. وقيل ﴿وَأَقْنَى﴾: أي

أحوجه إلى المال - فعلى هذا يكون المعنى: أنه خَلَقَ الغنى والفقير.

ويقال: ﴿وَأَقْنَى﴾ أي أرضاه بما أعطاه.

ويقال: ﴿أَغْنَى﴾ أي أفنع، ﴿وَأَقْنَى﴾: أي أرضى.

(١) الآيتان (٤٦، ٤٧) لم تردا.

﴿وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى﴾.

(الشُّعْرَى: كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء^(١) في شدة الحر، وكانت خزاعة تعبدها فأعلمَ اللهُ أنه ربُّ معبودهم هذا).

﴿وَأَنْتُمْ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَتَمُودًا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى﴾.

عاد الأولى هم قوم هود، وعاد الأخرى هي إرم ذات العماد، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً. وأهلك من قبليهم قوم نوح الذين كانوا أظلم من غيرهم وأغوى ليطول أعمارهم، وقوة أجسادهم.

﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَمْوَى فَفَشَّنَهَا مَا عَشَّى﴾.

أي المخسوف بها، وهي قرى قوم لوط، قلبها جبريل عليهم، فهي مقلوبة معكوسة.

وقوله: ﴿أَمْوَى﴾ أي: أسقطها اللهُ إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها، ثم عكسها وألقاها في الأرض، فغشاها ما غشاها من العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿مَائِي آآءَ رَبِّكَ تَمَارَى﴾.

فبأي آء ربك - أيها الإنسان - تشكك؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إنعامه عليهم وإحسانه إليهم.

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾.

هو محمد ﷺ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين.

﴿أَرَأَيْتِ الْأَرِيفَةَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

أي قرئت القيامة. ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردِّها وكشفيها إلا الله.

ويقال: إذا قامت قيامة هذه الطائفة - اليوم - فليس لها كاشفٌ غيره. وقيامتهم تقوم في اليوم غير مرة. تقوم بالهجرِ والثوى والفراق.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ هَذَا كَلِمَتٍ لَمْ يَجِبْ﴾.

أفمن هذا القرآن تعجبون، وتكونون في شك، وتستهزئون؟

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾: أي لاهون..

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾: فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه.

(١) الجوزاء: أحد بروج السماء. ونطاق الجوزاء: ثلاثة نجوم نيرة مصطفة في وسط الجوزاء.

سورة القمر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: كلمة بها نور القلوب والأبصار، ويعرفانها يحصل سرور الأرواح والأسرار. كلمة تدل على جلاله - الذي هو استحقاقه لأوصافه. كلمة تدل على نعته الذي هو غاية أفضاله وألطافه.

قوله جل ذكره: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

أجمع أهل التفسير على أن القمر قد انشق على عهد الرسول ﷺ.

قال ابن مسعود^(١): «رأيت حراء بين فلقتي القمر»^(٢) ولم يوجد لابن مسعود مخالف في ذلك؛ فقد روي أيضاً عن أنس^(٣) وابن عمر^(٤) وحذيفة^(٥) وابن عباس^(٦) وجبير بن مطعم^(٧).. كلهم رووا هذا الخبر.

(١) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (.... - ٣٢ هـ = - ٦٥٣ م) أبو عبد الرحمن، صحابي. من أكابرهم، فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادم رسول الله الأمين وصاحب سره. ورفيقه في حله وترحاله وغزواته. وولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً.

الأعلام ١٣٧/٤، والإصابة ٤٩٥٥، وغاية النهاية ٤٥٨/١، وحلية الأولياء ١٢٤/١.

(٢) هناك روايات أخرى للحديث: «إذا انفلق، انشق، فانشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين أو فلقتين...» أخرجه مسلم (منافقين ٤٤، ٤٥)، والترمذي (تفسير سورة ٥٤، ١)، وأحمد بن حنبل ١، ٤٤٧.

(٣) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري (١٠ ق. هـ - ٩٣ هـ = ٦١٢ - ٧١٢ م) أبو ثمامة أو أبو حمزة. صاحب رسول الله ﷺ وخادمه. روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.

الأعلام ٢٤/٢، ٢٥، وطبقات ابن سعد ١٠/٧، وصفة الصفوة ٢٩٨/١، وتهذيب ابن عساكر ٣/١٣٩.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ١٠٨/٤، والإصابة ٤٨٢٥، وحلية ٢٩٢/١، وصفة الصفوة ١/٢٢٨.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام ١٧١/٢، وتهذيب التهذيب ٢/٢١٩، وحلية ٢٧٠/١، وصفة الصفوة ١/٢٤٩.

(٦) انظر ترجمته في الأعلام ٩٥/٤، وصفة الصفوة ١/٣١٤، وحلية ٣١٤/١، والإصابة ٤٧٧٢.

(٧) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي (.... - ٥٩ هـ = - ٦٧٩ م) أبو عدي صحابي، كان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة. وعده الجاحظ من كبار النسايبين. له ٦٠ حديثاً. =

وفيه إعجازٌ من وجهين: أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك، والثاني خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يره؛ لأنه لا ينكتم مثله في العادة فإذا خفي كان نقض العادة. وأهل مكة رأوا ذلك، وقالوا: إنَّ محمداً قد سحر القمر.

ومعنى ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾: أي ما بقي من الزمان إلى القيامة إلا قليل بالإضافة إلى ما مضى.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

يعني أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات عرضوا عن النظر فيها، ولو نظروا لحصل لهم العلم واجباً.

﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: أي دائم قوي شديد. ويقال إنهم قالوا: هذا ذاهب لا تبقى مدته فاستمر: أي ذهب.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾: التكذيب واتباع الهوى قريبان؛ فإذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب؛ لأنَّ اللّه يُلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد.

أما اتباع الرضا فمقرون بالتصديق؛ لأنَّ اللّه ببركات اتباع الحق يفتح عين البصيرة فيحصل التصديق.

وكلُّ امرئٍ جرّث له القسمة والتقدير فلا محالة. يستقر له حصول ما قُسم وقدّر له.

﴿وَكَُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾: يستقر عمل المؤمن فتوجب له الجنة، ويستقر عمل الكافر فيجازى.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ﴾.

جاءهم من أخبار الأنبياء والأمم الذين من قبلهم والأزمنة الماضية ما يجب أن يحصل به الارتداع، ولكن الحق - سبحانه - أشبل على بصائرهم سُجُوف^(١) الجهل فعموا عن مواضع الرشد.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾: بدل من (ما) فيما سبق: (ما فيه مزدجر).

= الأعلام ١١٢/٢، والإصابة ٢٣٥/١ وفيه: مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين.
(١) السجوف: (ج) السجف: أحد السترين المقرونين بينهما فرجة.

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكر فيها.

﴿فَمَا تَعْنِي السُّدُورُ﴾: أي شيء يعني إنذار النذير وقد سبق التقدير لهم بالشقاء؟

قوله جل ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ خُشَعًا أَنْصَرُهُمْ﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: ها هنا تمام الكلام - أي فأعرض عنهم، وهذا قبل الأمر

بالمقاتل. ثم استأنف الكلام: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾. والجواب: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ - أراد به يوم القيامة.

ومعنى ﴿نُّكْرٍ﴾: أي شيء ينكرونه (بهزوله وفظاعته)^(١) وهو يوم البعث

والحشر.

وقوله: ﴿خُشَعًا﴾ منصوب على الحال، أي يخرجون من الأجداث - وهي القبور -

خاشعي الأبصار.

﴿... كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مَّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

كانهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم، ﴿مَّهْطِعِينَ﴾: أي مديمي النظر إلى الداعي -

وهو إسرافيل.

﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾: لتوالي الشدائد التي فيه.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ مَّكَذِبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ فِدْعَا رَبِّهِ أَنِّي

مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ﴾.

كذب قوم نوح نبيهم، وقالوا: إنه مجنون، وزجروه وشتموه.

وقيل: ﴿وَازْدَجَرَ﴾: أي استطار عقله، أي قوم نوح قالوا له ذلك.

فدعا ربه فقال: إني مغلوب؛ أي بتسلط قومي علي؛ فلم يكن مغلوباً بالحنجة

لأن الحنجة كانت عليهم، فقال نوح لله: اللهم فانتصر منهم أي انتقم.

ففتحنا أبواب السماء بماء منصب، وشققنا عيوناً بالماء، فالتقي ماء السماء وماء

الأرض على أمرٍ قد قدر في اللوح المحفوظ، وقدر عليه بإهلاكهم!

وفي التفاسير: أن الماء الذي تبع من الأرض نضب. والماء الذي نزل من

السماء هو البخار اليوم.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرُ﴾.

وحملنا نوحاً على ﴿ذَاتِ الْأَوْجِ﴾ أي سفينة، ﴿وَدُسِّرُ﴾ يعني المسامير وهي جمع

دسار أي مسمار.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيهما السياق.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا﴾ .

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : أي بمرأى منا . وقيل : تجري بأوليائنا .

ويقال : بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم .

ويقال : بأعين الماء الذي أنبعثاه من أوجه الأرض .

﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا﴾ : أي الذين كفروا بنوح .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

جعلنا أمر السفينة علامة بيّنة لِمَنْ يعتبر بها .

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ : فهل منكم من يعتبر؟ . أمرهم بالاعتبار بها .

قوله جل ذكره : ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ .

قالها على جهة التعظيم لأمره .

وقد ذكّر قصة نوح هنا على أفصح بيانٍ وأقصر كلامٍ وأتمّ معنى .

وكان نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمراً، وأشدهم للبلاء مقاساة .

ثم إن الله - سبحانه - لما نجى نوحاً مئتمه بعد هلاك قومه وامتع أولاده، فكل

مَنْ على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام . وفي هذا قوة لرجاء أهل الدين، إذا

لقوا في دين الله محنة؛ فإن الله يُهلك - عن قريب - عدوهم، ويُمكنهم من ديارهم

وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم .

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وسنة الله في جميع

أهل الضلال أن يُعزّ أولياءه بعد أن يزهق أعداءه .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

يسّرنا قراءته على السنة الناس، ويسّرنا علمه على قلوب قوم، ويسّرنا فهمه على

قلوب قوم، ويسّرنا حفظه على قلوب قوم، وكلّهم أهل القرآن، وكلّهم أهل القرآن،

وكلّهم أهل الله وخاصته .

ويقال : كاشف الأرواح من قوم - بالقرآن - قبل إدخالها في الأجساد .

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ لهذا العهد الذي جرى لنا معه .

قوله جل ذكره : ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ

نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ يَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ .

كذبوا هوداً، فأرسلنا عليهم ﴿ريحاً صرصراً﴾ أي : باردة شديدة الهبوب، يُسمع لها

صوت .

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي : في يوم شؤم استمرّ فيه العذاب بهم، ودام ذلك فيهم

ثمانية أيام وسَبَعُ لِيَالٍ . وقيل: دائم الشؤم تنزع رياحه الناس عن حُفْرِهِم التي حفروها حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنْقَطِع . وقيل: كانت الريح تقتلع رؤوسهم عن مناكبهم ثم تُلقي بهم كأنهم أصول نخلٍ قطعت رؤوسها .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

هُوَ نَا قِرَاءَتَهُ وَحِفْظَهُ ؛ فَلَيْسَ كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى يُقْرَأُ ظَاهِرًا إِلَّا الْقُرْآنَ .

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَنَحَدًا تَتَّبِعُهُ إِتْنَا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ .

هم قوم صالح . وقد مضى القول فيه ، وما كان من عقربهم للناقة . . إلى أن أرسل الله عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك ، فَصَيَّرَهُمْ كَالْهَشِيمِ ، وهو اليابس من النبات ، ﴿الْمُحْطَرِّ﴾ : أي : المجمول في الحظيرة ، أو الحاصل في الحظيرة^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴿حَاصِبًا﴾ : أي : حجارةً رُمُوا بها .

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ : أي : جعلنا إنجاءهم في إهلاك أعدائهم .

وهكذا نجزي من شكر ؛ فمثل هذا نعاملُ به مَنْ شَكَرَ نِعْمَتَنَا .

وَالشُّكْرُ عَلَى نِعْمِ الدَّفْعِ أَتَمُّ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى نِعْمِ النِّفْعِ - وَلَا يَغْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا كُلُّ مُوقِفٍ كَيْسٍ^(٢) .

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ .

جاء جبريلُ وَمَسَحَ بِجَنَاحِهِ عَلَى وَجُوهِهِمْ فَعَمُوا ، ولم يهتدوا للخروج - وكذلك أجرى سُنَّتَهُ فِي أَوْلِيَائِهِ أَنْ يَطْمِسَ عَلَى قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ حَتَّى يَلْبَسَ عَلَيْهِمْ كَيْفَ يُوذُونَ أَوْلِيَائِهِ ثُمَّ يُخَلِّصُهُمْ مِنْ كَيْدِهِمْ .

قوله جل ذكره: ﴿سَيَهْرَمُوا لَمَجْمَعٍ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ﴾ .

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول ﷺ ، وَحَقَّقَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فصار ذلك معجزاته صلوات الله عليه وسلامه .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُسْجَرُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ .

سَخِبُهُمْ عَلَى الْوَجْهِ أَمَارَةٌ لِذَلَالِهِمْ ، ولو كان ذلك مرةً واحدةً لكانت عظيمة - فكيف وهو التأييد والتخليد!

وكما أن أمارَةَ الذُّلِّ تظهر على وجوههم فعلامَةُ إِعْزَازِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِكْرَامِهِمْ تظهر

(١) الآيات من (٢٥) حتى (٣٢) غير موجودة .

(٢) الآية (٣٦) لم ترد .

على وجوههم، قال تعالى: ﴿وَبُجُوهٌ يُؤْمَرُونَ بِأَنْ يُسَبِّحُوا﴾ [القيامة: ٢٢]. وقال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

أي بِقَدَرٍ مكتوب في اللوح المحفوظ.

ويقال: خلقناه بقدر ما عَلِمْنَا وأرَدْنَا وأخْبَرْنَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

أي إذا أردنا خلقَ شيءٍ لا يتعسّر ولا يتعذّر علينا، نقول له: كُنْ - فيكون بقدرتنا. ولا يقتضي هذا استئناف قولٍ في ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القدم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يحصل في ذلك الوقت.

﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾: أي كما أن هذا القَدْرَ عندكم أي قَدْرَ ما يلمح أحدكم ببصره لا تلحقكم به مشقة - كذلك عندنا: إذا أردنا نخلق شيئاً - قل أو كثر، صَغَرَ أو كَبُرَ - لا تلحقنا فيه مشقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ﴾.

أي أهلكتنا القرون التي كانت قبلكم فكلهم أمثالكم من بني آدم...

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾.

في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يعمل. وفي صحيفة الملائكة مكتوب. لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَنْطَرٌ﴾.

كل صغير من الخلق، وكل كبير من الخلق - تخترمه المنية.

ويقال: كل صغير من الأعمال وكبير مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي ديوان الملائكة.

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف؛ لئلا يتجاسر العبد على الزلّة إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْأُنْقِيَاءَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُنْقَدِرٍ﴾.

لهم بساتين وأنهار، والجمع إذا قوبل بالجمع فالأحاد تُقَابَلُ بالأحاد.

فظاهرُ هذا الخطاب يقتضي أن يكون لكل واحدٍ من المتقين جنةٌ ونهرٌ.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: أي في مجلسِ صِدْقٍ.

﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُنْقَدِرٍ﴾: أراد به عِنْدِيَّةَ القُرْبَةِ والزلفة.

ويقال: مقعد الصدق أي مكان الصدق، والصادق في عبادته مَنْ لا يتعبدُ على ملاحظة الأطماع ومطالعة الأعواض.

ويقال: مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْهُ الأطماع، وَمَنْ صَدَقَ في العبودية تحرَّرَ عن المقاصد الدنيئة.

ويقال: مَنْ اشتغل بالدنيا حَجَبَتْهُ الدنيا عن الآخرة، وَمَنْ أَسْرَهُ نعيمُ الجنة حُجِبَ عن القيام بالحقيقة، وَمَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكون بجملته.

سورة الرحمن

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: إخبار عن عزّه وعظمته.

«الرحمن الرحيم»: إخبار عن فضله ورحمته.

فبشهود عظمته يكمل سرور الأرواح، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح. ولولا عظمته لما عبدَ الرحمنَ عابدٌ ولولا رحمته لما أحبَّ الرحمنَ واحدٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

أي الرحمن الذي عرّفه الموحّدون وجحدّه الكافرون هو الذي علّم القرآن. ويقال: الرحمن الذي رحمهم، وعن الشّرك عصمهم، وبالإيمان أكرمهم، وكلمة التقوى ألزمهم - هو الذي عرفهم بالقرآن وعلمهم.

ويقال: انفرد الحق بتعليم القرآن لعباده.

ويقال: أجرى الله سنّته أنه إذا أعطى نبينا ﷺ شيئاً أشرك أمته فيه على ما يليق بصفاتهم؛ فلما قال له (ﷺ): ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

قال لامته: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

ويقال: علّم الله آدم الأسماء كلّها ثم أمره بعرضها على الملائكة وذكر آدم ذلك لهم - قال تعالى: ﴿أُنبِئْني بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣٣] يا آدم، وعلّم (نبينا ﷺ)^(١) المسلمين القرآن فقال ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، والمُصَلِّي مُنَاجِ رَبِّهِ»^(٢) قال لآدم: أذكّر ما علّمك للملائكة. وقال لنا: ناخني يا عبدي بما علّمك. وقد يُلاطف مع أولاد الخدم بما لا يُلاطف به آباؤهم.

ويقال: لما علّم آدم أسماء المخلوقات قال له: أخبر الملائكة بذلك، وعلّمنا كلامه وأسماءه فقال: اقرأوا عليّ وخاطبوا به معي.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيه السياق.

(٢) أخرجه الزبيدي في (تحاف السادة المتقين ٤٧/٣، ٤٨)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/٢٥٢)، وأبو عوانة في (المسند ١٢٥/٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/١٢٤)، وصاحب (الأذكار النووية ٤٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/١٤٣٧).

ويقال: عَلم الأرواح القرآن - قَبْلَ تركيبها في الأجساد بلا واسطة، والصبيان إنما يُعَلِّمُونَ القرآن - في حالِ صِبْغِهِمْ - قبل أن عَرَفَتْ أرواحنا أحداً، أو سَمِعْنَا من أحدٍ شيئاً. . عَلمْنَا أسماءه:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادَفَ قلبي فارغاً فَتَمَكَّنَا
ويقال: سَقياً لأيام مضت - وهو يُعَلِّمنا القرآن.

ويقال: برحمته عَلمَهُم القرآن؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن - لا بقراءة القرآن يَصِلُونَ إلى رحمته.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلمَهُ الْبَيَانَ﴾.

﴿الْإِنْسَانَ﴾: ها هنا جنسُ الناس؛ عَلمَهُم البَيانُ حتى صاروا مُمَيِّزِينَ - فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان. وَعَلمَ كُلِّ قوم لسانَهُم الذي يتكلمون ويتخاطبون به. والبيان ما به تبيّن المعاني - وَشَرَحَهُ في مسائل الأصول.

ويقال: لَمَّا قال أهل مكة إنما يُعَلِّمهُ بَشَرٌ رَدَّ اللهُ - سبحانه - عليهم وقال: بل عَلمَهُ اللهُ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ ﷺ. وقيل هو آدم عليه السلام.

ويقال: البيان الذي خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرفُ به كَيفِيَّةَ مخاطبةِ الأغيار من الأمثال والأشكال. وأما أهل الإيمان والمعرفة فبيانُهُم هو عَلمُهُم كَيفِيَّةَ مخاطبةِ مولاهم - وبيانُ العبيد مع الحقِّ مختلفٌ: فقومٌ يخاطبونه بلسانهم، وقومٌ بأنفاسهم، وقومٌ بدموعهم:

دموعُ الفتى عَمَّا يحسُّ تترجمُ وأشواقه تبسدين ما هو يكتُم
وقومٌ بأنينهم وحنينهم:

قُلْ لي باللسنة التنفُّسُ كيف أنت وكيف حالك؟

قوله جل ذكره: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾.

يعني يجري أمرهما على حدِّ معلوم من الحساب في زيادة الليل والنهار، وزيادة القمر ونقصانه، وتُعرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام. وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأجلُ. . فالشمسُ تُكَوِّرُ والقمرُ يَتَكَدِّرُ.

وكذلك لشمس المعارفِ وأقمارِ العلوم - في طلوعها في أوج القلوبِ والأسرار - في حكمة الله حسابٌ معلومٌ، يُجْرِيها على ما سَبَقَ به الحُكْمُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

ويقال: النجم من الأشجار: ما ليس له ساق، والشجر: ما له ساق.

ويقال: النجوم الطالعة والأشجار الثابتة ﴿بِسَجْدَانِ﴾ سجود دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

سَمَكُ السماء وأعلاها، وعلى وصف الإتقان والإحكام بناها، والنجوم فيها أجراها، وبث فيها كواكبها، وحفظ عن الاختلال مناكبها، وأثبت على ما شاء مشارفها ومغاربها. . . وَخَلَقَ الْمِيزَانَ بين الناس ليعتبروا الإنصاف في المعاملات بينهم.

ويقال: الميزان العَدْلُ.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

احفظوا العَدْلُ في جميع الأمور؛ في حقوق الآدميين وفي حقوق الله، فيعتبر العَدْلُ، وتَرْكُ الحَيْفِ ومجاوزة الحد في كل شيء؛ ففي الأعمال يُعْتَبَرُ الإخْلَاصُ، وفي الأحوال الصدق، وفي الأنفاس الحقائق ومساواة الظاهر والباطن وتَرْكُ المداهنة والخداع والمكر ودقائق الشُّرْكِ وخفايا النفاق وغوامض الجنيات.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

وأقيموا الوزن بالمكيال الذي تحبون أن تُكَالُوا به، وعلى الوصف الذي ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾.

خلق الأرض وَجَعَلَهَا مهاداً ومثوى للأنام.

ويقال: وضعها على الماء ويسط أقطارها، وأثبت أشجارها وأزهارها، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارها.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ . . . يعني ألوان الفاكهة المختلفة في ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها، وحرارتها وبرودتها. . . وغير ذلك من اختلاف في حبها وشجرها، وورقها ونورها.

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ وأكمام النخل ليفها وما يُغْطِيهَا من السَّعْفِ.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾: حَبُّ الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحبوب.

﴿ذُو الْعَصْفِ﴾: والعصف ورق الزرع^(١).

(١) العصف: ما كان على ساق الزرع من الورق الذي يبس فيفتت، وقيل: هو ورقه من غير أن يُعْتِنَ يبس ولا غيره، وقيل: ورقه وما لا يؤكل. وفي التنزيل: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني =

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ الذي يُشَمُّ.. ويقال: «الرزق لأن العرب تقول: خرجنا نطلب ريحان الله».

ذُكِرَهم عَظِيمٌ مِثْنَهُ عَلَيْهِم بِمَا خَلَقَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْتَفِعُونَ بِهَا مِنْ مَأْكُولَاتٍ وَمَشْمُومَاتٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فبأي آلاء ربكما تجحدان؟ والآلاء الثعماء.

والثنية في الخطاب للمكلفين من الجن والإنس.

ويقال: هي على عادة العرب في قولهم: خليلي، وقفا، وأرحلها بأغلام، وأرجراها بأغلام.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾.

﴿الْإِنْسَانَ﴾: يعني آدم، والصلصال الطين اليابس الذي إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار. ويقال: طين مخلوط بالرمل.

ويقال: مُتَّئِنٌّ؛ من قولهم صَلَّ وَأَصَلَّ إِذَا تَغَيَّرَ.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾.

المارج: هو اللهب المختلط بواد النار.

﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يُذَكِّرُ الْخَلْقَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كَمَا سَبَقَ - وَكَرَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ عَلَى جِهَةِ التَّعْرِيفِ بِالنِّعْمَةِ عَلَى التَّفْصِيلِ، أَي نِعْمَةً بَعْدَ نِعْمَةٍ.

ووجّه النعمة في خلق آدم من طين أنه رقاها إلى رتبته بعد أن خلقه من طين.

ويقال ذُكِرَ آدَمَ نِسْبَتَهُ وَذُكِرْنَا نِسْبَتَنَا لِثَلَاثِ نَعَجَبَ بِأَحْوَالِنَا.

ويقال عَرَفَهُ قَدْرَهُ لِثَلَاثِ يَتَعَدَّى طَوْرَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾: مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما.

ووجه النعمة في ذلك جريانها على ترتيب واحد حتى يكمل انتفاع الخلق بهما.

ويقال: مشرق القلب ومغربه، وشوارق القلب وغواربه إنما هي الأنوار

والبصائر التي جرى ذُكْرُ بعضها فيما مضى.

= بالعصف ورق الزرع وما لا يؤكل منه، وأما الريحان فالرزق وما أكل منه، وقيل: العصف التبن وقيل: هو ما على حب الحنطة ونحوها من قشور التبن. (اللسان ٩/٢٤٧ مادة: عصف).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ .

﴿بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز بقدرته لثلا يغلب أحدهما الآخر، أراد به البحر العذب والبحر الملح. ويقال: لا يبغيان على الناس ولا يفرقانهم^(١).

﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانُ﴾ .

اللؤلؤ: كبار الدرّ، والمرجان: صغار الدرّ. ويقال: المرجان النّسل.

وفي الإشارة: حَلَقَ فِي الْقُلُوبِ بَحْرَيْنِ: بحر الخوف وبحر الرجاء. ويقال القبض والبسط. وقيل الهيبة والأنس. يُخْرِجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانُ وهي الأحوال الصافية واللطائف المتوالية.

ويقال: البحران. إشارة إلى النفس والقلب، فالقلب هو البحر العذب والنفس هي البحر الملح. فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين، وكلُّ حالةٍ لطيفة. . ومن النفس كل خلق ذميم. والدرّ من أحد البحرين يخرج، ومن الثاني لا يكون إلا التماسح مما لا قَدْرَ له من سواكن القلب. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾: يصون الحقُّ هذا عن هذا، فلا يبغي هذا على هذا^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ الْبُحَارُ الْمُتَنَنَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ .

﴿الجواري﴾: واحدها جارية، وهي السفينة.

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾: الجبال.

له هذه السفن التي أنشئت وخلقته في البحر كأنها الجبال العالية^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ .

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز. ومن حيث الخبر: «ستفنى الدنيا ومن عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» «والوجه»: صفة لله - سبحانه - لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلّ عليه جوازاً، وورد الخبر بكونه قطعاً.

ويقال: في بقاء الوجه بقاء الذات، لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولا محالة شرطها قيامها بنفسه وذاته. وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يُعْرَفُ بالعقل، والوجه لا يُعْلَمُ بالعقل، وإنما يُعْرَفُ بالنقل والأخبار. و «يبقى»: وفي بقاءه. سبحانه خَلَفَ عن كلِّ تلفٍ، وتسليّةً للمسلمين عمّا يصيبهم من المصائب، ويفوتهم من المواهب^(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿بِئْسَلُمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ .

(٣) الآية (٢٥) لم ترد.

(٤) الآيتان (٢٧ - ٢٨) لم تردا.

(١) الآية (٢١) لم ترد.

(٢) الآية (٢٣) لم ترد.

أهل السموات يسألون أبدأ المغفرة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة، أي لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه).

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله: وهم مَنْ قيل فيهم: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتَهُ أَفْضَلَ مَا أَعْطَى السَّائِلِينَ»^(١).

ويقال: ليس كلُّ مَنْ في السموات والأرض يسألونه مِمَّا في السموات والأرض ولكن:

بين المحبين سرٌّ ليس يُغشيه قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلخَلْقِ يحكيه ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِنْ إحياء وإماتة، وقبض قوم وبسط قوم. . . وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات، وما يُجره عليها من اختلاف الصفات.

وفي الآية ردُّ على اليهود حيث قالوا: إِنَّ اللَّهَ يَسْتريح يَوْمَ السَّبْتِ لا يفعل شيئاً، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن، ولو أُخْلِجِي العالمَ لحظةً من حِفْظِهِ لتلاشى وبطلَ.

(ومن شأنه أن يغفر ذنباً، ويستر عيباً، ويذهب كرباً)، ويُطِيب قلباً، ويُقصي عبداً ويُدني عبداً. . . إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلُّ ساعةٍ برٌّ جديدٌ، وسرٌّ بينه وبين عبده - عن الرقباء - بعيد.

ويقال: كل يوم هو في شأنٍ سَوِّقِ المقادير إلى أوقاتها.

ويقال: كل يوم هو في شأنٍ إظهارٍ مستورٍ وسرٍّ ظاهرٍ، وإحضارٍ غائبٍ وتغييبٍ حاضرٍ^(٢).

قوله جلَّ ذكره: ﴿سَتَفْرُجُ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ﴾^(٣).

أي للحساب يومَ القيامة - وليس به اشتغال. . . تعالى اللهُ عن ذلك. ومعنى الآية: ستقصد لحسابكم^(٤).

قوله جلَّ ذكره: ﴿يَتَمَعَّرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

أقطارُ السموات والأرضِ نواحيها. أي إن قدرتم أن تخرجوا من مُلكِه فاخرجوا.

(١) أخرجه الترمذي (ثواب القرآن ٢٥)، والدارمي (فضائل القرآن ٦).

(٢) الآية (٣٠) لم ترد.

(٣) الثقلان: الجن والإنس سُميا بذلك لتفضيل الله تعالى إياهما على سائر الحيوان المخلوق في الأرض بالتمييز والعقل الذي خصَّاه، وقيل: لأنهما كالثقل للأرض وعليها. (لسان العرب ٨٨/١١ مادة: ثقل).

(٤) الآية (٣٢) لم ترد.

ثم قال: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. أي لا تصلون إلى موضع إلا وهناك سلطاني ومُلْكِي ولا تنفذون في قَطْرِ إِلَّا وهناك عليكم حجة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصَرُونَ﴾.

أي فلا تنتقمان. والشواظ: اللهب من النار لا دخان معه. والنحاس: الصُّفْر^(٢) المذاب^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

ينفك بعضها عن بعض وتصير في لون الورد الأحمر. ويقال: بها الفُرْشُ الموردة كالدهان وهو جمع دهن. أي كدهن الزيت وهو دردي^(٤) الزيت.

ويقال: كما أن الوردة يتلون لونُها؛ إذ تكون في الربيع إلى الصُّفْرَة، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء، وبعد ذلك إلى الغبرة - فكذاك حال السماء تتلون من وصف إلى وصف في القيامة^(٥).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾.

أراد في بعض أحوال القيامة لا يُسألون، ويُسألون في البعض... فيوم القيامة طویل.

ويقال: لما كانت لهم يومئذٍ علامات: فللكفار سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات - فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم: من أنتم؟ لأنهم يعرفون كلاً بسيماهم.

ويقال: لا يُسألون سؤالاً يكون لهم ويُسألون سؤالاً يكون عليهم^(٦).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

المؤمنون عُزْرٌ مُحَجَّلُونَ^(٧)، والكفارُ سود الوجوه زُرْقُ العيون، فيعرف الملائكة

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

(٢) الصفر: النحاس الجيد، وقيل: الصفر ضرب من النحاس، وقيل: هو ما صفر منه. (اللسان ٤/ ٤٦١ مادة: صفر).

(٣) الآية (٣٦) لم ترد.

(٤) الدردي: ما رسب أسفل الزيت والعسل ونحوهما.

(٥) الآية (٣٨) لم ترد.

(٦) الآية (٤٠) لم ترد.

(٧) العزّ المحجلون: أي بيض مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام، استعار الوضوء في الوجوه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون من وجه الفرس ويديه ورجليه. (لسان العرب ١٤٤/١١ مادة: حجل).

هؤلاء فيأخذون بنواصيهم^(١) ويجزؤونهم مرة بها ومرة بأقدامهم ثم يلقونهم في النار، ويطرحونهم في جهنم^(٢):

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرِ آتٍ﴾ .

يقال لهم: هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون!

﴿حَمِيرٍ﴾: ماء حار. ﴿آتٍ﴾ تنهى في النضح^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ .

يقال: لِمَنْ خَافَ قُرْبَ رَبِّهِ مِنْهُ وَإِطْلَاعَهُ عَلَيْهِ .

ويقال: لمن خاف وقوفه غداً بين يدي الله - جنتان، ولفظة التثنية هنا على العادة في قولهم: خليلي ونحوه.

وقيل: بل جنتان على الحقيقة، مُعَجَّلَةٌ في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح الوقت، ومؤجَّلَةٌ في الآخرة وهي جنة الثواب. ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم^(٤).

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فِئَاتٍ أَلَّا رَبَّكَ كُذِّبَانٍ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ .

دلٌّ على أن الجنتين في الآخرة. والأفنان الأعصان. وهي جمع فنن.

ويقال: ذواتا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشتبهه النَّفْسُ والعَيْنُ - وتكون جمع

فن. ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ إحداهما التسنيم، والأخرى السلسيل.

ويقال: عينان تجريان غداً لمن كان له - اليوم - عينان تجريان بالدموع^(٥).

﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ .

زوجان أي صنفان وضربان؛ كالرطب واليابس، والعنب والزبيب.

ويقال: إنها في نهاية الحسن والجودة^(٦).

﴿مُشْكَبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ .

بطائنها من استبرق فكيف بظواهرها؟ «والبطائن»: ما يلي الأرض.

«والاستبرق»: الديباج الغليظ. وإنما خاطبهم على قَدْرِ فَهْمِهِمْ؛ إذ يقال إنه ليس في

الجنة شيء مما يُشْبِه ما في الدنيا، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أَفْهَامِهِمْ.

(١) النواصي: (ج) الناصية: ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس يكون حذاء الجبهة.

(٢) الآية (٤٢) لم ترد. (٣) الآية (٤٥) لم ترد.

(٤) الآية (٤٧) لم ترد. (٥) الآية (٥١) لم ترد.

(٦) الآية (٥٣) لم ترد.

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثاني من الله؛ أي: هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحَسَّنَ إليه من حيث القبول والثواب؟

وهل جزاء من أحسن من حيث الخدمة إلا أن يُحَسَّنَ إليه من حيث النعمة؟ ويصح أن يكون الإحسانان من الحق؛ أي: هل جزاء مَنْ أَحْسَنَّا إليه في الابتداء إلا أن نُحَسِّنَ إليه في الانتهاء؟ وهل جزاء مَنْ فاتحناه باللطف إلا أن نُزَيِّي له في الفضل والعطف؟

ويصح أن يكون كلاهما من العبد؛ أي: هل جزاء من آمن بنا إلا أن يثبت في المستقبل على إيمانه؟ وهل جزاء مَنْ عَقَدَ معنا عقد الوفاء إلا أن يقوم بما يقتضيه بالتفصيل؟

ويقال: هل جزاء مَنْ بَعُدَ عن نَفْسِهِ إلا أن نُقَرِّبَهُ مِنَّا؟

وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عَن نَفْسِهِ إلا أن يبقى بنا؟

وهل جزاء مَنْ رَفَعَ لَنَا خطوة إلا أن نكافئه بكل خطوة ألف خطوة، وهل جزاء من حفظ لنا طَرَفَهُ إلا أن نُكْرِمَهُ بِلِقَائِنَا^(١)؟

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتَا؛ جنتان أُخْرِيَانِ. وليس يريد دونهما في الفضل، ولكن يريد ﴿جَنَّتَانِ﴾ سواهما^(٢).

﴿مُدَاهَاتَانِ﴾.

أي: خضراوان خُضِرَةَ تضرب إلى السواد. فالدهمة السواد والفعل منه ادهامٌ والاسم منه مُدَاهِمٌ. وللمؤنث مدهامة، ولثنية المؤنث مدهامتان^(٣).

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾.

والتَضَخُّ فَوْرَانُ العينِ بالماء^(٤).

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ﴾.

الأسماء متشابهة. . والعيون فلا^(٥).

﴿فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾.

أي: حورٌ حَيْرَاتٌ الأخلاق حِسَانٌ الوجوه. واحدها حَيْرَةٌ والجمع حَيْرَاتٌ وهذا هو الأصل ثم خُفِّفَ فصارت حيرَاتٌ^(٦).

(٤) الآية (٦٧) لم ترد.

(٥) الآية (٦٩) لم ترد.

(٦) الآية (٧١) لم ترد.

(١) الآية (٦١) لم ترد.

(٢) الآية (٦٣) لم ترد.

(٣) الآية (٦٥) لم ترد.

﴿حُرٌّ مَّقْصُورٌ فِي الْخِيَارِ﴾ .

محبوسات على أزواجهن . وهُنَّ لِمَنْ هُوَ مَقْصُورٌ الْجَوَارِحُ عَنِ الزَّلَّاتِ ، مقصورُ القلب عن الغفلات ، مقصور السُّرُّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال . وفي بعض التفاسير : أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ^(١) في فرسخ لها ألف باب .

ويقال : قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن . وفي الخبر : «أنهن يقلن : نحن الناعمات . فلا نبؤس ، الخالدات فلا نبيد ، الراضيات فلا نسخط»^(٢) .

وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها : «أن المؤمنات أجبنهن» : نحن المصليات وما صَلَّيْتُنَّ ، ونحن الصائمات وما صُئِمْتُنَّ ، ونحن المتصدقات وما تَصَدَّقْتُنَّ» قالت عائشة يغلبهن^(٣) قوله :

﴿لَمْ يَطْمِئُنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ .

قيل : رياض الجنة ، وقيل : المجالس ، وقيل : الزرابي^(٥) والوسائد - وهي خُضِرٌ

﴿وعبقرى حسان﴾ : العبقرى عند العرب كلُّ ثوبٍ مَوْشَى^(٦) .

قوله جل ذكره : ﴿تَبَرَّكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .

مضى تفسيره .

(١) الفرسخ : فرسخ الطريق : مسافة تبلغ ثلاثة أميال هاشمية ، والميل الهاشمي ٥٧٦٠ متراً (ج) فراسخ (مع) فارسي .

(٢) أخرجه الترمذي (جنة ٢٤) ، وأحمد بن حنبل ١ ، ١٥٦ .

(٣) الآية (٧٣) لم ترد .

(٤) الآية (٧٥) لم ترد .

(٥) الزرابي : (ج) الزريبة : البساط أو السجادة ، أو الوسادة تُبسط لِيُكأَ عليها .

(٦) الآية (٧٧) لم ترد .

سورة الواقعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بِسْمِ اللَّهِ»: اسم جَبَّارٍ مَنْ اعْتَنَى بِشَأْنِهِ أَحْضَرَهُ بِإِحْسَانِهِ، فَإِنْ أَبَى إِلَّا تَمَادِيًا فِي عَصِيَانِهِ حَالَ بَيْنِهِ وَبَيْنَ اخْتِيَارِهِ بِقَهْرِ سُلْطَانِهِ، وَإِنْ لَمْ يَلْزَمْ هَذِهِ الطَّاعَةَ أَلْجَأَهُ بِالْبَلَاءِ فَيَأْتِيهَا بِاضْطْرَارِهِ.

اسم عزيزٌ أزلِيٌّ، جَبَّارٌ صَمَدِيٌّ، قَهَّارٌ أَحَدِيٌّ، لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيٌّ، وَبِالْعَاصِينَ حَفِيٌّ، لَيْسَ لِحَمَالِهِ كَفِيٌّ، وَلَا فِي جَلَالِهِ سَمِيٌّ، لَكِنَّهُ لِلْعَصَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لَوْقَعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾.

إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ لَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ.

﴿كَاذِبَةٌ﴾ هَاهُنَا مَصْدَرٌ: كَالْعَافِيَةِ، وَالْعَاقِبَةِ: أَي: هِيَ حَقَّةٌ لَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ، وَلَيْسَ

فِي وَقُوعِهَا كَذِبٌ.

ويقال: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ فَمَنْ سَلَكَ مِنْهَاجِ الصَّحَّةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَصَلَ إِلَى السَّلَامَةِ وَلَقِيَ الْكِرَامَةَ، وَمَنْ حَادَّ عَنْ نَهْجِ الْاسْتِقَامَةِ وَقَعَ فِي النَّدَامَةِ وَالْغَرَامَةِ، وَعِنْدَ وَقُوعِهَا يَتَبَيَّنُ الصَّادِقُ مِنَ الْمَمَازِقِ:

إِذَا اشْتَبَكَتْ دَمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لِأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لِأَهْلِ الْوَفَاقِ.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لِأَصْحَابِ الدَّعَاوَى، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لِأَرْبَابِ الْمَعَانِي.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لِلنَّفُوسِ، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لِلْقُلُوبِ.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لِأَهْلِ الشَّهْوَةِ، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لِأَهْلِ الصَّفْوَةِ.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لِمَنْ جَعَدَ، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لِمَنْ وَحَدَّ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾.

خُرُكَتْ حَرَكَةً شَدِيدَةً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيُسَّتُّ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَتًا﴾.

فُتِنَتْ فكانت كالهباء الذي يقع في الكوّة عند شعاع الشمس .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ
 مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ .

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾؟ على جهته التفخيم لشأنهم والتعظيم لِقَدْرِهِمْ وهم أصحاب
 اليمن والبركة والثواب .

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: على جهة التعظيم والمبالغة في دَمَهُمْ، وهم أصحاب
 الشؤم على أنفسهم ويقال: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم
 عليه السلام يومَ الذَّرِّ^(١)، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله .

ويقال: الذين يُعْطُونَ الكتابَ بأيمانهم، والذين يُعْطُونَ الكتابَ بشمائلهم .
 ويقال: هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين . . إلى الجنة، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات
 الشمال . . إلى النار .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى الخصال الحميدة،
 والأفضال الجميلة .

ويقال: السابقون إلى الهجرة . ويقال: إلى الإسلام . ويقال: إلى الصلوات
 الخمس .

ويقال: السابقون بصدق القَدَمِ . ويقال: السابقون بعلو الهِمَمِ . ويقال: السابقون
 إلى كل خير . ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى التَّدَمِّ
 إن لم يتسارعوا بصدق القَدَمِ .

ويقال: الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه:

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

ولم يقل: ﴿المتقربون﴾ بل قال: أولئك المُقَرَّبُونَ - وهذا عين الجَمْعِ، فعَلِمَ
 الكافة أنهم بتقريب ربهم سبقوا - لا بتقريبهم .

﴿فِي جَنَّاتٍ أَلْعَيبِ﴾ .

أي: في الجنة . ويقال: مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا في الجنة ثم
 يُقَرَّبُونَ من الجنة، وإنما يُقَرَّبُونَ إلى غير الجنة: يُقَرَّبُونَ من بساط القربة . .

وأنى بالبساط ولا بساط؟! مقربون . . ولكن من حيث الكرامة لا من حيث
 المسافة؛ مُقَرَّبَةٌ نفوسهم من الجنة وقلوبهم إلى الحق .

(١) الذر: أي بني آدم .

مُقَرَّبَةً قُلُوبُهُمْ مِنْ بَسَاطِ الْمَعْرِفَةِ، وَأَرْوَاحُهُمْ مِنْ سَاحَاتِ الشُّهُودِ - فَالْحَقُّ عَزِيزٌ . لَا قُرْبَ وَلَا بُعْدَ، وَلَا فَضْلَ وَلَا وَضْلَ .

ويقال: مقربون ولكن من حظوظهم ونصيبيهم . وأحوالهم - وإن صفت - فالحق وراء الورا .

قوله جل ذكره: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ .

الثَلَاثَةُ: الجماعة . ويقال: ثلثة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبينا ﷺ .

ويقال: ثلثة من الأولين: من السلف وقليل من المتأخرين: من الأمة .

﴿عَلَى سُرِيرٍ مَوْضُونَةٍ﴾^(١) .

أي منسوخة نسيج الدرع من الذهب . جاء في التفسير: طول كل سرير ثلاثمائة ذراع، إن أراد الجلوس عليه تواضع، وإن استوى عليه ارتفع .

﴿مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مَتَّعِيلِينَ﴾ .

أي لا يرى بعضهم قفا بعض . وصفهم بصفاء المودة وتهذب الأخلاق .

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ .

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يرحلون ولدان في سن واحد . لا يهرمون .

وقيل: مُقَرَّبُونَ (المخلدة . القُرط) .

﴿يَاكُوبَ وَأَيُّوبَ وَأَكْبَرَ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدِّقُونَ عَنَّا وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ .

﴿يَاكُوبَ﴾ جمع كوب وهي أنية بلا عروة ولا خرطوم، ﴿وَأَيُّوبَ﴾: جمع إبريق وهو عكس الكوب (أي له خرطوم وعروة) .

ولا صداع لهم في شربهم إياها، كما لا تذهب عقولهم بسببها .

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عین، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أي: المصون، جزاء بما كانوا يعملون^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ وَلَا تَأْتِيًا إِلَّا قِيلاً سَلَمًا سَلَمًا﴾ .

اللغو: الباطل من القول، والتأتميم: الإثم والهديان .

ولا يسمعون إلا قِيلاً سلاماً، وسلاماً: نعت للقليل .

(١) الموضونة: المنسوجة أي منسوجة بالدر والجوهر، بعضها مداخل في بعض . (لسان العرب ١٣/٤٥٠ مادة: وزن) .

(٢) الآيات من (٢٠ حتى ٣٤) - لم ترد .

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُورٍ﴾ : لا شك فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُورٍ﴾ :
والطلح شجر الموز، متراكم نضيد بعضه على بعض.

﴿وَطَلْحٍ مَّمْدُورٍ﴾ كما بين الإسفار إلى طلوع الشمس. وقيل: ممدود أي دائم.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ : جارٍ لا يتعبون فيه.

﴿وَفَنَكِهِمَ كَثِيرَةً﴾ : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم^(١).

﴿وَفَرُشٍ مَّرْقُوعَةٍ﴾ لهم. وقيل: أراد بها النساء.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي الحور العين.

﴿عَرَبًا﴾ جمع عَرُوب وهي العنِجَةُ المتحبةُ إلى زَوْجِهَا. ويقال عرباً: أي
مُتَشَبِهَاتٍ إلى أزواجهن.

﴿أَنْزَابًا﴾ : جمع تيزب، أي: هُنَّ عَلَى سِنٍّ وَاحِدَةٍ.

﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ : أي خلقناهن لأصحاب اليمين.

﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ : أي: ثلثة من أولى هذه الأمة، وثلثة من
آخرها.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سُمُورٍ وَحَمِيرٍ﴾ : والسَّمُومُ فيحُ جهنم وحرُّها.
والحمير: الماء الحار.

﴿وَطَلْحٍ مِّنْ يَّمُورٍ﴾ ، وهو الدُخَانُ الْأَسْوَدُ.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ : لا بارد: أي لا راحة فيه. ولا كريم: ولا حَسَنٍ لَهُمْ؛
(حيث لا نفع فيه).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَبِينَ﴾ : أي: كانوا في الدنيا مُتَّعِينَ.

﴿وَكَانُوا يَصْرُونَ عَلَىٰ لَيْثِ الْعَظِيمِ﴾ أي الذَّنْبِ الْعَظِيمِ.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ نَا لَتَبْعُوْنَا؟﴾ : أي: أَنهْم يُكْذِبُونَ
بالبعث^(٢).

ثم يقال لهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْكَاذِبُونَ﴾ اليوم ﴿لَا تَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُؤْمِرٍ﴾ وجاء
في التفسير: أن الزقوم شجرة في أسفل جهنم إذا طرَحَ الكافرُ في جهنم لا يصل إليها
إلا بعد أربعين خريفاً.

﴿قَالُونَ يَا أَبْطُورَ فَنَسِرُونَ عَلَيْهِ مِّنَ اللَّعِيمِ﴾ شرابٌ لا تهنأون به ﴿فَنَسِرُونَ شَرِبَ الْيَمِيرِ﴾ :
وهي الإبل العِطَاشُ. ويقال: الهيم أي الرَّمْلُ ينضب فيه كلُّ ما يُصَبُّ عَلَيْهِ.

(٢) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد.

(١) الآية (٣٣) لم ترد.

﴿ هَذَا نُزِّلَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ : يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ .

نحن خلقناكم : يا أهل مكة - فهلاً آمنتم لتتخلصوا؟ توبخون وتعتابون . . . واليوم تَعْتَدِرُونَ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسْمَعُ منكم شيء .

وإن أشد العقوبات عليهم يومئذ أنهم لا يتفرغون من آلام نفوسهم وأوجاعِ أعضائهم إلى التحسر على ما فاتهم في حق الله .

ويقال : أشد البلاء - اليوم - على قلوب هذه الطائفة خوفهم من أن يشغلهم - غداً - بمقاساة الآمهم عن التحسر على ما تكدر عليهم من المشارب في هذا الطريق . وهذه محنة لا شيء أعظم على الأصحاب منها . وإن أصحاب القلوب - اليوم - يبتهلون إليه ويقولون : إن حرمتنا مشاهد الأُنس فلا تشغلنا بلذات تشغلنا عن التحسر على ما فاتنا ، ولا بالآم تشغلنا عن التأسف على ما عدمتنا منك .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ؕ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ .

يقال : منى الرجل وأمنى . والمعنى : هل إذا باشرتم وأنزلتم وانعقد الولد . . . أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ والخلقُ ها هنا : التصوير؛ أي : أنتم تجمعون صورَ المولود وتُرَكَّبون أعضاءه . . . أم نحن؟

وهم كانوا يَقْرُونَ بالنشأة الأولى فاحتج بهذا على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذي كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصل في إثبات الصانع؛ فإن أصلَ خَلْقَةِ الإنسان من قطرتين : قطرة من صُلْبِ الأب وهو المنى وقطرة من تربية الأم ، وتجتمع القطرتان في الرَّجْمِ فيصير الولد . وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التي هي أجزاء الإنسان من العَظْمِ والعَصَبِ والعَرِيقِ والجِلْدِ والشَّعْرِ . . ثم يركبها على هذه الصور في الأعضاء الظاهرة وفي الأجزاء الباطنة حيث يُشَكَّلُ كل عضوٍ بشكلٍ خاص ، والعظامُ بكيفية خاصة . . إلى غير ذلك .

وليس يخلو : إمَّا أن يكونَ الأبوان يصنعانه - وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصرِ عِلْمِها وقُدْرتهما عن ذلك وتمنِيهما الولدَ ثم لا يكون ، وكراهتهما الولدَ ثم يكون!

والنطفة أو القَطْرَةُ محالٌ تقديرُ فعلها في نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بَعْدُ ، ولا عِلْمُ لها ولا قدرة .

أو مِن غيرِ صانع . . وبالضرورة يُعَلَّمُ أنه لا يجوز .

فلم يَبْقَ إِلَّا أن الصانعَ القديمَ المَلِكَ العليمَ هو الخالق .

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ قَدَرْنَا يَبْنِكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ عَلَيْكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

يكون الموت في الوقت الذي يريده؛ منكم مَنْ يموت طفلاً ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت كهلاً، ويعللّ مختلفة وبأسبابٍ متفاوتة وفي أوقاتٍ مختلفة .
﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ في تقديرنا فيفوتنا شيءٌ ولَسْنَا بعاجزين عن أن نَحْلُقَ أمثالكُم، ولا بعاجزين عن تبديلِ صُوركم التي تعلمون؛ إن أردنا مُسَخِّكُمْ وتبديلِ صُوركم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ .

ويقال: وننشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

أي: أنتم أقررتم بالنشأة الأولى . . فهلاً تذكرون لتعلموا جَوَازَ الإعادة؛ إذ هي في معناها .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۚ إِنَّكُمْ تَرْزَعُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الرَّزَّاعُونَ﴾ .

أي: إذا ألقيتم الحَبَّ في الأرض . . أنتم تُثْبِتُونَهُ أم نحن المُثْبِتُونَ؟ وكذلك وجوه الحكمة في إنبات الرِّزْع، وانقسام الحَبَّة الواحدة على الشجرة النابتة منها في قشرها ولحائها وجذعها وأغصانها وأوراقها وثمارها - كل هذا:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ .

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خُضْرَتِهِ، فصِرْهُم تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه، وإنفاقكم عليه، ثم تقولون:

﴿إِنَّا لَمَعْرُومُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ .

أي: لَمَلْزَمُونَ غرامة ما أنفقنا في الرِّزْع، وقد صار ذلك غُرماً علينا - فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقه بغير عَوْضٍ .

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِثْلُ الرزق .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۚ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ ۚ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۚ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ .

أنتم أنزلتموه من السحاب . . أم نحن نُنزِلُهُ متى نشاء أئى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً في الوقت وفي المقدار وفي الكيفية، في القِلَّة وفي الكثرة .

ولو نشاء لجعلناه ملحاً . . أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ الله - سبحانه - عليكم في تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التي خلقها لكم .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنشَأْتُمُ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ﴾ .

وَرَى الزُّنْدَ يُرَى فَهُوَ وَاِرٍ . . وَأُورَاهُ يُورِيهِ أَي يَقْدَحُهُ .

يعني: إذا قدحتم الزند . . أرايتم كيف تظهر النار - فهل أنتم تخلقون ذلك؟

أنتم أنشأتم شجرتها - يعني المَرْخُ^(١) والعَفَّارُ^(٢) - أم نحن المنشئون؟

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾: أي يمكن الاستدلال بها .

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ﴾: يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقواء أي: الأرض الخالية .

فالمعنى: أن هذه النار ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يتذكَّر بها الإنسان ما توعد به في الآخرة من نار جهنم، و ﴿وَمَتَاعًا﴾: يستمتع بها المسافر في سفره في وجوه الانتفاع المختلفة .

قوله جل ذكره: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ .

أي: اسبح بفكرك في بحار عقلك، وعض بقوة التوحيد فيها تظفر بجواهر العلم، وإياك أن تقصر في الغوص لسبب أو لآخر، وإياك أن تتداخلك الشبهة فيتلف رأس مالك ويخرج من يدك وهو دينك واعتقادك . . ولأغرق في بحار الشبهة، وضللت .

وهذه الآيات التي عدها الله - سبحانه - تمهد لسلوك طريق الاستدلال، فكما في الخبر «فِكْرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ»^(٣) - وقد نبه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ الشُّجُورِ وَإِنَّهُ لَقَسَدٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(١) المَرْخُ: من العضاء وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سبلبة قضبان دقاق، وينبت في شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، واحدته مرخة . (لسان العرب ٥٤/٣ مادة: مرخ).

(٢) العَفَّارُ: شجر يُتخذ منه الزناد . (لسان العرب ٥٨٩/٤ مادة: عفر).

(٣) للحديث رواية تقول: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/١١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٧١٠)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٢) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٣٠٥/٢)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/٣٧٠ - ٣٧١) والفنني في (تذكرة الموضوعات ١٨٨)، والسيوطي في (اللآلئ المصنوعة ٢/١٧٥)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ١٧٣)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١٤٤/٣).

قيل: هي مواقع نجوم السماء. ويقال: مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول

ﷺ.

﴿إِنَّكُمْ لَقَرَأْنَا كَرِيمًا﴾: وَالكَرَمُ نَفْيُ الدَّنَاءِ - أي: أنه غير مخلوق ويقال: هو ﴿لَقَرَأْنَا كَرِيمًا﴾: لأنه يدل على مكارم الأخلاق.

ويقال هو قرآن كريم لأنه من عند رب كريم على رسول كريم، على لسان ملك كريم. ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾: يقال: في اللوح المحفوظ. ويقال: في المصحف. وهو محفوظ عن التبديل. ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ عن الأدناس والعيوب والمعاصي.

ويقال: هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر: أي لا ينبغي أَنْ يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُتَطَهِّرًا من الشُّرْكِ وعن الأحداث^(١).

ويقال: لا يجد طَعْمَهُ وَبَرَكَتَهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ.

ويقال: لا يقربه إِلَّا المَوْحِدُونَ، فأما الكُفَّارُ فيكروهون سماعه فلا يقربونه.

وقرىء الْمُطَهَّرُونَ: أي الذين يُطَهَّرُونَ نفوسهم عن الذنوب والخُلُقِ الدُّنْيِي.

ويقال: لا يَمَسُّ خَيْرُهُ إِلَّا مَنْ طَهَّرَ يَوْمَ القِسْمَةِ عن الشقاوة.

ويقال: لا يَفْهَمُ لطائفةً إِلَّا مَنْ طَهَّرَ سِرَّهُ عن الكون.

ويقال: المطهرون سرائرهم عن غيره.

ويقال: إِلَّا الْمُخْتَرِمُونَ له القائمون بحقه.

ويقال: إِلَّا مَنْ طَهَّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة.

﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مُنْزَلٌ من قِبَلِهِ - سبحانه.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

أبهذا القرآن أنتم تُنَافِقُونَ، وبه تُكَذِّبُونَ.

﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: كانوا إذا أُمِطُوا يقولون: أُمِطْنَا بِتَوَيْ كَذَا.

يقول: أتجعلون بَدَلَ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالمطر الكفران به، وتوهمون أن المطر -

الذي هو نعمة من الله - من الأنواء والكواكب؟!

ويقال: أتجعلون حَظَّكُمْ ونصيبكم من القرآن التَّكْذِيبَ؟.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ اللَّحْمُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَّظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ

وَلَكِنْ لَا بُشُورُونَ﴾.

(١) الأحداث: (ج) الحدث (عند الفقهاء): ما ينقض الطهارة.

يخاطبُ أولياء الميت فيقول: هَلَا إِذَا بَلَغَتْ رَوْحُهُ الْحَلْقُومَ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمَرِيضِ، رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَحَقَّقْتُمْ بِهِ؟ فَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ وَالْقُدْرَةِ.. وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ!

ويقال: أقرب ما يكون العبدُ من الحقِّ عندما يتم استيلاءُ ذكْرِهِ وشهوْدِهِ عليه، فينتفي إْحْسَاسُ العبدِ بغيره، وعلى حسب انتفاء العلم والإحساسِ بالأغيار - حتى عن نفسه - يكون تحقُّقُ العبدِ في سِرِّهِ حتى لا يرى غير الحقِّ.

فالقرب والبعد معناهما: أَنَّ العبدَ في أوانِ صحوه وأنه لم يُؤْخَذْ - بَعْدُ - عن نفسه؛ فَإِذَا أُخِذَ عَنْهُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا الْحَقُّ.. لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ لَا قُرْبَ وَلَا بُعْدَ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ليس لكم من أمر الموت شيء.

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: تردُّون الروح إلى الجسد.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: في أنه لا بعث.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾.

المقربون هم الذين قرَّبهم اللهُ بفضله، فلهم ﴿فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ﴾.

ويقال: الرِّوْحُ الاستراحة، والريحانُ الرزقُ.

وقيل: الرِّوْحُ في القبر، والريحانُ: في الجنة.

ويقال: لا يخرج مؤمِنٌ في الدنيا حتى يُؤْتَى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشمه قبل

خروج روحه، فالرِّوْحُ راحةٌ عند الموت، والريحانُ في الآخرة.

وقيل: كانت قراءة النبي ﷺ «الرِّوْحُ» بضم الراء أي لهم فيها حياة دائمة.

ويقال: الرِّوْحُ لقلوبهم، والرياحُ لنفوسهم، والجنَّةُ لأبدانهم.

ويقال: رَوْحٌ في الدنيا، وريحانٌ في الجنة، وجنَّةٌ نعيمٌ في الآخرة.

ويقال: رَوْحٌ وريحانٌ مُعْجَلَانِ، وجنة نعيمٍ مؤجلة.

ويقال: رَوْحٌ للعابدين، وريحانٌ للعارفين، وجنَّةٌ نعيمٍ لعوام المؤمنين.

ويقال: رَوْحٌ نسيم القرب، وريحانُ كمال البسط، وجنة نعيمٍ في محل

المناجاة.

ويقال: رَوْحُ رؤية الله، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة، وجنة نعيمٍ أن يدوم

هذا ولا ينقطع.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلْوُا لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

أن نخبرك بسلامة أحوالهم.

ويقال: سترى فيهم ما تحب من السلامة.

ويقال: أمانٌ لك في بابهم؛ فلهم السلامة. ولا تُشغِلُ قلبك بهم.

ويقال: فسلامٌ لك - أيها الإنسان - إنك من أصحاب اليمين، أو أيها الإنسان الذي من أصحاب اليمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزِّلْ مِنْ جَمِيرٍ وَّتَصْلِيَةٌ جَمِيرٍ﴾.

إن كان من المكذبين لله، الضالين عن دين الله فله إقامة في الجحيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَجِّحْ بِأَتَمِّ رَيْكَ الْعَظِيمِ﴾.

هذا هو الحق اليقين الذي لا محالة حاصل.

﴿فَسَجِّحْ بِأَتَمِّ رَيْكَ الْعَظِيمِ﴾.

أي قدس الله عمّا لا يجوز في وصفه.

ويقال: صلّ لله. ويقال: اشكز الله على عصمة أمّتك من الضلال، وعلى

توفيقيهم في اتباع سُنَّتِكَ.

سورة الحديد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

سماعٌ بسم الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي بِهِ الْحَقُّ - سبحانه وتعالى - قلوب أحبائه، فإذا شربوا طربوا، وإذا طربوا انبسطوا^(١)، ثم لشهود حقه تعرضوا، وينسىم قُزْبُهُ استأنسوا، وعند الإحساس بهم غابوا. فعقولهم تُسْتَفْرَقُ فِي لُطْفِهِ، وقلوبهم تُسْتَهْلِكُ فِي كَشْفِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التسبيحُ التقديسُ والتزنية، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال، فيظفرون بجواهر التوحيد ويُنظِّمونها في عقود الإيمان، ويُرْصَعونها في أطواق الوصلة:

وقله ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المرادُ به «من» في السموات والأرض، يسجدون لله طوعاً وكرهاً؛ طوعاً تسبيح طاعة وعبادة، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة.

وتُحْمَلُ «ما» على ظاهرها فيكون المعنى: ما من مخلوق من عينٍ أو أثرٍ إلا ويدلُّ على الصانع، وعلى إثبات جلاله، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه.

ويقال: يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلٌّ واقِفٌ على الباب بشاهدِ الطَّلَبِ... ولكنه - سبحانه عزيزٌ.

ويقال: ما تَقَلَّبَ أَحَدٌ من جاحِدٍ أو ساجِدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد، فما يُصَرِّفُهُمْ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُمْ؛ فَمِنْ مُطَبِّعِ أَلْبَسَهُ نِطَاقَ وِفَاقِهِ - وذلك فَضْلُهُ، وَمِنْ عَاصِرِ رَبِّطِهِ بِمِثْقَلَةِ الْخِذْلَانِ - وذلك عَدْلُهُ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: العزيز: الْمُعِزُّ لِمَنْ طَلَبَ الْوَصُولَ، بل العزيز: الْمُتَقَدِّسُ عن كل وصول.. فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إِلَّا حَظَّهُ وَنِصْبِيهِ وَصَفْتَهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِشَيْءٍ وَوَيْمِيتٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن القبض والبسط: هما حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف. وكذلك المبسوط: قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال. (الرسالة القشيرية ص ٥٨).

المُلْكُ مبالغةٌ من المِلْكِ، وهو القدرة على الإبداع، ولا مالِكُ إلا الله. وإذا قيل لغيره: مالك فعلى سبيل المجاز؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلْكِ الناس صحيحةٌ في الشرع، ولكن لفظُ المِلْكِ فيها توسعٌ كما أن لفظَ التيمم في استعمال التراب - عند عدم الماء - في السفر مجازٌ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: يحيي النفوس ويميتها. ويُحيي القلوب بإقباله عليها، ويميتها بإعراضه عنها. ويقال: يحييها بنظره وتفضله، ويميتها بقهره وتعززه.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿الأول﴾: لاستحقاقه صفة القدم، و ﴿الآخر﴾ لاستحالة نعت العدم.

و ﴿الظاهر﴾ بالعلو والرفعة، و ﴿الباطن﴾: بالعلم والحكمة.

ويقال: ﴿الأول﴾ فلا افتتاح لوجوده و ﴿الآخر﴾ فلا انقطاع لثبوته.

﴿الظاهر﴾ فلا خفاء في جلال عزه، ﴿الباطن﴾ فلا سبيل إلى إدراك حقه.

ويقال ﴿الأول﴾ بلا ابتداء، و ﴿الآخر﴾ بلا انتهاء، و ﴿الظاهر﴾ بلا خفاء، و ﴿الباطن﴾ بنعت العلاء وعز الكبرياء.

ويقال ﴿الأول﴾ بالعناية، و ﴿الآخر﴾ بالهداية، و ﴿الظاهر﴾ بالرعاية، و ﴿الباطن﴾ بالولاية.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالخلق، و ﴿الآخر﴾ بالرزق، و ﴿الظاهر﴾ بالإحياء، و ﴿الباطن﴾ بالإماتة والإفناء.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

ويقال: ﴿الأول﴾ لا بزمان، و ﴿الآخر﴾ لا بأوان، و ﴿الظاهر﴾ بلا اقتراب، و ﴿الباطن﴾ بلا احتجاب.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالوصلة، و ﴿الآخر﴾ بالخلّة، و ﴿الظاهر﴾ بالأدلة، و ﴿الباطن﴾ بالبعد عن مشابهة الجملة.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالتعريف، و ﴿الآخر﴾ بالتكليف، و ﴿الظاهر﴾ بالتشريف، و ﴿الباطن﴾ بالتخفيف.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالإعلام، و ﴿الآخر﴾ بالإلزام، و ﴿الظاهر﴾ بالإنعام، و ﴿الباطن﴾ بالإكرام.

ويقال: ﴿الأول﴾ بأن اصطفاك و ﴿الآخر﴾ بأن هداك، و ﴿الظاهر﴾ بأن رعاك، و ﴿الباطن﴾ بأن كفاك.

ويقال: مَنْ كان الغالبُ عليه اسمه ﴿الأول﴾ كانت فكرته في حديثٍ سابقته:
بماذا سمَّاه مولاه؟ وما الذي أجرى له في سابق حُكمه؟ أسعاده أم بشقائه؟

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الآخر﴾ كانت فكرته فيه: بماذا يختم له
حالُه؟ وإلام يصير مآله؟ أعلى التوحيد يخرُج من دنياه أو - والعياذُ بالله - في النارِ غداً
- مثواه؟

ومن كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الظاهر﴾ فاشتغاله بشكر ما يجري في الحال
من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحُسن الرعاية .

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الباطن﴾ كانت فكرته في استبهاام أمره عليه
فيتعثر ولا يدري . . أفضل ما يعامله به ربُّه أم مَكْر ما يستدرجه به ربُّه؟

ويقال: ﴿الأول﴾ علم ما يفعله عباده ولم يمنعه علمُه من تعريفهم، ﴿والآخر﴾
رأى ما عملوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم ﴿والظاهر﴾ ليس يخفى عليه شيء من
شأنهم، وليس يدع شيئاً من إحسانهم ﴿والباطن﴾ يعلم ما ليس لهم به علم من
خسرانهم ونقصانهم فيدفع عنهم فنون مَحْنهم وأحزانهم .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ﴾ .

مضى الكلام في ذلك .

﴿يَعْلَمُ مَا بَلِغٌ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ .

أي ما يدخل فيها من القَطْرِ، والكنوز، والبذور، والأموات الذين يُدفنون فيها،
﴿وما يخرج منها﴾ من النبات وانفجار العيون وما يُستخرُج من المعادن .

﴿وَمَا يَزَلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ .

من المطر والأرزاق . أو ما يأتي به الملائكة من القضاء والوحي .

﴿وَمَا يَمْزُجُ فِيهَا﴾ .

أي وما يصعد إليها من الملائكة، وطاعات العباد، ودعوات الخلق، وصحف
المُكَلَّفين، وأرواح المؤمنين .

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

﴿وهو معكم﴾ بالعلم والقدرة .

ويقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَلِغٌ فِي الْأَرْضِ﴾ إذا ذُفِنَ العَبْدُ فاللَّهُ سبحانه يعلم ما الذي كان في
قلبه من إخلاص في توحيدِه، ووجوه أحزانه خسرانه، وشكّه وجحوده، وأوصافه
المحمودة والمذمومة . . ونحو ذلك مما يخفى عليكم .

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ على قلوب أوليائه من الألفاظ والكشوفات وفنون الأحوال العزيزة .

﴿وَمَا يَمْزُجُ فِيهَا﴾ من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا علت^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ .
مضى معناه .

قوله جل ذكره: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ .

صَدَقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ بتمليككم ذلك وتصييره إليكم . والذين آمنوا منكم وتصدقوا على الوجه الذي أمروا به لهم ثواب عظيم؛ فَإِنَّ مَا تَحْوِيهِ الْأَيْدِي مُعْرَضٌ لِلزَّوَالِ فَالسَّعِيدُ مَنْ قَدَّمَ فِي دُنْيَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ عِمَارَةَ حَالِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ سَارَ فِيمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَالَ مَالِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

أي شيء لكم في تَرْكِكُمْ الإيمان بالله وبرسوله، وما أتاكم به من الحشر والنشر، وقد أراح العلة بأن الأخ لكم الحجة، وقد أخذ ميثاقكم وقت الذر، وأوجب عليكم ذلك بحكم الشرع .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

ليخرجكم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين .

وكذلك يُرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْآيَاتِ بِكشوفات السرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون فيه النفع والخير؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير إلى سعة فضاء التفويض، وملاحظة فنون جريان المقادير .

وكذلك إذا أرادت النَّفْسُ الْجَنُوحَ إِلَى الرَّخْصِ وَالْأَخْذِ بِالتَّخْفِيفِ وما تكون عليه المطالبة بِالْأَشَقِّ - فَإِنَّ بَادَرَ إِلَى مَا تَدْعُوهُ الْحَقِيقَةُ إِلَيْهِ وَجَدَ فِي قَلْبِهِ مِنَ النُّورِ مَا يَعْلَمُ بِهِ ظِلْمَةَ هَوَاجِسِ النَّفْسِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَبِثُ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

(١) الآية (٥) لم ترد .

ما في أيديكم ميراثه الله، وعن قريب سيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتداول أحمالكم. وهو بهذا يحثهم على الصدقة والبدار إلى الطاعة وتزك الإخلاق إلى الأمل.. ثم قال:

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك. بل أولئك أعظم ثواباً وأعلى درجةً من هؤلاء؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشق على أصحابه.

ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ إلا أن فضيلة السبقي لهم، ولهذا قالوا:

السابق السابق قولاً وفعلاً حذَرُ النَّفْسِ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ يَكُنْ أَجْرٌ كَرِيمًا﴾.

المراد بالقرض الصدقة، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطيباً لقلوبهم، فكان المتصدق وهو يقرض شيئاً كالذي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى المستقرض.

ويقال: ﴿يُقْرِضُ﴾ أي يفعل فعلاً حسناً، وأراد بالقرض الحسن ها هنا ما يكون من وجهٍ حلالٍ ثم عن طيب قلب، وصاحبه مخلص فيه، بلا رياء يشوبه، وبلا من على الفقير، ولا يكدره تطويل الوعد ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض.

ويقال: أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُب الدارين، ففي الخبر: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»^(١) ومن لم يتحرز من شيء فخروجه عنه تكلف.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٣٩/٢، ٨١/٧)، ومسلم في (الصحيح الزكاة ب ٣٢ رقم ٩٥) وأبو داود في (السنن الزكاة ب ٤٠)، والنسائي في (السنن ٦٢/٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٧٨، ٤٠٢، ٤٧٦، ٥٢٤، ٤٣٤/٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٤/٤، ١٧٧، ١٨٠، ٧/٤٦٦)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢٢٤/٣)، والدولابي في (الكنى والأسماء ١/١٠٨)، والزبيعي في (نصب الراية ٤١٢/٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢٥٣/١، ٢٥٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٥٨٨/١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٢٩)، والبخاري في (شرح الألباني في (إرواء الغليل ٤١٥/٣) وابن حجر في (فتح الباري ٥٠٠/٩)، والبخاري في (شرح السنة ١٧٨/٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٢٣١، ١٦٢٦٤، ١٦٢٦٦، ١٦٢٦٧)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٤٣٩)، وابن كثير في (التفسير ٣٧٤/١)، والقرطبي في (التفسير ١١١/٧)، والدارقطني في (السنن ٢٩٦/٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١٥٨٦/٤)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٦٤٠٤).

وهو نورٌ يُغَطِّي للمؤمنين والمؤمنات بقُدْر أعمالهم الصالحة، ويكون لذلك النور مطارحُ شعاع يمشون فيها والنورُ يسعى بين أيديهم، ويحيط جميع جهاتهم.

ويقال: ﴿وَيَأْتِيهِمْ﴾ كتبهم.

﴿يُشَارِكُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتُ﴾ أي بشارتكم اليوم - من الله جنات. وكما أن لهم في العرصة هذا النور فاليوم لهم في قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه، ويهتدون به في جميع أحوالهم، قال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»^(١) وقال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وربما ينبسط ذلك النورُ على مَنْ يَقْرُبُ منهم. وربما يقع من ذلك على القلوب قهراً - ولأوليائه - لا محالة - هذه الخصوصية.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبس من نوركم. وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعْطَوْنَ كُتُبَهُمْ وهم في في النور، فإذا مرُّوا... انطفأ النور أمام المنافقين وسبق المؤمنون، فيقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا حتى نقتبس من نوركم. فيقول المؤمنون:

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

أي إلى الدنيا وأخلصوا! - تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين في الدنيا.

ويقال: ارجعوا إلى حُكْمِ الْأَزْلِ فاطلبوا هذا من القِسْمَةِ! - وهذا على جهة ضرب المثل والاستبعاد.

﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لِّمَنْ بَاطِنُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

﴿سُورًا﴾: وهو جَبَلٌ أصحاب الأعراف، يستر بينهم وبين المنافقين، فالوجه الذي يلي المؤمن فيه الرحمة وفي الوجه الآخر العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناكحة والمعاشرة؟

قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم..

﴿وَنَرَيْكُمْ وَرَبَّنَا وَعَرَّضْتُمْ الْأَمَاثِلُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّكُم بِاللَّهِ الْمَرُورُ﴾.

(١) أخرجه الترمذي (تفسير سورة ١٥، ١٦).

تربصتم عن الإخلاص، وشككتكم، وغرَّكم الشيطان، وركتتم إلى الدنيا.
قوله جل ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمْ النَّارُ هِيَ
مَوْلَانِكُمْ وَيَشْنَ الصِّيرُ﴾.

النار مأواكم ومصيركم ومثقلكم.

و ﴿هي مولاكم﴾ أي هي أولى بكم، وبش المصير!

ويقال: مخالفة الضمائر والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر، والأسرار لا تنكتم
عند الاختبار.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ
وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ألم يحزن للذين آمنوا أن تتواضع قلوبهم وتلين لذكر الله وللقرآن وما فيه من
العبر؟ وألا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل؟ وأراد بهم اليهود، وكثير من اليهود
فاسقون كافرون.

وأراد بطول الأمد الفترة التي كانت بين موسى ونبينا ﷺ، وفي الخبر: «أن
أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم ملالة فقالوا: لو حَدَّثْنَا»^(١).

فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فبعد مدة قالوا:

لو قَصَصْتَ علينا!

فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] فبعد مدة قالوا:

لو ذَكَّرْتَنَا وَوَعَّظْتَنَا!

فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وفي هذه الآية ما يشبه الاستبطاء.

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة، والشهوة والصفة لا تجتمعان؛ فإذا
حَصَلَت الشهوة رَحَلَت الصفة. وموجب القسوة هو انحراف القلب عن مراقبة الرب.
ويقال: موجب القسوة أوله حَظْرَةٌ - فالَمْ تُنْذِرْكَ صارت فكرة، والَمْ تُنْذِرْكَ صارت
عزيمة، فإن لم تُنْذِرْكَ جَرَّتْ المخالفة، فإن لم تُنْذِرْكَ بالتلافي صارت قسوةً وبعدئذ
تصير طبعاً ورئياً^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في (السنن ١٨٩٦).

(٢) الرين: الطبع والدنس، ران الثوب ريناً: تطبع. ران الذنب على قلبه: غلب عليه وغطاه. (لسان
العرب ١٩٢/١٣ مادة: رين).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .
يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِإِنزَالِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا وَإِخْرَاجِ النَّبْتِ مِنْهَا . وَيُحْيِي الْقُلُوبَ
الْمَيِّتَةَ - بَعْدَ إِعْرَاضِ الْحَقِّ عَنْهَا - بِحَسَنِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهَا .
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُضَفِّفَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعَّفُ لَهُمْ وَلَهُمْ
أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ .

أي المتصدقين والمتصدقات .

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ : يعني في النوافل .

﴿يُضَعَّفُ لَهُمْ﴾ في الحسنات، الحسنَةُ بَعَشْرُ أَمْثَالِهَا . . إلى ما شاء الله .

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ : ثوابٌ كَبِيرٌ حَسَنٌ . والشوابُ الكَرِيمُ أَنَّهُ لَا يَضُنُّ بِأَقْصَى

الْأَجْرِ عَلَى الطَّاعَةِ - وَإِنْ قَلَّتْ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ .

الصَّادِقُونَ : مَبَالِغَةٌ فِي الصِّدْقِ ، وَالشَّهَادَةُ : الَّذِينَ اسْتَشْهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،

فَالْمُؤْمِنُونَ بِمَنْزِلَةِ الصَّادِقِينَ وَالشَّهَادَةِ - لَهُمْ أَجْرُهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَنُورُهُمْ فِي الْقِيَامَةِ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .

وَالصَّادِقُ مَنْ اسْتَوَى ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ .

ويقال: هو الذي يحمل الأمر على الأَشَقِّ، ولا ينزل إلى الرُّخْصِ، ولا يجنح

للتأويلات .

والشهداء: الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة، ويعتكفون بأسرارهم في

أوطان القربة، ﴿وَنُورُهُمْ﴾ : ما كحل الحق به بصائرهم من أنوار التوحيد .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي

الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ .

الحياةُ الدُّنْيَا مُعَرَّضَةٌ لِلزَّوَالِ ، غَيْرُ لَابِثَةٍ وَلَا مَآكِثَةٍ ، وَهِيَ فِي الْحَالِ شَاغِلَةٌ عَنِ

اللَّهِ ، مُطْمِعَةٌ وَغَيْرُ مُشْبِعَةٍ ، وَتَجْرِي عَلَى غَيْرِ سَنَنِ الْإِسْتِقَامَةِ كَجِرْيَانِ لَعِبٍ (١) الصَّيْبَانِ ،

فَهِيَ تُلْهِمِي عَنِ الصَّوَابِ وَاسْتَبْصَارِ الْحَقِّ ، وَهِيَ تَفَاخُرٌ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

﴿كَشَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسْجُ قَدْرُهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطْلَمًا﴾ .

(١) اللُّغَابُ : مَا سَالَ مِنَ الْقَمِّ . (اللسان ١/٧٤١ مادة : لعب) .

الكفار: الزُّرَّاع.

هو في غاية الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف، ثم ينتهي إلى أن يتحطم ويتكسر.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

لأهله من الكفار.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

لأهله من المؤمنين.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾.

الدنيا حقيرة - وأحقر منها قدرًا طالبها وأقل منه خطرًا المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة؛ وطالب الجيفة ليس له خطر. وأخس أهل الدنيا من بخل بها.

وهذه الدنيا المذمومة هي التي تشغل العبد عن الآخرة!

قوله جل ذكره: ﴿سَاقِبُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أي سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم مغفرةً من ربكم، وذلك العمل هو التوبة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ ذكر عرضها ولم يذكر طولها؛ فالطول على ما يوافيه العرض.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: وفي هذا دليل على أن الجنة مخلوقة.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وفي ذلك ردٌّ على من يقول: «إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله

إيصال العبد إليها»... لأن الفضل لا يكون واجباً.

ويقال: لما سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواح مُقْتَضِيَةً

المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارح مستجيبةً للمطالبة، مُسْتَبْشِرَةٌ برعاية حقوق

الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاء من جانب الحق سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿مَا آتَاكَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن

قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

المصيبة خضلة تقع وتحصل. فيقول تعالى: لا يحصل في الأرض ولا في

أنفسكم شيء إلا وهو مُتَّبَتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العلم، وحق

فيه الحكم؛ فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه في اللوح المحفوظ.

فكل ما حصل في الأرض من خصبٍ أو جذبٍ، من سعة أو ضيق، من فتنة أو

استقامة وما حصل في النفوس من حزن أو سرور، من حياة أو موت كل ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل.

وفي قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهُ﴾ دليل على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه. وللعبد في العلم بأن ما يصيبه: من بسط وراحة وغير ذلك من واردات القلوب من الله - أشد السرور وأتم الإنس؛ حيث علم أنه أفرذ بذلك بظهر غيب منه، بل وهو في كثر العدم، ولهذا قالوا:

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن ما كان قلبي للصباية معهدا
قوله جل ذكره: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

عدم الفرحة بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النفس، فقيمة الرجال تتبين بتغيرهم - فمن لم يتغير بما يرد عليه - مما لا يريده - من جفاء أو مكروه أو محنة فهو كامل، ومن لم يتغير بالمسار كما لا يتغير بالمضار، ولا يسره الوجود كما لا يُخزئه العدم - فهو سيد وقته^(١).

ويقال: إذا أردت أن تعرف الرجل فاطلبه عند الموارد؛ فالتغير علامة بقاء النفس بأبي وجهه كان:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها، والفخر (ناجح)^(٢) عن رؤية ما به يفتخر.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

بخلوا بكتمان صفة نبينا ﷺ وأمروا أتباعهم بذلك، وذلك لما خافوا من كساد سوقهم وبطلان رياستهم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن الإيمان، أو إعطاء الصدقة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

والبخل - على لسان العلم - منع الواجب، فأما على بيان هذه الطائفة فقد قالوا: البخل رؤية قدر للأشياء، والبخيل الذي يُعطي عند السؤال، وقيل: مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمه فهو بخيل^(٣).

(١) انظر حديث القشيري في الرسالة عن الثلثين والتمكين. ص ٧٨ - ٨٠.

(٢) ما بين القوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قال القشيري: أصل الفتوة أن يكون العبد دائماً في أمر غيره. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٦،

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

أي أرسلناهم مؤيدين بالحُجج اللائحة والبراهين الواضحة، وأزخنا العِلَّةَ لِمَنْ أراد سلوك الحُجَّةِ المثلى، وَيَسِّرْنَا السَّبِيلَ عَلَى مَنْ آتَرَ اتِّبَاعَ الْهُدَى. وأنزلنا معهم الكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ، و﴿الميزان﴾: أي الحُكْمَ بِالْقُرْآنِ، واعتبار العَدْلِ والتسوية بين الناس.

﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: فلا يظلم أحدٌ أحداً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرِفُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿أنزلنا الحديد﴾: أي خلقنا الحديد.

ونصرة الله هي نصرته دينه، ونصرة الرسول باتِّباعِ سُنَّتِهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: أقوى من أن يُتَارَعَ شريكاً، أو يضارِعَه في المُلْكِ مليكاً، وأعزُّ من أن يحتاج إلى ناصر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

أي: أرسلنا نوحاً، ومن بعده إبراهيم، وجعلنا في نسلِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ.

﴿فَعَمَّهُمْ مُهْتَدٍ﴾.

أي: مستجيب.

﴿وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسُفُوتٌ﴾.

خرجوا عن الطاعة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم.

﴿وَرَهَابِيئَةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.

بَيِّنَ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُم بِالرَّهَابِيئَةِ^(١) بل هم الذين ابتدعوها ثم قال:

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾.

(١) الرهبانية: مصدر الراهب، والاسم الرهبانية من الرهبة: الخوف؛ فالنصارى كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعهد مشاقها، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عتقه. (لسان العرب ١/٤٣٧، ٤٣٨ مادة: رهب).

هم الذين انفردوا بما عقده معنا أن يقوموا بحقنا .

﴿فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِمَنِّهِمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا .

﴿كِفْلَيْنِ﴾ : أي نصيبين ؛ نصيباً على الإيمان بالله، وآخر على تصديقهم وإيمانهم

بالرُّسُل .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ ءَاهِلَ الْكِتَابِ ءَأَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ

بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

ومعناه: يعلم أهل الكتاب، و«لا» صلة . أي: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا

يقدرُونَ على شيء من فضل الله، فإن الفضل بيد الله . و«اليد» هنا بمعنى: القدرة، فالفضلُ بقدرة الله .

والإشارة في هذا: اتَّقُوا اللَّهَ بِحِفْظِ الْأَدْبِ مَعَهُ، ولا تأمنوا مَكْرَهَ أَنْ يَسْلَبَكُمْ مَا

وَهَبَكُمْ مِنْ أَوْقَاتِكُمْ . وكونوا على حَذَرٍ مِنْ بَغْتَاتٍ تَقْدِيرُهُ فِي تَغْيِيرِ مَا أَذَاقَكُمْ مِنْ أُنْسٍ مَحَبَّتِهِ .

وَاتَّبِعُوا السُّفْرَاءَ وَالرُّسُلَ، وحافظوا على أتباعهم حتى يُؤْتِيَكُمْ نصيبين من فضله:

عصمةً ونعمةً؛ فالعصمة من البقاء عنه، والنعمة هي البقاء به .

ويقال: يؤتكم نصيبين: نصيباً من التوفيق في طلبه، ونصيباً من التحقيق في

وجوده^(١) .

(١) الوجود هنا لم يقصد به ضد العدم . انظر الرسالة القشيرية ص ٦٣ : فالتواجد بداية والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهاية .

سورة المجادلة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ عَرَفَهَا بَدَّلَ الرُّوحَ فِي طَلِبِهَا - وإن لم يَحْطَ بوصولها، كلمة مَنْ طَلِبَهَا اِكْتَفَى بِالطَّلَبِ مِنْ قَبُولِهَا.

كلمة جِبَارَةٌ لَا تَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ، كلمة قَهَارَةٌ لَا يُوجَدُ مِنْ دُونِهَا مُلْتَحِدٌ.

كلمة مِنْهَا بِلَاءُ الْأَحْبَابِ - لَكِنْ بِهَا شِفَاءُ الْأَحْبَابِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.

لَمَّا صَدَقَتْ فِي شِكْوَاهَا إِلَى اللَّهِ وَأَيْسَتْ مِنْ اسْتِكْشَافِ ضُرِّهَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ - أَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهَا: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

تَضَرَّعَتْ إِلَى اللَّهِ، وَرَفَعَتْ قِصَّتَهَا إِلَى اللَّهِ، وَنَشَرَتْ غُصَّتَهَا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ - فَنَظَرَ إِلَيْهَا اللَّهُ، وَقَالَ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

ويقال: صارت فرجةً ورخصةً للمسلمين إلى القيامة في مسألة الظَّهَارِ^(١)، وليعلم العالمون أنَّ أحداً لا يخسر على الله.

وفي الخبر: أنها قالت: «يا رسول الله، إنَّ أوساً تزوجني شابةً غنيةً ذات أهل، ومالٍ كثير، فلما كبرت بيئي، وذَهَبَ مالي، وتَفَرَّقَ أهلي جعلني عليه كظَهْرِ أُمِّهِ، وَقَدْ نِدِمٌ وَنِدِمَتْ، وَإِنَّ لِي مِنْهُ صَبِيَّةً صِغَاراً إِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا».

فقال لها الرسول ﷺ - في رواية -: «ما أَمِرْتُ بِشَيْءٍ فِي شَأْنِكَ»^(٢).

وفي رواية أخرى أنه قال لها: «بُنِيَ عَنْهُ» (أي حرمت عليه).

(١) الظَّهَارُ: مِنَ النِّسَاءِ، وَظَاهِرُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَمِنْهَا، مِظَاهِرَةٌ وَظَاهِرٌ إِذَا قَالَ: هِيَ عَلَيَّ كِظْهَرُ ذَاتِ رَحِمٍ، وَقَدْ تَظْهَرُ مِنْهَا وَتَظَاهَرُ. (اللسان ٥٢٨/٤ مادة: ظهر).

(٢) أَخْرَجَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي (مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ ١١٥/٩)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي (الدَّرِّ الْمَشْهُورِ ٢/٢٠٤)، وَالطَّبْرِيُّ فِي (التَّفْسِيرِ ٢٨/٤، ١٤٥/٥).

فترددت إلى رسول الله ﷺ في ذلك، وشكت . . إلى أن أنزل الله حُكْمَ الظَّهَارِ .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الْأُمَّهَاتُ وَإِنَّهِنَّ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ عَفْوٌ﴾ .

قَوْلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِنِسَائِهِمْ - جرياً على عادة أهل الشُّرْكِ - أَنْتِ عَلِيٌّ كَظَهَرَ أُمِّي . . هذا شيء لم يَحْكُمِ اللهُ به؛ ولا هذا الكلام في نَفْسِهِ صِدْقٌ، ولم يثبت فيه شَرْعٌ، وإنما هو زورٌ مَخْضٌ وَكَذِبٌ صِرْفٌ .

فَعَلِمَ الكَافَةُ أَنَّ الحَقَائِقَ بِالتَّلْبِيسِ لَا تَتَعَزَّزُ؛ وَالسَّبَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحاً فَبِالْمَعَاوِدَةِ لَا يَثْبِتُ؛ فَالْمَرْأَةُ لَمَّا سَمِعَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلَهُ «بِنْتِ عَن» - كَانَ وَاجِباً عَلَيْهَا السُّكُونُ وَالصَّبْرُ؛ وَلَكِنَّ الضَّرُورَةَ أَنْطَقَتْهَا وَحَمَلَتْهَا عَلَى الْمَعَاوِدَةِ، وَحَصَلَتْ مِنْ ذَلِكَ مَسْأَلَةٌ: وَهِيَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَشْيَاءِ يَحْكُمُ فِيهَا ظَاهِرُ الْعِلْمِ بِشَيْءٍ؛ ثُمَّ تُغَيَّرُ الضَّرُورَةُ ذَلِكَ الْحُكْمَ لِصَاحِبِهَا .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعَظُوتَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

الظَّهَارُ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ أَصْلٌ، وَلَا بِتَصْحِيحِهِ نَطْقٌ أَوْ دَلَالَةٌ شَرْعٌ، فَإِنَّهُ بَعْدَ مَا رُفِعَ أَمْرُهُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَلَوَّحَ بِشَيْءٍ مَا، وَقَالَ فِيهِ حُكْمُهُ، لَمْ يُخَلِّ اللهُ ذَلِكَ مِنْ بَيَانٍ سَاقٍ بِهِ شَرْعُهُ؛ فَفُقِضَ فِيهِ بِمَا انْتَضَمَ جَوَانِبُ الْأَمْرِ كُلِّهِ .

فَارْتَفَاعُ الْأَمْرِ حَتَّى وَصُولِهِ إِلَى مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّحَاكُمُ لَدَيْهِ حَمَلُ الْمُتَعَدِّي عَنَاءَ فَعَلْتَهُ، وَأَعَادَ لِلْمَرْأَةِ حَقَّهَا، وَكَانَ سَبِيلاً لِتَحْدِيدِ الْمَسْأَلَةِ بِرُمَّتِهَا . . . وَهَكَذَا فَإِنَّ كُلَّ صَعْبٍ إِلَى زَوَالٍ . . . وَكُلُّ لَيْلَةٍ - وَإِنْ طَالَتْ - فَإِلَى إِسْفَارٍ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثُورًا كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .

الَّذِينَ يَخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَيَتْرَكُونَ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ أُذِلُّوا وَخُذِلُوا، كَمَا أُذِلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْكَافِرِ وَالْعَصَاةِ .

وَقَدْ أُجْرِيَ اللَّهُ سُنَّتَهُ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَهْلِ الْإِجْرَامِ؛ فَمَنْ ضَيَّعَ لِلرَّسُولِ سُنَّتَهُ،

(١) الآية (٤) لم ترد.

وأخذت في دينه بدعة انخرط في هذا السلك، ووقع في هذا الدلّ.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَنُ اللَّهُ وَنَوَّهَ اللَّهُ عَلَيْ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

يقال: إذا حُوسِبَ أحدٌ في القيامة على عمله تصور له ما فعله وتذكّره، حتى كأنه قائمٌ في تلك الحالة عن بساط الرُّلَّةِ، فيقع عليه من الحَجَلِ والنَّدَمِ ما ينسى في جَنِّهِ كُلَّ عَقُوبَةٍ.

فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاہ، فإن جَرَى المقدورُ ووقَعَ في هجئة التقصير فلتكن زلَّته على بال، وليتضرع إلى الله بحُسن الابتهاال.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مَعِيَّةُ الْحَقِّ - سبحانه - وإن كانت على العموم بالعلم والرواية، وعلى الخصوص بالفضل والنصرة - فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثرٌ عظيمٌ، ولهم إلى أن ينتهي الأمرُ بهم إلى التولُّه فالولِّه فالهيمان في غمار سماع هذا عيش راغد.

ويقال: أصحابُ الكهف - وإن جَلَّتْ رتبُهُم واختصت من بين الناس مرتبتهم - فالحقُّ سبحانه يقول: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] ولما انتهى إلى هذه الآية قال: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة﴾ فشتان بين مَنْ رابعُهُ كَلْبُهُ وبين مَنْ رابعُهُ رَبُّهُ!!

ويقال: أهلُ التوحيد، وأصحابُ العقولِ من أهل الأصولِ يقولون: اللُّهُ واحدٌ لا من طريق العدد، والحقُّ يقول: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ويقال حينما كنتَ فأنا معك؛ إن كنت في المسجد فأنا معك، وإن كنت في المصطبة فأنا معك، إن طَلَبَ العلماءُ التَّأْوِيلَ^(١) وشوَّشوا قلوبَ أولي المواجيد فلا بأس - فأنا معهم.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن الوصية للمريدين: فإن حجج هؤلاء في مسائلهم أظهر من حجج كل واحد وقواعد مذاهبيهم أقوى من قواعد كل مذهب. والناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال. (الرسالة القشيرية ص ٣٧٨).

إن حضرت المسجد فأنام معك بإسباغ النعمة ولكن وغداً، وإن أتيت المصطبة فأنام معك بالرحمة وإسبال ستر المغفرة ولكن نقداً:

هَبِكَ تَبَاعَدْتَ وَخَالَفْتَنِي تَقْدِيرُ أَنْ تَخْرَجَ عَنِ لُطْفِي

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوُوا عَنْهُ وَيَنْتَجِرُونَ بِالْأَيْمِرِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

أدوا قلوب المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم، ولم تكن في تناجيهم فائدة إلا قصدهم بذلك شغل قلوب المؤمنين، ولم ينتهوا عنه لما نهوا عنه، وأصرروا على ذلك ولم ينزجروا، فتوعدهم الله على ذلك، وتكون عقوبتهم بأن تتغامز الملائكة في باب فيما بينهم، وحين يشاهدون ذلك تترجم ظنونهم، ويتعذبون بتقسيم قلوبهم، ثم لا ينكشف الحال لهم إلا بما يزيدهم حزناً على حزن، وأسفاً على أسف.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَسْمَعُوا بِالْأَيْمِرِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَرُوا بِالْأَيْمِرِ وَالنَّفْقَىٰ وَانْفُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

إنما قبح ذلك منهم وعظم الخطر لأنه تضمن إفساد ذات البين، وخير الأمور ما عاد بإصلاح ذات البين، وبعكسه إذا كان الأمر بضده.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّل المؤمنون﴾.

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا. وإذا كانت المشاهدة غالبة، والقلوب حاضرة، والتوكُّل صحيحاً؛ والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسْخَرُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْفَرُوا بَشَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا﴾.

لكمال رحمته بهم وتمايم رافته عليهم، علمهم مراعاة حسن الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة دون أحكام العبادة في التفسح في المجالس والنظام في حال الزحمة والكثرة... وأغرز بأقوام أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحققهم بأركانه!

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ الرَّسُولَ فَاقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَقْدُمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لَمَّا كَانَ الْإِذْنَ فِي النُّجُوى مَقْرُونًا بِبِذْلِ المَالِ امْتَنَعُوا وَتَرَكَوْا، وَبِذَلِكَ ظَهَرَتْ جَوَاهِرُ الأَخْلَاقِ وَنِقَاةُ الرِّجَالِ - وَلَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِن يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِفْكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَصْفَانَكُمْ﴾^(١) [محمد: ٣٧].

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ .

مَنْ وَافَقَ مَغْضُوبًا عَلَيْهِ أَشْرَكَ نَفْسَهُ فِي اسْتِحْقَاقِ غَضَبِ مَنْ هُوَ الغَضِيانُ؛ فَمَنْ تَوَلَّى مَغْضُوبًا عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ اللهُ اسْتَوْجَبَ غَضَبَ اللهُ وَكَفَى بِذَلِكَ هَوَانًا وَخِسْرَانًا.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُمَّ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهُ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .

هذا وصفٌ للمنافقين .

﴿أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي وقايةً وسترًا؛ وَمَنْ اسْتَرَّ بِجُنَّةِ طَاعَتِهِ لِتَسْلَمَ لَهُ دُنْيَاهُ فَإِنَّ سَهَامَ التَّقْدِيرِ مِنْ وَرَائِهِ تَكْشِفُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ . . . فَلَا دِينَهُ يَبْقَى، وَلَا دُنْيَاهُ تَسْلَمُ، وَلَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ نَقْفَى عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾^(٢) [آل عمران: ١٠].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا يَحْلِفُونَ لَمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شِقْوَةٍ آلَا أَيْمَانَهُمْ هُمُ الكاذِبُونَ﴾ .

عَقُوبَتُهُمُ الكَبْرَى ظَنُّهُمُ أَنَّ مَا عَمِلُوا مَعَ الخَلْقِ يَتَمَشَّى أَيْضًا فِي مُعَامَلَةِ الحَقِّ، فَفَرَطُ الأَجْنِبِيَّةِ وَغَايَةُ الجَهْلِ أَكْبَتَهُمْ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ فِي وَهْدَةِ نَدْمِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ المُنْتَهُونَ﴾ .

إذا استحوذ الشيطان على عبد أنساه ذكر الله .

والنفس إذا استولت على إنسان أنسته الله .

ولقد خَسِرَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، وَأَخْسَرُ مِنْهُ مَنْ أَعَانَ نَفْسَهُ - الَّتِي هِيَ أَعْدَى عَدُوِّهِ، إِلَّا بَأْنَ يَسْعَى فِي قَهْرِهَا لَعَلَّهُ يَنْجُو مِنْ شَرِّهَا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَدْلِينَ﴾ .

مَنْ أَرْمَتْهُ شِقْوَتُهُ لَمْ تُنْعِشْهُ قُوَّتُهُ، وَمَنْ قَصَمَتْهُ التَّقْدِيرُ لَمْ يَغْصِمْهُ التَّدْبِيرُ، وَمَنْ اسْتَهَانَ بِالأَدْلِينَ انْخَرَطَ فِي سَبِيلِ الأَدْلِينَ.

(٢) الآية (١٧) لم ترد.

(١) الآية (١٣) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

الذي ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقاومة مع التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ﴾ .

مَنْ جَنَحَ إِلَىٰ مُنْحَرَفٍ عَنِ دِينِهِ، أَوْ دَاهَنَ مُبْتَدِعًا فِي عَهْدِهِ نَزَعَ اللَّهُ نُورَ التَّوْحِيدِ مِنْ قَلْبِهِ فَهُوَ فِي خِيَانَتِهِ جَائِزٌ عَلَىٰ عَقِيدَتِهِ، وَسِيدُوقٌ قَرِيبًا وَيَبَالَ أَمْرِهِ .

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنَّا﴾ .

خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبتته، ويقال: جعل قلوبهم مُطَرَّرَةً بِاسْمِهِ .

وَأَغْرَزَ بِحُلَّةٍ لِأَسْرَارٍ قَوْمٍ طَرَأَها اسْمُ «اللَّهِ» !!

سورة الحشر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بِسْمِ اللَّهِ» اسمٌ عزيزٌ - الكونُ بجملته في طلبه .. وهو عزيز .
الشموسُ والأقمارُ والنجومُ، والليلُ والنهارُ، وجميع ما خَلَقَ اللَّهُ من الأعيان .
والآثارُ متناديةٌ على أنفُسِها: نحن عبيدُه .. نحن عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ .. نريد مَنْ لَمْ يَزَلْ .

قوله جل ذكره: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قُدْسُ اللَّهِ ونَزْهُهُ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ؛ فَكُلُّ مَا خَلَقَهُ جَعَلَهُ عَلَى وَحْدَانِيتهِ دليلاً، وَلِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِلَهِيتهَ طريقتاً وسبيلاً .
أَتَقَنَّ كُلُّ شَيْءٍ وَذَلِكَ دليلاً عَلِمَهُ وَحِكْمَتَهُ، وَرَتَّبَ كُلُّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ شَاهِدٌ عَلَى مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا شبيهه يساويه، ولا شريك له في المُلْكِ يَنَازِعُهُ وَيُضَاهِيهِ .

﴿الرَّحِيمُ﴾ الحاكم الذي لا يُوجَدُ في حُكْمِهِ عَيْبٌ، ولا يتوجَّهُ عليه عَثْبٌ .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ .

هم أهل النضير، وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ ألا يكونوا عليه، ثم بعد أخذ نقضوا العَهْدَ، وباعوا أبا سفيان^(١) وأهل مكة، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك، فبعث صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة^(٢)، فأوهم أنه يشكو من الرسول في أخذ

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٥٧ ق هـ - ٣١ هـ = ٥٦٧ - ٦٥٢ م) صحابي، من سادات قريش في الجاهلية . وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية . كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره . قاد قريشاً وكنانة يوم أحد والخندق لقتال رسول الله ﷺ، وأسلم يوم فتح مكة (٨ هـ) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، وشهد حنيناً والطفائف . ففقت عينه يوم الطائف ثم فقت الأخرى يوم اليرموك فعمي . ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عامله في نجران، ثم أتى الشام، وتوفي بالمدينة، وقيل: بالشام .

الأعلام ٢٠١/٣، والأغانى ٨٩/٦، والإصابة ٤٠٤١، وابن عساكر ٣٨٨/٦ .

(٢) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري (٣٥ ق هـ - ٤٣ هـ = ٥٨٩ - ٦٦٣ م) الحارثي أبو عبد الرحمن، صحابي من الأمراء، من أهل المدينة، شهد بدرأ وما بعدها إلا غزوة تبوك . واستخلفه =

الصَّدَقَةَ. وكان رئيسهم كعب بن الأشرف^(١) فقتله محمد بن مسلمة (غيلة)، وغزاهم رسول الله ﷺ وأجلاهم عن حصونهم المنيعة وأخرجهم إلى الشام، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفَرَ عليهم لكثرتهم، وَلِمَنَعَةِ حصونهم.

وظلُّوا يهدمون دورهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب، فسُمُّوا أول الحشر، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وحُشِرَ إلى الشام.

قال جل ذكره: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.

كيف نَصَرَ المسلمين - مع قِلَّتِهِم - عليهم - مع كَثْرَتِهِم. وكيف لم تمنعهم حصونهم إذا كانت الدائرة عليهم. وإذا أراد الله قَهْرَ عدوٍّ استنوق^(٢) أسدُه.

ومن مواضع العبرة في ذلك ما قاله: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ بحيث داخلتكم الريبة في ذلك لِقَرِظِ قُوَّتِهِم - فصانهم بذلك عن الإعجاب.

ومن مواضع العبرة في ذلك أيضاً ما قاله ﴿وَلَطُّوا أَنَّهُمْ مَازَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فلم يكن كما ظنُّوه - وَمَنْ تَقَوَّ بمخلوق أسلمه ذلك إلى صَعَارِهِ^(٣) ومدلته.

ومن الدلائل الناطقة ما ألقي في قلوبهم من الخوف والرعب، ثم تخريبهم بيوتهم بأيديهم علامة صَغْفِ أحوالهم، وبأيدي المؤمنين لقوة أحوالهم، فتمت لهم الغلبة عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم.

هذا كله لا بُدَّ أن يحصل به الاعتبار - والاعتبار أخذُ قوانين الشَّرْعِ.

وَمَنْ لَمْ يَغْتَبِرْ بغيره اعتَبَرَ به غيره.

= النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته، وولاه عمر على صدقات جهينة، واعتزل الفتنة في أيام علي فلم يشهد الجمل ولا صفين، وكان عند عمر مُعَدًّا لكشف أمور الولاة في البلاد مات بالمدينة.

الأعلام ٩٧/٧، والإصابة ٧٨٠٨، والبدء والتاريخ ١٢٠/٥، والكامل ٢/٣.

(١) هو كعب بن الأشرف الطائي (... - ٣ هـ = ... - ٦٢٤ م) من بني نيهان، شاعر جاهلي. كانت أمه من «بني النضير» فدان باليهودية، وكان سيداً في أخواله. أدرك الإسلام ولم يُسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وخرج إلى مكة بعد وقعة «بدر» فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة. وأمر النبي ﷺ بقتله فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.

الأعلام ٢٢٥/٥، وإمتاع الأسماع ١٠٧/١ - ١٠٩، وابن الأثير ٥٣/٢، والطبري ٢/٣ والجمحي ٢٣٨.

(٢) استنوق: صار كالناقة في ذلها. (اللسان ١٠/٣٦٢ مادة: نوق).

(٣) الصُّفَار: الذل والضميم. (اللسان ٤/٤٥٩ مادة: صفر).

ويقال: يُخَرَّبُونَ بيوتهم بأيديهم، وقلوبهم باتباع شهوات نفوسهم، ودينهم بما يمزجونه به من البدع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.

لولا أن قضى الله عليهم أن يخرجوا لعذبهم الله بالقتل والاستئصال، ثم في الآخرة لهم عذاب النار.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ذلك بأنهم خالفوا أمر الله. والمشاققة أن يتحول المرء إلى شقٍ آخر.

فالعاصي إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاق الله، ولمن شاق الله عذاب النار.

قوله جل ذكره: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَحْتُمْهَا فَأَيَّمَهُ عَلَىٰ قَوْلِهَا فَيَاذَنَ اللَّهُ وَيَخْزَىٰ الْفَاسِقِينَ﴾.

الليئة: كل نوع من النخيل ما عدا العجوة^(١) والبرني^(٢).

لما أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نخيل بني النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟!.

فبقي المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضح أن ذلك بإذن الله.. فانقطع الكلام.

وفي هذا دليل على أن الشريعة غير معللة، وأن الأمر الشرعي إذا جاء بطل التعليل، وسكتت الألسنة عن المطالبة بـ «لِمَ؟» وخطور الاعتراض أو الاستقباح خروج عن حد العرفان. والشيوخ.

قالوا: مَنْ قال لأستاذه وشيخه: «لِمَ؟» لا يفلح. وكلُّ مرید يكون لأمثال هذه الخواطر في قلبه جَوْلَان لا يجيء منه شيء. وَمَنْ لم يتجرّد قلبه من طلب التعليل، ولم يباشِرُ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجري واستحساناً ما يبدو من الغيب لِسِرِّه وقلبه - فليس من الله في شيء.

(١) العجوة: ضرب من أجود أنواع التمر بالمدينة أكبر من الصيحاني يضرب إلى السواد من غرس النبي ﷺ ونخلتها تسمى لينة. (اللسان ٣١/١٥ مادة: عجا).

(٢) البرني: ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء عذب الحلاوة. (اللسان ٥٠/١٣ مادة: برن).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

يريد بذلك أموال بني النضير، فقد كانت من جملة الفيء لا من الغنيمة؛ فالفيء ما صار إلى المسلمين من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل وركاب، وتدخل في جملة أموالهم إذا ماتوا وصاروا إلى بيت المال. والغنيمة ما كانت بقتال وإيجاف خيل وركاب. وقد خص رسول الله ﷺ بأموال هؤلاء فقراء المهاجرين، واستأثر لنفسه بما شاء، فطابت نفوس الأنصار بذلك، وشكر الله لهم. ذلك لأن تحرر القلب من الأعراض والأملأ صفة السادة والأكابر، ومن أسرته الأخطار وبقي في شح نفسه فهو في تضيقه وتدنيقه، وهو في مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث في استيفاء حظوظه - وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة شيء.

وأهل الصفاء لم تبق عليهم من هذه الأشياء بقية، وأما من بقي عليه منها شيء فمترسماً^(١) سوقي. لا متحقق صوفي.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

هذا أصل من أصول وجوب متابعتها، ولزوم طريقتة وسيرته - وفي العلم تفصيله.

والواجب على العبد عرض ما وقع له من الخواطر وما يكشف به من الأحوال على العلم - فما لا يقبله الكتاب والسنة فهو في ضلال^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ .

يريد أن هذا الفيء لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدار مائة رجل.

﴿يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ﴾ وهو الرزق ﴿وَرِضْوَاناً﴾ بالثواب في الآخرة.

وينصرون دين الله، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: والفقير الصادق هو الذي يترك كل سبب وعلاقة، ويفرغ أوقاته لعبادة الله، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله، ويقف مع الحق راضياً بجزئان حكمه فيه.

(١) القشيري يربط بين الصفاء والتصفوف. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ - ٢٨٣).

(٢) اللقاء بين الحقيقية والشريعة عنصر أساسي في مذهب القشيري. (انظر الرسالة ص ٨٢، ٨٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَاجُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحِذُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

نزلت هذه الآية في الأنصار. ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ أي سكنوا المدينة قبل المهاجرين. . . ﴿يُحَاجُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من أهل مكة.

﴿وَلَا يَحِذُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً﴾ مما خُصَّصَ به المهاجرون من الفيء، ولا يحسدونهم على ذلك، ولا يَغْتَرِضُونَ بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين، حتى لو كانت بهم حاجة أو اختلال أحوال.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قيل نزلت الآية في رجلٍ منهم أهديث له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول.

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرب منه الطعام وأطفا السراج ليؤهم ضيفه أنه يأكل، حتى يؤثر به الضيف على نفسه وعلى عياله، فأنزل الله الآية في شأنه.

ويقال: الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللثيمُ من بناها لنفسه).

وقيل: لم يقل الله: وَمَنْ يَتَّقِ شُحَّ نَفْسِهِ بَلْ قَالَ: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾

ويقال: صاحبُ الإيثارِ يؤثرُ الشبعانَ على نفسه - وهو جائع.

ويقال: مَنْ مَيَّزَ بَيْنَ شَخْصٍ وَشَخْصٍ فَلَيْسَ بِصَاحِبِ إِيْثَارٍ حَتَّى يُؤْثِرَ الْجَمِيعَ دُونَ تَمْيِيزِ .

ويقال: الإيثارُ أَنْ تَرَى أَنَّ مَا بِأَيْدِي النَّاسِ لَهُمْ، وَأَنْ مَا يَحْصُلُ فِي يَدِكَ لَيْسَ إِلَّا كَالْوَدِيعَةِ وَالْأَمَانَةِ عِنْدَكَ تَنْتَظِرُ الْإِذْنَ فِيهَا.

ويقال: مَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ مِلْكَاً فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيْثَارِ .

ويقال: العابدُ يؤثرُ بدنياه غيره، والعارفُ يؤثرُ بالجنة غيره.

وعزيرٌ مَنْ لَا يَطْلُبُ مِنَ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ شَيْئاً: لَا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ، وَلَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْأَفْضَالِ، وَلَا مِنْهُ أَيْضاً دَرَّةٌ مِنَ الْإِقْبَالِ وَالْوَصَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ .

وهكذا وصفُ الفقيرِ؛ يكونُ بسقوطِ كُلِّ أَرْبٍ .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

أي والذين هاجروا من بعدهم، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة. . . كلُّهُمْ يَتَرَحَّمُونَ عَلَى السَّلَفِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ، وَيَسْلُكُونَ طَرِيقَ

الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجيبون من الله أن يجعل لأحد من المسلمين في قلوبهم غيلاً أي حِقْداً. وَمَنْ لَا شَفَقَةَ لَهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الدِّينِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يريد بهم منافقي المدينة؛ ظاهروا بني النضير وقريظة، وعاهدوهم على الموافقة بكل وجه، فأخبر الله - سبحانه - أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه، وأخبر أنهم لا يتناصرون، وأنهم يتخاذلون، ولئن ساعدوهم في بعض الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم ينهزمون أمام من يجاهدونهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

أخبر - سبحانه - أن المسلمين أشد رهبة في صدورهم من الله، وذلك لِقَلَّةِ يقينهم، وإعراض قلوبهم عن الله.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَقُولُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جُدُرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ سَدِيدٌ﴾.

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلا مُحَاوَلَةً، أو من وراء جدران. وإنما يشتد بأسهم فيما بينهم، أي إذا حارب بعضهم بعضاً، فأما معكم. . فلا. ﴿مَحْصَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

اجتماع النفوس - مع تنافر القلوب واختلافها - أصل كل فساد، وموجب كل تخاذل، ومقتضى تجاسر العدو.

واتفاق القلوب؛ والاشتراك في الهمة؛ والتساوي في القصد يوجب كل ظفر وكل سعادة. . ولا يكون ذلك للأعداء قط؛ فليس فيهم إلا اختلال كل حال، وانتقاض كل شئ.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَإِلَآئِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. مثل بني قريظة كمثل بني النضير؛ ذاق النضير وبال أمرهم قبل قريظة بسنة؛ وذاق قريظة بعدهم وبال أمرهم.

(١) الآية (١٢) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ .

أي مثل هؤلاء المنافقين مع النصير - في وغدهم بعضهم لبعض بالتناصر ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ﴾ .

وكذلك أرباب الفترة وأصحاب الزلة وأصحاب الدعاوى . . هؤلاء كلهم في درجة واحدة في هذا الباب - وإن كان بينهم تفاوت - لا تنفع صُحْبَتُهُمْ في الله؛ قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِعُضُنُومِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وكلُّ أحدٍ - اليوم - يألفُ شكَّله؛ فصاحبُ الدعوى إلى صاحب الدعوى، وصاحبُ المعنى إلى صاحب المعنى^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَحَنَّنْ قَلْبَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

التقوى الأولى على ذكر العقوبة في الحال والفكر في العمل خيره وشره^(٢) .

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة، ومن لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله . . فعن قريب سيفتضح^(٣) .

وعلامة من نظَّر لِعَدِهِ أن يُحْسِنَ مراعاةَ يومه؛ ولا يكون كذلك إلا إذا فَكَّرَ فيما عَمِلَهُ في أمسه والناس في هذا على أقسام: مُفَكِّرٌ في أمسه؛ ما الذي قَسِمَ له في الأزل؟ وآخر مفكِّر في غده؛ ما الذي يلقاه؟؟ وثالثٌ مُسْتَقِيلٌ بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مُضْطَلَمٌ عن شاهده موصولٌ بربه، مُنْدَرَجٌ في مذكوره؛ لا يتطَّلَعُ لماضيه ولا لمستقبله، فتوقيتُ الوقتِ يشغله عن وقته^(٤) .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

تركوا طاعته فترَكهم في العذاب؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

(١) الآية (١٧) لم ترد.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٩ (الغنية والحضور).

(٣) انظر حديث القشيري عن المراقبة بالرسالة القشيرية ص ١٨٩ ، ١٩٢ .

(٤) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الوقت: يقولون: الصوفي ابن وقته، يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحين، ويقولون: فلان بحكم الوقت أي أنه مستسلم بما يبدو له من الغيب من غير اختيار له. ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت. ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت. (الرسالة القشيرية ص ٥٥، ٥٦).

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِرُونَ﴾ .

لا يستوي أهل الغفلة مع أهل الوصلة .

وأصل كل آفة نسيان الرب، ولولا النسيان لما حصل العصيان، والذي نسي أمر نفسه فهو الذي لا يجتهد في تحصيل توبته، ويُسوف فيما يلزمه به الوقت من طاعته .

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

أي لو كان للجبل عقلٌ وصلاح ففكر وسر، وأنزلنا عليه هذا القرآن لخضع وخشع . ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] ويدل عليه أيضاً قوله .

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ : ليعقلوا ويهتدوا، أي بذلك أمرناهم، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن .

ويقال: ليس هذا الخطاب على وجه العتاب معهم، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إياهم بالقوة؛ فقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ لم يُطِن ولخشع - وهؤلاء خصصتهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .

﴿الْغَيْبِ﴾ : ما لا يُعرف بالضرورة، ولا يُعرف بالقياس من المعلومات . ويقال: هو ما استأثر الحق بعلمه، ولم يجعل لأحد سبيلاً إليه .

﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ : ما يعرفه الخلق .

وفي الجملة: لا يعزب عن علمه معلوم .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

﴿الْمَلِكُ﴾ : ذو القدرة على الإيجاد .

﴿الْقُدُّوسُ﴾ : المنزه عن الآفة والنقص .

﴿السَّلَامُ﴾ : ذو السلامة من النقائص، الذي يُسلم على أوليائه، والذي سلم

المؤمنون من عذابه .

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ : الذي يصدق عبده في توحيده فيقول له: صدقت يا عبيدي .

والذي يُصدِّق نفسه في إخباره أي يعلم أنه صادق .

ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى المخبر لعباده بأنه يؤمنهم من عقوبته .

﴿الْمُهَيَّبُونَ﴾ : الشاهد، وبمعنى الأمين، ويقال مؤيمن (مُفَيِّعِل) من الأمن قلبت همزته هاءً وهو من الأمان، ويقال بمعنى المؤمن .

﴿الْمُزَيَّرُ﴾ : الغالبُ الذي لا يُغلب، والذي لا يُمثل له، والمستحق لأوصاف الجلال، وبمعنى : المُعزَّ لِعبادِهِ . والمَنيعُ الذي لا يُقدِرُ عليه أحد .

﴿الْجَبَّارُ﴾ : الذي لا تصل إليه الأيدي . أو بمعنى المُضِلِّح لأموْرهم من : جَبَرَ الكَسْرَ . أو بمعنى القادر على تحصيل مراده مِنْ خَلْقِهِ على الوجه الذي يريده من : جَبَرْتُهُ على الأمر وأجبرته .

﴿الْمُنْكَرُ﴾ : المتقدِّس عن الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

هو المنشئ للأعيان والآثار .

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ المُسمَّيات الحِسان .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ : مضى معناهما، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء (في كتابنا المسمَّى : «البيان والأدلة في معاني أسماء الله تعالى»).

سورة الممنحة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم ملك لا أصل لملكه عند حدث ولا نسل له، فعنه يرث. ملك لا يستظهر بجيش وعدد، ولا يتعزز بقوم وعدد. ملك للخلق بأجمعهم - لكنه اختار قوماً - لا ليتفجع بهم - بل ليتفجعهم، ورد آخرين وأذلهم بمنعهم ووضعهم:

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَاتِي﴾.

قال ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(١) وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام: «عاد نفسك فليس لي في المملكة منازع غيرها». فمن عادى نفسه فقد قام بحق الله، ومن لم يعاد نفسه لحقته هذه الوصمة^(٢). وأصل الإيمان الموالاة والمعاداة في الله ومن جنح إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أنا أعلم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من دقائق التصنع وخفيات الرياء.

﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من التزيين للناس.

﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من الاستسرار بالزلة، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾، من الطاعة والبر.

﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من الخيانة ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الأمانة.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٢٠٦، ٩/٣٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٣).

قال القشيري في رسالته عند حديثه عن النفس: ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القلب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله. (الرسالة القشيرية ص ٨٦، ٨٧).

(٢) الوصمة: العيب والعار.

﴿يَمَّا أَخَفِيْتُمْ﴾ من العِجْل والغِش للناس، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الفضيحة للناس .
 ﴿يَمَّا أَخَفِيْتُمْ﴾ من ارتكاب المحظورات، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الأمر بالمعروف .
 ﴿يَمَّا أَخَفِيْتُمْ﴾ من ترك الحشمة مني وقلة المبالاة بأطلاعي، وما أعلنتم من تعليم الناس ووعظهم .
 ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فقد حاد عن طريق الدين، ووقع في الكفر .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَنْفَعُكُمْ كُفُورُكُمْ بِكُفُورِ لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِأَسْوَأَ وُودُوا لَوْ تَكْفُرُونَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ .

إِنْ يَظْفَرُوا بِكُمْ وصادفوكم يكونوا لكم أعداء، ولن تسلّموا من أيديهم بالسوء ولا من ألسنتهم بالذم وذكر القبيح .

﴿وَوُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ : ولن ينفعكم توددكم وتقربكم إليهم، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام . ثم عقوبة الآخرة تُذركم .

وكذلك صفة المخالفة، ولا ينبغي للمرء أن يتعطش إلى عشيرته - وإن داهنته في قاله، ولا أن ينخدع بتغيرها - وإن لا يتنه في حالة .

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ .

أي لكم قدوة حسنة بإبراهيم ومن قبله من الأنبياء حيث تبرؤوا من الكفار من أقوامهم؛ فافتدوا بهم . . إلا استغفار إبراهيم لأبيه - وهو كافر - فلا تقتدوا به .

وَلَا تَسْتَغْفِرُوا لِلْكَافِرِ . وكان إبراهيم قد وعده أبوه أنه يؤمن فلذلك كان يستغفر له، فلما تبين له أنه لن يؤمن تبرأ منه .

ويقال: كان منافقاً . . ولم يعلم إبراهيم ذلك وقت استغفاره له .

ويقال: يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أن الله لا يغير للكفار .

والفائدة في هذه الآية تخفيف الأمر على قلب الرسول ﷺ والمؤمنين بتعريفهم أن مَنْ كانوا قبلهم حين كذبوا بأنبيائهم أهلهم الله، وأنهم صبروا، وأنه ينبغي لذلك أن يكون بالصبر أمرهم .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصح أن يكون معناه: قولوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

وقد مضى القول في معنى التوكل والإنابة.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ﴾.

ربنا لا تظفرهم بنا، ولا تقوهم علينا.

والإشارة في الآية: إلى الأمر بسنة إبراهيم في السخاء وحسن الخلق والإخلاص والصدق والصبر وكل خصلة له ذكرها لنا^(١).

قوله جل ذكره: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادَبْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ

عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقفهم في مقتضى قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ عند حد التجويز.. لا حكماً بالقطع، ولا دفع قلب بالياس.. ثم أمرهم بالاقتصاد في العداوة والولاية معهم بقلوبهم، وعرفهم بوقوع الأمر حسب تقديره وقدرته، وجزيان كل شيء على ما يريد لهم، وصدق هذه الترجية بإيمان من آمن منهم عند فتح مكة، وكيف أسلم كثيرون، وحصل بينهم وبين المسلمين مودة أكيدة.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُعِنَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ

تَبَرَّوهُمْ وَتَقَسَّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أمرهم بشدة العداوة مع أعدائهم على الوجه الذي يفعلونه، وأما من كان فيهم ذا خلق حسن، أو كان منه للمسلمين وجه نفع أو رفق - فقد أمرهم بالملاينة معه. والمؤلفة قلوبهم^(٢) شاهد لهذه الجملة، «فإن الله يحب الرفق في جميع الأمور»^(٣).

(١) الآية (٦) لم ترد.

(٢) المؤلفة قلوبهم: قوم من سادات العرب أمر الله تعالى نبيه ﷺ في أول الإسلام بتألفهم أي بمقاربتهم وإعطائهم ليرغبوا من وراءهم في الإسلام فلا تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا ألباً مع الكفار على المسلمين، وقد نقلهم النبي ﷺ يوم حنين بمائتين من الإبل تألفاً لهم. منهم الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس وغيرهما. (لسان العرب ١١/٩ مادة: ألف).

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٤/٨، ٧١، ١٠٤)، ومسلم في (الصحيح (السلام ١٠)، والترمذي في (السنن ٢٧٧١)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٦/٦، ٣٧، ٨٥، ١٩٩)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/٩) والدارمي في (السنن ٣٢٣/٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/٢٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٩/٨)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٤٩/١٠، ٤١/١١، ١٩٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٤) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٣٣)، والخطيب البغدادي =

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ ءَلْمُؤْمِنَاتُ مُهَدَّجَاتٍ فَاذْعَبْنَ اللَّهُ أَظْمَ بِأَيْسَرٍ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ .

كان النبي ﷺ يمتحنهن باليمين، فيخلفن إتهن لم يخرجن إلا لله، ولم يخرجن مغايظةً لأزواجهن، ولم يخرجن طمعاً في مالٍ .

وفي الجملة: الامتحان طريق إلى المعرفة، وجواهر الناس تبيّن بالتجربة. ومن أقدم على شيء من غير تجربة تحسّى كأس الندم .

﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ .

لا توافقوا من خالف الحق في قليل أو كثير^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ءَلْمُؤْمِنَاتُ بِبِئْسَ مَا كُنَّ يَفْعَلْنَ وَلَا يُعْتَبَرْنَ بِهِ وَلَا يُخَالَفُنَّ وَلَا يُقْتَلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

إذا جاءك النساء يبأيعنك على الإسلام فطالبيهن وشارطنهن بهذه الأشياء:

ترك الشرك، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء في إلحاق النسب، وألا يعصينك في معروف؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به، ويدخل في ذلك ترك النياحة وشق الجيوب ونثف الشعر عند المصيبة وتخميم^(٢) الوجوه والتبرج^(٣) وإظهار الزينة. . وغير ذلك مما هو من شعائر الدين في الجملة .

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار. يشسوا من الآخرة كما يشس أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويبتعثوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال: كما يشس الكفار حين اعتقدوا أن الخلق لا يبتعثون في القيامة .

= في (تاريخ بغداد ١٠/٤)، والزيدي في (إتحاف السادة الممتقين ٨/٤٥، ١٦٤)، والبغوي في (شرح السنة ٧٣/١٣) وعبد الرزاق في (المصنف ٩٨٣٩، ١٩٤٦٠)، وابن عسافر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢٦/٢) والبخاري في (التاريخ الكبير ٨٤/٤)، والبخاري في (الأدب المفرد ٤٦٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/٣٥٠) .

(١) الآية (١١) لم ترد .

(٢) الخمش: الخدش يظهر في الوجه وغيره (ج) خموش .

(٣) التبرج: إظهار المرأة زيتها ومحاسنها للرجال . (اللسان ٢/٢١٢ مادة: برج) .

سورة الصف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ وقفه الله لعرفانها لم يَضِرْ عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصل إلى المُسَمَّى بها بِجَنَانِهِ: في البداية بتأمل برهانه لمعرفة سلطانه، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتحقق مما هو كعِيَانِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

مَنْ أراد أن يصفو له تسييحه فليصف قلبه من آثار نفسه، وَمَنْ أراد أن يصفو له في الجنة عيشه فليصف من أوضار^(١) ذنبه نفسه.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

جاء في التفاسير أنهم قالوا: لو عَلِمْنَا ما فيه رضا الله لَفَعَلْنَا ولو فيه كل جهد.. ثم لَمَا كان يومُ أُحُدٍ لم يثبتوا، فنزلت هذه الآية في العتاب.

وفي الجملة: خلف الوعد مع كلِّ أحدٍ قبيحٌ، ومع الله أقيح.

ويقال إظهارُ التجلُّدِ من غير شهود مواضع الفقر إلى الحق في كلِّ نفسٍ يؤذُنُ بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى.. والله يحب التبرِّي من الحَوْلِ والقوة.

ويقال: لم يتوعَّد - سبحانه - زَلَّةً بِمِثْلِ ما على هذا حين قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِينَ مَرْضُوصًا﴾.

المحبةُ توجبُ الإثارة، وتقديم مُرَادِ حبيبك على مُرَادِ نَفْسِكَ، وتقديم محبوب حبيبك على محبوب نَفْسِكَ. فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبدِ أن يُقاتِلَ على الوجه الذي ذكره فَمَنْ لم يُؤَيِّزْ محبوبَ الله على محبوب نَفْسِهِ - أي

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدمس أو غيره.

على سلامته - انسلخ من محبته لربه، ومن خلا من محبة الله وقَعَ في الشق الآخر، في خسارته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

لَمَّا زَاغُوا بِتَرْكِ الْحَدِّ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِالصِّدْقِ وَالرَّدِّ وَالْبُعْدِ عَنِ الْوَدِّ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا بِظَوَاهِرِهِمْ أَزَاغَ اللَّهُ سِرَاتِهِمْ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنْ خِدْمَةِ الْبَابِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ التَّشَوُّقِ إِلَى الْبَسَاطِ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنِ الْعِبَادَةِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِرَادَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

بَشَّرَ كُلَّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ بِنَبِيِّنَا ﷺ، وأفرد الله - سبحانه - عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ﷺ: فبين بذلك أن البشارة به عمّت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

فَمَنْ احْتَالَ لَوَهْنَهُ، أَوْ رَامَ وَهْيَهُ انْعَكَسَ عَلَيْهِ كَيْدُهُ، وَانْتَقَضَ عَلَيْهِ تَدْبِيرُهُ.

﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَيِّرَ نُورَهُ﴾: كما قالوا:

وَاللَّهُ سَيَّرَ فِي غُلَاةٍ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَى صَرَبٌ مِنَ الْهَدْيَانِ

كأنه قال: مَنْ تَمَنَّى أَنْ يُطْفِئَ نُورَ الْإِسْلَامِ بِكَيْدِهِ كَمَنْ يَحْتَالَ وَيَزَاوِلُ إِطْفَاءَ شِعَاعِ الشَّمْسِ بِنَفْسِهِ وَتَفْخِجِهِ فِيهِ - وَذَلِكَ مِنَ الْمُحَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

لَمَّا تَقَاعَدَ قَوْمُهُ عَنْ نَصْرَتِهِ، وَانْبَرَى أَعْدَاؤُهُ لِتَكْذِيبِهِ، وَجَحَدُوا مَا شَاهَدُوهُ مِنْ صِدْقِهِ قَبِلَ اللَّهُ لَهُ أَنْصَاراً مِنْ أُمَّتِهِ هُمْ: نَزَّاعُ الْقَبَائِلِ، وَالْأَحَادُ الْأَفْضَلُ، وَالسَّادَاتُ الْأَمَائِلُ، وَأَفْرَادُ الْمَنَاقِبِ - فَبَدَّلُوا فِي إِعَانَتِهِ وَنَصْرَةِ دِينِهِ مُهْجَهُمْ، وَلَمْ يُؤْثِرُوا عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ كِرَائِمِهِمْ، وَوَقَوْهُ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَأَمَدَّهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِتَوْفِيقِهِ كَيْ يَنْصُرُوا

(١) الآية (٧) لم ترد.

دينه، أولئك أقوامٌ عَجَبَنَ اللهُ بماءِ السعادة طيبتهم، وخلقَ من نور التوحيد أرواحهم وأهلهم يومَ القيامة للسيادة على أضرابهم.

ولقد أرسل اللهُ نبيَّه لدينه موضحاً، وبالحق مُفصِحاً، ولتوحيدِه مُغليناً، ولجهده في الدعاء إليه مستفرغاً. . فافترعَ بنُضجِه قلباً نُكراً، وبصَرَ بنور تبليغه عيوناً عُمياً.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعْرَزٍ تُنَجِّكُمْ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

سمى الإيمانَ والجهادَ تجارةً لِمَا في التجارة من الربح والخسران ونوع تكسبٍ من التاجر - وكذلك: في الإيمان والجهاد ربحُ الجنة وفي ذلك يجتهد العبد، وخسرانها إذا كان الأمر بالضد.

وقوله: ﴿تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي في ذلك جهادكم وإيمانكم واجتهادكم، وهو خيرٌ لكم .

ثم بيّن الربحَ على تلك التجارة ما هو فقال:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

قدّم ذكرَ أهمِّ الأشياء - وهو المغفرة. ثم إذا فرغتِ القلوبُ عن العقوبة قال: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ فبعد ما ذكّر الجنة ونعيمها قال: ﴿وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ﴾، وبماذا تطيب تلك المساكن؟ لا تطيب إلا برؤية الحق سبحانه، ولذلك قالوا:

أجيراننا ما أوحش الدار بعدكم إذا غيبتمو عنها ونحن حضورٌ
نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غيبت ونحن حضورٌ

قوله جل ذكره: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أي ولكم نعمة أخرى تحبونها: نصرٌ من الله؛ اليومَ حفظُ الإيمان وتثبيتُ الأقدام على صراط الاستقامة، وغداً على صراط القيامة.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: الرؤية والزلفة. ويقال الشهود. ويقال: الوجود أبد الأبد.

﴿وَيَسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنهم لا يقفون عنك في هذا التواصل.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ

أَنْصَارِيٍّ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنتَ طَلَابِقَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتَ طَلَابِقَهُ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ
آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿٤٠﴾ .

أي كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أن عيسى لما استعان واستنصرَ الحواريين
نصروه . فانصروا محمداً إذا استنصركم .

ثم أخبر أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بعيسى فأكرموا، وطائفة كفروا فأذلوا،
وأظفر أولياءه على أعدائه . . لكي يعرف الرسول ﷺ أن الله سبحانه يُظفر أولياءه على
أعدائه .

سورة الجمعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز إذا تجلّى لقلب عبّد بوصفٍ جماليه تجمعت أفكاره على بساط جوده فلم يتفرّق بسواه^(١).

ومن تجلّى لسيّره بنعت جلاله اندرجت جملته، واستهلّك في وجوده فلم يشعر بكرائم دُنياه ولا بعظائم عُقباه.

وكم له من إنعام! وكم له من إحسان! وكم في أمثالهم: «جری الوادي فطمّ على القرّي»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

تَسْبُحُ في بحارِ توحيد الحقّ أسرارُ أهل التحقيق، ويخزّهم بلا شاطيء؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح، فحازت أيديهم جواهر التفريد فرصّعوها في تاج العرفان كي يلبسوه يوم اللقاء.

﴿أَلَلِكِ الْقُدُّوسِ الرَّحِيمِ الْمَكِينِ﴾.

﴿أَلَلِكِ﴾: الملك المتفرّد باستحقاق الجبروت.

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المنزّه عن الدرك والوصول: فليس بيد الخلق إلا عرفان الحقائق بنعت التعالي، والتأمل في شهود أفعاله، فأما الوقوف على حقيقة آئته - فقد جلت الصمديّة عن إشراف عليه، أو طمع إدراك في حال رؤيته، أو جواز إحاطة في العلم به.. فليس إلا قالة بلسانٍ مُستنطقٍ، وحالة بشهودٍ حقّ مستغرق.

وقُلنّ لنا: نحن الأهلة إنما نُضيء لمن يسري بليلٍ ولا نُقرّي

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَيِّنَ صَلْبًا مُبِينًا﴾.

(١) انظر حديث الجمع والفرق للقسيري برسالته ص ٦٤، ٦٧.

(٢) القرّي: مجرى الماء في الروض (ج) أقرية وقريان. (اللسان ١٧٩/١٥ مادة: قرأ).

جرده عن كل تكلفٍ لتعلم، وعن الاتصاف بتطلب. ثم بعثه فيهم وأظهر عليه من الأوصاف ما فاق الجميع.

فكما أتمته في الابتداء عن أبيه وأمه، ثم آواه بلطفه - وكان ذلك أبلغ وأتم - فإنه كذلك أفردته عن تكلفه العلم - ولكن قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] ألبسه لباس العزة، وتوجه بتاج الكرامة، وخلع عليه حُسن التولي. لتكون آثار البشرية عنه مندرجة، وأنوار الحقائق عليه لائحة.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي بعثه في الأميين، وفي آخرين منهم وهم العجم، ومن يأتي . . إلى يوم القيامة؛ فهو ﷺ مبعوث إلى الناس كافة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يقصد به هنا النبوة، يؤتيها ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وفي ذلك ردٌ على مَنْ قال: إنها تُستحق لكثرة طاعة الرسول - وردٌ على من قال: إنها لتخصيصهم بطبيعتهم؛ فالفضل ما لا يكون مُستحقاً، والاستحقاق فرض لا فضل.

ويقال: ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به.

ويقال: هو الأُنس بالله، والعبد يُنسى كل شيء إذا وجد الأُنس.

ويقال: قطع الأسباب، - بالجملة - في استحقاق الفضل، إذ أحاله على المشيئة.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: ثم لم يعملوا بها.

ويُلحق بهؤلاء في الوعيد - من حيث الإشارة - الموسومون بالتقليد في أي معنى شئت: في علم الأصول، ومما طريقه أدلة العقول، وفي هذه الطريقة ممّا طريقه المنازلات.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَسْتَنْوُهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

هذا من جملة معجزاته ﷺ، فصرف قلوبهم عن تمني الموت إلى هذه المدة دل على صدقه صلوات الله عليه.

ويقال: من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب؛ فإذا كان لا يصل إلى لقائه

إلا بالموتِ فتمنيهِ - لا محالة - شرطاً، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً.. وكان كما أخبر.
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّزِ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةَ فَيُنْفِيكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الموتِ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ. وفي الخبر: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١). والموتِ جِسْرٌ والمقصودُ عند الله.. وَمَنْ لَمْ يَعِشْ عَفِيفاً فَلَيَمُتْ ظَرْفِياً.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تُوذِعُوا لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَائِبِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.
أَوْجَبَ السَّغْيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا تُوذِيَ لَهَا، وَأَمَرَ بِتَرْكِ الْبَيْعِ.

ومنهم من يحمله على الظاهر؛ أي ترك المعاملة مع الخلق، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنى آخر: هو ترك الاشتغال بملاحظة الأعراض، والتناسي عن جميع الأعراض إلا معانقة الأمر؛ فمنهم من يسعى إلى ذكر الله، ومنهم من يسعى إلى الله، بل يسعون إلى ذكر الله جَهراً بِجَهْرٍ، ويسعون إلى الله تعالى سِرّاً بِسِرٍّ.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

إنما ينصرف مَنْ كان له جَمْعٌ يرجع إليه، أو شُغْلٌ يقصده ويشغل به - ولكن.. مَنْ لا شُغْلَ له ولا مَأْوَى.. فإلى أين يرجع؟ وإنما يقال: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إذا كان له أَرْبٌ.. فأما مَنْ سَكَنَ عن المطالبات، وكُفِيَ دَاءَ الطَّلَبِ.. فما له وابتغاء ما ليس يريده ولا هو في رِقَّة؟!.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ مَخْرَجاً فَأَنْفُسَهُمْ إِلَىٰهَا وَرَكُوكَ فَإِذَا قُلُّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ النَّجْوَةِ وَاللَّهُ خَيْرٌ الرَّزِيقِ﴾.

مَنْ أَسْرَتْهُ أخطارُ الأشياءِ استجاب لكلِّ دَاعٍ جَرَّهَ إليه لهُوَ أو حَمَلَه عليه سهوٌ وَمَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقة لم ينحرف عن الحضور، ولم يلتفت في حال الشهود. ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ النَّجْوَةِ﴾ وما عند الله للعِبَاد والزُّهَاد - غداً - خَيْرٌ مما نالوه في الدنيا نقداً. وما عند الله للعارفين - نقداً - من واردات القلوب وبواده^(٢) الحقيقة خَيْرٌ مما يُؤْمَلُ المستأنف في الدنيا والعُقبى.

(١) أخرجه البخاري (رقاق ٤١)، ومسلم (ذكر ١٤ - ١٨)، والترمذي (زهدي ٦)، والنسائي (جنتانز ١٠)، وابن ماجه (زهدي ٣١)، والدارمي (رقاق ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٤٢٠/٢، ١٠٧/٣، ١٠٧/٤، ٢٥٩، ٣١٦/٥، ٣٢١، ٤٥، ٤٤/٦، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٣٦.

(٢) انظر حديث القشيري عن البواده والهجوم بالرسالة القشيرية ص ٧٨.

سورة المنافقون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» اسم مَنْ تَحَقَّقَ بِهِ صَدَقَ فِي أَقْوَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَعْمَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَخْلَاقِهِ ثُمَّ صَدَقَ فِي أَحْوَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَنْفَاسِهِ . . فِصْدَقُهُ فِي الْقَوْلِ أَلَا يَقُولُ إِلَّا عَنِ بَرَهَانٍ، وَصِدْقُهُ فِي الْعَمَلِ أَلَا يَكُونُ لِلْبِدْعَةِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَخْلَاقِ أَلَا يُلَاحِظُ إِحْسَانَهُ مَعَ الْكَافَّةِ بَعِينِ النِّقْصَانِ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَشْفِ وَبَيَانٍ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَنْفَاسِ أَلَا يَتَنَفَّسَ إِلَّا عَلَى وَجُودِ كَالْعَيَانِ .

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ .

كَذَّبَهُمْ فِيمَا قَالُوا وَأُظْهِرُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَنْ بَضِيعَةٍ وَلَمْ يَعْتَقِدُوا تَصْدِيقَكَ، فَهَمْ لَمْ يَكْذَبُوا فِي الشَّهَادَةِ وَلَكِنْ كَذَّبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُمْ مُخْلِصُونَ لَكَ، مُصَدِّقُونَ لَكَ . فِصْدَقُ الْقَالَةِ لَا يَنْفَعُ مَعَ قُبْحِ الْحَالَةِ .

ويقال: الإيمان ما يوجب الأمان؛ فالإيمانُ يوجبُ للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصه من العذاب أكثره وأقله . . إلا ما ينقله من أعلى جهنم إلى أسفلها .

قوله جل ذكره: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .
تَسْتَرُّوا بِأَقْرَارِهِمْ، وَتَكْشِفُوا بِنِفَاقِهِمْ عَنْ أَسْتَارِهِمْ فَافْتَضَحُوا، وَذَاقُوا وَبَالَ أَحْوَالِهِمْ .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَجَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ .
استضأوا بنور الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عَلَيْهِمْ شِعَاعُ السَّعَادَةِ، فَانطفا نورهم بقهر الحرمان، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بخكم الشقاوة .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمُ تَعَجَّبُوا مِنْ أَجْسَامِهِمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ حُشْبٌ مَسْنَدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاذْرَهُمْ فَتَلَّهُمْ اللَّهُ أَنْ يَوْفَىكَ﴾ .

أي هم أشباح وقوالب وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق - فالجوزُ الفارغُ مُزَيَّنٌ ظَاهِرُهُ وَلَكِنَّهُ لِلْعَبِّ الصَّيْيَانِ .

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لِجُبْنِهِمْ؛ إذ ليس لهم انتعاش برُبِّهِمْ؛ ولا استقلالٌ بغيرهم.

﴿هُرُّ الْمَدَى فَاحْذَرْتُمْ﴾ هم عدوُّك - يا محمد - فاخذزهم، ولا يُعزركَ تَبَسُّطُهُمْ في الكلام على وجه التوَدُّدِ والتقَرُّبِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبر، وإظهار الاستغناء عن استغفاركَ لهم.. فخلَّ سبيلهم؛ فليس للصح فيهم مساعٍ، ولن يُضحيهم من سكرتهم إلا حَرَّ ما سيلقونه من العقوبة، فما دام الإصرارُ من جانبهم فإنهم:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

فقد سبق العِلْمُ بذلك:

قوله جل ذكره: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلَّوْا حَزَائِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ﴾.

كانهم مربوطون بالأسباب، محجوبون عن شهود التقدير، غير متحققين بتصريف الأيام، فأنطقهم بما حَامَرَ قلوبهم مِنْ تَمَنِّي انطفاء نور رسول الله، وانتكاث شملهم، فتواصوا فيما بينهم بقولهم: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ حَزَائِنُ السَّمَوَاتِ﴾.

وليس استقلالك - يا محمد - ولا استقلال أصحابك بالمرزوقين.. بل بالرازق؛ فهو الذي يمسككم.

قوله جل ذكره: ﴿يَقُولُونَ لِنَنْزِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَنَّكَ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنما وقع لهم العَلَطُ في تعيين الأعزُّ والأذلُّ؛ فتوهموا أن الأعزُّ هم المنافقون، والأذلُّ هم المسلمون، ولكن الأمر بالعكس، فلا جرم غلب الرسول ﷺ والمسلمون، وأذلُّ المنافقون بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: لله عزُّ الإلهية، وللرسول عزُّ النبوة، وللمؤمنين عزُّ الولاية. وجميع ذلك لله؛ فعزُّه القديم صِفَتُهُ، وعزُّ الرسول وعزُّ المؤمنين له فعلاً ومئةً وفضلاً، فإذا لله العِزَّةُ جميعاً.

ويقال: كما أن عِزَّةَ الله - سبحانه - لا زوال لها فعِزَّةُ الأنبياء بأن لا عزل لهم، وعِزَّةُ المؤمنين بالألَّا يَبْقَى منهم مُخَلَّدٌ في النار.

ويقال: مَنْ كَانَ إِيمَانُهُ حَقِيقًا فَلَا زَوَالَ لَهُ .

ويقال: مَنْ تَعَزَّزَ بِاللَّهِ لَمْ يَلْحَقْهُ تَغْيِيرٌ عَنْ حَالِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ .

ويقال: لَا عِزَّ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا ذُلَّ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ . . وما سوى هذا فلا أصل له .

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُهَكِّدُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ .

لَا تُضَيِّعُوا أَمْوَالَ دِينِكُمْ بِسَبَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ بَلْ آثَرُوا حَقَّ اللَّهِ، وَاسْتَعْمَلُوا بِهِ يَكْفِيكُمْ أَمْوَالَ دُنْيَاكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ لِلَّهِ كَانِ اللَّهُ لَكُمْ .

ويقال: حَقُّ اللَّهِ مِمَّا أَلْزَمَكَ الْقِيَامَ بِهِ، وَحَقُّكَ ضَمَنَ لَكَ الْقِيَامَ بِهِ؛ فَاسْتَعْمَلُوا بِمَا كُنْتُمْ لَا بِمَا كُنْتُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَيَّ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَكَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ .

لَا تَغْتَرُّوا بِسَلَامَةِ أَوْقَاتِكُمْ، وَتَرْقُبُوا بَغَاتِ آجَالِكُمْ، وَتَاهَبُوا لِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِنَ الرِّحَالِ، وَلَا تُعْرَجُوا فِي أَوْطَانِ التَّسْوِيفِ^(١) .

(١) الآية (١١) لم ترد .

سورة التغابن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة مَنْ ذَكَرَهَا يحتاج إلى لسانٍ عزيز في الغيبة لا يُتَدَلُّ، وفي ذِكْرِ الأعيار لا يُسْتَعْمَل. وَمَنْ عَرَفَهَا يحتاج إلى قلبٍ عزيز ليس في كلِّ ناحية منه خليط، ولا في كلِّ زاوية زبيط^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المخلوقات كلها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحَةٌ... ولكن لا يَسْمَعُ تسييحها مَنْ به طَرَشُ النكرة.

ويقال: الذي طَرَأَ صَمَمُهُ فقد يُرْجَى زواله بنوع معالجة، أما مَنْ يولدُ أصمَّ فلا حيلة في تحصيل سماعه. قال تعالى: ﴿فإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنًا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

منكم كافرٌ في سابق حُكْمِهِ سَمَاءُ كافرًا، وَعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر. وكذلك كانوا. ومنكم مؤمنٌ في سابق حُكْمِهِ سَمَاءُ مؤمنًا، وَعَلِمَ في آزاله أنه يؤمن وخلقَه مؤمنًا، وأراده مؤمنًا.. والله بما تعملون بصير.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُورَهُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾: أي وهو مُجِئٌ في خَلْقِهِ.

﴿وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُورَهُ﴾: لم يُقَلِّ لشيءٍ من المخلوقات هذا الذي قال لنا، صور الظاهر وصور الباطن؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته، والباطن شاهدٌ على جلال قربه.

(١) الزبيط: صياح البطة. (اللسان ٣٠٧/٧ مادة: زبط).

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قَصُرُوا جِيلَكُمْ عن مطلوبكم، فهو تتقاصر عنه علومكم، وأنا أعلم ذلك دونكم.. فاطلبوا مني، فأنا بذلك أعلم، وعليه أقدر.

ويقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ﴾. فاحذروا دقيق الرياء، وخفي ذات الصدور ﴿وَمَا تَعْلَمُونَ﴾: فاحذروا أن يخالف ظاهركم باطنكم.

في قوله: ﴿مَا تُشِيرُونَ﴾ أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربه.

وفي قوله: ﴿ما تعلمون﴾ أمرٌ بالصدق في المعاملة والمحاسبة مع الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾.

المراد من ذلك هو الاعتبار بمن سلف، ومن لم يعتز عثر في مهواة من الأمل، ثم لا ينتعش إلا بعد فوات الأمر من يده.

﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ رَسُولُهُمْ﴾. شاهدوا الأمر من حيث الخلق فتطوخوا في متاهات الإشكالات المختلفة الأحوال. ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلصوا من تفرقة الأباطيل، واستراحوا بشهود التقدير من اختلاف الأحوال ذات التغيير.

قوله جل ذكره: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الموت نوعان: موت نفس، وموت قلب، ففي القيامة يُبعثون من موت النفس، وأما موت القلب فلا بعث منه - عند كثير من مخلصي هذه الطائفة، قال تعالى مُخْبِرًا عنهم: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] فلو عرفوه لَمَا قالوا ذلك؛ فموت قلوبهم مُسَرَّمَدٌ إلى أن تصير معارفهم ضرورية، فهذا الوقت وقت موت قلوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وِرْسَالِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿النور الذي أنزلنا﴾: القرآن. ويجوز أن يكون ما أنزل في قلوب أوليائه من السكينة وفنون اللطاف.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

المطيع - يومئذ - في غيب لأنه لم يستكثر من الطاعة، والعاصي في غيب لأنه استكثر من الزلة.

وليس كل الغيب في تفاوت الدرجات قلة وكثرة، فالغيب في الأحوال أكثر^(١).
قوله جل ذكره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي حُضَلَةٌ حَصَلَتْ مِنْ قِبَلِهِ خَلْقًا، وبعلمه وإرادته حكماً.
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ حتى يهتدي إلى الله في السراء والضراء - اليوم - وفي الآخرة يهديه إلى الجنة.

ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للأخلاق السنية، والتنقي من شح النفس.
ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ لاتباع السنة واجتناب البدعة.
قوله جل ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

طاعة الله واجبة، وطاعة الرسل - الذين هم سفراء بينه وبين الخلق - واجبة كذلك. والأنوار التي تظهر عليك وتطالب بمقتضياتها كلها حق، ومن الحق . فتجب طاعتها أيضاً^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَنَصَحُوا وَتَوَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
إذا دعوك لتجمع لهم الدنيا فهم عدوك، أما إذا أخذتم منها على وجه العفاف فليسوا لكم أعداء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
﴿فِتْنَةٌ﴾: لأنهم يشغلونكم عن أداء حق الله؛ فما تبتق عن الله مشغولاً بجمعه فهو غير ميمون عليك.

ويقال: إذا جمعتم الدنيا لغير وجهه فإنكم تُشغَلون بذلك عن أداء حق مولاكم، وتشغلكم أولادكم، فتبتقون بهم عن طاعة الله - وتلك فتنة لكم . . ترومون إصلاحهم . فتفسدون أنتم وهم لا يضلحون!

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أي ما دتم في الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا الله . والتقوى

(٢) الآية (١٣) لم ترد.

(١) الآية (١٠) لم ترد.

عن شهود التقوى بعد ألا يكون تقصير في التقوى غاية التقوى .

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حتى ترتفع الأخطار عن قلبه، ويتحرر من رق المكنونات، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَرْضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضْعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

يتوجه بهذا الخطاب إلى الأغنياء ليذلل أموالهم، وللفقراء في إخلاء أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثار مراد الحق على مراد أنفسهم .

فالغني يُقال له: آثر حُكْمِي على مرادك في مالك، والفقير يُقال له: آثر حُكْمِي في نَفْسِكَ وقلبك ووقتك وزمانك .

﴿عَلِمُ الْقَلْبِ وَالشَّهَادَةِ الْمُرِيرُ لِلْعَكِيمِ﴾ .

جل شأنه .

سورة الطلاق

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» اسمٌ مَنْ لا سبيلَ إلى وصاله، ولا عُثيةٌ - في غيره - عن فعّاله، اسمٌ مَنْ عَلِمَه وقع في كل سكونٍ وراحة، اسمٌ مَنْ عرفه وقع في كل اضطراب وإطاحة^(١)، العلماء بسراب علمهم استقلوا فاستراحوا، والعارفون بسُلطانِ حُكمه اضطلموا عن شواهدهم... فبادوا وطاحوا.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾ .

الطلاق - وإن كان فراقاً - فلم يجعله الحق محظوراً... وإن كان من وجهٍ مكروهاً.

وللطلاق وقتية: سُنيةٌ وبدعيةٌ، ومباحةٌ، لا سنيةٌ ولا بدعيةٌ؛ فالسنية: أن تطلقَ في طهرٍ لم تُباشِر فيه طليقةً واحدةً، والبدعية: في حال الحيض وطهرٍ جُمعت فيه، والمباحة: في طهر بعد حيض ثم يطلقها من قبل أن يجامعها - والطلاق أكثر من واحدة.

والعِدَّةُ - وإن كانت في الشريعة لتحصيلين ماء الزوج محاماةً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماءً آخر - فالغالبُ والأقوى في معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية في وصلة النكاح.

والإشارة في الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلُّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التي لم تحض، وهذه الأيسة من الحيض، وتلك التي انقطع حَيْضُهَا، والحُبلى حتى تلد... كل ذلك مراعاةً للحرمة: وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول؛ لأن حُرْمَةَ الميت أعظم وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة... المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ .

(١) أطاح ماله: أفناه وأذهب.

العبودية: الوقوف عند الحدِّ، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومَنْ راعى مع اللّهِ حَدَّهُ أَخْلَصَ اللّهُ لَهُ عَهْدَهُ . . .

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللّٰهَ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ .

قالوا: أراد ندمًا، وقيل: ولدًا، وقيل: مئلاً إليها، أولها إليه؛ فإن القلوب تتقلب:

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبرُ مع الأشكال حقًا للحرمة المتقدمة فالخلاصُ من مُساكنة الأمثال، والتجرُّدُ لعبادة الله تعالى أَوْلَى وَأَحَقُّ .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .

إذا صدّق العبدُ في تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخْرَجُ من بين العجيين لا يغلُقُ بها شيءٌ . ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِي سِراقاتٍ عنايةً، ويُدْخِلُهُ في كنف الإيواء، وَيَضْرِبُ الأَشْغَالَ عن قلبه، وَيُخْرِجُهُ من ظلمات تدبيره، وَيُجَرِّدُهُ من كل أمر، وينقله إلى شهود فضاء تقديره .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .

لم يقل: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَتَوَكَّلْهُ حَسْبُهُ، بل قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾؛ أي فاللّهُ حَسْبُهُ أي كافيهِ .

﴿إِنَّ اللّٰهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ .

إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير فلا محالة يكون، ويتوَكَّلُ لا يتغير المقدور ولا يستأخر، ولكن التوَكَّلُ بنيانه على أن يكون العبدُ مَرْوَحَ القلب غيرِ كارِهِ . . . وهذا من أَجْلِ النعم .

قوله: ﴿وَأَلْتَمِسْ يَسِّنَ مِنَ الْمَجِيضِ﴾ . . . إلى قوله:

﴿يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ .

التوكلُ: شهود نفسك خارجاً عن المئنة^(١) تجري عليك أحكامُ التقدير من غير تدبيرٍ منك ولا اطلاعٍ لك على حُكْمِهِ، وسبيلُ العبدِ الخمودُ والرضا دونَ استعمالِ الأمر، وفي الخبر: «أعوذ بك من علمٍ لا ينفع»^(٢)؛ ومن العلم الذي لا ينفع - ويجب أن تستعيذَ منه - أن يكون لك شُغْلٌ أو يستقبلك مُهْمٌ من الأمر ويشتبه عليك وجهُ التدبيرِ فيه، وتكون مُطالِباً بالفوضىض - فَطْلُبْكَ العلمَ وتمنيكَ أن تعرفَ متى يصلح هذا

(١) المئنة: القوة (ج) منن .

(٢) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٤١١٩)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/٢٢٧) .

الأمْر؟ ولأي سبب؟ ومن أي وجه؟ وعلى يد من؟... كل هذا تخليط، وغير مُسَلَّم شيء منه للأكابر.

فيجب عليك السكون، وحسن الرضا. حتى إذا جاء وقت الكشف فسترى صورة الحال وتعرفه، وربما ينتظر العبد في هذه الحالة تعريفاً في المنام أو ينظر في (...).^(١) من الجامع، أو يرجو بيان حاله بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت... كل هذا ترك للأدب، والله لا يرضى بذلك من أوليائه، بل الواجب السكون.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾.

إذا اتسع رزق العبد فعلى قدر المكنة يُطالب بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه - أي ضيق - فلينفق مما آتاه الله أي من متاع البيت، ومن رأس المال - إن لم يكن من الربح، ومن ثمن الضيعة - إن لم يكن من العلة.

ومن ملك ما يكفي للوقت، ثم اهتم بالزيادة للغد فذلك اهتمام غير مرضي عنه، وصاحبه غير مُعَان. فأما إذا حصل العجز بكل وجه، فإن الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾ وسيجعل الله بعد عسر يسراً. هذا من أصحاب المواعيد - وتصديقه على حسب الإيمان، وذاك على قدر اليقين - ويقينه على حسب القسمة. وانتظار اليسر من الله صفة المتوسطين في الأحوال، الذين انحطوا عن حد الرضا واستواء وجود السبب وفقدته، وارتقوا عن حد اليأس والقنوط، وعاشوا في أفياء الرجال يُعَلَّلون بحسن المواعيد... وأبدأ هذه حالتهم وهي كما قلنا:

إِنْ تَابَكَ الدَّهْرُ بِمَكْرُوهِهِ فِعِشْ بِتَهْوِينِ تَصَانِيْفِهِ

فَعَنْ قَرِيبٍ يَنْجَلِي غَيْمُهُ وَتَنْقُضِي كُلَّ تَصَارِيْفِهِ

قوله جل ذكره: ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيْدًا وَعَذَّبْنَهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

من زرع الشوك لم ينجن الورد، ومن أضاع حق الله لا يطاع في حظ نفسه. ومن اجترأ بمخالفة أمر الله فليصبر على مقاساة عقوبة الله.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِیْنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَلُّوا الصَّلَاةَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾.

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ تَبْيَانٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ . . . فَمَنْ اسْتَضَاءَ بِنُورِهِ اهْتَدَى، وَمَنْ لَجَأَ إِلَى سَعَةِ فَنَاتِهِ وَصَلَّ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ إِلَى شِفَاتِهِ .

وَمَنْ يَزُومِنُ بِاللَّهِ، وَيَعْمَلُ صَالِحاً لِلَّهِ، وَفِي اللَّهِ، فَلَهُ دَوَامُ-التُّعْمَى مِنَ اللَّهِ . . . قَالَ تَعَالَى:

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ .

والرزقُ الحسنُ ما كان على حدِّ الكفاية؛ لا نقصانَ فيه تتعطلُ الأمورُ بسببه، ولا زيادةً فيه تُشغلهُ عن الاستمتاع بما رُزِقَ لِخِرْصِهِ .

كذلك أرزاقُ القلوبِ . أحسنُها أن يكون له من الأحوال ما يشتغل به في الوقت؛ من غير نقصانٍ يجعله يتعذب بتعطُّشِهِ، ولا تكون فيه زيادةً فيكون على خَطَرٍ من مغاليطٍ لا يَخْرُجُ منها إلا بتأييدِ سماويٍّ من الله .

قوله جلَّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ .

خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَخَلَقَ مَا خَلَقَ وَهُوَ مُجِبُّ فِيمَا خَلَقَ وَأَمْرٌ، حَتَّى نَعْلَمَ اسْتِحْقَاقَ جَلَالِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ أَمْضَى فِيمَا قَضَى حُكْمًا، وَأَنَّهُ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

سورة التَّحْرِيمِ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله». اسمٌ عزيزٌ يُنْهَلُ مَنْ عَصَاهُ، فإذا رجع وناداه... أجابه ولبّاه فإن لم يتوسّل بِصِدْقِ قَدَمِهِ فِي ابتداء أمره ثم تَنَصَّلَ بِصِدْقِ نَدَمِهِ فِي آخر عمره أَوْسَعَهُ غَفْرًا، وقبل منه عُذْرًا، وَأَكْمَلَ لَهُ ذُخْرًا، وَأَجْزَلَ لَهُ بَرًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَا تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَى مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

جاء في القصة: أن النبي ﷺ حَرَّمَ عَلَى نفسه مارية القبطية^(١)، وفي الحال حَلَفَ ألا يَطَّأها شهرًا مراعاةً لقلب حفصة^(٢) حيث رأت النبي ﷺ معها في يومها.

وقيل: حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ شَرْبَ العسلِ لَمَّا قَالَتْ لَهُ زوجاته، إِنَّا نشم منك ريح المغافير!

- والمغافير صمغ في البادية كريحه الرائحة، ويقال: بقلة كريحه الرائحة... فعاتبه الله على ذلك.

وهي صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصغائر عليه، وتَرَكَ للأوَّلَى على مذهب مَنْ لَمْ يَجُوزَ.

(١) هي مارية بنت شمعون القبطية (.... - ١٦ هـ = ٦٣٧ م) أم إبراهيم، من سراري النبي ﷺ) مصرية الأصل، بيضاء، ولدت في قرية «حفن» بمصر، وأهداها المقوقس القبطي إلى النبي ﷺ هي وأخت لها تدعى «سيرين» فولدت له «إبراهيم» فقال: أعتقها ولدها. وأهدى أختها سيرين إلى حسان بن ثابت - الشاعر - فولدت له عبد الرحمن، فلما علم الحسن بن علي أن مارية من قرية حفن كلم معاوية، فوضع عن أهل القرية خراج أرضهم، ولما توفي النبي ﷺ تولى الإنفاق عليها أبو بكر، ثم عمر، وماتت في خلافة عمر بالمدينة، ودفنت بالبعج.

الأعلام ٢٥٥/٥، والسبط الثمين ١٣٩، ومعجم البلدان (حفن)، وأسد الغابة (٥/٥٤٣).

(٢) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب (١٨ ق هـ = ٦٠٤ - ٦٦٥ م) صحابية جلييلة صالحة من أزواج النبي ﷺ ولدت بمكة وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلمها وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها فزوجه إياها، واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن توفيت بها. روى لها البخاري ومسلم في الصحيحين ٦٠ حديثاً.

الأعلام ٢٦٥/٢، والإصابة ٢٧٣/٤، وطبقات ابن سعد ٥٦/٨، وصفة الصفوة ١٩/٢، وحلية ٥٠/٢.

وقيل: إنه طَلَّقَ حفصة طليقةً واحدة، فأمره الله بمراجعتها، وقال له جبريل: إنها صَوَامَةٌ قَوَامَةٌ.

وقيل: لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطبيقها فَمَنَعَهُ اللهُ عن ذلك.

وقيل: لَمَّا رَأَتْهُ حفصة مع مارية في يومها قال لها: إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فَلَإِ تَخْبِرِي أَحَدًا: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَكُونُ بَعْدِي لِأَبِي بَكْرٍ وَأَبِيكَ.

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة، وأوحى الله له بذلك، فسأل النبي حفصة: لِمَ أَخْبَرْتِ عَائِشَةَ بِمَا قُلْتِ؟

فقالت له: وَمَنْ أَخْبَرَكَ بِذَلِكَ؟ قَالَ أَخْبَرَنِي اللَّهُ، وَعَرَفَ حَفْصَةَ بَعْضَ مَا قَالَتْ، وَلَمْ يَصْرُحْ لَهَا بِجَمِيعِ مَا قَالَتْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، فَعَاتَبَهَا عَلَى بَعْضٍ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ - عَلَى عَادَةِ الْكِرَامِ.

ويقال: إِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ كَانَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُنِي عَنْكَ».

وظَاهِرُ هَذَا الْخَطَابِ عِتَابٌ عَلَى أَنَّهُ مِرَاعَاةٌ لِقَلْبِ امْرَأَتِهِ حَرَمَ عَلَى نَفْسِهِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ.

والإشارة فيه: وجوب تقديم حق الله - سبحانه - على كل شيء في كل وقت.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكَ نُحْلَةً أَنْتُمْ كُفَرْتُمْ وَاللَّهُ مُؤْتِكُمْ وَأَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام، وتجاوزاً عنه. وقيل: إنه كَفَّرَ بِعَتَقِ رَقَبَةٍ، وَعَاوَدَ مَارِيَةَ.

والله - سبحانه - أجرى سُنَّتَهُ بأنه إذا ساكن عَبدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوْشَ عَلَى خَوَاصِهِ محلًّا مساكنته غَيْرَةً عَلَى قَلْبِهِ إِلَى أَنْ يُعَاوِدَ رَبَّهُ، ثُمَّ يَكْفِيهِ ذَلِكَ - وَلَكِنْ بَعْدَ تَطْوِيلٍ مَدَوَّةٍ، وَأَنْشَدُوا فِي مَعْنَاهُ:

إِذَا عُلِّقَتْ رُوحِي حَبِيبًا تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيَّامِ كُلِّ تَسْلَبَنِيَّةٍ

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله ﷺ تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن، وما كان من حديث طلاق حفصة، وما عاد إلى قلب أبيها، وحديث الكفاية، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة... كل ذلك غَيْرَةٌ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِ، وَإِرَادَتُهُ - سبحانه - تَشْوِيشُ قُلُوبِهِمْ حَتَّى يَكُونَ رَجُوعُهُمْ كُلُّهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقُلُوبِهِمْ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَدَدْتُمْ فَلَوْلَكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلٰٓئِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيْرًا﴾.

عاتبهما على السير من حَطَرَاتِ القلب، ثم قال: ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ...﴾ .
 ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فِي قَلْبِهِ نِفَاقٌ، مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمَا.

وجاء: أن عمر بن الخطاب لما سَمِعَ شيئاً من ذلك قال لرسول الله:
 لو أمرتني لأضربنَّ عُقْفَهَا!

والعتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضي الله عنهما إذ تكلمتا في أمر مارية.
 ثم قال تعالى زيادةً في العتاب وبيان القصة:
 ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مِثْلَهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَمِثْلُ قَنَاتٍ تَرِيحْنَ عِيدَاتٍ
 سَيَعَتْنَ فَمِثْلُ نَبَاتٍ وَأُبْكَارٍ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ .
 أي: فقَهُوهم، وأدبُوهم، وادعوهم إلى طاعة الله، وامنعوهم عن استحقاق
 العقوبة بإرشادهم وتعليمهم.

ودلت الآية: على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب:
 وقيل: أظهروا من أنفسكم العبادات ليتعلموا منكم، ويعتادوا كعادتكم.
 ويقال: دلُّوهم على السنَّة والجماعة.
 ويقال: علِّموهم الأخلاق الحسان.

ويقال: مرُّوهم بقبول النصيحة.
 ﴿وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: الوقود: الحطب.
 ويقال: أمر الناس يصلح بحجارة أو مدرة^(١)، فإن أصل الإنسان مدرة، ولو أنه
 أقام حَجَرَةً مقامَ مدرة فلا غرور من فضل الله.
 اللهم فآلتي فيها بدلنا حَجراً وخلصنا منها.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُعَذِّبُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .
 إذا فات الوقت استفحل الأمر، وانغلق الباب، وسقطت الحيل... فالواجب
 البِدَارُ والفرار لتصل إلى رُوحِ القَرَارِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفُرَ
 عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَيُنَظِّقَنَّ جَنَّتِ تَجْرِي بَيْنَ يَدَيْهَا الْأَنْهَارُ﴾ .
 التوبة النصوح: هي التي لا يعقبها نفض.

(١) المدرة: واحدة المدر: قطع الطين اليابس المتماسك. أو التراب المتلبد.

ويقال: هي التي لا تراها من نفسك، ولا ترى نجاتك بها، وإنما تراها بربك.

ويقال: هي أن تجد المرارة في قلبك عند ذكر الزلّة كما كُثت تجد الراحة لنفسك عند فعلها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يخزي الله النبي بترك شفاعته، والذين آمنوا معه بافتضاجهم بعد ما قُبِلَ فيهم شفاعته.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ عبّر بذلك عن أن الإيمان من جميع جهاتهم.

ويقال: بأيمانهم كتابُ نجاتهم: أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم، وما يخصهم الله به من الأنوار في ذلك اليوم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾: يستديمون التضرع والابتهاال في السؤال.

قوله جلّ ذكره: ﴿بِأَيْمَانِهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾.

أمره بالملاينة في وقت الدعوة، وقال: ﴿وَجَدِلْتُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ثم لما أصرّوا - بعد بيان الحجّة - قال: ﴿وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: لأن هذا في حال إصرارهم، وزوال أعدارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٍ تُوِّجُ وَامْرَأَتٍ لَوْطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمَاهُمَا فَلَمْ يَفْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ اللَّائِحِينَ﴾.

لما سبقت لهما الفرقة يوم القسمة لم تنفعهما القربة يوم العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتٍ فَرَعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قالوا: صغرت همّتها حيث طلبت بيتاً في الجنة، وكان من حقها أن تطلب الكثير... ولا كما توهموا: فإنها قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ﴾ فطلبت جوار القربة، وليبت في الجوار أفضل من ألف قصر في غير الجوار. ومن المعلوم أن العندية هنا عندية القربة والكرامة... ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره، وله خصوصية. وفي معناه أشدوا:

إني لأخسُد جازكم لجواركم طُوبى لِمَن أضحى لدارك جارا
يا ليت جازك باعني من داره شِبْرًا لأعطيه بِشِبْرِ دارا
قوله جل ذكره: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّنُّ﴾.

ختم السورة بذكرها بعد ما ذكر امرأة فرعون، وهما من جملة النساء، ولما كثر
في هذه السورة ذكرُ النساء أراد الله سبحانه ألا يُخلَى السورة من ذكرها تخصيصاً
لقدرها.

سورة الملك

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ مَنْ لَمْ تَتَّعَطَّزْ الْقُلُوبُ إِلَّا بِنَسِيمِ إِقْبَالِهِ، وَلَمْ تَتَّقَطَّزْ الدِّمُوعُ إِلَّا لِلْوَعَةِ فِرَاقِهِ أَوْ رُوحِ وِصَالِهِ؛ فِدْمُوعُهُمْ فِي كُلِّمَا الْحَالَتَيْنِ مُنْسِكِبَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ فِي عَمُومِ أَحْوَالِهِمْ مُلْتَهَبَةٌ وَعَقُولُهُمْ فِي غَالِبِ أَوْقَاتِهِمْ مُنْتَهَبَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿بِئْرَكَ الَّذِي يَدْيُ الْمَلِكِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تَقَدَّسَ وَتَعَالَى، مَنْ إِحْسَانُهُ تَوَاتَرَ وَتَوَالَى، فَهُوَ الْمَتَكَبِّرُ فِي جَلَالِ كِبَرِيَّاتِهِ، الْمَتَجَرِّدُ فِي عِلَاءِ بَهَائِهِ وَدَوَامِ سَنَائِهِ.

﴿بِئْرَكَ الَّذِي يَدْيُ الْمَلِكِ﴾: بِقُدْرَتِهِ إِظْهَارُ مَا يَرِيدُ، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، ابْتِلَاءً لِلخَلْقِ، يَخْتَبِرُهُمْ لِيُظْهِرَ لَهُ شُكْرَانَهُمْ وَكُفْرَانَهُمْ، كَيْفَ يَكُونَانِ عِنْدَ الْمَحْنَةِ فِي الصَّبْرِ وَعِنْدَ النِّعْمَةِ فِي الشُّكْرِ - ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرَيْتُكَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾.

عَرَفَهُمْ كِمَالِ قُدْرَتِهِ بِدَلَالَاتِ خَلْقِهِ، فَمَسَكَ السَّمَاءَ وَأَمْسَكَهَا بِلا عَمَدٍ، وَرَكَّبَ أَجْزَاءَهَا غَيْرَ مُسْتَعِينٍ بِأَحَدٍ فِي خَلْقِهَا، وَبِالنَّجُومِ زِينَتَهَا، وَمِنْ اسْتِرَاقِ سَمْعِ الشَّيَاطِينِ حَصْنَتَهَا، وَبِغَيْرِ تَعْلِيمٍ مُعَلِّمٍ أَحْكَمَهَا وَأَتَقْنَهَا.

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرَيْتُكَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ؟﴾: لَا تَرَى فِيهَا تَفَاوُتًا يَفَاوِي آثَارَ الْحِكْمَةِ وَلَا يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ الْقُدْرَةِ.

وَيَقَالُ: مَا تَرَى فِيهَا تَفَاوُتًا، فِي اسْتِغْنَائِهِ عَنِ الْجَمِيعِ... مَا تَرَى فِيهَا تَفَاوُتًا فِي الخَلْقِ؛ فَخَلَقَ الْكَثِيرَ وَالْيَسِيرَ عِنْدَهُ سَيَّانًا، فَلَا يَسْهَلُ عِنْدَهُ الْقَلِيلُ وَلَا يَشْقُ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ؛ لِأَنَّهُ مُتَنَزِّهٌ عَنِ السَّهُولَةِ عَلَيْهِ وَلِحُوقِ الْمَشَقَّةِ بِهِ.

فَأَنْعَمَ النَّظَرَ، وَكَرَّرَ السَّبْرَ وَالْفِكْرَ... فَلَنْ تَجِدَ فِيهَا عَيْبًا وَلَا فِي عِزِّهِ قُصُورًا^(١).

(١) الآية (٤) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

زَيَّنَ السماءَ بالكواكب والنجوم، وزَيَّنَ قلوبَ أوليائه بأنواع من الأنوار والنجوم؛ فالمؤمنون قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأمل البرهان، ثم بالتوفيق لطلب البيان. والعارفون قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بشمس التوحيد، وأرواحهم مُزَيَّنَةٌ بأنوار التفرّد، وأسرارهم مزينةً بآثار التجريد... وعلى القياس: «لكل طائفة أنوار».

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾: فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم، ومنها ما هو للاهتداء به معلوم... فأخبر أن هذا القدر من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفي، وإنما يُعَذِّبُهُمْ مؤبدين في السعير.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّسُ الْأَعْيُورُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

أخبر: أنهم يَخْتَجُّ عليهم بإرسال الرسل، فنقول لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ...﴾. فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول، فاستوجبوا العقوبة لأجله، لم يسمعوا نصيحة الناصحين ولا وَغَطَّ الواعظين، ولا ما فيه لقلوبهم حياة.

وفي الآية للمؤمنين بشارة؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون؛ فَإِنَّ مَنْ سَمِعَ بِالْحَقِّ سَمِعَ كُلَّ مَا يُقَالُ عَنِ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ مَنْ يَقُولُ عَنِ الْحَقِّ، فيحصل له الفهم لما يسمع، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سَمِعُهُ من الله وبالله وفي الله.

قوله جل ذكره: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

اعترفوا بذنبهم ولكن في غير وقت الاعتراف... فلا جَرَمَ يقال لهم: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الخشية توجب عدم القرار فيكون العبدُ أبدأ - لانزعاجه - كالحب على المقلَى؛ لا يَقْرَأُ لِيَلَهُ أو نهاره، يتوقَّع العقوبات مع مجاري الأنفاس، وكلما ازداد في الله طاعةً ازداد لله خشيةً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّرَأُ قَوْلِكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهٗ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

خَوَّفَهُمْ بِعَلْمِهِ، وَنَدَّبَهُمْ إِلَىٰ مِرَاقِبَتِهِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيَسْمَعُ الْجَهْرَ وَالنَّجْوَى... ثم قال مُبَيَّنًا:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ .

وفي كل جزءٍ مِنْ خَلْقِهِ - من الأعيانِ والآثارِ - أدلةٌ على علمه وحكمته .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا وَإِلَيْهِنَّ أَلْتُّرُونَ﴾ .

أي إذا أردتم أن تضربوا في الأرضِ سهَّلَ عليكم ذلك .

كذلك جعل النَّفْسَ ذُلُولًا؛ فلو طالبتُها بالوفاقِ وَجَدْتَهَا مُسَاعِدَةً مُّوَافِقَةً، مُتَابِعَةً مُسَابِقَةً... وقد قيل في صفتها:

هي النَّفْسُ ما عَوَّدْتَهَا تَتَعَوَّدُ وللدهرِ أيامٌ تُذَمُّ وتُخَمَدُ

قوله جل ذكره: ﴿أَإِنَّمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَيْنُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ .

﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء، فهم مُوَكَّلُونَ بالعذاب . وخوَّفَهُمُ بِالملائكة أن يُنزلوا عليهم العقوبةَ من السماء، أو يخسفوا بهم الأرض، وكذلك خَوَّفَهُمْ أَنْ يُرْسِلُوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط . ويَبَيِّنُ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ قَبْلَ هؤُلاءِ رُسُلَهُمْ كيف كانت عقوبتهم، ثم زاد في البيان^(١) وقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الطَّيْرِ فوقَهُمْ صَفَعَتْ وَيَقْبِضُنَّ ما يُمَسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهٗ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ .

أو لم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة - بخلاف الأجسام الأخر... مَنْ الذي يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن في الفضاء؟ وما الذي يوجب العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأخر؟ .

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جَدُّ لِكُلِّ يَضُرُّكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ .

إن أراد الرحمنُ بك سوءاً... فَمَنْ الذي يُوَسِّعُ عليكم ما قَبَضَهُ، أو يمحو ما أثبتته، أو يُقَدِّمُ ما أَخْرَجَهُ، أو يُؤَخِّرُ ما قَدَّمَهُ؟^(٢) .

(٢) الآية (٢١) لم ترد .

(١) الآية (١٨) لم ترد .

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ .

وَحَصَّكُمْ بِالسَّمْعِ وَالْبَصْرِ وَالْأَفْتِدَةَ، وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ عَظِيمَ نِعْمِهِ^(١).
﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟﴾ .

وأجاب عنه حيث قال: لا تستعجلوا العذاب، وبين أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا . . .﴾ .
وإليه أمورنا - جملة - فَوَضَّأْنَا .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ .

مَنْ الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِالمَاءِ إِذَا صَارَ غَائِرًا فِي الأَرْضِ لَا تَنَالُهُ الأيْدِي .

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم . . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب .

(١) الآية (٢٤) لم ترد.

(٢) الآيتان (٢٦، ٢٧) لم تردا.

سورة القلم

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم كريم من شهد لطفه لم يتدلل بعده لمخلوق، ولم يستعين فيما نابّه من ضر أصابه أو خير أرادته بمحدث مرزوق.

إن أعطاه قابله بالشكر، وإن منعه استجابته بجميل الحمد.

قوله جل ذكره: ﴿تَوَالَّفَ وَمَا يَسْتَوُونَ﴾.

﴿تَوَالَّفَ﴾ قيل: الحوت الذي على ظهره الكون، ويقال: هي الدواة.

ويقال: مفتاح اسمه ناصر واسمه نور.

ويقال: إنه أقسم بنصرة الله تعالى لعباده المؤمنين.

وأقسم بالقلم - وجواب القسم قوله:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْتُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

ما أوجب لصدرة من الوحشة من قول الأعداء عنه:

إنه مجنون، أزاله عنه بنفيه، ومحققاً ذلك بالقسم عليه... وهذه سئة الله تعالى

مع رسوله ﷺ؛ فما يقوله الأعداء فيه يرده - سبحانه - عليهم بخطابه وعنه بنفيه.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: أي غير منقوص... لما سمّت همته ﷺ عن طلب

الأعواض أثبت الله له الأجر، فقال له: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ - وإن كنت لا

تريده.

ومن ذلك الأجر العظيم هذا الخلق، فأنت لست تريد الأجر - وبنا لست تريد؛

فلولا أن خصصناك بهذا التحرر لكنت كأمثالك في أنهم في أسير الأعواض.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٍ﴾.

كما عرفه الله سبحانه أخباراً من قبله من الأنبياء عرفه أنه اجتمعت فيه متفرقات

أخلاقهم فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٍ﴾.

ويقال: إنه عرض عليه مفاتيح الأرض فلم يقبلها، ورقاه ليلة المعراج، وأراه

جميع المملكة والجنة فلم يلتفت إليها، قال تعالى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾ [النجم:

[١٧] فما التفت يمينا ولا شمالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَكَلِمٍ خُلِقٍ عَظِيمٍ﴾. . . ويقال: ﴿على خلق عظيم﴾: لا بالبلاء تنحرف، ولا بالعطاء تنصرف؛ احتمل صلوات الله عليه في الأذى شج راسيه وثغرّه، وكان يقول:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١). وغداً كلُّ يقول: نفسي نفسي وهو صلوات الله عليه يقول: «أمي أمي»^(٢).

ويقال: علّمه محاسن الأخلاق بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾.

سأل صلوات الله عليه جبريل: «بماذا يأمرني ربي؟ قال: يأمرك بمحاسن الأخلاق؛ يقول لك: صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعِظْ مَنْ حَرَمَكَ واعف عمن ظلمك»^(٣)، فتأدّب بهذا؛ فأنى عليه وقال: ﴿وَأَنَّكَ لَكَلِمٍ خُلِقٍ عَظِيمٍ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَسْتَبِصِرْ وَتُبَيِّرُونَ بِآيَاتِكُمْ أَلْفَقَاتٌ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

المفتون: المجنون لأنه فتن أي مجن بالجنون.

﴿فَلَا تَطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

معبودك واحد فليكن مقصودك واحداً . . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكن مشهودك واحداً.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

من أصبح عليلاً تمنى أن يكون الناس كلهم مَرْضَى . . . وكذا من وسم بكبي الهجران ود أن يشاركه فيه من عاداه.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٢١٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/٤٤١)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٦/١١٧)، والطبري في (التفسير ١/١٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٤١٩)، والقرطبي في (التفسير ٤/١٩٩، ٨/٤٧٣، ١٤/١٥٦)، والقاضي عياض في (الشفاء ١/٢٢٢)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٣/١٨٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/٣١٣، ٣/٦٨، ٢٨٣)، (مناهل الصفا ١٦)، والآجري في (الشيعة ٤٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/٩٥)، والطبراني في (التفسير ٦/١٤٦، ٢٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/٥٤، ٧/٩٣-١٠٨، ٣٦٠، ٨/٢٥٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٨٨٣، ٣٥٥٦٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٩٩، ٩٨٧٢)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/٢٧٣، ١٢/٢٨٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٣/٢١٥).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/٢٨٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٥١٠) والسيوطي في (الدر المنثور ٥/٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٨٧)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٤٢٨، ٤٤٣)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/٣٨٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١١/٣١).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٤/١٤٨، ١٥٨).

﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ سَلْفٍ مَّهِينٍ﴾ .

وهو الذي سقط من عيننا، وأقميناه بالبعد عنا.

﴿هَازِرٌ مَّشَامَ بَيْبِيعٍ﴾ .

محجوبٌ عنَّا مُعَذَّبٌ بخذلان الوقيعة في أولياتنا.

﴿مَنَاعٌ لِلخَيْرِ﴾ .

مُهَانٌ بالشُّعْخُ، مسلوب التوفيق.

﴿مُعْتَدٍ أَيْبٍ﴾ .

ممنوع الحياء، مُشْتَبِتٌ في أودية الحرمان.

﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٍ﴾ .

لثيم الأصل، عديم الفضل، شديد الخصومة بباطله، غير راجع في شيء من الخير إلى حاصله.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

أي: لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين . . . ثم استأنف الكلام فقال: إذا تتلى . . . قابلها بالتكذيب، وحكّم أنّ القرآن من الأساطير.

﴿سَيَسْمِعُ عَلَى الْغُرُورِ﴾ .

أي سنجعل له في القيامة على أنفه تشويهاً لصورته كي يُعْرِفَ بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ .

أي امتحناهم . . . حين دعا عليهم النبي ﷺ، فابتلاهم الله بالجوع، حتى أكلوا الجِيفَ - كما بلونا أصحاب الجنة، قيل: إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مشمرة وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تعدّاه المئجل فلم يجده من الكرم، فإذا طُرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فما أخطأه القطف من نخله وكرمه يدّعه للمساكين، وكان يجتمع منه مال، فلما مات هو قال ورثته: إنّ هذا المالَ تفرّق فينا، وليس يمكننا أن نفعل ما كان يفعله أبونا، وأقسموا ألا يُعْطُوا للفقراء شيئاً، فأهلك الله جنتهم؛ فقدموا وتابوا.

وقيل: أبدلهم الله جنةً حسنة، فأقسموا ليصرمن جنتهم وقت الصبح قبل أن تفتن المساكين، ولم يقولوا: إن شاء الله^(١):

﴿فَلَمَّا عَلِمُوا لَدَيْهِمْ أَنَّهَا لَعْنَةٌ مِنَ رَبِّكَ وَهُمُ الْغَافِلُونَ فَاصْبَحْتُمْ كَالصَّعِيرِ﴾ .

أرسل عليها من السماء آفة فأحرقت ثمارهم . وأصبحت ﴿ كَالصَّيْرِ ﴾ أي كالليل المسودّ، فنأدى بعضهم بعضاً وقت الصبح: أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام، فانطلقوا لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعون أحدًا . وقصدوا إلى الصرام^(١) ﴿عَلَى حَرِيرٍ﴾ أي: قادرين عند أنفسهم، ويقال: على غضبٍ منهم على المساكين .

فلما رأوا الجنة وقد استوصلت قالوا: ليست هذه جنتنا!!

ثم قالوا: بل هذه جنتنا . . . ولكننا حرّمنا خيرها .

قال أوسطهم: أي أعدلهم طريقةً وأحسنهم قولاً^(٢):

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ؟﴾ .

أي: تستثنون وتقولون: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٧٠] .

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ .

ثم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، ويقولون^(٣):

﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ .

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَلْمَأُذِنُ﴾ لأهل مكة ﴿وَلَمَّا بَلَغَ الْأَخْرَجَ أَكْبَرُ﴾

وهكذا تكون حال مَنْ له بدايةً حسنةً ويجدُ التوفيق على التوالي، ويجتنبُ المعاصي، فيُعرضه اللهُ في الوقتِ نشاطاً، وتلوحُ في باطنه الأحوالُ . . . فإذا بدّر منه سوءٌ دعوى أو ترك أدبٌ من آداب الخدمة تُشَدُّ عليه تلك الأحوالُ ويقع في قزوة^(٤) من الأعمال فإذا حصلَ منه بالعبادات إخلالٌ، ولبعض الفرائض إهمالٌ - انقلب حاله، ورُدَّ من الوصال إلى البعاد، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب، فصارت صفوته سوسةً . وإن كان له بعد ذلك توبة، وعلى ما سَلَفَ منه ندامة - فقد فات الأمرُ من يده، وقَلما يصل إلى حاله .

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله، فيقبله بعد ذلك رعايةً لما سَلَفَ في بدايته من أحواله . . . فإنَّ الله تعالى رؤوفٌ بعباده .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ .

الذين يتقون الشرك والكفر، ثم المعاصي والغسق، لهم عند الله الثواب والأجر .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَتَجْمَلُ الْكَافِرِينَ كَالْمُؤْمِنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ .

(١) الآيات من (٢١ حتى ٢٤) لم ترد . (٢) الآيات (٢٦ - ٢٧) لم تردا .

(٣) الآيات (٣٠، ٣١) لم تردا .

(٤) قرة جلده: تقشر أو اسود من شدة الضرب . (اللسان ١٣/٥٣٠ مادة: قرة) .

كيف تحكمون؟ هل لديكم حجة؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أم لكم منا عهدود فيها تحكمون؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفي ذلك^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿عَن سَاقٍ﴾: أي عن شدة يوم القيامة.

ويقال في التفسير عن ساقِ العرش.

يُؤْمَرُونَ بالسجود؛ فأما المؤمنون فيسجدون، وأما الكفار فتشُدُّ أصلابهم فلا

تنحني.

وقيل: يكشف المريض عن ساقه - وقت التوفي - ليُبصِرَ ضعفه، ويقول المؤدَّن: حي على الصلاة - فلا يستطيع.

وعلى الجملة فقد حَوَّفَهُم بهذه القالة: إمَّا عند انتهائهم في الدنيا أو ابتدائهم في الآخرة.

﴿... وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾.

يذكرهم بذلك ليزدادوا حسرةً، ولتكون الحجة عليهم أبلغ.

قوله جل ذكره: ﴿فَدَرَبِ وَمَنْ يَكْذِبُ يَهْدِنَا لِلدَّيْتِ سَتَدْرِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

سَتَقْرُبُهُمْ من العقوبة بحيث لا يشعرون.

والاستدراج: أن يريد الشيء ويَطْوِي عن صاحبه وَجْهَ الْقَضِ فيه، ويُدْرِجُه إليه شيئاً بعد شيء، حتى يأخذه بغتة.

ويقال: الاستدراج: التمكين من النعم مقروناً بنسيان الشكر.

ويقال: الاستدراج: أنهم كلما ازدادوا معصيةً زادهم نعمةً.

ويقال: ألا يُعَاقِبُه في حالِ الزَّلَّةِ، وإنما يؤخِّر العقوبة إلى ما بعدها..

ويقال: هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم.

ويقال: الاغترارُ بطول الإمهال.

ويقال: ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُسَوِّش.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمْلَى لَمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

أُنْهِلَهُمْ... ثم إذا أَخَذْتَهُمْ فَأَخِذِي أَلِيمٌ شديد.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْرًا فَهَمَّ مِنْ مَّغْرَرٍ مُتَّقِلُونَ﴾.

أي: ليس عليهم كُلفة مقابل ما تدعوهم إليه، وليست عليهم غرامة إن هم اتبعوك... فأنت لا تسأل أجراً... فما موجبات التأخر وترك الاستجابة؟

(١) الآيات من (٣٨ - ٤١) لم ترد.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟﴾ .

أم عندهم شيء من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا؟ .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ .

صاحب الحوت: هو يونس عليه السلام: ﴿نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مملوء بالغيظ على قومه. فلا تستعجل - يا محمد - بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقي ما لقي، وتثبت عند جريان حكمتنا، ولا تعارض تقديرنا.

﴿أَوَلَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِصْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لِنَيْدٍ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ .

أي: لولا أن الله رجمه بفضله لطرح بالفضاء وهو مذموم ولكن:

﴿فَأَجْنِبْنَاهُ رِيئًا فَجَعَلْنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

فاصطفاه واختاره، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَكَاذِبُونَ كَبُرُوا لِيُرْثِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ .

كانوا إذا أرادوا أن يصبوا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثة أيام، ثم جاؤوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين: ما أحسنه من شيء! فكان يسقط المنظور في الوقت. وقد فعلوا ذلك بالنبي صلوات الله عليه، فقالوا: ما أفصحه من رجل! ولكن الله سبحانه حفظه، ومن بذكره عليه^(١).

(١) الآية (٥٢) لم ترد.

سورة الحاقة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة تحتاج في سماعها إلى سَمْعٍ عزيزٍ لم يُسْتَعْمَلْ في سماع الغيبة، وتحتاج في معرفتها إلى قلبٍ عزيزٍ لم يَتَبَدَّلْ في الغفلة والغبية، لم ينظر صاحبه بعينه إلى ما فيه رُتبه، ولم تتبع نَفْسُهُ اللَّبْسَ والطَّبَّةَ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

«الحاقة»: اسمٌ للقيامة لأنها تُحَقُّ كُلُّ إنسانٍ بعملِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ استفهام يفيد التعظيم لأمرها، والتفخيم لشأنها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾.

ذَكَرَ في هذه السورة: الذين كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ من الأمم، وأصْرُوا على كُفْرِهِمْ، ولم يقبلوا النصيحة من أنبيائهم، فأهلكهم، وانتقم لأنبيائه منهم.

والفائدة في ذِكْرِهِمْ: الاعتبارُ بهم، والتحرُّرُ عَمَّا فعلوا لئلا يُصِيبَهُمْ ما أصابهم.

وعقوبة هذه الأمة مُؤَجَّلَةٌ مُؤَخَّرَةٌ إلى القيامة، ولكنَّ خواصَّهُم عقوبتُهُمْ مُعَجَّلَةٌ؛ فقومٌ من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا، أو أضاعوا أَدْبًا يعاقبهم بريح الحجابة، فلا يَبْقَى في قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للذَّين، ولا مِمَّا كان لهم من الأوقات، ويصيرون على خَطَرٍ في أحوالهم بأن يُمْتَحَنُوا بالاعتراض على التقدير والقِسْمة.

وأما فرعون وقومه فكان عذائهم بِالْعَرَقِ... كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربِّه مشغولٌ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ - فإذا لم يشكر النعمة، وأساء أدبَهُ، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم اللهُ به عليه رَدَّهُ الحقُّ إلى أسباب التفرقة، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيتكدر مشربُهُ، ويصير على خَطَرٍ بأن يُذْرَكَ سُخْطُ الحقِّ وِغْضُهُ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ مَمَلِكُوا فِي الْبَارِيَةِ﴾.

وكذلك تكون مِثْنُهُ على خواصِّ أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم في أمواجِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها، فيكونون بوصف السلام، لا

(١) الطب: الحلق والمهارة.

(٢) الآيات من (٥ حتى ١٠) لم ترد.

مُنَازَعَةً وَلَا مُحَاسِبَةً لَهُمْ مَعَ أَحَدٍ، وَلَا تَوَقَّعَ شَيْءٍ مِنْ أَحَدٍ؛ سَالِمُونَ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ مِنْهُمْ سَالِمُونَ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾.

بدأ في وصف القيامة والحساب^(٢)...

قوله جلّ ذكره: ﴿...يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وفي كلّ نفسٍ مع هؤلاء القوم محاسبة ومطالبة، منهم من يستحق المعاقبة، ومنهم من يستحق المعاقبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِكَ كُنْتَهُ بِيَسِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ نَفْسٌ كُنْتُهُ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ

حِسَابِيَةٍ﴾.

يسلم له السرورُ بنعمة الله، ويأخذ في الحمد والمدح.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

القوم - غداً - في عيشة راضية أي مرضية لهم، وهؤلاء القوم - اليوم - في عيشة راضية، والفرق بينهما أنهم - غداً - في عيشة راضية لأنه قد قُضيت أوطارهم، وارتفعت مآربهم، وحصلت حاجاتهم، وهم - اليوم - في عيشة راضية إذ كفوا مآربهم فدفع عن قلوبهم حوائجهم؛ فليس لهم إرادة شيء، ولا تمسهم حاجة. وإنما هم في رُوح الرضا... فغيش أولئك في العطاء، وغيش هؤلاء في الرضاء؛ لأنه إذا بدا علم من الحقيقة أو معنى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال. ويقال لأولئك غداً^(٣).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّالِيَةِ﴾.

ويقال لهؤلاء: اسمعوا واشهدوا... اسمعوا مثلاً... وانظروا إلينا، واستأنسوا

بقرّينا، وطالعوا جمالنا وجلالنا... فأنتم بنا ولنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِكَ كُنْتَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ: بَلَيْتَنِي لَرَأُوتَ كُنْتِيَةَ وَلَرَأُدْرَ مَا حِسَابِيَةَ

بَلَيْتَهَا كَانَتْ أَلْفَاضِيَةَ﴾.

هناك - اليوم - أقوام مهجورون تتصاعد حسراتهم، ويتضاعف أُنْيُهُمْ - ليلهم ونهارهم - فليلهم ويل ونهارهم بَعَاد؛ تكدّرت مشاربهم، وخربت أوطان أنسهم، ولا بكاؤهم يُرْحَم، ولا أنْيُهُمْ يُسْمَع... فيندم أنهم مُبْعَدُونَ... وهم في الحقيقة من اللّه مرحومون، أسبل عليهم الستر فصغّرهم في أعينهم - وهم أكرم أهل القصة! كما قالوا^(٤):

لا تُشْكِرُنَّ جِجْدِي هَوَاكَ فَإِنَّمَا ذَاكَ الْجِجْدُودُ عَلَيْكَ سِتْرٌ مُسْتَبَلٌ

(٢) الآيات من (١٤ حتى ١٧) لم ترد.

(١) الآية (١٢) لم ترد.

(٤) الآيات من (٢٨ حتى ٣٧) لم ترد.

(٣) الآيات (٢٢ - ٢٣) لم تردا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ .

«لا»: صلة والمعنى: أقسم؛ كأنه قال: أقسم بجميع الأشياء، لأنه لا ثالث لما يبصرون وما لا يبصرون. وجواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ .

أي وجيه عند الله. وقول الرسول الكريم هو القرآن أو قراءة القرآن^(١).

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أي أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَتَيْنَا بَعْضَ الْأَفْوَئِلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ .

أي لو كان محمداً يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه، ولو تعمّد لعذبناه. والقول بعصمة الأنبياء واجب. ثم كان لا ناصر له منكم ولا من غيركم، وهذا القرآن^(٢):

﴿وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لِحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لِحَقُّ الْيَقِينِ﴾ .

حقّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء.

وعلم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجللاء؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين، وخفاء الطريق وجلائه، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً، ثم ما يكون مع الإدراكات^(٣).

(١) الآيتان (٤١، ٤٢) لم تردا.

(٢) الآية (٤٧) لم ترد.

(٣) انظر حديث القشيري عن علم وعين وحقّ اليقين برسالته ص ٨٥.

الآية (٥٢) لم ترد.

سورة المَعَارِجِ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» كلمة من قالها وَجَدَ جمالها، وَمَن شهدا شهد جلالها.

وليس كلُّ مَنْ قالها نالها، ولا كلُّ من احتالها عَرَفَ جلالها.

كلمة رقيقة عن إدراكِ الألبابِ منيعة، كلمة على الحقيقة الصمدية دالة، كلمة لا بُدَّ للعبد من ذكْرِها في كل حالة .

قوله جلّ ذكره: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ .

الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن، أي سأل سائلٌ عن هذا العذاب لِمَن هو؟ فقال

تعالى:

﴿لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ .

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾؛ فهذا العذاب من الله .

ومعنى ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي الفضل ومعالي الدرجات التي يُبْلَغُ إليها أولياءه .

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنَزَّجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ .

﴿وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل، في يومٍ كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا يعني به يوم

القيامة .

ويقال: معناه يحاسبُ الخَلْقَ في يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسيرٍ ما لو كان الناسُ

يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة، والله يُجْرِي ذلك ويُمْضِيه في يومٍ واحد .

ويقال: من أسفل المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرة خمسين ألف سنة للناس؛

فالملائكة تخرج فيه من أسفله إلى أعلاه في يومٍ واحد .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ .

فاصبر - يا محمد - على مقاساةِ أذاهم صبراً جميلاً . والصبرُ الجميلُ ما لا

شكوى فيه .

ويقال: الصبر الجميل ألا تَسْتَقِيلَ الصبرَ بل تستعذبه .

ويقال: الصبرُ الجميلُ ما لا يَتَنَطَّرُ العبدُ الخروجَ منه، ويكون ساكناً راضياً .

ويقال: الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبلي.

ويقال: الصبرُ الجميل ما تجرّد عن الشكوى والدّعوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَاهُ قَرِيبًا﴾.

إنّ ما هو آتٍ فقريبٌ، وما استبَعَدَ مَنْ يستبَعِدُ إلّا لآته مُرتابٌ؛ فأما الواثقُ بالشيء فهو غيرُ مُستبَعِدٍ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾.

الإشارة فيه أنه في ذلك اليوم مَنْ كان في سُمُو نخوته ونُبُو صولته يلين ويستكين ويضعفُ مَنْ كان يَشْرَفُ، ويذلُّ مَنْ كان يُذَلُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

لا يتشَرَّعُ قريبٌ إلى قريبٍ؛ فلكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه.

ولا يتعهَّدُ المساكينَ - في ذلك اليوم - إلا الله.

﴿يُصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَلْسِنَتُهُمْ لُغَمٌ مِّنَ الْحَجَرِ لَوْ يُفْتَدَىٰ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَحِيَّتِهِ وَآخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيَّدُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُجِيبُهُ﴾.

﴿يُصْرَوْنَهُمْ﴾ أي يعرفون أقاربهم، ولكن لا ترقُّ قلوبُ بعضهم على بعض.

ويتمنى المجرمُ يومئذٍ أن يُفْتَدَىٰ من عذاب جهنم بأعزِّ مَنْ كان عليه في الدنيا من قريبٍ ونسيبٍ وحميمٍ ووليدٍ، وبكلِّ من الأرض حتى يخلص من العذاب.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَنظُرُ﴾.

اسم من أسماء جهنم.

﴿نَرَاةَ لِلشَّوَى﴾^(١).

قَلَاعَةٌ للأطراف. تكشف الجِلْدَ عن الوجه وعن العظم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾.

تقول جهنم للكافر والمنافق: يا فلان... إليّ إليّ.

والإشارة فيه: أنّ جهنم الدنيا تعلق بقلب المرء فتدعوه بكلاب الحِرْصِ إلى نفسه وتجره إلى جمعها حتى يؤثرها على نفسه وكلِّ أحدٍ له؛ حتى لقد يَبْخُلُ بدنياه على أولاده وأعرّته... وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها^(٢).

(١) الشوى: البدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس، وجلدة الرأس يقال لها: شواة وما كان

غير مقتل فهو شوى، وقيل: الشوى: (ج) الشواة: وهي جلدة الرأس. (الرسالة القشيرية ص ٤٤٧

مادة: شوا).

(٢) الآية (١٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾.

وتفسيره ما يتلوه:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

والهَلُوعُ شِدَّةُ الْجَرِصِ مع الجزع. ويقال هَلُوعًا: متقلِّبًا في غمرات الشهوات.

ويقال: يُرْضِيهِ الْقَلِيلُ وَيُسَخِطُهُ الْيَسِيرُ.

ويقال: عند المحنة يدعو، وعند النعمة ينسى ويسهو.

﴿إِلَّا الْمَصْلِيْنَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾.

استثنى منهم المصلين - وهم الذين يُلَازِمُونَ أبدأ مواطنَ الافتقار؛ مِنْ صَلَاتِهِ بِالْمَكَانِ^(١).

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَرْجُورِ﴾.

وهم الْمُتَكَفِّفُ وَالْمُتَعَفِّفُ.

وهم على أقسام: منهم مَنْ يُؤَثِّرُ بِجَمِيعِ مَالِهِ؛ فَأَمْوَالُهُمْ لِكُلِّ مَنْ قَصَدَ، لَا يَخْصُونَ سَائِلًا مِنْ عَائِلٍ. ومنهم مَنْ يعطي ويمسك - وهؤلاء منهم - ومنهم مَنْ يرى يَدَهُ يَدَ الْأَمَانَةِ فَلَا يَتَكَلَّفُ بِاخْتِيَارِهِ، وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ مَا يُشَارُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ؛ إِمَّا بِالْإِمْسَاكِ فَيَقِفُ أَوْ بِبِذْلِ الْكُلِّ أَوْ الْبَعْضِ فَيَسْتَجِيبُ عَلَى مَا يُطَالَبُ بِهِ وَمَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الْوَقْتِ... وهؤلاء أئمَّهُم.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الَّذِينَ﴾.

وأمارتُهُم الاستعدادُ للموتِ قبل نزوله، وأن يكونوا كما قيل:

مستوفزون على رجلٍ كأنهمو فقد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا^(٢)

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَقْرَبِهِمْ حَقْفُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

مَلُومِينَ فَمِنْ أَيْمَانِ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

وإنما تكون صحبتُهُم مع أزواجِهِم لِلتَّعَفُّفِ وَصَوْنِ النَّفْسِ، ثم لا يتغاء أن يكون له وَلَدٌ مِنْ صِلْبِهِ يَذْكُرُ اللَّهَ. وشَرْطُ هَذِهِ الصَّحْبَةِ: أَنْ يَعِيشَ مَعَهَا عَلَى مَا يَهُونُ، وَأَلَّا يَجْزَّهَا إِلَى هَوَى نَفْسِهِ وَيَحْمِلَهَا عَلَى مَرَادِهِ وَهَوَاهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾.

(١) أصلت الناقية: إذا وقع ولدها في صلاها وقرب ناجها. (اللسان ٤٦٦/١٤ مادة: صلا).

(٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

يحفظون الأمانات التي عندهم للخلق ولا يخونون فيها. وأمانات الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة - فلا يُدَّسُونها بالخطايا؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق، والأسرارُ التي بينهم وبين الله أماناتٌ عندهم. والفرائضُ واللوازمُ والتوحيدُ... كل ذلك أماناتٌ.

ويقال: من الأمانات إقرارهم وقت الدُّرِّ. ويقال: من الأمانات عند العبد تلك المحبة التي أودعها الله في قلبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾.

شهادتهم لله بالوحدانية، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض - يقومون بحقوق ذلك كله^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكَ مُهْطِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

والإهطاع أن يُقبلَ ببصره إلى الشيء فلا يرفعه عنه، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي ﷺ ﴿عِزِينَ﴾: أي خَلَقًا خَلَقًا، وجماعة جماعة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

كلا... إنك لا تدعو عن هذا! وليس هذا بصواب؛ فإنهم - اليوم - كفار، وغداً يعاملون بما يستوجبون.

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّي الْمَسْرِقَ وَالْمَسْرِبَ﴾ لا - هنا صلة، والمعنى أقسم. وقد مضى القول في المشارق والمغارب - ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ على ذلك^(٢).

﴿فَدَرَاهِمٌ يَّحْضَرُونَ وَيَلْمَعُونَ﴾ غاية التهديد والتوبيخ لهم.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يِرَاقًا﴾ كأنهم يسرعون إلى أصنامهم، شبه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى التُّصْبِ - اليوم - كي يقوموا بعبادتهم إياها^(٣).

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

(٢) الآية (٤٤) لم ترد.

(٣) الآية (٤١) لم ترد.

سورة نوح

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» اسم لمن قامت السموات والأرض بقدرته واستقامت الأسرار والقلوب بنصرته . . ذلت الأفعال على جلال شأنه، وذلت الرقاب عند شهود سلطانه . أشرفت الأقطار بنوره في العقبى، وأشرقت الأسرار بظهوره في الدنيا، فهو المقدس بالوصف الأعلى .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

أرسلنا نوحاً بالنبوة والرسالة . ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أنذرهم وإرسال الرسل من الله فضل، وله بحق ملكه أن يفعل ما أراد، ولم يجب عليه إرسال الرسل لأن حقيقته لا تقبل الوجود .

وإرسال الرسل إلى من علم أنه لا يقبل جازز، وتكليفهم من ناحية العقل جائز فنوح - علم منهم أنهم لا يقبلون . . ومع ذلك بلغ الرسالة وقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُرْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَتَوَارَىٰ لِي لَكَ نَذِيرٌ مُّبِينٌ إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ وَاطِيعُونَ يُغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُوَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَهُ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ من هنا للجنس لا للتبويض كقوله تعالى: ﴿فَأَجْتَبِئُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] .

ويقال: ما عملوه دون ما هو معلوم أنهم سيفعلونه؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراء لهم . . وذلك لا يجوز . فأبوا أن يقبلوا منه، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ .

بيّن أن الهداية ليست إليه، وقال: إن أردت إيمانهم فقلوبهم بقدرتك - سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَشْجَبَا﴾ .

وإني ما ازددتُ لهم دعاءً إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً.
ويقال: لما دام بينهم إصرارُهم تولدَ من الإصرار استكبارُهم، قال تعالى:
﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي بَيْنَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

ليعلم العالمون: أنَّ الاستغفار قزحُ أبوابِ النعمة، فمن وقعت له إلى الله حاجةٌ فلن يصل إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار.
ويقال: مَنْ أراد التَّفَضُّلَ فعليه بالْعُذْرِ والتَّضَلُّلِ.

قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾: كان نوح عليه السلام كلما ازداد في بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان.
قوله جل ذكره: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمنون على توكيركم للامر من الله لطفاً ونعمة؟^(١)

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.
ثم نبههم إلى خلق السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة، وعلى أنَّ خالقها يستحق صفات العلوِّ والعزة^(٢).

ثم شكى نوح إلى الله وقال:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾.
يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة^(٣).
﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وذلك بتعريف الله تعالى إياه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. فاستجاب الله فيهم دعاءه وأهلكهم^(٤).

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٣) الآيات من (٢٣، ٢٥) لم ترد.

(٤) الآيات (٢٧، ٢٨) لم ترد.

(٢) الآيات من (١٧، ٢٠) لم ترد.

سورة الجن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» اسم عزيز به أقرَّ مَنْ أقرَّ بربوبيته، وبه أصرَّ مَنْ أصرَّ على معرفته، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليقته، وبه ظهرَ ما ظهر من مقدراته، وبه بطنَ ما بطنَ من مخلوقاته، فَمَنْ جَحَدَ فيخذلانه وحرمانه، ومن وَحَدَ فبإحسانه وامتنانه .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ .

قيل: إن الجنَّ كانوا يأتون السماء فيستمعون إلى قول الملائكة، فيحفظونه، ثم يلقونه إلى الكهنة، فيزيدون فيه وينقصون . . . وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبينا ﷺ وبين عيسى عليه السلام . فلَمَّا بُعِثَ نبينا ﷺ وَرُجِمُوا بالشُّهْبِ عَلِمَ إبليس أنه وقع شيءٌ فقرَّ جنوده، فأتى تسعةً منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته ﷺ فآمنوا، ثم أتوا قومهم وقالوا: إِنَّا سَمِعْنَا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنوا به . . . إلى آخر الآيات^(١) .
(وجاء سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ

الْجِنِّ . . .﴾ [الأحقاف: ٢٩] .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُ تَكَلَّمَ جِدًّا رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ .

الجَدُّ العظمة، والعظمة استحقاق نعوت الجلال . . .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ .

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعني إبليس . والشطط السرف .

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .

في كفرهم وكلمتهم بالشرك .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ .

أي ذلة وصغاراً؛ فالجنُّ زادوا للإنس ذلَّةً ورهقاً فكانوا إذا نزلوا يقولون: نعوذ برَبِّ هذا الوادي فيتوهم الجنُّ أنهم على شيء ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ حيث استعاذوا بهم .

(١) الآية (٢) لم ترد .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ .

أي ظنوا كما ظن الكفار من الجن ألابعث ولا نشور - كما ظننتم أيها الإنس .

﴿وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَمَاتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا﴾ .

يعني حين مُنعوا عن الاستماع .

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّهَا مِنْهَا مَقْعَدًا لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحِدُّ لِمَا شَهِبَا رَصَدًا﴾ .

فالآن قد مُنعنا^(١) .

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

﴿وَالْوَالِدُ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ .

الاستقامة على الطريقة تقتضي إكمال النعمة وإكثار الراحة . والإعراض عن الله

يوجب تنعص العيش ودوام العقوبة^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ .

للمسجد فضيلة، ولهذا خصه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع؛ فهو

محل العبادة . . وكيف يُحل العابد عنده إذا حل محل قدمه؟! .

ويقال: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها، أخبر أنها لله، فلا تعبدوا بما

لله غير الله .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ .

لما قام عبد الله يعني محمداً عليه السلام يدعو الخلق إلى الله كاد الجن والإنس

يكونون مجتمعين عليه، يمنعونه عن التبليغ^(٣) قل يا محمد:

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ .

لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً، أو أسوق لكم خيراً . . فكل شيء من الله . ولن

أجد من دونه ملتجأ:

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ .

فلن يُنجيني من الله إلا تبليغي رسالاته بأمره .

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمَنْ رَزَقْتُمْ أَمْدًا﴾^(٤) .

(١) الآيات من (١١ حتى ١٥) لم ترد .

(٣) الآية (٢٠) لم ترد .

(٤) الآية (٢٤) لم ترد .

(٢) الآية (١٧) لم ترد .

أي: لا أذري ما تُوعَدون من العقوبة، ومن قيام الساعة أقرب أم بعيد؟ فكونوا على حذر. ويجب أن يتوَقَّع العبدُ العقوبات أبداً مع مجاري الأنفاس لِيَسْلَمَ من العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ .
فيطلعه بقَدْرٍ ما يريد.

﴿يَتْلُوهُ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ .

أرسل مع الوحي ملائكة قُدَّامه وخَلْفَه . . هم ملائكة حَفَظَه، يحفظون الوحي من الكهنة والشياطين، حتى لا يزيّدوا أو ينقصوا الرسالات التي يحملها . . . والله يعلم ذلك، وأحاط عِلْمُه به .

سورة المزمّل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: الحادِثاتُ بالله حَصَلَتْ، فقلوبُ العارفين بالله عَرَفَتْ ما عرفت وأرواحُ الصّديقين بالله أَلِفَتْ مَنْ أَلِفَتْ وفُهُومُ الموحّدين بساحاتِ جلاله وَقَفَتْ، ونفوسُ العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته أَتَصَفَّتْ وعقولُ الأولين والآخِرِينَ بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُولُ قُمْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: المتزمل المتلفف في ثيابه. وفي الخير: «أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ^(١) من شَعْرٍ وَبَرٍّ، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّي، وطولُ المِرْطِ أربعة عشر ذراعاً».

﴿نِصْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

﴿قُمْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصفه بَدَلٌ منه؛ أي: قم نصف الليل، وأنقِضْ من النصف إلى الثلث أو زدْ على الثلث، فكان عليه الصلاة والسلام في وجوب قيام الليل مُحْخِرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث. وكان ذلك قبل قَرْضِ الصلوات الخمس، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة - وإن كانت بقيت واجبة على الرسول ﷺ.

ويقال: يا أيها المتزمل بأعباء النبوة.. ﴿قُمْ أَيْلًا﴾.

ويقال: يا أيها الذي يُخْفِي ما خصصناه به قُمْ فأنذِر.. فَإِنَّا نَصْرَنَّاكَ.

ويقال: قُمْ بنا.. يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كلُّ الناس.. قُمْ أنت.

فليسكنِ الكلُّ.. ولتَقُمْ أنت.

ويقال: لَمَّا قَرَضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نَفْسِهِ لِأَجْلِ أُمَّتِهِ وإكراماً لشأنه وقدره.

(١) المرط: كساء من خَزٍّ أو صوف أو كتان. (لسان العرب / ٤٠١ مادة: مرط).

ذقيل: هو الثوب الأخضر، وجمعه مروط.

وفي الخبر: «أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا...»^(١) ولا يُذرى التأويل للخبر، أو أنّ التأويل معلوم... وإلي أن ينتهي إلى التأويل فلالأحبابِ راحاتٍ كثيرة، ووجوه من الإحسان موفورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ نَزِيلًا﴾.

ارتفع بِسِرِّكَ فِي فَهْمِهِ، وَتَأَنَّ بِلِسَانِكَ فِي قِرَاءَتِهِ.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

قيل: هو القرآن. وقيل: كلمة لا إله إلا الله.

ويقال: الوحي؛ وسماه ثقيلًا أي خفيفًا على اللسان ثقيلًا في الميزان.

ويقال: ثقيل أي: له وزن وخطر. وفي الخبر «كان إذا نزل عليه القرآن - وهو على ناقته - وضعت جرائنها»^(٢)، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرى عنه»^(٣).

وروى ابن عباس: أن سورة الأنعام نزلت مرة واحدة فبركت ناقة رسول الله ﷺ من ثقل القرآن وهيته.

ويقال ﴿ثَقِيلًا﴾ سماعه على من جحده.

ويقال: «ثَقِيلًا بِعَيْنِهِ - إِلَّا عَلَى مَنْ أُيِّدَ بِقُوَّةِ سَمَاوِيَةٍ، وَزُبِّي فِي جَنْرِ التَّقْرِيْبِ».

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

أي: ساعات الليل، فكل ساعة تحدث فهي ناشئة، وهي أشد وطئًا أي: مؤطأة

أي: هي أشد موافقة للسان والقلب، وأشد نشاطًا.

ويحتمل: هي أشد وأغلظ على الإنسان من القيام بالنهار.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أبتين قولًا.

ويقال: هي أشد مواطأة للقلب وأقوم قيلًا لأنها أبعد من الرياء، ويكون فيها

حضور القلب وسكون السرّ أبلغ وأتم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

أي: سباحًا في أعمالك، والسبح: الذهاب والسرعة، ومنه السباحة في الماء.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٥٠٤، ٤/٨١)، وصاحب (الإتحافات السنبة ٣٢٦)،
والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٢٢١).

وللحديث رواية أخرى «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله...» أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة
٢١٨/١).

(٢) الجران: باطن العنق. (اللسان ١٣/٨٦ مادة: جرن).

(٣) أخرجه الترمذي (وصايا، ٥) وأحمد بن حنبل (٤/١٨٧، ٢٣٨، ٢٣٩).

فالمعنى: مذهبك في النهار فيما يشغلك كثيرة - والليل أخلى لك .
قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ .

أي: انقطع إليه انقطاعاً تاماً .

﴿رَبُّ الشَّرِيقِ وَالْعَرَبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاقْبِضْهُ وَكَيْلًا﴾ .

الوكيل من توكل إليه الأمور؛ أي: توكل عليه وكل أمورك إليه، وثق به .
ويقال: إنك إذا اتخذت من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالك وطالبوك بالأجرة،
وإذا اتخذتني وكيلاً أوفر عليك مالك وأعطيتك الأجر .

ويقال: وكيلك ينفق عليك من مالك، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالي .

ويقال: وكيلك من هو في القدر دونك، وأنت تترفع أن تكلمه كثيراً . وأنا ربك
سيدك وأحب أن تكلمني وأكلمك .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِطْهُمْ هَبًّا جَمِيلًا﴾ .

الهبط الجميل: أن تعاشروهم بظاهرك وتباينهم بسرك وقلبك .

ويقال: الهبط الجميل ما يكون لحق ربك لا يحفظ نفسك .

ويقال: الهبط الجميل ألا تكلمهم، وتكلمني لأجلهم بالدعاء لهم .

وهذه الآية منسوخة بآية القتال .

قوله جل ذكره: ﴿وَذَرِيٍّ وَالْكَاذِبِينَ أُولَىٰ الثَّغْمِ وَمَهْلِكِ قَلِيلًا﴾ .

أي: أولي الثغم وأنظرهم قليلاً، ولا تهتمهم بشأنهم، فإني أكفيك أمرهم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

ثم ذكر وصف القيامة فقال:

﴿يَوْمَ تَرُفُّ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلًا﴾ .

ثم قال:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ .

يعني: أرسلنا إليك محمداً ﷺ شاهداً عليكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ،

﴿فَمَعَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولُ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ تقيلاً .

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ من قوله يصير الولدان شيباً - وهذا على ضرب

المثل .

﴿السَّمَاءُ مَنفُطِرٌ بِيَوْمٍ﴾ أي بذلك: اليوم لهوله .

ويقال: مُتَفَطِّرٌ بِاللَّهِ أَي: بأمره.

﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾: فما وَعَدَ اللَّهُ سيصدقه.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ﴾: يعني هذه السورة، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ؛ فَمَنْ اتْعَظَ بِهَا

سَعِدَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَعُكَ وتُلْثِمُ وطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾

من المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فهو خالقهما ﴿عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْتَصِرَهُ﴾ وتطيعوه.

﴿فَنَابَ عَلَيْكَ﴾ أي: حَقَّفَ عنكم ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْتَرَىٰ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ من خمس آيات إلى

ما زاد. ويقال: من عَشْرِ آيات إلى ما يزيد.

﴿عَلِمَ أَن سَبَكُونُ مِنكُمْ مَّرْحَىٰ وَمَا خَرُّونَ يُضِرُّونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسافرون، ويعلم أصحاب

الأعداء، فَتَسَخَّ عَنْهُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مضى معناه.

﴿وَمَا نَقِضُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّجِدُوهُ﴾ أي: ما تقدّموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً

هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا.

سورة المدثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها نزهة قلوب الفقراء، كلمة سماعها بهجة أسرار الضعفاء، راحة أرواح الأحياء، قوة قلوب الأولياء، سلوة صدور الأصفياء، قرة عيون أهل البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.

يا أيها المتدثر بثوبه.

وهذه السورة من أول ما أنزل من القرآن. قيل: إن رسول الله ﷺ ذهب إلى جرّاء قبل النبوة، فبدأ له جبريل في الهواء، فرجع الرسول إلى بيت خديجة^(١) وهو يقول «دثروني دثروني»^(٢) فدثّر بثوب فنزل عليه جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.

وقيل: أيها الطالب صرّف الأذى عنك بالدثار اطلبه بالإنذار.

ويقال: قُمْ بنا، وأسقط عنك ما سوانا، وأنذر عبادنا؛ فلقد أقمنك بأشرف المواقع، ووقفناك بأعلى المقامات.

ويقال: لَمَّا سَكَنَ إلى قوله ﴿قُمْ﴾ وقام قطع سيره عن السكون إلى قيامه، ومن الطمانينة في قيامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبِّكَ فَكَّرْ﴾.

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزى (٦٨ - ٣ ق هـ = ٥٥٦ - ٦٢٠ م) من قریش زوجة رسول الله ﷺ الأولى، وكانت أسنّ منه بخمس عشرة سنة. ولدت بمكة، ونشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار، وتزوجت بأبي هالة بن زرارة فمات عنها وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، فلما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصري وعاد رابحاً، فدمت له من عرض عليه الزواج بها فأجاب وتزوجها فولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ولما بعث رسول الله ﷺ دعاها إلى الإسلام، فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. توفيت بمكة.

الأعلام ٣٠٢/٢، وطبقات ابن سعد ٧/٨ - ١١، وصفة الصفوة ٢/٢، والدر المشور ١٨٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/٣٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٥٢٨) وابن أبي شيبه في (المصنف ٣/٧٤)، والطبري في (التاريخ ٢/٣٠٤)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٩).

كَبَّرَهُ عَنْ كُلِّ طَلَبٍ، وَوَضَلَ وَفَضَلَ، وَعِلَّةٌ وَخَلَقِي .
﴿وَيَايَاكَ فَطَعَّرِ﴾ .

طَهَّرَ قَلْبَكَ عَنِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِ، وَعَنْ كُلِّ صِفَةٍ مَذْمُومَةٍ .

وَطَهَّرَ نَفْسَكَ عَنِ الزُّلَّاتِ، وَقَلْبَكَ عَنِ الْمَخَالَفَاتِ، وَسِرِّكَ عَنِ الْاِلْتِفَاتَاتِ .

ويقال: أَهْلَكَ طَهَّرَهُمْ بِالْوَعْظِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ لِيَأْسَ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]،
فِيَعْبِرُ عَنْهُمْ - أحياناً - بِالثِّيَابِ وَاللِّبَاسِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرِ﴾ .

أَي: الْمَعَاصِي . وَيُقَالُ: الشَّيْطَانُ . وَيُقَالُ: طَهَّرَ قَلْبَكَ مِنَ الْخَطَايَا وَأَشْغَالَ
الدُّنْيَا .

ويقال: مَنْ لَا يَصِيحُ جِسْمُهُ لَا يَجِدُ شَهْوَةَ الطَّعَامِ كَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِيحُ قَلْبُهُ لَا يَجِدُ
حَلَاوَةَ الطَّاعَةِ .

﴿وَلَا تَمُنَّ بِتَنَكُّرِ﴾ .

لَا تُعْطِ عَطَاءَ تَطَلُّبٍ بِهِ زِيَادَةٌ عَلَى مَا تَعْطِيهِ .

ويقال: لَا تَسْتَكْبِرُ الطَّاعَةَ مِنْ نَفْسِكَ .

ويقال: لَا تَمُنَّ بِعَمَلِكَ فَتَسْتَكْبِرَ عَمَلِكَ، وَتُعْجَبَ بِهِ .

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرِ﴾ .

أَي: أَنْتِ تُؤَدِّي فِي اللَّهِ . فَاصْبِرِي عَلَى مِقَاسَةِ أَذَاهِمِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِذَا بُعِرَ فِي النَّافُورِ فَذَلِكَ يَوْمَ عَسِيرٍ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ .

يَعْنِي: إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ هَيِّنٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا﴾ .

أَي: لَا تَهْتَمِ بِشَأْنِهِمْ، وَلَا تَحْتَقِلْ؛ فَإِنِّي أَكْفِيكَ أَمْرَهُمْ .

إِنِّي خَلَقْتُهُ وَحَدِي؛ لَمْ يَشَارِكْنِي فِي خَلْقِي إِيَّاهُ أَحَدٌ .

وَيَحْتَمِلُ: خَلَقْتُهُ وَحَدَهُ لَا نَاصِرَ لَهُ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَجَعَلْتُ لَكُمْ مَالًا مَمْدُودًا وَيَبِينَ شُهُودًا﴾ .

حُضُورًا مَعَهُ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى السُّفْرِ .

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُمْ تَهْيِيدًا﴾ .

أَرَادَ: تَسْهِيلَ التَّصْرِفِ، أَي: مَكْتَنُهُ مِنَ التَّصْرِفِ فِي الْأُمُورِ .

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ .

يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَهُ فِي النِّعْمَةِ:

﴿ كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَن لَّابِلَيْنَا لَأَبِيدًا ﴾ .

جحدوا .

﴿ سَأَرْفَعُهُمْ صَعُودًا ﴾ .

سأحمله على مشقة من العذاب .

﴿ إِنَّكُمْ فَكَّرْ وَقَدَّرَ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ .

أي : لُعِنَ كَيْفَ فَكَّرَ، وكيف قَدَّرَ، ويعني به : الوليد بن المغيرة^(١) الذي قال في النبي ﷺ : إنه ليس بشاعرٍ ولا بمجنونٍ ولا بكذاب، وإنه ليس ساحر، وما يأتي به ليس إلا سحرٌ يُرَوَى :

﴿ ثُمَّ نَظَرْتُ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا يَقِي وَلَا نَذْرٌ لِرَأْسَةِ الْبَشَرِ ﴾ .

لا تُبقي لحمًا، ولا تَذُرُ عَظْمًا، تحرق بشرة الوجه وتَسْوِدها، من لاحته الشمس ولوحته .

﴿ عَلَيْنَا سِتْعَةَ عَشَرَ ﴾ .

قال المشركون : نحن جَمَعُ كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر؟ ! فأنزل الله

سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ وَرِزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُورُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

فيزداد المؤمنون إيمانًا، ويقول هؤلاء : أي فائدة في هذا القدر؟ فقال تعالى :

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ .

ثم قال :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ .

أي : تقاصرت علوم الخلق فلم تتعلق إلا بمقدار دون مقدار، والذي أحاط بكل شيء علماً هو الله - سبحانه

﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴾ .

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (٩٥ هـ - ١ هـ = ٥٣٠ - ٦٢٢ م) أو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. يقال له «العدل» لأنه كان عدل قريش كلها، كان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته. هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون وهو والد سيف الله خالد بن الوليد. الأعلام ٨/ ١٢٢، والكمال لابن الأثير ٢/ ٢٦٦، وروضة الأمل ٥/ ٢٩، والحقوقي ١/ ٢١٥.

كَلَّا - حرف ردع وتوبيه؛ أي: ارتدعوا عما أنتم عليه، وانتبهوا لغيره.
 وأقسم بهذه الأشياء ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾: أي بالقمر، أو بقدرته على القمر.
 ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ وقُرِء «وَدَبَّرَ» أي: مضى، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَتَقَرَّ﴾ أي: تجلَّى.
 ﴿إِنَّمَا لِإِحْدَى الْكُتُبِ﴾.

أي: النار لإحدى الدواهي الكبُر.

ويقال في ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ إشارة إلى أعمار العلوم إذا أخذ هلالها في الزيادة بزيادة البراهين، فإنها تزداد، ثم إذا صارت إلى حد التمام في العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة، فالعلم يأخذ النقصان، وتطلع شمس المعرفة، فكما أنه إذا قُرِبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً - كذلك إذا ظهر سلطانُ العرفانِ تأخذ أعمارُ العلوم في النقصان لزيادة المعارف؛ كالسراج في ضوء الشمس وضياء النهار. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ أي إذا انكشفت ظلُّمُ البواطن، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَتَقَرَّ﴾ وتجلَّت أنوار الحقائق في السرائر.. إنها لإحدى العظائم! وذلك من باب التخويف من عودة الظلم إلى القلوب.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾.

في هذا تحذيرٌ من الشواغل التي هي قواطع عن الحقيقة، فيحذروا المساكنة والملاحظة إلى الطاعات والمواقفات.. فإنها - في الحقيقة - لا خطر لها.

﴿لِيَنْ شَأَنَكَ أَنْ يَفْقَدَ أَوْ يَنْتَقِرَ﴾ عن الطاعات.. وهذا على جهة التهديد.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

أي: مرتهنة بما عملت، ثم استثنى:

﴿إِلَّا أَحْسَبَ آلِيبِينَ﴾.

فقال: إنهم غير مرتهنين بأعمالهم، ويقال: هم الذين قال الله تعالى في شأنهم: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي»!

وقيل: أطفال المؤمنين.

﴿فِي جَنَّتِ يَسَاءُ لُونٍ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَوْ نَكَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَوْ نَكَّ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْفَاطِمِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين، ويقولون لأهل النار إذا حصل لهم إشراف عليهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟﴾ «قالوا ألم نك من المصلين» ألم نك نطعم المسكين؟ وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بتفصيل الشرائع.

﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْفَاطِيَيْنِ﴾: نشرع في الباطل، ونكذب بيوم الدين.
﴿حَتَّىٰ آتَيْنَا آلَيعِيقَ﴾.

وهو معاينة القيامة.

﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

أي: لا تنالهم شفاعته من يشفع.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾.

والتذكرة: القرآن:

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾.

كأنهم حمير نافرة فرّت من أسد.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً﴾.

بل يريد كل منهم أن يُعطى كتاباً منشوراً.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾.

أي: كلاً لا يُعْطُونَ ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة.

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾.

إلا أن يشاء الله - لا أن تشاؤوا.

﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾.

أهل لأن يتقى.

﴿وَأَهْلُ النَّعْمِ﴾.

وأهل لأن يغفر لمن يتقى - إن شاء.

سورة القيامة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة مَنْ سمعها بشاهد العِلْم استبصر، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحير. . فالعلماء في سكون برهانه، والعارفون في دهش سلطانه. . أولئك في نجوم علومهم، فأحوالهم صَحَوْ في صَحْو، وهؤلاء في شموِسِ معارفهم: فأوقاتهم محوٌ في محو. . فستان ما هما!!

قوله جل ذكره: ﴿لَا أُقِيمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: أقسم بيوم القيامة.

﴿وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ﴾.

أي: أقسم بالنفس اللوامة، وهي النَّفْسُ التي تلوم صاحبها، وتعرف نقصان حالها.

ويقال: غداً. . كلُّ نَفْسٍ تلوم نَفْسَهَا: إمَّا على كُفْرِها، وإمَّا على تقصيرها - وعلى هذا فالقَسَمُ يكون بإضمار «الرَّب» أي: أقسم برَبِّ النفس اللوامة. وليس للوم النَّفْسِ في القيامةِ خطرٌ - وإن حُجِلَ على الكُلِّ ولكنَّ الفائدة فيه بيان أن كلَّ النفوس غداً - ستكون على هذه الجملة. وجوابُ القَسَمِ قوله: ﴿بَلَى﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عِظَامُهُ﴾.

أيظن أنا لن نبعثه بعد موته؟

﴿بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ﴾.

﴿قَدِيرِينَ﴾ نصب على الحال؛ أي بلى، نسوي بنانه في الوقت قادرين، ونقدر أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفٍّ^(١) البعير وظلف^(٢) الشاة. . فكيف لا نقدر على إعادته؟!

(١) الخُفُّ للبعير: كالحافر للفرس (ج) أخفاف.

(٢) الظلف: الظفر المشقوق لكل حيوان مجتزئ كالبقرة والشاة والظبي ونحوها، وهو بمنزلة الحافر للفرس (ج) أظلاف. وظلوف.

﴿بَلْ يُبْذِرُ الْإِنْسَانَ لِفُجْرٍ آمَنًا﴾ .

يُقَدِّمُ الزَّلَّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف وقته ، وبهذا لا تَنَحُّلُ - في الوقت - عقدة الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصحُّ توبته ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل ما عَمِلَ . فإذا كان استحلاء الزلَّة في قلبه ، ويفكر في الرجوع إلى مثلها - فلا تصح ندامته .

قوله جل ذكره : ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ .

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

﴿إِذَا رَآهَ الضُّعْفُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ .

﴿بَرْقٍ﴾ بكسر الراء معناها تحيّر ، ﴿وَبَرْقٍ﴾ بفتح الراء شَخَّصَ (فلا يَطْرِفُ) من البريق ، وذلك حين يُقَادُ إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف ملك ، لها زفير وشهيق ، فلا يَتَقَى مَلَكٌ ولا رسول إلا وهو يقول : نفسي نفسي !

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ كأنهما ثوران عقيران .

ويقال : يجمع بينهما في الأ نورَ لهما .

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ؟ والمفْرُ موضع الفرار إليه ، فيقال لهم :

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾^(١) .

اليوم ، ولا مَهْرَبَ من قضاء الله .

﴿إِن رَّيَكَ يَوْمَئِذٍ نُفُورٌ﴾ .

أي : لا مَجِيدَ عن حُكْمِهِ .

﴿يَبْئُتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ .

أي : يَعْرِفُ ما أسْلَفَهُ من ذنوب أحصاها اللهُ - وإن كان العبدُ نسيها .

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْفَ مَعَادِيرٍ﴾ .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمله .

ويقال : هو بصيرةٌ وحُجَّةٌ على نفسه في إنكار البعث .

ويقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكلِّ حجةٍ فلن تُسْمَعِ منه ولن

تنفعه .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تُحْرِكُهُ يَوْمَئِذٍ لِسَانُكَ لَتَعْجَلَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ .

(١) الوَزْرُ : الملجأ يُعْتَصَمُ بِهِ .

لا تستعجل في تَلْقُفِ الْقُرْآنِ عَلَى جبريل، فَإِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ فِي قَلْبِكَ وَحِفْظَهُ، وكذلك علينا تيسيرُ قراءته على لسانك، فإذا قرأناه أي: جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقراءك جَمْعَهُ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

نُبَيِّنُ لَكَ مَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَغَيْرِهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعْجَلُ فِي التَّلْقِفِ مَخَافَةَ النِّسْيَانِ، فَنُهِيَ عَنْ ذَلِكَ، وَضَمِنَ اللَّهُ لَهُ التَّيْسِيرَ وَالتَّسْهِيلَ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

أي: إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا، أي: يحبون البقاء في الدنيا.

﴿وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾: أي: تتركون العملَ للآخرة. ويقال: تكفرون بها.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾.

﴿تَائِرَةٌ﴾: أي مشرقة حسنة، وهي مشرقة لأنها إلى ربها «ناظرة» أي رائية لله. والنظر المقرون بـ «إلى» مضافاً إلى الوجه لا يكون إلا الرؤية، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قَلْبِ الْعَادَةِ، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى. ويقال: العين من جملة الوجه فاسم الوجه يتناوله.

ويقال: الوجه لا ينظر ولكن العين في الوجه هي التي تنظر؛ كما أن النهر لا يجري ولكن الماء في النهر هو الذي يجري، قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]. ويقال: في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِرَةٌ﴾ دليل على أنهم بصفة الصحو، ولا تتداخلهم حيرة ولا دَهْش؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء في حال اللقاء أتم من اللقاء.

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي، وعندهم استهلاك العبد في وجود الحق أتم؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بَاسِرَةٌ تَتَلَّى أَنْ يُعَلَّ بِهَا قَافِرَةٌ﴾.

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي كالحة عابسة. ﴿قَافِرَةٌ﴾: أي: داهية وهي بقاؤهم في النار على التأييد. تظن أن يخلق في وجوههم النظر.

ويحتمل أن يكون معنى ﴿تَتَلَّى﴾: أي يخلق ظناً في قلوبهم يظهر أثره على وجوههم.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّارَ قَبِيلٌ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالنَّارُ النَّارُ بِالسَّاقِ إِلَى السَّاقِ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

أي ليس الأمر على ما يظنون؛ بل إذا بلغت نفوسهم التراقي^(١)، ﴿وَيَقِيلُ مَنْ رَاقٍ؟﴾ أي يقول من حوله: هل أحد يزقيه؟ هل طيب يداويه؟ هل دواء يشفيه؟ ويقال: من حوله من الملائكة يقولون: من الذي يزقي برُوحه؛ أملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟.

﴿وَعَلَّمَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾: وعلم الميت أنه الموت!.

﴿وَالْقَلْبُ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ﴾: ساقا الميت. فتتقرن شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة.

﴿إِن رَّبِّكَ بِيَوْمِذِكَ نَسُكٌ﴾ أي الملائكة يسوِّفون رُوحه إلى الله حيث يأمرهم بأن يحملوها إليه: إما إلى عليين - ثم لها تفاوت درجات، وإما إلى سجين^(٢) - ولها تفاوت دركات.

ويقال: الناس يُكفنون بدن الميت ويغسلونه، ويصَلُّون عليه.. والحق سبحانه يُلْبِسُ رُوحه ما تستحق من الحُلل، ويغسله بماء الرحمة، ويصلي عليه وملائكته.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

يعني: الكافر ما صدق الله ولا صلى له، ولكن كذب وتولى عن الإيمان. وتدل الآية على أن الكفار مخاطبون بتفصيل الشرائع.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ لَكِ أَهْلِيهِ بَتَّمَطَى﴾.

أي: يتبختر ويختال.

﴿أَوَّلًا لَكَ فَأُولًا﴾.

العرب إذا دعيت على أحدٍ بالمكروه قالوا: ﴿أُولًا لَكَ﴾ وهنا أتبع اللفظ اللفظ على سبيل المبالغة.

ويقال: معناه الويل لك يوم تحيا، والويل لك يوم تموت، والويل لك يوم تُبعث، والويل لك يوم تدخل النار.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾.

مُهْمَلًا لَا يُكَلِّفُ؟! . ليس كذلك.

﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ عِلْمٌ إِنَّهُ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾.

(١) التراقي: (ج) الترقوة: هي عظم وصل بين ثغره النحر والعاتق من الجانبين. (لسان العرب ١٠/٣٢ مادة: ترق).

(٢) سجين: وادٍ في جهنم.

﴿بَيْنَ يَدَيْ يَتْنَى﴾ أي تُلْقَى فِي الرَّحْمِ ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ﴾ أي: دماً عبيطاً^(١)، فسوى أعضائه في بطن أمه، وَرَكَّبَ أَجْزَاءَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الْخَلْقَةِ، وَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجِينَ: إِنْ شَاءَ خَلَقَ الذَّكَرَ، وَإِنْ شَاءَ خَلَقَ الْأُنثَى، وَإِنْ شَاءَ كِلَيْهِمَا. ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾.

أليس الذي قدر على هذا كله بقادر على إحياء الموتى؟ فهو استفهام في معنى التقرير.

(١) العبيط: من اللحم: الطري غير النضيج. (لسان العرب ٧/٣٤٧ مادة: عبط).

سورة الإنسان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بِسْمِ اللَّهِ» اسمٌ جَبَّارٌ تَوَّخَدُ فِي آزَالِهِ بِوَصْفِ جَبْرُوتِهِ، وَتَفَرَّدَ فِي آبَادِهِ بِنِعْتِ مَلَكُوتِهِ؛ فَأَزَلَّهُ أَبَدُهُ، وَأَبَدَهُ أَزَلُهُ، وَجَبْرُوتُهُ مَلَكُوتُهُ، وَمَلَكُوتُهُ جَبْرُوتُهُ.

أَحَدِيّ الْوَصْفِ، صَمَدِيّ الذَّاتِ، مُقَدَّسُ الثَّنَعِ، وَاحِدُ الْجَلَالِ، فَزُدُ التَّعَالِي، دَائِمُ الْعِزِّ، قَدِيمُ الْبَقَاءِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

فِي التَّفْسِيرِ: قَدْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا لَهُ خَطَرٌ وَمَقْدَارٌ. قِيلَ: كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَطْرُوحًا جَسَدُهُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ. ثُمَّ مِّنْ صَلْصَالٍ^(١) أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ مِّنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَتَمَّ خَلْقُهُ بَعْدَ مِائَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

وَيُقَالُ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ...﴾: أَي لَمْ يَأْتِ عَلَيْهِ وَقْتُ إِلا كَانَ مَذْكُورًا إِلَيَّ.

وَيُقَالُ: هَلْ غَفَلْتُ سَاعَةً عَنِ حِفْظِكَ؟ هَلْ أَلْقَيْتُ - لِحِظَةٍ - حَبْلَكَ عَلَى غَارِبِكَ؟ هَلْ أَخْلَيْتُكَ - سَاعَةً - مِنْ رِعَايَةِ جَدِيدَةٍ وَحِمَايَةِ مَزِيدَةٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: أَي مِنْ قَطْرَةِ مَاءٍ، ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أَخْلَاطٌ مِنْ بَيْنِ الرَّجْلِ وَالْمَرَأَةِ.

وَيُقَالُ: طَوْرًا نَظْفَةً، وَطَوْرًا عَلَقَةً، وَطَوْرًا عَظْمًا، وَطَوْرًا لَحْمًا.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: نَمْتَحِنُهُ وَنَخْتَبِرُهُ. وَقَدْ مَضَى مَعْنَاهُ.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

أَي: عَرَفْنَاهُ الطَّرِيقَ؛ أَي طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

(١) الصلصال: الطين اليابس، أو الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل (يصوت) إذا جف فإذا طبع بالنار فهو الفجار.

وقيل: إِمَّا لِلشَّقَاوَةِ، وَإِمَّا لِلسَّعَادَةِ، إِمَّا شَاكِرًا مِنْ أَوْلِيَانَا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا مِنْ أَعْدَائِنَا؛ فَإِنَّ شَكَرَ فَبِالتَّوْفِيقِ، وَإِنْ كَفَرَ فَبِالْخِذْلَانِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَلًا وَسَعِيرًا﴾.

أي: هَيَأُنَا لَهُمْ سَلْسِلٌ يُسْحَبُونَ فِيهَا، ﴿وَأَغْلَلًا﴾ لِأَعْنَاقِهِمْ يُهَانُونَ بِهَا، ﴿وَسَعِيرًا﴾: نَارًا مُسْتَعْرَةً.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

قيل: البُرُّ: الذي لَا يُضْمِرُ الشَّرَّ، وَلَا يُؤْذِي الذَّرَّ.

وقيل: ﴿الْأَبْرَارَ﴾: هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهُمْ عَنِ التَّمَسُّحَاتِ، وَظَهَرَتْ فِي قُلُوبِهِمْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ فَاتَّقَوْا عَنْ مُسَاكِنَةِ الدُّنْيَا.

﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ رَائِحَتُهَا كَرَائِحَةُ الْكَافُورِ^(١)، أَوْ مِمزُوجَةٌ بِالْكَافُورِ.

ويقال: اختلفت مشاربهم في الآخرة؛ فكلُّ يُسْقَى مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ... وكذلك في الدنيا مشاربهم مختلفة؛ فمنهم مَنْ يُسْقَى مِزْجًا، ومنهم مَنْ يُسْقَى صِرْفًا، ومنهم مَنْ يُسْقَى عَلَى الثُّوبِ، ومنهم مَنْ يُسْقَى بِالثُّجْبِ، ومنهم مَنْ يُسْقَى وَحْدَهُ وَلَا يُسْقَى مِمَّا يُسْقَى غَيْرِهِ، ومنهم مَنْ يُسْقَى هُوَ وَالْقَوْمُ شَرَابًا وَاحِدًا... وقالوا:

إِنْ كُنْتُ مِنْ نَدْمَائِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالصَّغِيرِ الْمُتَشَلِّمِ

وفائدة الشراب - اليوم - أن يشغلهم عن كل شيء فيريحهم عن الإحساس، ويأخذهم عن قضايا العقل.. كذلك قضايا الشراب في الآخرة، فيها زوال الأرب، وسقوط الطلب؛ ودوام الطرب، وذهاب الحرب، والغفلة عن كل سبب.

ولقد قالوا:

عاقز عقارك واضطبخ واقذخ سرورك بالقذخ
واخلع عذارك^(٢) في الهوى وأرخ عذولك واسترخ
وافرخ بوقيتك إنما عُمُرُ الْفَتَى وَقْتُ الْفَرَحِ

قوله جل ذكره: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

(١) الكافور: هنا قيل: نبات له نور أبيض كنور الأفيون. والكافور عين ماء في الجنة طيب الريح، والكافور من أخلاط الطيب. (لسان العرب ١٤٩/٥، ١٥٠، مادة: كفر).

(٢) يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهلك في الفجاء ولم يستح منه واتبع هواه.

يُشَقِّقُونَهَا تَشْقِيقًا، ومعناه أن تلك العيون تجري في منازلهم وقصورهم على ما يريدون. واليوم - لهم عيون في أسرارهم من عين المحبة، وعين الصفاء، وعين الوفاء، وعين البسط، وعين الروح. . . وغير ذلك، وغداً لهم عيون.

﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ﴾ .

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا فقال: يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجه مخصوص:

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ .

قاسياً، منتشرأ، ممتدأ.

﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَامَ عَلَنٍ حَبِيبٍ وَسَكِينًا وَيَمِيمًا وَأَيُّمًا﴾ .

أي: على حُبِّهِم للطعام لحاجتهم إليه. ويقال: على حُبِّ الله، ولذلك يُطْعَمُونَ.

ويقال: على حُبِّ الإطعام.

وجاء في التفسير: أن الأسير كان كافراً - لأنَّ المسلم ما كان يُستأسر في عهده - فطاف على بيت فاطمة رضي الله عنها وقال: تأسرونا ولا تطعمونا!

﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ .

إنما نطعمكم ابتغاء مرضاة الله، لا نريد من قبلكم جزاء ولا شكراً.

ويقال: إنهم لم يذكروا هذا بالسنتهم، ولكن كان ذلك بضمايرهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ .

أي: يوم القيامة.

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ .

﴿وَأَلْقَاهُمْ﴾ أي: أعطاهم ﴿نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ .

﴿وَيَجْرَتْهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ .

كأفأهم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنةً وحريراً.

﴿مُنْجِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَعْيُنِ﴾ .

واحدًا أريكة، وهي السرير في الحجال^(١).

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ .

(١) الحجال: (ج) الحجلة: مثل القبة، وحجلة العروس: بيت يُزين بالثياب والأسرة والستور. (لسان العرب ١١/١٤٤ مادة: حجل).

أي: لا يتأذون فيها بحرٌ ولا برزٍ.
﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا﴾.

يتمكنون من قطافها على الوجه الذي هم فيه من غير مشقة؛ فإن كانوا قعوداً
تدلى لهم، وإن كانوا قياماً - وهي على الأرض - ارتقت إليهم.
﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ﴾.

الاسم فضة، والعين لا تشبه العين.
﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا﴾.
أي: في صفاء القوارير وبياض الفضة. . قَدَرَ ذلك على مقدار إرادتهم.
﴿وَسُقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ رِزَاقًا رِزْقِيلاً﴾.

المقصود منه الطيب، فقد كانوا (أي العرب) يستطيون الزنجبيل^(١)، ويستلذون
نكهته، وبه يشبهون الفاكهة، ولا يريدون به ما يقرص اللسان.
﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾.

أي: يُسَقُونَ من عين - أثبت المَسْقِيَّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم؛ لأنَّ منهم من يسقيه
الحق - سبحانه - بلا واسطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّشْرُورًا﴾.

أي: يخدمهم ﴿وَلَدَانٌ مُّخْلَدُونَ﴾ وصفا لا يجوز واحد منهم حدّ الوصائف.
وجاء في التفسير: لا يَهْرَمُونَ ولا يموتون. وجاء مَقْرَطُونَ.
إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً مشوراً.

وفي التفسير: ما من إنسانٍ من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

﴿ثُمَّ﴾: أي في الجنة.

﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾: في التفاسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول.

وقيل: هو قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥] ويقال: أي لا زوال له.

﴿عَلَيْهِمْ نَبُؤُا سُدُورٍ حُضِرَتْ لِيَسْئَلُوا سَلُوتًا وَسُلُوتًا وَأَسَاوِرًا مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

(١) الزنجبيل: مما ينبت في بلاد العرب بأرض عُمان، وهو عروق تسري في الأرض، ونباته شبيه بنبات
الراسن وليس منه شيء بريء، وليس بشجر، يؤكل رطباً كما يؤكل البقل، ويستعمل يابساً وأجوده ما
يؤتى به من الزنج وبلاد الصين.

وقيل: الزنجبيل: العود الحزيف الذي يحلّي اللسان. (لسان العرب ١١/٣١٢ مادة: زنجبيل).

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار. ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى،
والاسم يوافق الاسم دون العين.

﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: الشراب الطهور هو الطاهر في نفسه المُطَهَّرُ لغيره.

فالشراب يكون طهوراً في الجنة - وإن لم يحصل به التطهير لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير.

ولكنه - سبحانه - لما ذَكَرَ الشرابَ - وهو اليوم في الشاهد نَجَسَ - أخبر أن ذلك الشرابَ غداً طاهراً، ومع ذلك مُطَهَّرٌ؛ يُطَهَّرُهُم عن محبة الأغيار، فمن يَحْتَسِبُ من ذلك الشرابِ شيئاً طَهَّرَهُ عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات.

ويقال: يُطَهَّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ، ولا يَبْقِي لبعضهم مع بعض خصيصة ولا عداوة ولا دَعْوَى ولا شيء.

ويقال: يُطَهَّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين.

ويقال: إن الملائكة تعرض عليهم الشرابَ فيأبون قبوله منهم، ويقولون:
لقد طال أخذنا مِنْ هؤلاء، فإذا هم بكاساتٍ تُلاقي أفواههم بغير أكْفٍ؛ من غيبٍ إلى عَبْدٍ.

ويقال: اليومَ شرابٌ وغداً شرابٌ.. اليوم شرابُ الإيناس وغداً شرابُ الكاس،
اليوم شرابٌ من اللُّطْفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكفِّ.

ويقال: مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبَّته أَنَسَهُ وشَجَّعَهُ؛ فلا يستوحش في وقته من شيء، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَدَل. ومن مقتضى شُرْبِهِ بكأسِ محبته أن يجودَ على كلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار.

ومن آثارِ شُرْبِهِ تذللُّه لكلِّ أحدٍ لأجل محبته، فيكون لأصغرِ الخدمِ تُرَابِ القَدَمِ، لا يتحركُ فيه للتكبيرِ عِزْقٌ.

وقد يكون من مقتضى ذلك الشرابِ أيضاً في بعض الأحيان أن يَتَّبِعَهُ على أهل الدارين.

ومن مقتضى ذلك الشرابِ أيضاً أن يَمْلِكَهُ سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار والقاءِ قناعِ الحياءِ ويظهر ما هو به من المواجهيد:

يخلع فيك العذار قومٌ فكيف من ماله عذار؟

ومن موجبات ذلك الشرابِ سقوط الحشمة، فيتكلم بمقتضى البسط، أو بموجب لفظ الشكوى، وبما لا يَسْتَخْرِجُ منه - في حال صَخْوه - سفية

بالمناقيش^(١) . . . وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى: ﴿رَبِّ أَوْفَى أَنْظَرِ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقالوا: سَكَرَ من سماع كلامه، فَتَنَطَّقَ بذلك لسانه. وأما مَنْ يسقيهم شراب التوحيد فَيُنْفِي عنهم شهوة كلِّ غَيْرِ فَيَهيمون في أودية العِزِّ، ويتيهون في مفاوز^(٢) الكبرياء، وتتلاشى جملةُهم في هواء الفردانية. . فلا عقل ولا تمييز ولا فهم ولا إدراك. . فكلُّ هذه المعاني ساقطة.

فالعبدُ يكون في ابتداء الكَشْفِ مُسْتَوْعِباً ثم يصير مستغرقاً ثم يصيرُ مُسْتَهْلِكاً. . ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾.

يقال لهم: هذا جزاء لكم، ﴿مَشْكُورًا﴾: وشكره لسعيهم تكثيرُ الشوابِ على القليل من العمل - هذا على طريقة العلماء، وعند قومٍ شُكْرُهُم جزاؤهم على شكرهم.

ويقال: شُكْرُهُ لهم ثاؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾.

في مدة سنين.

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾.

أي: ارضَ بقضائه، واستسلم لحُكْمِهِ.

﴿وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾: أي: ولا كفوراً، وهذا أمر له بإفرادِ رَبِّهِ بطاعته.

﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

الفَرْضُ في الأول، ثم الثقل.

﴿إِنَّكَ هَتُّؤُلَاءَ . . .﴾.

أي كفَّار قريش:

﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾.

أي: لا يعملون ليوم القيامة.

قوله جل ذكره: ﴿عَمَّنْ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

(١) المناقش: (ج) المناقش: ما يُنقش به.

(٢) المفاوز: (ج) المفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، وهي كذلك الموضع المهلك.

أعدمناهم، وخلقنا غيرهم بدلاً عنهم. ويقال: أخذنا عنهم الميثاق.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ...﴾.

أي: القرآن تذكرة.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

بطاعته.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ

وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: عذاباً أليماً موجعاً يخلص وجعه إلى قلوبهم.

سورة المرسلات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من سمعها بسمع الوجد وفي له فلم ينظر إلى أحد، ومن سمعها بسمع العلم جاد له فلم يبخل بروحه على أحد.

ومن سمعها بسمع التوحيد جرد سيره عن إيثار ما سواه في الدنيا والعقبى عيناً وأثراً فما كان هذا كله إلا حاصلًا به كائناً منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾.

﴿المرسلات﴾: الملائكة، ﴿عرفاً﴾ أي: أرسلوا بالمعروف من الأمر، أو

كثيرين كعُرفِ الفرس.

﴿فَالْمُصَفَّتِ عَصْفًا﴾.

الرياحُ الشديدة (العواصف تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه).

﴿وَالنَّشِيرَاتِ فُشْرًا﴾.

الأمطار (لأنها تنشر النبات. فالنشر بمعنى الإحياء). ويقال: السُحْبُ تنشر

الغيث. ويقال: الملائكة.

﴿فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا﴾.

الملائكة؛ تفرق بين الحلال والحرام.

﴿فَالْمُلْقَاتِ ذِكْرًا عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾.

الملائكة: تلقى الوحي على الأنبياء عليهم السلام؛ إعداراً وإنذاراً..

وجواب القسم:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾.

فأقسم بهذه الأشياء: إن القيامة لحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ﴾.

إنما تكون هذه القيامة. و ﴿طمست﴾: ذهب ضوءها^(١).

(١) الآية (٩) لم ترد.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ .

ذَهَبَ بِهَا كُلُّهَا بِسُرْعَةٍ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ .

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ لَأَيِّ يَوْمٍ أُتِلَّت لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ .

أَي: جَعَلَ لَهَا وَقْتًا وَأَجَلًا لِفَضْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَيَقَال: أُرْسِلَتْ لِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ .

عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ لَهُ .

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

مَضَى تَفْسِيرُ مَعْنَى الْوَيْلِ .

وَيَقَال فِي الْإِشَارَاتِ: فَإِذَا نَجُومُ الْمَعَارِفِ طَمَسَتْ بِوُقُوعِ الْغِيْبَةِ .

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ الْقُلُوبُ السَّاكِنَةُ بِبِقِيْنِ الشُّهُودِ حُرَّكَتْ عَقُوبَةً عَلَى مَا هَمَّتْ

بِالَّذِي لَا يَجُوزُ . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِأَرْبَابِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ ذَوِي الْقُلُوبِ

الْمُطَبَّقَةِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْمَعَانِي .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ نُهِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُنِعْمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ .

الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، وَجَحَدُوا آيَاتِنَا؛ فَمَثَلَمَا أَهْلَكْنَا الْأَوَّلِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ

بِالْمُجْرِمِينَ إِذَا فَعَلُوا مِثْلَ فِعْلِهِمْ^(١) .

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يَسْتَوِي ظَاهِرُهُمْ وَبَاطِنُهُمْ فِي التَّصْدِيقِ .

وَهَكَذَا كَانَ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ الزَّلَّةِ وَالْفِتْرَةِ فِي الطَّرِيقَةِ، وَالْخِيَانَةِ فِي أَحْكَامِ

الْمَحَبَةِ فَعُدُّبُوا بِالْحَرَمَانِ فِي عَاجِلِهِمْ، وَلَمْ يَذُوقُوا مِنَ الْمَعَانِي شَيْئًا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُنَّ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ .

أَي: حَقِيرٍ . وَإِذْ قَدْ عَلِمْتُمْ ذَلِكَ فَلِمَ لَمْ تَقْيِسُوا أَمْرَ الْبَعْثِ عَلَيْهِ؟

وَيَقَال: ذَكَرْتُمْ أَوَّلَ خَلْقْتُمْ لِثَلَا يُعْجَبُوا بِأَحْوَالِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَا جِنْسَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ

وَالْمَخْلُوقَاتِ أَشَدَّ دَعَاوَى مِنْ بَنِي آدَمَ . فَمَنْ الْوَاجِبُ أَنْ يَتَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي أَصْلِهِ . . .

كَانَ نَظْفَةً وَفِي انْتِهَائِهِ يَكُونُ جِيْفَةً، وَفِي وَسَائِطِ حَالِهِ كَنَيْفٌ^(٢) فِي قَمِيصٍ!! فَبِالْحَرْبِ

أَلَّا يُدِلَّ وَلَا يَفْتَحِرَ:

كَيْفَ يَزْهَوُ مَنْ رَجِيْعُهُ أَبَدَ الدَّهْرِ ضَجِيْعُهُ

(٢) الكنيف: الساتر أو المرحاض .

(١) الآية (١٨) لم ترد .

فهو منه واليه وأخوه ورضي عنه وهو يدعو إلى الحُـ وهو يدعوه إلى الحُـ ش^(١) بصغر فيطيعه!!؟
ويقال: يُذكّرهـ أصلهـ .. كيف كان كذلك ... ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة، قال تعالى:

﴿وَمَوْرِكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرِكُمْ﴾، والذي يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرقيك من الأحوال الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾.

﴿كِفَاتًا﴾ أي: ذات جَمْع؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياء وأمواتاً؛ فهم يعيشون على ظهرها، ويودعون بعد الموت في بطنها..

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُؤُوسَ شَيْخِنٍ وَأَسْفِنَتُكُم مَّاءَ قُرَاتًا﴾.

أي: جبالاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقياً لكم. يُذكّرهـ عظيم مِنْتِه بذلك عليهم. والإشارة فيه إلى عظيم مِنْتِه أنه لم يخسف بكم الأرض - وإن عملتم ما عملتم^(٣).

﴿أَطْلِقُوا إِنْ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾.

يقال لهم: انطلقوا إلى النار التي كذبتكم بها.

﴿أَطْلِقُوا إِنْ ظَلِي ذِي تَلْدِي شَعْبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُعْنِي مِنَ اللَّهِ﴾.

كذلك إذا لم يعرف العبد قدرَ انفتاح طريقه إلى الله بقلبه، وتعزّره بتوكله.. فإذا رجع إلى الخلق عند استيلاء الغفلة نزع اللُّه عن قلبه الرحمة، وانسدت عليه طُرُق رُشديه، فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا.

ويقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. والاستقلال بالله جنة المأوى، والرجوع إلى الخلق قزع باب جهنم.. وفي معناه أنشدوا:

ولم أر قبلي من يفارق جنةً ويقرع بالتطفيل باب جهنم^(٤)

ثم يقال لهم إذا أخذوا في التنصل والاعتذار:

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظُنُّونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَكُمْ فَيَعْتَدِرُونَ﴾.

فإلى أن تنتهي مدة العقوبة فحينئذ: إن استأنفت وقتاً استؤنفت لك وقت. فأمّا الآن.. فصبراً حتى تنقضي أيام العقاب^(٥).

(١) الحُـ: البستان: أو مكان قضاء الحاجة.

(٢) الآيات من (٢١ - ٢٤) لم ترد.

(٣) الآية (٢٨) لم ترد.

(٤) الآية (٣٧) لم ترد.

(٥) الآيات من (٣٢ - ٣٤) لم ترد.

﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْ وَالْأُولَى﴾ .

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الخذلان، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ .

اليوم.. في ظلال العناية والحماية، وغداً.. هم في ظلال الرحمة والكلاءة.

اليوم.. في ظلال التوحيد، وغداً.. في ظلال حُسن المزيد.

اليوم.. في ظلال المعارف، وغداً.. في ظلال اللطائف.

اليوم.. في ظلال التعريف، وغداً.. في ظلال التشريف^(٢).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

اليومَ تشربون على ذكره.. وغداً تشربون على شهوده، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء^(٣).

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .

والإحسانُ من العبد تزكُّ الكلِّ لأجله! كذلك غداً: يجازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ .

هذا خطابٌ للكفار، وهذا تهديد ووعيد، والويل يومئذٍ لكم^(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ .

كانوا يُضْرَبُونَ على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم.

[ذكر في التفسير: أن المتقين دائماً في ظلال الأشجار، وقصور الدرّ مع

الأبرار، وعيون جارية وأنهار، وألوانٍ من الفاكهة والثمار.. من كل ما يريدون من

المملك الجبار. ويقال لهم في الجنة: كلوا من ثمار الجنات، واشربوا شراباً سليماً من

الآفات. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ من الكرامات.

قيل: كلوا واشربوا ﴿هَيْتًا﴾: لا تبعة عليكم من جهة الخصومات، ولا أذية في

المأكولات والمشروبات.

وقيل: الهنيء الذي لا تبعة فيه على صاحبه، ولا أذية فيه من مكروهٍ لغيره^(٥).

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

(٤) الآية (٤٧) لم ترد.

(١) الآيتان (٣٩، ٤٠) لم تردا.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

(٥) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

سورة النبأ

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» اسمٌ مَلِكٍ تَجَمَّلَ عِبَادُهُ بِطَاعَتِهِ، وَتَزَيَّنَ خَدَمُهُ بِعِبَادَتِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَتَجَمَّلُ بِطَاعَةِ الْمُطِيعِينَ، وَلَا يَتَزَيَّنُ بِخِدْمَةِ الْعَابِدِينَ؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم، وزينة العارفين حُلَّةٌ معرفتهم، وزينة المحبين تاجٌ ولايتهم . . وزينة المذنبين غَسْلُ وجوههم بِصُوبِ عِبْرَتِهِمْ .

قوله جل ذكره: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ﴾ .

مختلفون بشدة إنكارهم أمر البعث، ولالتباس ذلك عليهم، وكثرة مُساءلتهم عنه، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول ﷺ في معناه .

تكرَّر من الله إنزال أمر البعث، وكم استدلَّ عليهم في حوازه بوجوه من الأمثلة . . فهذا من ذلك، يقول: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾ : عن الخبر العظيم الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ﴿ قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم ^(١) :

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ .

دَلَّلْنَاهَا لَهُمْ حَتَّى سَكَنُوهَا .

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ .

أَوْتَادًا لِلأَرْضِ حَتَّى تَمِيدَ بِهِمْ .

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ .

ذَكَرْنَا وَأُنْثَى، وَحَسَنًا وَقَبِيحًا . . وَغَيْرَ ذَلِكَ .

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ .

أَي رَاحَةً لَكُمْ، لِتَتَقَطَّعُوا عَنْ حَرَكَاتِكُمْ الَّتِي تَعْبَتُمْ بِهَا فِي نَهَارِكُمْ .

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا﴾ .

تُغَطِّي ظُلْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَتَسْكُنُوا فِيهِ .

(١) الآيتان (٤، ٥) لم تردا .

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ .

أي وقت معاشكم .

﴿وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعًا سِدَادًا﴾ .

أي سبع سموات .

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَرَاجًا﴾ .

أي الشمس، جعلناها سراجاً وقاداً مشتعلاً .

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَّاجًا﴾ .

﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ الرياح التي تغصِرُ السحاب .

﴿مَاءً نَّجَّاجًا﴾ مطراً صَبَابًا .

﴿لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ .

﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ بساتين يَلْتَفُّ بعضها ببعض .

وإذا قد علمتم ذلك فهلاً علمتم أنني قادرٌ على أن أُعيدَ الخلقَ وأقيمَ القيامةَ؟

فبعدَ أن عَدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إينامه، وتمكينهم من منافعهم . . قال:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ .

مضى معناه .

﴿يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَنَأْوِتُونَ أُنُوجًا﴾ .

أي في ذلك اليوم تَأْوِتُونَ زُمراً وجماعات .

﴿وَفُيْحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ .

أي: تَشَقَّقَتْ وانفطرت .

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ .

أي كالسراب .

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ .

أي ممرأ . ويقال: ذات ارتقابٍ لأهلها .

﴿لِلظَّالِمِينَ مَقَابًا﴾ .

أي مرجعاً .

﴿لِيُبَيِّنَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ .

أي دهوراً، والمعنى مُؤَبِّدِينَ .

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾ .

مضى معناه . ثم يُعَذَّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَرَ من العذاب .

﴿جَرَآءٍ وَقَاقًا﴾ .

أي : جُوزُوا على فرق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ، وجرى به الحكم .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ .

لا يؤمنون فيرجعون الثواب ويخافون العقاب .

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ .

أي : تكذبياً .

﴿وَكُلُّ شَقْوَةٍ أَخَصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ .

يأي : كتبناه كتاباً ، وعلمناه علماً .

والمسبُحُ الزاهدُ يحصي تسيبَحه ، والمهجورُ البائسُ يحصي أيامَ هجرانه ، والذي هو صاحبُ وصالٍ لا يتفرَّغ من وُضله إلى تذكُرِ أيامه في العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكة يُحصون زَلَّاتِ العاصين ، ويكتبونها في صحائفهم . والحق سبحانه يقول :

﴿وَكُلُّ شَقْوَةٍ أَخَصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ فكما أحصى زَلَّاتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أحصى أيامَ هجرانِ المهجورين وأيامَ مِحْنِ الممتحنين ، وإنَّ لهم في ذلك لَسَلْوَةٌ ونَفْسًا :

ثمانٍ قد مضينَ بلا تلاقٍ وما في الصبرِ فَضْلٌ عن ثمانٍ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامَ فترتهم الحدَّ! وأزبَّت أوقاتُ هجرانهم على الحَضْرَا!

قوله جلَّ ذكره : ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ .

يا أيها المُتَعَمِّونُ في الجنة . . افرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون . . احترقوا في النار . . ولن نزيدكم إلا عذاباً .

ويا أيها المطيعون . . افرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فَضْلاً على فَضْلٍ .

يا أيها المساكين . . ابكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلا عَزْلاً على عَزْلٍ .

قوله جلَّ ذكره : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَاذًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكُلَّمَا دَخَلُوا حَائِطًا مِمَّا كَانُوا فِيهَا لَسَعُوا فِيهَا لُغُوبًا﴾ .

﴿وَلَا يَكْذِبُ جَرْآءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ .

مُسْتَمٌّ للمتقين ما وعدناهم به . . فهنيئاً لهم ما أعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْيَةِ

وَالظَّفَرِ بِالسُّؤْلِ وَالْمُتَيْةِ: من حدائق وأعناب، ومن كواعب أترابٍ وغير ذلك .
فيا أيها الْمُهَيِّمُونَ الْمُتَيِّمُونَ هنيئاً لكم ما أنتم فيه اليوم في سبيل مولاكم من
تجرؤٍ وفقر، وما كلّفكم به من توكلٍ وصبر، وما تجرعتم من صدٍّ وهجر .

أحرى الملابس ما تَلَقَّى الحبيب به يومَ التزاورِ في الشوب الذي خَلَعَا
قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ آذانهم مصونة عن سماع الأغيار، وأبصارهم محفوظة
عن ملاحظة الرسوم والآثار .

قوله جلّ ذكره: ﴿زَبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ .
وكيف تكون للمُكُونِ المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُكَنَّةٌ أَنْ يملك منه خطاباً؟ أو
يتنفس بدونه نفساً؟ كلا . . بل هو الله الواحدُ الجبار .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ
صَوَاباً﴾ .

إنما تظهر الهيبة على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم، وأمّا الخواص
وأصحابُ الحضور فهم أبدأ بمشهد العز بنعت الهيبة، لا نفس لهم ولا راحة؛ أحاط
بهم سرادقها واستولت عليهم حقانها .

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَيْنَا رَبِّهِ مَتَاباً﴾ .
هم بمشهد الحق، والحق عليهم الحق، حكم عليهم بالحق، وهم مجذوبون
بالحق للحق .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ .
وهو عند أهل الغفلة بعيد، ولكنّه في التحقيق قريب .
﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ .

مضوا في ذلّ الاختيار والتعني، وبُعِثُوا في حسرة التمني، ولو أنهم رضوا
بالتقدير لتخلّصوا عن التمني .

سورة النازعات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ آفْرِ الرَّكْبِ الرَّجِيِّ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ لربِّ عزيز، سماعه يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز، وذِكْرُه يحتاج إلى وقتٍ عزيز، وفهمه يحتاج إلى قلبٍ عزيز.

وأنتى لصاحبِ سَمْعٍ بالغية مُبْتَدَل، ووقتِ مُعْطَلٍ في الخسائسِ مُسْتَعْرَق، وقلبٍ في الاشتغالِ بالأغيارِ مستعمل. . أنتى له أن يَصْلُحَ لسماعِ هذا الاسمِ؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَالنَّزْعَتِ غَرَقًا﴾.

أي الملائكة؛ تنزعُ أرواحَ الكفارِ من أبدانهم.

﴿غَرَقًا﴾: أي إغراقاً كالمُغْرَقِ في قَوْسِه.

ويقال: هي النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان.

﴿وَالنَّشِطَتِ نَشْطًا﴾.

هي أنفسُ المؤمنين تَنَشِطُ للخروج عند الموت.

ويقال: هي الملائكة تنشطُ أرواحَ الكفار، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجها.

ويقال: هي الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدٍ.

ويقال: هي الأوهاق^(١).

ويقال: هي النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى

المشارق.

﴿وَالنَّيْحَتِ مَبَا﴾.

الملائكة تسبح في نزولها.

ويقال: هي النجوم تسبح في أفلاكها.

ويقال: هي السفن في البحار.

ويقال: هي أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله.

﴿وَالنَّيْقَتِ سَبَا﴾.

(١) الأوهاق: (ج) الوهق: الجبل المُفَارِيزُ من فيه أنشودة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان. (لسان العرب ٣٨٥/١٠ مادة: وهق).

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار.

ويقال: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول.

﴿فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا﴾ .

الملائكة تنزل بالحرام والحلال.

ويقال: جبريل بالوحي، وميكائيل بالقطر والنبات، وإسرافيل بالصور، وملاك الموت يقبض الأرواح.. عليهم السلام.

وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَتَخَنَّنُ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ .

تتحرك الأرض حركةً شديدة.

﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادَةُ﴾ .

النفخة الأولى في الصور. وقيل: الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ .

خائفة.

﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِرَةِ﴾ .

أي إلى أول أمرنا وحالنا، يعني أيذا متنا نبعث ونرُدُّ إلى الدنيا (ونمشي على الأرض بأقدامنا)؟. قالوه على جهة الاستبعاد.

﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا تَحْرَهُ﴾ .

أي بالية.

﴿قَالُوا يَا نَكَّ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ .

رَجَعَتْ ذَاتُ خَسْرَانٍ (ما دام المصيرُ إلى النار).

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ .

جاء في التفسير إنها أرض المحشر، ويقال: إنها أرض بيضاء لم يُغص الله فيها.

ويقال: ﴿الساهرة﴾ نَفْحَةُ الصُّورِ تذهب بنومهم وتسهرهم.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ .

أي الأرض المطهرة المباركة. ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي هناك.

﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرٌ فَغُلَّ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَّكَّى﴾ .

قلنا له: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، فقل له: هل يقع لك أن تؤمّن وتتنهّر من ذنوبك.

وفي التفسير: لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَمَّا لا يزول، وشبابك لا يهرم، وتعيش أربعمئة سنة في السرورة والنعمة.. ثم لك الجنة في الآخرة. ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخشى﴾.

أَقْرُرُ لك بِالآيَاتِ صِحَّةَ مَا أَقُولُ، وأعرفك صحة الدين.. فهل لك ذلك؟ فلم يَقْبَلْ.

ويقال: أظهر له كل هذا التلطّف ولكنه في خَفِيّ سِرِّهِ وواجب مَكْرِهِ به أنه صَرَفَ قلبه عن إرادة هذه الأشياء، وإيثار مراده على مراد ربّه، وألقى في قلبه الامتناع، وتزكّ قبول التّضح. . وأي قلب يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ؟ وأي كِبِد تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر؟ قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكُرْبَىٰ﴾.

جاء في التفسير: هي إخراج يده بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس. فقال فرعون: حتى أشاورَ هامانَ، فشاوَرَهُ، فقال له هامان: أبعد ما كُنْتُ رِبًّا تكون مربوباً؟! وبعد ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك، وَعَصَى، وَجَمَعَ السَّحَرَةَ، ونادى^(١): ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

ويقال: إن إبليس لما سَمِعَ هذا الخطاب فرّ وقال: لا أطيق هذا! ويقال قال: أنا أَدْعَيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت.. وهذا يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخشى﴾.

أي في إهلاكنا فرعون لَعِبْرَةً لِمَن يَخشى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ أَشْأَدْكُمْ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَنَّىٰ رَفَعْنَا سَعَكُمَا فَمَوَّنِيهَا وَأَغَطَّسْنَا لَيْلَهَا وَأَخْرَجْنَا مَضْنَهَا﴾.

﴿فَمَوَّنِيهَا﴾ جعلها مستوية. ﴿وَأَغَطَّسْنَا لَيْلَهَا﴾ أظلم ليلها. ﴿مَضْنَهَا﴾ ضوؤها ونهارها. ﴿دَحْنَهَا﴾ بَسَطَهَا وَمَدَّهَا^(٣).

﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعْنَهَا﴾.

(٢) الآية (٢٥) لم ترد.

(١) الآيات من (٢١ - ٢٣) لم ترد.

(٣) الآية: (٣٠) لم ترد.

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء، وأخرج النبات . .
﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا﴾ .

أثبتها أو تاداً للأرض .

﴿مَنَّا لَكُمْ وَلَاتَمَيَّكُوا﴾ .

أي أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع، وكذلك لأنعامكم .
﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكَبْرَى﴾ .

الداهية العظمى . . وهي القيامة .

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ .

وبرزت الجحيم لمن يرى، فأما من طغى وكفّر وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم له
المأوى والمستقرّ والمشوى^(١) .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ .

﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ : وقوفه غداً في محل الحساب . ويقال : إقبال الله عليه وأنه راء
له . . وهذا عين المراقبة، والآخر محل المحاسبة .

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي لم يتابع هواه .

قوله جلّ ذكره : ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا﴾ .

أي متى تقوم؟

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ .

من أين لك علمها ولم نعلمك ذلك .

﴿إِلَّا رَبُّكَ مُنْتَهَىٰ﴾ .

أي إنما يعلم ذلك ربك .

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ .

أي تخوف، فيقبل تخويفك من يخشاها ويؤمن .

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضَهْنًا﴾ .

كانهم يوم يرونها لم يلبسوا إلا عشيّة أو ضهناً . فلشدة ما يرون تقل عندهم
كثرة ما لبسوا تحت الأرض .

(١) الآيات من (٣٦ - ٣٩) لم ترد .

سورة عبس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله»: اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده، اسم عزيز انسدَّ على الأولين والآخرين طريقَ وُجُودِهِ . . . وأتَى بذلك ولا حَدَّ له؟ مَنْ الذي يدركه بالزمانِ والزمانُ خَلَقَهُ؟ ومن الذي يحسبه في المكانِ والمكانُ فِعْلُهُ؟ وَمَنْ الذي يعرفه - إلا وبه يعرفه؟ وَمَنْ الذي يَذْكُرُهُ - إلا وبه يذكره؟

قوله جل ذكره: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ .

نَزَلَتْ في ابن أم مكتوم^(١)، وكان ضريراً . . . أتى النبي ﷺ وكان عنده العباس بن عبد المطلب^(٢) وأمّية بن خلف الجُمُحِي^(٣) - يرجو الرسول ﷺ إيمانَهُمَا، فَكَّرَهُ أَنْ يَقْطَعَ حَدِيثَهُ مَعَهُمَا، فَأَعْرَضَ عن ابن أم مكتوم، وَعَبَسَ وَجْهَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هذه الآية .

وجاء في التفسير: أن النبي ﷺ خرج على أثره، وأمرَ بطلبِهِ، وكان بعد ذلك يَبْرُهُ وَيُكْرِمُهُ، فاستخلفه على المدينة مرتين .

(١) هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (. . . - ٢٣ هـ = . . . - ٦٤٣ م) ابن أم مكتوم، صحابي شجاع كان ضريح البصر. أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في المدينة، مع بلال، وكان النبي يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس، في عامة غزواته وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة، فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة، فتوفي فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب.

الأعلام ٨٣/٥، وابن سعد ١٥٣/٤، وصفة الصفوة ١/٢٣٧.

(٢) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (٥١ ق هـ - ٣٢ هـ = ٥٧٣ - ٦٥٣ م) أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجدّ الخلفاء العباسيين، وهو عم النبي ﷺ كان محسناً لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق، اشترى ٧٠ عبداً وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين. ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة حنين، وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره، كانت وفاته في المدينة، وله في كتب الحديث ٣٥ حديثاً.

الأعلام ٢٦٢/٣، ونكت الهميان ١٧٥، وصفة الصفوة ١/٢٠٣، وذيل المنيل ١٠.

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٢٢/٢، وسيرة ابن هشام ٥٢/٢، والكامل لابن الأثير ٤٨/٢ وعيون الأثر

٢٥٩/١.

وجاء في التفسير: أنه ﷺ لم يغبس - بعد هذا - في وجه فقير قط، ولم يُعرض عنه .
ويقال: في الخطاب لُطْفٌ . . . وهو أنه لم يواجهه بل قاله على الكناية، ثم
بعده قال:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّمُ يَذُكُّ﴾ .

أي يتذكر بما يتعلم منك أو .

﴿أَوْ يَذُكَّرُ فَتَنْفَعُمُ الذِّكْرَى﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَن ت لَهُ صَدَىٰ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا بَرْكٌ﴾ .

أما من استغنى عن نفسه فإنه استغنى عن الله .

ويقال: استغنى بما له فانت له تصدى، أي تُقبلُ عليه بوجهك .

﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ فانت لا تؤاخذُ بالآ يتركى هو وإنما عليك البلاغ .

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعًا﴾ .

لطلب العلم، ويخشى الله فانت عنه تتلهى، وتتشاغل . . . وهذا كله من قبيل
العتاب معه لأجل الفقراء^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُ﴾ .

القرآن تذكرة؛ فمن شاء الله أن يذكره ذكروه، ومن شاء الله ألا يذكره لم يذكره؛

أي بذلك جرى القضاء، فلا يكون إلا ما شاء الله .

ويقال: الكلام على جهة التهديد؛ ومعناه: فمن أراد أن يذكره فليذكره،

ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره! كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف:

٢٩] .

وقال سبحانه: ﴿ذَكَّرُ﴾ ولم يقل «ذَكَرَهَا» لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ .

أي صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك، وفي اللوح المحفوظ .

﴿تَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ .

مرفوعة في القدر والرتبة، مطهرة من التناقض والكذب .

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ .

أي: الملائكة الكتبة .

(١) الآيتان (٩، ١٠) لم تردا .

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ .

كرام عند الله بررة .

قوله جل ذكره: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوا﴾ .

لِعِنَ الْإِنْسَانَ مَا أعظم كُفْرَهُ!..

﴿وَمِنَ آيَاتِنَا خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُوا﴾ .

خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَقَدَّرَهُ أطواراً: من نطفة، ثم عَلَقَةً، ثم طوراً بعد طور .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُوا﴾ .

يَسْرَ عليه السبيل في الخير والشر، وألهمه كيف التصرف .

ويقال: يَسْرَ عليه الخروج من بطن أمه يخرج أولاً رأسه منكوساً .

﴿ثُمَّ آمَنَّا فَأَنبَرُوا﴾ .

أي: جعل له قبراً لثلا تفترسه السباع والطيور ولثلا يفتضح .

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرُوا﴾ .

بَعَثَهُ من قبره .

﴿كَلَّا لَنَا بَقِيصٌ مَّا أَمَرُوا﴾ .

أي: عصى وخالف ما أمر به .

ويقال: لم يقض الله له ما أمره به، ولو قضى عليه وله ما أمره به لَمَا عصاه .

قوله جل ذكره: ﴿فَنَنْظُرُ الْإِنْسَانَ لِمَا كَفَرْنَا بِهِ أَلَّا نَبُذَنَّ إِلَيْهِ مَا أَفْرَأُ﴾ .

﴿جَاءَ وَصَبًا وَقَضًا وَرِزْقًا وَغُلًّا وَوَعْدًا بَيْنَ عُلْبًا﴾ .

في الإشارة: صَبَبْنَا ماء الرحمة على القلوب القاسية فَلَانَتْ للتوبة، وصَبَبْنَا ماء

التعريف على القلوب فنبتت فيها أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد .

﴿وَقَضًا﴾ أي القَتُّ (١) .

﴿وَوَعْدًا بَيْنَ عُلْبًا﴾ متكافئة غلاظاً .

﴿وَالْفَاكِهِةَ وَأَنَّا﴾ .

الفاكية: جمع الفواكه، و ﴿وَأَنَّا﴾: المرعى .

﴿مَنَّامًا لَّكُمُ الْوَالِدِينَ كَمَا كُنْتُمْ كَانُوا﴾ .

(١) القَتُّ: الفصفصة، وخص بعضهم به اليابسة منها، وقيل: الفسفة، ويكون رطباً ويكون يابساً .

(لسان ٧١ / ٢ مادة: قتت).

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: القيامة؛ فيومئذ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، ثم بين ما سبب ذلك فقال (١).

﴿لِكُلِّ أُمَّرِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنْبِئُ﴾.

لا يتفرغ إلى ذلك، ولا ذاك إلى هذه. كذلك قالوا: الاستقامة أن تشهد الوقت قيامة، فما من ولي ولا عارف إلا وهو - اليوم - بقلبه يفر من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه.

فالعارف مع الخلق ولكنه يفارقهم بقلبه - قالوا:

فلقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحث جسمي من أراد جلوسي

قوله جل ذكره: ﴿وَجِئُوا يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرُونَ صَاحِبَكُمُ مُّتَشِيرُونَ﴾.

وسبب استبشارهم مختلف؛ فمنهم من استبشاره لوصوله إلى جنته، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته. . ومنهم ومنهم، وبعضهم لأنه نظر إلى ربه فرآه.

﴿وَجِئُوا يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْفَعُهَا قَنَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ الْفَجْرَةُ﴾.

وهي غبرة الفساق. ﴿تَرْفَعُهَا قَنَرَةٌ﴾. وهي ذل الحجاب.

سورة التَّكْوِيْرِ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بِسْمِ اللَّهِ» كلمةٌ أُنلِجَتْ من قومِ قلوباً، وأوهجت من آخرين قلوباً؛ من المطيعين أُنلِجَتْهَا، ومن العاصين أوهجتْهَا، ومن المريدين أبهجتْهَا، ومن العارفين أزعجتْهَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ .

ذَهَبَ ضَوْؤُهَا .

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ .

تَنَاطَرَتْ وَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ .

أُزِيلَتْ عَنْهَا مَنَاقِبُهَا .

﴿وَإِذَا الْمَآءُ غُوطِلَتْ﴾ .

وهي الثُّوقُ الحوامِلُ التي أتى حَمْلُهَا عَشْرَةَ أَشْهُرٍ . . . أهملت في ذلك اليوم لشدة أهواله، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها).

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ .

أُحْطِيتْ، وَجُمِعَتْ فِي الْقِيَامَةِ لِيُقْتَصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ؛ فَيُقْتَصَّرُ لِلجَمَاءِ^(١) مِنَ الْقَرْنَاءِ - وهذا على جهة ضَرْبِ المَثَلِ؛ إذ لا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا.

ولا يَنبَعِدُ أَنْ يَكُونَ بِإِصْصَالِ مَنَافِعَ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْأَلَمُ - الْيَوْمَ - عَلَى الْعِوَضِ . . . جَوَازاً لَا وَجُوباً عَلَى مَا قَالَه أَهْلُ الْبِدْعِ.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ .

أَوْقَدَتْ - مِنْ سَجَرَتْ النَّوْرَ أَسْجُرَهُ سَجْرًا، أَي: أَحْمَيْتُهُ.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ .

بِالْأَزْوَاجِ .

(١) شاة جماء: إذا لم تكن ذات قرن بيّنة الجمجم. (اللسان ١٠٨/١٢ مادة: جمجم).

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَهَلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الشُّفُفُ نُشِرَتْ ﴾ .

نُشِرَتْ، أي: بُسِطَتْ .

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ .

أي: نُزِعَتْ وَطُوِيَتْ .

﴿وَإِذَا الْجَبَابِغُ سُحِرَتْ ﴾ .

أُوقِدَتْ .

﴿وَإِذَا اللَّيْلَةُ أُرْلِفَتْ ﴾ .

أي: قُرِبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

هو جوابٌ لهذه الأشياء، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفي قيام هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم، وتجلي

هذه المعاني لقلوبهم توجد هذه الأشياء .

فمن اختلاف أحوالهم: أنّ لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما

يُرْدُونَ .

ونجومٌ علوهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريرين في بعض الأحوال،

فعند ذلك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِاللُّجُجِ الْكُكُوسِ ﴾ .

أي: أُقْسِمُ، وَالخُكُوسُ وَالكُكُوسُ هي النجوم إذا غربت .

ويقال: البقر الوحشي .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا عَسَسَ وَالضُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴾ .

عسس: أي جاء وأقبل . ﴿نَفَسٌ﴾: خرج من جوف الليل .

أقسم بهذه الأشياء، وجواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

إن هذا القرآن لقولٌ رسولٍ كريمٍ، يعني به جبريل عليه السلام .

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .

﴿مَكِينٍ﴾ من المكانة، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آل لوطٍ وقلبها^(١) .

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ .

وهذا أيضاً من جواب القسم .

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ﴾ .

رأى محمداً جبريل عليه السلام بالأفق اليمين ليلة المعراج .

ويقال : رأى ربه وكان ﷺ . بالأفق اليمين .

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ .

بمئتهم (١) .

قوله جل ذكره : ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾ .

إلى متى تتطوحون في أودية الظنون والحسبان؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة؟

وهلاً رجعتم إلى مولاكم فيما سرّكم أو أساءكم؟

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ .

ما هذا القرآن إلا ذكرى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ . . . وقد مضى القول في

الاستقامة .

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

أن يشاؤوا .

سورة الانفطار

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة منيعة ليس يسمو إلى فهمها كل خاطر؛ فإذا كان الخاطِرُ غيرَ عاطرٍ فهو عن علمٍ حقيقتها مُتقاصِرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.

أي: انشقت.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾.

تساقطت وتهافتت.

﴿وَإِذَا الْبِحَاثُ فُجِرَتْ﴾.

أي: فُتِحَ بعضها على بعض.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾.

أي: قُلِبَ ترابها، وُبِعِثَ الموتى الذين فيها، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

جواب لهذه الأمور؛ أي إذا كانت هذه الأشياء: عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما قَدَّمَتْ من

خيرها وشرها.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾.

أي: ما خَدَعَكَ وما سَوَّلَ لَكَ حتى عَمِلْتَ بمعاصيه؟

ويقال: سَأَلَهُ وكانما في نَفْسِ السَّوَالِ لِقَنَّهُ الجواب يقول: غَرَّبَنِي كَرَمُكَ بِي،

ولولا كَرَمُكَ لَمَّا فَعَلْتُ؛ لأنَّكَ رَأَيْتَ فَسْتَرَّزْتُ، وَقَدَّرْتُ فَأَمَهَلْتُ.

ويقال: إن المؤمنَ وِثْقٌ بِحُسْنِ إِفْضَالِهِ فَاغْتَرَّ بِطَوْلِ إِمْهَالِهِ فلم يرتكب الزلَّةَ

لاستحلاله، ولكنَّ طَوْلَ جَلْمِهِ عَنْهُ حَمَلَهُ على سوء خصاله، وكما قلت:

يقول مولاي: أَمَا تَسْتَحْيِي مِمَّا أَرَى مِنْ سُوءِ أَعْمَالِكَ

قلت: يَا مَوْلَايَ رَفَقًا فَقَدْ جَرَّأَنِي كَثْرَةُ أِفْضَالِكَ

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

أي: رُكِبَ أَعْضَاءُكَ عَلَى الْوُجُوهِ الْحَكِيمِيَّةِ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ﴾، من الحُسْنِ والقُبْحِ، والطولِ والقِصْرِ. ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصُفَّةِ، و «في» بمعنى «على»؛ فيكون معناه: على أي صفة شاء رُكِبَكَ؛ من السعادة أو الشقاوة، والإيمان أو المعصية...

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾.

أي: القيامة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كُنُيُنَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال. وقد خُوفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر حشمتهم من اطلاع الحق، ولو علموا ذلك حق العلم لَكَانَ تَوْفِيَهُمْ عن المخالفات لرؤيته - سبحانه، واستحيائهم من اطلاعه - أتمَّ من رؤية الملائكة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾.

﴿الْأَبْرَارَ﴾: هم المؤمنون؛ اليوم في نعمة العصمة، وغدا هم في الكرامة والنعمة ﴿الْفُجَّارَ﴾: اليوم في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشُّرْكِ المَوْجِبِ للفرقة، وغدا في النار على وجه التخليد والتأييد.

ويقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. في رُوحِ الذُّكْرِ، وفي الأُنْثَى في أوان خَلْوَتِهِمْ.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾. في ضيق قلوبهم وتَسْخُطِهِمْ على التقدير، وفي ظُلُمَاتِ

تدبيرهم، وضيق اختيارهم.

﴿يَسْأَلُونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ وَمَا عَنْهَا بِمَأْيِينَ﴾.

﴿يَسْأَلُونَهَا﴾ أي النار. ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾. يوم القيامة.

﴿وَمَا عَنْهَا﴾ عن النار. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ قالها على جهة التهويل^(١).

﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

الأمر لله يومئذ، والله من قبله ومن بعده، ولكن ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تنقطع الدعاوى، إذ

يتضح الأمر وتصير المعارف ضرورية.

(١) الآية (١٨) لم ترد.

سورة المطففين

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه، وسناؤه علاؤه، وعلاؤه بهاؤه، وجلاله جماله، وجماله جلالة. الوجود له غيرٌ مُستفتح، والموجود منه غيرٌ مُستفتح. المعهود منه لطفه، المأمول منه لطفه... كيفما قَسَمَ للعبدِ فالعبدُ عبده؛ إن أقصاه فالحكمُ حكمه، وإن أدناه فالأمر أمره.

قوله جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: الويلُ كلمةٌ تُذكر عند وقوع البلاء، فيقال: وويلٌ لك، وويلٌ عليك! و«المطفف»، الذي يُنقص الكيلَ والوزنَ، وأراد بهذا الذين يعاملون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلى ذلك في: الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والافتضاء؛ فَمَنْ لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه فليس بمنصف. وأما الصديقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكل مَنْ لهم معهم معاملة - والصدق عزيزٌ، وكذلك أحوالهم في الصُحبة والمعاشرة... فالذي يرى عيبَ الناس ولا يرى عيبَ نفسه فهو من هذه الجملة - جملة المطففين - كما قيل:

وَتُبْصِرُ فِي الْعَيْنِ مَنِي الْقَدَى^(١) وَفِي عَيْنِكَ الْجَذَعُ لَا تُبْصِرُ

وَمَنْ اقْتَضَى حَقَّ نَفْسِهِ - دُونَ أَنْ يَقْضِيَ حَقَّ غَيْرِهِ مِثْلَمَا يَقْضِيهَا لِنَفْسِهِ - فَهُوَ مِنْ جَمَلَةِ الْمُطَفِّفِينَ.

والفتى مَنْ يَقْضِي حَقَّ النَّاسِ وَلَا يَقْضِي مِنْ أَحَدٍ لِنَفْسِهِ حَقًّا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحاسبون غدًا، وأنهم مُطالبون بحقوق الناس؟.

ويقال: مَنْ لم يَذْكُرْ - في حال معاملة الناس - معاينة القيامة ومحاسبتها فهو في خسرانٍ في معاملته.

(١) القذى: ما يتكوّن في العين من رمص وغمص وغيرهما.

ويقال: مَنْ كَانَ صَاحِبَ مِرَاقِبَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اسْتَشْعَرَ الْهَيْبَةَ فِي عَاجِلِهِ، كَمَا يَكُونُ حَالُ النَّاسِ فِي الْمَحْشَرِ؛ لِأَنَّ إِطْلَاعَ الْحَقِّ الْيَوْمَ كَاطْلَاعِهِ غَدًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَزْدُرُكَ مَا يَهَيِّئُ؟ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾.

﴿سِجِّينٌ﴾ قيل: هي الأرض السابعة، وهي الأرض السفلى، يُوضَعُ كِتَابُ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ هُنَاكَ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِهْلَاقٌ، ثُمَّ تُحْمَلُ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى مَا هُنَاكَ.

ويقال: «السَّجِّين» جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ. وَقِيلَ: صَخْرَةٌ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَفِي اللُّغَةِ السَّجِّينُ: فَعِيلٌ مِنَ السَّجَنِ.

﴿وَمَا أَزْدُرُكَ مَا يَهَيِّئُ﴾. اسْتَفْهَامٌ عَلَى جِهَةِ التَّهْوِيلِ.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾. أَي مَكْتُوبٌ؛ كَتَبَ اللَّهُ فِيهِ مَا هُمْ عَامِلُونَ، وَمَا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ. وَإِنَّمَا الْمَكْتُوبُ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ فَهُوَ عَلَى مَا تَعَلَّقَ بِهِ عِلْمُهُ وَإِرَادَتُهُ، وَإِنَّمَا أَخْبِرَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي عِلْمُ أَنْ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ، وَكَمَا عِلْمُ أَنْ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ. ثُمَّ إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَمْ يُطْلِعْ أَحَدًا عَلَى أَسْرَارِ خَلْقِهِ إِلَّا مَنْ شَاءَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ بِالْقَدْرِ الَّذِي أَرَادَهُ؛ فَإِنَّهُ يُجْرِي عَلَيْهِمْ فِي دَائِمِ أَوْقَاتِهِمْ مَا سَبَقَ لَهُمْ بِهِ التَّقْدِيرُ.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَمَا يَكْتُوبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُنْتَظِرٌ أَثِيرٌ﴾.

ويلٌ للذين لا يصدقون بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل مجاوز للحد الذي وُضِعَ لَهُ؛ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِ الْقُرْآنُ كَفَرَ بِهِ^(١).

﴿كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾.

أَي: غَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الْمَعَاصِي... وَكَمَا أَنَّهُمْ - الْيَوْمَ - مَمْنُوعُونَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ فَهَمَّ غَدًا مَمْنُوعُونَ عَنْ رُؤْيَتِهِ. وَدَلِيلُ الْخُطَابِ يَوْجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَهُ غَدًا كَمَا يَعْرِفُونَهُ الْيَوْمَ^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.

﴿عِلِّيِّينَ﴾ أَعْلَى الْأَمْكَنَةِ، تَحْمَلُ إِلَيْهِ أَرْوَاحُ الْأَبْرَارِ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَإِجْلَالًا.

ويقال: إِنَّهَا سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى^(٣). وَيُقَالُ: فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ فِيهِ

أَعْمَالُهُمْ مَكْتُوبَةٌ يَشْهَدُ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(٤).

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

(٣) سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى: شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ.

(٤) الْآيَاتُ (١٩، ٢٠، ٢١) لَمْ تَرُدْ.

(١) الْآيَةُ (١٣) لَمْ تَرُدْ.

(٢) الْآيَاتَانِ (١٦، ١٧) لَمْ تَرُدَا.

اليومَ وغداً: اليومَ في رُوحِ العرفان، وراحةِ الطاعة والإحسان، ونعمةِ الرضا وأُنسِ القربةِ وبَسْطِ الوصلة. وغداً - في الجنةِ وما وُعدوا به من فنونِ الزلفَةِ والقربةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَى الْأَرْبَابِكِ يَنْظُرُونَ﴾.

أثبتَ النظرَ ولم يبيّنَ المنظورَ إليه لاختلافهم في أحوالهم؛ فمنهم من ينظر إلى قُصوره. ومنهم من ينظر إلى حُوره، ومنهم ومنهم... ومنهم الخواصُ فهم على دوام الأوقات إلى الله - سبحانه - يَنْظُرُونَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

مَنْ نظر إليهم عَلِمَ أَنَّ أَثَرَ نَظَرِهِ إلى مولاه ما يلوح على وجه من النعيم؛ فأحوال المحبِّ شهوذةً عليه أبداً. فإن كان الوقتُ وقتَ وصالٍ فاخْتِيَالَهُ ودلاله، وسروره وحبوره، ونشاطه وانبساطه. وإن كان الوقتُ وقتَ غيبةٍ وفراقٍ فالشهوذةُ عليه نحوهُ وذبوله، وحينئذٍ وأنيته، ودموعه وهجوّعه... وفي معناه قلت:

يا مَنْ تَعَيَّرُ صورتِي لَمَّا بدا - لجميع ما ظنوا بنا - تحقيقُ
وقلت:

وَلَمَّا أَتَى الْوَاشِينَ أَنِّي رُزْتُهَا جَحَدْتُ حَذَاراً أَنْ تُشِيعَ السَّرَائِرُ
فَقَالُوا: نَرَى فِي وَجْهِكَ الْيَوْمَ نَضْرَةَ كَسَتْ مُحْيَاكَ^(١). . . وهاذا ظاهراً
وَبُرْذُكَ لَا ذَاكَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ بِهِ طَيْبٌ نَشَرِ لَمْ تُشِغْهُ الْمَجَامِرُ
فَمَا كَانَ مَثِي مِنْ بَيَانِ أَقِيمَهُ وَهِيهَاتَ أَنْ يَخْفِيَ مُرِيبٌ مَسَاتِرُ!

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ خِتْمُهُ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

﴿مَخْتُومٍ﴾ أي رحيق لا غش فيه.

ويقال: عتيق طيب.

ويقال: إنهم يشربون شراباً آخره منك.

ويقال: بل هو مختوم قبل حضورهم.

ويقال: ﴿خِتْمُهُ مِنْكَ﴾. ممنوع من كل أحد، معدّ مُدْخَرٌ لكلِّ أحدٍ باسمه.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. وتنافسهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة، والسباق إلى القرب، وتعليق القلب بالله، والانسلاخ عن الأخلاق الدنيئة، وجولان الهمم في الملكوت، واستدامة المناجاة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.

(١) الْمُحْيَا: جماعة الوجه أو حُرّه، يقال: فلان طلق المحيا؛ أي: بشوش الوجه.

﴿تَسْنِيرٍ﴾: أي: عينٌ تَسْنُمُ عليهم من علوِّ.

وقيل: ميزابٌ يَنْصَبُ عليهم من فوقهم.

ويقال: سُمِّيَ تسنيمًا؛ لأن ماءه يجري في الهواء مُتَسَنِّمًا فينصبُ في أواني أهل الجنة؛ فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجًا، ومنهم مَنْ يُسْقَى صِرْفًا. . . الأولياء يُسْقَوْنَ مَزْجًا، والخواصُّ يُسْقَوْنَ صِرْفًا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ

يَتَفَامَزُونَ﴾.

كانوا^(١) يضحكون استهزاءً بهم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾!

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَىٰ الْأَرَءَائِكِ يَبْظُرُونَ هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿هَلْ...﴾ استفهام يراد منه التقرير.

ويقال: إذا رأوا أهل النار يُعذَّبون لا تأخذهم بهم رأفة، ولا تَرِقُّ لهم

قلوبهم، بل يضحكون ويستهزئون ويُعيِّرونهم.

(١) الآيات (٣١ - ٣٣) لم ترد.

سورة الانشقاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله»: اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال، وجماله لا على احتذاء أمثال، وأفعاله لا بأغراضٍ وأعلال، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال، فهو الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ .

﴿انشَقَّتْ﴾: انصدعت .

﴿وَأَذَّتْ رِبَّهَا وَحَقَّتْ﴾ .

أي قابلت أمر ربها بالسمع والطاعة . . . وحق لها أن تفعل ذلك .

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ .

بُسطت باندكائك آكامها وجبالها حتى صارت ملساء، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلت عنها . . . وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة^(١) .

وجواب هذه الأشياء في قوله: ﴿فَمَلَقَيْدٌ﴾ أي يلقى الإنسان ما يستحقه على أعماله .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيْدٌ﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ﴾: يأيها المكلف . . . إنك ساعٍ بما لك سعيًا ستلقى جزاءه؛

بالخير خيراً وبالشرّ شرّاً .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتَابٍ بِيَمِينِهِ﴾ .

وهو المؤمن المحسن .

﴿فَسَوْفَ يَحْصِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾

أي حساباً لا مشقة فيه . ويقال: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي يُسِمِعُهُ كلامه - سبحانه - بلا

واسطة، فيُخَفِّفُ سماعُ خطابه ما في الحساب من عناءٍ .

ويقال: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾: لا يُذَكِّرُهُ ذنوبه . ويقال: ألم أفعَل كذا؟ وألم

أفعل كذا؟ يقدُّ عليه إحسانه . . . ولا يقول: ألم تفعل كذا؟ لا يُذَكِّرُهُ عصيانه .

(١) الآيتان (٤، ٥) لم تردا .

﴿وَنَقَلِبٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ .

أي بالنجاة والدرجات، وما وَجَدَ من المناجاة، وقبول الطاعات، وغفران الزَّلَّات .

ويقال: بأن يُشْفَعَهُ فيمن يتعلَّق به قلبه . ويقال: بألا يفضحه .

ويقال: بأن يَلْقَى رَبَّهُ وَيُكَلِّمَهُ قبل أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ فيَلْقَى حَظِيَّتَهُ من الحورِ العين .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُمُ وِرَاةً ظَاهِرًا﴾ .

وهو الكافر .

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ .

أي وَبِلَاءً .

﴿وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا﴾ .

جهنم .

﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي أَهْلِهَا مُسْرُورًا﴾ .

من البَطْرِ والمدح .

﴿إِنَّكُمْ ظَنَّ أَنَّ لَنْ يَحُورَ﴾ .

أنه لن يرجع إلينا، ولن يُبْعَثَ^(١) .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا أُنْسِمْ بِالْإِشْفَاقِ﴾ .

بالْحُمْرَةِ التي تعقب غروب الشمس .

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ .

وما جَمَعَ وضمَّ .

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا انَّسَقَ﴾ .

تَمَّ واستوى واجتمع .

ويقال: الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم، وأذيقوا الفراقَ في بعض أحوالهم،

وذلك زمانٌ قبضٍ بعد بَسْطٍ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبٍ جَمْعُ^(٢) . ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ : ليالي

غيبتهم وهم بوصف الاستيقاظ؛ أو ليالي وصالهم وهم في روح التلاقي، أو ليالي

طَلَبِهِم وهم بنعتِ القَلْبِ والاحتراق .

(١) الآية (١٥) لم ترد .

(٢) انظر حديث القشيري (عن الجمع والغرق) في رسالته ص ٦٤ - ٦٧ .

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا آسَقَ﴾ : إِذَا ظَهَرَ سُلْطَانُ الْعُرْفَانِ عَلَى الْقُلُوبِ فَلَا بَخْسَ وَلَا نَقْصَانَ .

قوله جلّ ذكره: ﴿لَتَرَكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ .

أي حالاً بعد حال . وقيل : من أطباق السماء . ويقال : شِدَّةٌ بعد شِدَّةٍ .

ويقال : تاراتُ الإنسانِ طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً .

ويقال : طالباً ثم واصلاً ثم مُتَّصِلاً .

ويقال : حالاً بعد حالٍ ، من الفقر والغنى ، والصحة والسقم .

ويقال : حالاً بعد حالٍ في الآخرة .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟﴾ .

أي فما الكُفَّارِ أُمَّتِكَ لَا يُصَدِّقُونَ . . . وقد ظهرت البراهين؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ بِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا يُكذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ .

﴿يُوعُونَ﴾ أي تنطوي عليه قلوبهم - من أَوْعَيْتُ المَتَاعَ فِي الظَّرْفِ أي جعلته

فيه .

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أجرٌ غيرٌ مقطوع .

سورة البروج

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ مَنْ لا عقل يَكْتَنِبُهُ، اسمٌ مَنْ لا مثل يُشَبِّهُه، اسمٌ مَنْ لا فَهْمٌ^(١) يرتقي إليه بالتصوير، اسمٌ مَنْ لا علم ينتهي إليه بالتقدير، اسمٌ مَنْ لم يَرَهُ بَصَرًا إِلَّا واحدٌ - وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه، اسمٌ مَنْ لا يَجْسُرُ أحدٌ أَنْ يتكلّمَ بغير ما إِذِنَ فيه، اسمٌ مَنْ لا قَطَرَ يحويه، ولا سِرًّا يُخْفِيه، ولا أحدٌ يصل إلى معرفته إِلَّا مَنْ يرتضيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾.

أراد البروج الاثني عشر^(٢).

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْجُودِ﴾.

يوم القيامة.

وجواب القَسَمِ قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُورٍ﴾.

يقال: الشاهدُ اللهُ، والمشهودُ الخَلْقُ.

ويقال: الشاهدُ الخَلْقُ، والمشهودُ اللهُ؛ يشهدونه اليوم بقلوبهم، وغداً بأبصارهم.

ويقال: الشاهدُ محمدٌ ﷺ، والمشهودُ القيامة، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ

هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال في القيامة: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة^(٣).

(١) ربما كانت: لا وهم أو لا خيال. فمن أقوال ذي النون المصري: وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصوّر في خيالك فالله بخلاف ذلك. (الرسالة القشيرية ص ٤٣).

(٢) قيل: ذات الكواكب؛ وقيل: ذات القصور في السماء، وقيل: هي النجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجاً، وقالوا: هي القصور في السماء، والله أعلم بما أراد. (اللسان ٢١٢/٢ مادة: برج).

(٣) يوم عرفة: عرفة: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة ويوم عرفة غير منون ولا تدخله الألف واللام.

ويقال: الشاهدُ المَلَكُ الذي يكتب العمل، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه، وأعضاؤه تشهد عليه؛ فهو شاهد وهو مشهود.

ويقال: الشاهدُ يومُ القيامة، والمشهودُ الناس.

ويقال: المشهودُ هم الأمة لأنه ﷺ يشهد لهم وعليهم.

ويقال: الشاهدُ هذه الأمة، والمشهودُ سائر الأمم.

ويقال: الشاهدُ الحجرُ الأسود^(١) لأنَّ فيه كتابَ العهد.

ويقال: الشاهدُ جميعُ الخَلْقِ؛ يشهدون لله بالوحدانية، والمشهود الله.

ويقال: الشاهدُ الله؛ شهد لنفسه بالوحدانية، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قِيلَ اتَّخَذُوا الْأَخْدُودَ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾.

أي لُجِنُوا. والأخدودُ: الحُفْرَةُ في الأرض إذا كانت مستطيلةً، وقصبتهم في التفسير معلومة و «الوقود» الحطب.

وهم أقوامٌ كتموا إيمانهم فلما عَلِمَ مَلِكُهُمْ بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة، وألقاهم فيها. وأخِرُ مَنْ دَخَلَهَا امرأةٌ كان معها رضيعٌ، وهَمَّتْ أن ترجع، فقال لها الولد: قفي واصبري... فانت على الحق.

وألقوها في النار، واقتحمتها، وبينما كان أصحابُ الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النارُ من الأخدود وأحرقتهم جميعاً، ونجا من كان في النار من المؤمنين وسلّموا^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ما غَضِبُوا منهم إلا لإيمانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

أي أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: نوعٌ من العذاب، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾: نوع آخر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

(١) الحجر الأسود: حجر في الكعبة يستلمه الحُجَّاج عند طوافهم. يُقال: ما بيدك غير الحجر وتكنى به عن الحرمان والخيبة.

(٢) الآيتان (٦، ٧) لم تردا.

﴿ذَلِكَ الْقَرَارُ الْكَبِيرُ﴾: النجاة العظيمة.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

البطش الأخذ بالشدة.

﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئِذٍ﴾.

يُئِذٍ الخلق ثم يُعيدهم بعد البعث.

ويقال: يئديء بالعذاب ثم يُعيد، وبالثواب ثم يُعيد.

ويقال: يئديء على حُكْم العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه، ويئديء على الضعف

ويعيدهم إلى الضعف.

ويقال: يئدي الأحوال السنيّة فإذا وقعت حجة يعيد ثانية.

ويقال: يئدي بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه، فإذا تَقَضَّرَ توبته فلأنه أعاد

له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله.

ويقال: يئدي لطائف تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً، فلا يزال

يئدي ويعيد إلى آخر العمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾.

«الغفور» كثير المغفرة، «الودود» مبالغة من الودّ، ويكون بمعنى المودود؛ فهو

يغفر له كثيراً لأنه يودّهم، ويغفر لهم كثيراً لأنهم يودّونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

ذو المُلْكِ الرفيع، والمجد الشريف.

﴿قَمَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

لأنه مالِكٌ على الإطلاق؛ فلا حَجْرَ عليه ولا حَظْرَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أُنْتَكِ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾.

الجموع من الكفار.

﴿فَرَعَوْنَ وَمُودَ﴾.

وقد تقدم ذكر شأنهما.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مُشْرِكِي مكة؛ ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ للبعث والنشر.

﴿وَاللَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ مُّحِيطٌ﴾.

عالم بهم .

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ .

﴿في لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ مكتوب فيه . وجاء في التفسير: أنَّ اللوحَ المحفوظَ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء، دِفْتَاهُ^(١) من ياقوتة حمراء عَرَضُهَا بين السماء والأرض، وأعلىه متعلقٌ بالعرش، وأسفله في حِجْرِ مَلِكٍ كريم .

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فهو في اللوح مكتوبٌ، وفي القلوبِ محفوظٌ .

(١) الدفة من كل شيء: جنبه أو صفحته .

سورة الطارق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وُفِّقَ لعرفانه، ثم زِيَّنَه بإحسانه، ثم استخلصه بامتنانه؛ فَعَصَّمَه من عِصْيَانِه، وقام بحسن التولّي - في جميع أحواله - بشأنه، ثم قَبَّضَه على إيمانه، ثم بَوَّأَه في جنانه، وأكرمه برضوانه، ثم أكمل عليه نِعْمَتَه برؤيته وعيانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

أقسم بالسماءِ، وبالنجمِ الذي يَطْرُقُ ليلاً.
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم.
﴿التَّعْمُ الثَّاقِبُ﴾.

المضيءُ العالِي. وقيل: الذي ترمى به الشياطين.

ويقال: هي نجوم المعرفة التي تدل على التوحيد يستضيء بنورها ويهتدي بها أولو البصائر.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

ما مِنْ نَفْسٍ إلا عليها حَافِظٌ من الملائكة، يحفظ عليه عمله ورزقه وأجله، ويحمله على دوام التيقُّظِ وجميل التحفُّظِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.
يخرج من صُلْبِ الأب، وتربية الأم.

وهو بذلك يحثُّ على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته - سبحانه.

﴿إِنَّهُ عَلَّ رَبِّبِهِ لِقَائِدٌ﴾.

إنه على بَعْثِهِ، وخالقُه مرةً أخرى لقائِدٌ؛ لأنه قادر على الكمال - والقدرة على الشيء تقتضي القدرة على مثله، والإعادة في معنى الابتداء.

﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ .

يوم تُمتحنُ الضمائر .

﴿فَأَلَمُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ .

أي ما لهذا الإنسان - يومئذٍ - من مُعينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله .

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجَمِ﴾ .

أي المطر .

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعْتِ﴾ .

«الصدع» : الانشقاقُ بالنباتِ للزرع والشجر .

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ .

أي : إن القرآن لقولٌ جَزْمٌ .

﴿وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ﴾ .

الزهل ضد الجِدِّ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِبٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ .

أي يحتالون حيلةً .

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ .

هم يحتالون حيلةً، ونحن نُحكِمُ فِعْلًا وَتُبْرِمُ خَلْقًا، ونجازيهم على كيدهم، بما

نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنهَاهُمْ رُؤْيَا﴾ .

أي أنظرهم، وأمهلهم قليلاً، وأزودهم رويداً .

سورة الأعلى

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ من قَصْدِهِ وَجَدَهُ، وَمَنْ اسْتَسَعَفَهُ حَمِيدَهُ . مَنْ طَلَبَهُ عَرَفَهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ لَاطَفَهُ، فَإِذَا وَجَدَ لُطْفَهُ أَلْفَهُ، وَإِذَا أَلْفَهُ أَنْفٌ أَنْ يَخَالِفَهُ .

قوله جلّ ذكره: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ .

أَي سَبِّحْ رَبِّكَ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ، وَاسْبِحْ بِسِرِّكَ فِي بَحَارِ عِلْمِهِ، وَاسْتَخْرِجْ مِنْ جَوَاهِرِ عُلُومِهِ وَسِنَائِهِ مَا تَرْضَعُ بِهِ عِقْدَ مَدْحِهِ وَثَنَائِهِ .

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ .

خَلَقَ كُلَّ ذِي رُوحٍ فَسَوَّى أَجْزَاءَهُ، وَرَكَّبَ أَعْضَاءَهُ عَلَى مَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ النِّظْمِ الْعَجِيبِ وَالتَّرْكِيبِ الْبَدِيعِ .

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ .

أَي قَدَّرَ مَا خَلَقَهُ، فَجَعَلَهُ عَلَى مِقْدَارٍ مَا أَرَادَهُ، وَهَدَى كُلَّ حَيْوَانٍ إِلَى مَا فِيهِ رَشْدُهُ مِنَ الْمَنَافِعِ، فَيَأْخُذُ مَا يُضْلِحُهُ وَيَتْرِكُ مَا يَضُرُّهُ - بِحُكْمِ الْإِلْهَامِ .

وَيَقَالُ: هَدَى قُلُوبَ الْغَافِلِينَ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا فَعَمَّرُوها، وَهَدَى قُلُوبَ الْعَابِدِينَ إِلَى طَلَبِ الْعَقْبَى فَأَثَرُوها، وَهَدَى قُلُوبَ الزَّاهِدِينَ إِلَى فَنَاءِ الدُّنْيَا فَرَفَضُوها، وَهَدَى قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ إِلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَالاسْتِدْلَالِ بِمَصْنُوعَاتِهِ فَعَرَفُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلاَزَمُوها .

وَهَدَى قُلُوبَ الْمُرِيدِينَ إِلَى عِزِّ وَضْفِهِ فَأَثَرُوها، وَاسْتَفْرَعُوا جُهْدَهُمْ فَطَلَبُوها، وَهَدَى الْعَارِفِينَ إِلَى قُدْسِ نَعْتِهِ فَرَأَقِبُوها ثُمَّ شَاهَدُوها، وَهَدَى الْمُوَحِّدِينَ إِلَى عِلَاءِ سُلْطَانِهِ فِي تَوْحِيدِ كِبْرِيَاءَتِهِ فَتَرَكَوْا مَا سِوَاهِ وَهَجَرُوها، وَخَرَجُوا عَنْ كُلِّ مَأْلُوفٍ لَهُمْ وَمَعْهُودٍ حَتَّى قَصَدُوها . فَلَمَّا ارْتَقَوْا عَنْ حُدِّ الْبِرْهَانِ ثُمَّ عَنْ حُدِّ الْبَيَانِ ثُمَّ عَمَّا كَالْعَيَانِ عَلِمُوا أَنَّهُ عَزِيزٌ، وَأَنَّهُ وَرَاءَ كُلِّ فَضْلٍ وَوَضَلٍ، فَرَجَعُوا إِلَى مَوْطِنِ الْعَجْزِ فَتَوَسَّدُوها .

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ .

أَي النِّبَاتِ .

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ .

جعله هشيماً^(١) كالغشاء، وهو الذي يقذفه السيل. و «أحوى» أسود.

﴿سَتَرْتُكَ فَلَا تَنسَى﴾.

سنجمع القرآن في قلبك - يا محمد - حِفْظاً حتى لا تنسى لأننا نحفظه عليك.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّكُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾.

مما لا يدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أداءه.

وهو - سبحانه - يعلم السِّرَّ والْعَلْنَ^(٢).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَذَكِّرْ لِن تَفَعَّتِ الذِّكْرَى﴾.

والذِّكْرَى تنفع لا محالة، ولكن لِمَنْ وَقَفَهُ اللَّهُ لِلتَّعَاظِ بِهَا، أَمَا مَنْ كَانَ الْمَعْلُومُ

من حاله الكَفْرَ والإِعْرَاضَ فهو كما قيل:

وما انتافع أخى الدنيا بِمُقْلَتِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْفَى﴾.

الذي يخشى الله ويخشى عقوبته.

﴿وَسَنَجَنِّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

أي يتجنب الذُّكْرَ الْأَشْقَى الذي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى، ثم لا يموت فيها موتاً

يربحه، ولا يحيا حياةً تَلْدُّ له.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَدْ أَلْفَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾.

مَنْ تَطَهَّرَ مِنَ الذَّنُوبِ وَالْعِيُوبِ، ومشاهدة الخَلْقِ وأدى الزكاة - وَجَدَ النِّجَاةَ،

وَالظَّفَرَ بِالْبُعْغِيَّةِ، وَالْفَوْزَ بِالطَّلِبَةِ.

﴿وَذَكَرَ أَسَدَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾.

ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فِي صَلَاتِهِ. ويقال: ذَكَرَهُ بِالوَحْدَانِيَّةِ وَصَلَّى لَهُ.

﴿بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

تميلون إليها؛ فَتَقْدُمُونَ حِظوظكم منها على حقوق الله تعالى.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وَالْآخِرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ وَأَبْقَى - مِنَ الدُّنْيَا - لَطَّلَابِهَا.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

إن هذا الوعظ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى

وغيرهما؛ لأنَّ التوحيد، والوعد والوعيد... لا تختلف باختلاف الشرائع.

(١) الهشيم: النبت اليابس المتكسر. أو المتكسر من كل شيء.

(٢) الآية (٨) لم ترد.

سورة الغاشية

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من سمعها وفي قلبه عرفائه تلالات أنوار قلبه، وتفرقت أنواع كثره، وتضاعفت في جماله طوارق حبه، وتحيرت في جلاله شوارق لبه.

كلمة من عرفها - وفي قلبه إيمانه - أحبها من داخل الفؤاد، وهجر - في طلبها - الرقاد، وترك - لأجلها - كل هم ومراد.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْتِيِّ﴾.

«الغاشية» المجللة، يريد بها القيامة تغشى الخلق، تغشى وجوه الكفار.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾.

وجوه - إذا جاءت القيامة - خاشعة أي ذليلة. عاملة ناصبة: النصب التعب.

جاء في التفسير: أنهم يجزؤون على وجوههم.

﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ تلزم ناراً شديدة الحر.

ويقال: «عاملة» في الدنيا بالمعاصي، «ناصبة» في الآخرة بالعذاب.

ويقال: «ناصبة» في الدنيا «عاملة» لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان، وفي

معناه عمل أهل النفاق.

﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ﴾.

تناهى حرها.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ وَلَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾.

نبت ينمو بالحجاز له شوك، وهو سم لا تأكله الدواب، فإذا أكلوا ذلك في النار

يغضون، فيسقون الزقوم.

وإن اتصاف الأبدان - اليوم - بصورة الطاعات مع فقد الأرواح وجدان

المكاشفات (وفقد^(١)) الأسرار أنوار المشاهدات، (وفقد) القلب الإخلاص

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيهما السياق.

والصدق في الاعتقادات لا يجدي خيراً، ولا ينفع شيئاً - وإنما هي كما قال: ﴿عَايِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَأْعَمَةٌ﴾.

أي: مُتَنَعِمَةٌ، ذات نعمة ونضارة.

﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

حين وَجَدَتْ الثَّوَابَ عَلَى سَعْيِهَا، والقبول لها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها. هم بأبدانهم في درجاتهم، ولكن بأرواحهم.

مع الله في عزيز مناجاتهم.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾.

لأنهم يسمعون بالله؛ فليس فيها كلمة لغو.

قومٌ يسمعون بالله، وقومٌ يسمعون لله، وقومٌ يسمعون من الله، وفي الخير:

«كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمعُ وببي يُبصرُ»^(١).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

أراد عيوناً؛ لأن العين اسم جنس، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة.

ويقال: تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ لَهُ - اليوم - عيونٌ جارية بالبكاء، وغداً

لهم عيونٌ ناظرةٌ بحُكْمِ اللِّقَاءِ.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ وَزَوَائِبُ مَبْثُوثَةٌ﴾.

المنارِق المصفوفة في التفسير: الطنافس المبسوطة.

الزوايب المبثوثة في التفسير: البُسُط المتفرقة.

وإنما خاطبهم على مقادير فهمهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ وَصَفَ تِلْكَ السُّرُرَ الْمَرْفُوعَةَ الْمَشِيدَةَ قَالُوا: كَيْفَ يَصْعَدُهَا الْمُؤْمِنُ؟

فقال: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها

تنزل؟ فكَذَلِكَ تِلْكَ السُّرُرُ تَتَطَامَنُ حَتَّى يَرْكَبَهَا الْوَلِيُّ.

(١) رواية الحديث: «ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها،

وسمعه الذي يسمع به...» أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٤٧٧، ٩/٦١٠)، وابن

حجر في (فتح الباري ١١/٣٤١).

والحديث بالرسالة القشيرية ص ٣١٨ بغير هذه الرواية انظره.

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته - سبحانه.

فالقوم كانوا أصحاب البوادي لا يرون شيئاً إلا السماء والأرض والجبال والجمال... فأمرهم بالنظر في هذه الأشياء.

وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه؛ منها: ما في إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحمّل والركوب، ثم بنسليها، ثم بلحمها ولبنها ووبرها... ثم من سهولة تسخيرها لهم، حتى ليستطيع الصبي أن يأخذ بزمامها، فتتجر وراءه. والإبل تصبر على مقاساة العطش في الأسفار الطويلة، وهي تقوى على أن تحمّل فوق ظهورها الكثير من الحمولات... ثم جزأها إذا حقدت، واستروأحها إلى صوت من يحدوها عند الإعياء والتعب، ثم ما يُعَلّل المرء بما يناط بها من برّها^(١).

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾

لست عليهم بمسلط؛ فذكر - يا محمد - بما أمرناك به، فبذلك أمرناك.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾

إلا من تولى عن الإيمان وكفر فيعذبه الله بالخلود في النار.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾

إن إلينا رجوعهم، ثم نجازيهم على الخير والشر.

(١) الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) لم ترد.

سورة الفجر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّسِيمِ﴾ .

بسم الله كلمة ما استولت على قلب فقير فأفلقتة، وما تمكنت من سيرٍ مُتَيَّم فَشَتَّتْهُ، وما استولت على روح محبٍ فرحمته. كلمة قهارة للقلوب.. ولكن لا لكل قلب، كلمة لا سبيل لها لكل عقل، كلمة تكتفي من العابدين بقراءتهم لها، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببذل أرواحهم فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْفَجْرِ وَبِالْآيَاتِ عَشِيرٍ﴾ .

الفجرُ انفجارُ الصُّبح وهو اثنان: مستطيلٌ وقصير؛ ففي التفسير: إنه فجرُ المحرَّم لأنه ابتداء السنة كلها، وقيل: فجر ذي الحجة.

ويقال: هو الصخور ينفجر منها الماء.

ويقال: أقسم به لأنه وقتُ عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار.

﴿وَبِالْآيَاتِ عَشِيرٍ﴾ قيل: هي عشرُ ذي الحجة، ويقال: عشرُ المحرم؛ لأن آخرها عاشوراء. ويقال: العشرُ الأخيرة من رمضان.

ويقال: هي العشرُ التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ثم به ميعاده بقوله: ﴿وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشِيرٍ﴾ .

ويقال: هو «فجر» قلوب العارفين إذا ارتقوا عن حدِّ العلم، وأسفر صُبْحُ معارفهم، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان بما تجلَّى في قلوبهم من البيان.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ .

جاء في التفاسير: الشفْعُ يومُ النَّحْرِ^(١)، والوتر يوم عَرَفة.

ويقال: آدم كان وترًا فَشْفِعَ بزوجه حواء.

وفي خبر: إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفْع كصلاة الصُّبح.

ويقال: الشفْع الزوج من العَدَد، والوتر الفرْدُ من العدد.

(١) يوم النحر: اليوم العاشر من ذي الحجة لنحرهم فيه.

ويقال: الشفع تضادٌ أوصاف الخلق: كالعلم والجهل، والقدرة والعجز، والحياة والموت. والوتر انفرادٌ صفاتِ الله سبحانه عمَّا يضادُّها؛ علم بلا جهل، وقدرة بلا عجز، وحياة بلا موت.

ويقال: الشفعُ الإرادة والنية، والوتر الهمة؛ لا تكفي بالمخلوق ولا سبيل لها إلى الله - لتقدُّسه عن الوضيل والفضل.. فبقيت الهمة غريبةً.

ويقال: الشفع الزاهد والعابد، لأن لكل منهما شكلاً وقريناً، والوتر المرئد فهو كما قيل:

فريدٌ من الخِلالِ في كلِّ بلدةٍ إذا عَظَمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ
﴿وَأَتَّيْلُ إِذَا بَسَّرَ﴾

«يسري» يمضي.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ﴾.

«حِجْرٍ». لُبٌّ. وجوابُ القَسَمِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِذْ دَانَ الْعَمَادُ﴾.

ذكر^(١) قصص هؤلاء المتقدمين.. إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. أي: شدة العذاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

لا يفوته شيء.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا

مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَهُ عَلَيْهِ رِذْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾.

﴿فيقول ربي أكرمني﴾: أي: شكره.

﴿فقدَرَهُ عَلَيْهِ رِذْقَهُ﴾. أي: ضيق، ﴿فيقول ربي أهانني﴾. أي: أذلني. كلا..

ليس الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخذلانِ للعصيان.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾.

أي: أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة؛ فلا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ.

﴿وَلَا تَحْصُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاتِ أَكْلًا لَمًّا﴾.

لَمًّا. أي شديداً.

(١) الآيات من (٨ - ١٢) لم ترد.

﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ .

جمًا أي كثيراً .

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ .

أي: قامت القيامة .

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي الملائكة بأمره .

ويقال: يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

﴿وَسَاءَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَانِمْ يَوْمَيْهِمْ يَوْمَيْهِمْ يَنْدَسُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ .

يقال: تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام^(١) .

وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسان . . ولا يتفقه التذكرة، ولا يُقْبَلُ منه العذرُ .

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاثِي﴾ .

أي: أطعتُ ربِّي ونظرت لنفسي .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ .

أي: لا يعذبُ في الدنيا أحدٌ مثلما يعذبه الله في ذلك اليوم . . إذا قرئت الذال

بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح ﴿لا يعذب﴾ فالمعنى: لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا

الكافر .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ﴾ .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس .

ويقال: المطمئنةُ بالمعرفة: ويقال: المطمئنة بذكر الله .

ويقال: بالبشارة بالجنة . ويقال: النفس المطمئنة: الروح الساكنة .

﴿أَرْجِوْا إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً﴾ .

راضيةٌ عن الله، مُرْضِيَةٌ من قِبَلِ الله .

﴿فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي وَأَدْخِلْ جَنَّتِي﴾ .

أي: في عبادي الصالحين .

(١) تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده . . . أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين / ١٠)

سورة البلد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة تُخبر عن جلالِ أزلِّي، وجمالِ سرمدِّي، جلالِ ليس له زوال، وجمالِ ليس له انتقال، جلالِ لا بأغيارِ وأمثال، جمالِ لا بصورةٍ ومثال، وجلالِ وهو استحقاقه لجبروته وجمالِ وهو استيجابُه لملكوته، جلالِ مَنْ كاشَفَه به فأوصافُه فناء في فناء، وجمالِ مَنْ لاطَفَه به فأحواله بقاء في بقاء.

قوله جل ذكره: ﴿لَا أُقِيمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

أي: أقسم بهذا البلد، وهو مكة.

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

وإنما أُجِلَّتْ له ساعةٌ واحدةٌ.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾

كلُّ والِدٍ وكلُّ مولود. وقيل: آدم وأولاده.

وجواب القسم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

ويقال: أقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به.. ويَلَدُ الحبيبِ حبيبٌ.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

أي: في مشقة؛ فهو يقاسي شدائد الدنيا والآخرة.

ويقال: خَلَقَه في بطن أمه (منتصباً رأسه) فإذا أذِنَ اللهُ أن يخرج من بطن أمه تنكس رأسه عند خروجه، ثم في القِمَاطِ^(١) وشدُّ الرِّباطِ.. ثم إلى الصُّرَاطِ هو في الهياط والمِباط^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَيَسَّرَ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْكَ أَحَدٌ﴾.

أي: لقوته وشجاعته عند نفسه يقول:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾.

(١) القِمَاطُ: خرقة عريضة يُلَفُّ بها المولود (ج) أقمطة وقمط.

(٢) يقال: ما زال في هياط ومياط أي في ضجاج وشر وجلبة، وقيل: في دنو وتباعد. (لسان العرب

٤٢٤/٧ مادة: هيط).

﴿لِبَدَأِ﴾ كثيراً، في عداوة محمد ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.

أليس يعلم أن الله يراه، وأنه مُطَّلِعٌ عليه؟

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

أي: ألم نخلقه سمياً بصيراً متكلماً.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

ألهمناه طريق الخير والشر.

﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبٍ أَوْ

مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾.

أي: فهلاً اقتحم العقبة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ استفهام على التضمين لسانها.

ويقال: هي عَقَبَةٌ بين الجنة والنار يجاوزها مَنْ فَعَلَ ما قاله: وهو فكُّ رَقَبَةٍ؛

أي: إعتاق مملوك، والفكُّ الإزالة. وأطعم في يوم ذي مجاعةٍ وقحطٍ وشدةٍ يتيماً ذا

قربة، أو ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾: لا شيء له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصُوا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: من الذين يرحم بعضهم بعضاً.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

أي: أصحاب اليمين والبركة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّلَةٌ﴾.

هم المشائيم على أنفسهم، عليهم نارٌ مُطَبَّقةٌ؛ يعني أبواب النيران (عليهم مغلقة).

والعقبة التي يجب على الإنسان اقتحامها: نفسه وهواه، وما لم يَجُزْ تلك العقبة

لا يفلح و﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ هو إعتاق نفسه من رِقِّ الأغراض والأشخاص.

ويكون فكُّ الرقبة بأن يهدي مَنْ يَفْكُهُ - من رِقِّ هواه ونفسه - إلى سلامته من

شَحِّ نفسه، ويرجعه إليه، ويخرجه من ذلك.

ويكون فكُّ الرقبة بالتحرُّز من التدبير، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة

الرضاء.

ويقال: يطعم من كان في متربة ويكون هو في مسغبة^(١).

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي تكون خاتمة على ذلك.

(١) المتربة: الفقر الشديد والمسكنة، والمسغبة: المجاعة.

سورة الشمس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» إخبارٌ عن وجود الحق بنعتِ القَدَمِ. «الرحمن الرحيم»: إخبارٌ عن بقاءه بوصف العلاءِ والكَرَمِ.

كاشَفَ الأرواحَ بقوله: «بسم الله» فهَيَّمَهَا، وكاشَفَ النفوسَ بقوله: «الرحمن الرحيم» فَتَيَّمَهَا؛ فالأرواحُ ذَهَبَتْ فِي كَشْفِ جلاله، والنفوسُ عَطَشَتْ إِلَى لُطْفِ جماله.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾.

ضُحَا الشَّمْسِ صَدْرُ وَقْتِ طُلُوعِهَا.

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾.

أي: تَبِعَهَا؛ وذلك في النصف الأول من الشهر.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾.

إذا جَلَّى الشَّمْسَ وَكَشَفَهَا.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾.

أي: يَغْشَى الشَّمْسَ (فيذهب بضوئها).

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَّا﴾.

أي وبنائها. ويقال: وَمَنْ بَنَاهَا.

﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَعْنَاهَا﴾.

أي: وَطَعْنَاهَا. ويقال: وَمَنْ طَعْنَاهَا (أي بسطها أو قسمها أو خلقها).

﴿وَتَقْوِينَ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾.

ومن سَوَّى أجزائها وأعضاءها.

﴿فَأَمْسَاهَا جُجُورًا وَتَقَوَّيْنَاهَا﴾.

أي: بَانَ خَذَلَهَا وَوَفَّقَهَا.

ويقال: فجورها: حركتها في طلب الرزق، وتقواها: سكونها بِحُكْمِ القدير.

وقيل: طريق الخير والشر.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

هذا جواب القسم. أي «لقد أفلح من زكاهها».

ويقال: مَنْ زَكَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

أي: دسَّاهَا الله. وقيل: دسَّاهَا في جملة الصالحين وليس منهم.

وقيل: خاب مَنْ دَسَّ نَفْسَهُ بمعصية الله. وقيل دسَّاهَا: جعل خسيصةً حقيرةً.

وأصل الكلمة دسساها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانَهَا﴾.

﴿بِطَغْوَانَهَا﴾: لطغيانها، وقيل: إن صالحاً قد مات، فكفَّر قومُه، فأحياه اللهُ،

فدعاهم إلى الإيمان، فكذبوه، وسألوه علامةً وهي الناقة، فأتاهم صالح بما سألوا.

﴿إِذْ أَنْعَمْتَ أَشْقَاهَا﴾.

«أشقاها» عاقرها.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾.

أي: احذروا ناقةَ اللهِ، واحذروا سقياها: أي لا تتعرضوا لها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

أي كذبوا صالحاً، فعقروا الناقة.

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

أي: أهلكهم بجزمهم «فسواها»: أي أطبق عليهم العذاب.

ويقال: سَوَّى بينهم ربُّهم في العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

أي: أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة.

ويقال: قد أفلح مَنْ دَاوَمَ على العبادة، وخَابَ مَنْ قَصَرَ فيها.

وفائدة السورة: أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَهُ عن الذنوبِ والعيوبِ، ثم عن الأطماعِ

في الأعواضِ والأغراضِ، ثم أَبْعَدَ نَفْسَهُ عن الاعتراضِ على الأقسامِ، وعن ارتكابِ

الحرامِ. وقد خَابَ مَنْ خَانَ نَفْسَهُ، وأهملها عن المراعاةِ، ودَسَّاهَا بالمخالفاتِ؛ فلم

يرضَ بَعْدَمَ المعاني حتى ضَمَّ إلى قَفْرِها منها الدعاوى المظلمة. . . ففرقت في بحرِ

الشفاء سفينته.

سورة الليل

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة تُخْبِرُ عن إلهية الله؛ وهي استحقاقه لنعوتِ المجد والتوحد، وصفات العزِّ والتفرُّد؛ فَمَنْ تَجَرَّدَ في طَلْبِهِ عن الكسلِ، ولم يستوطن مركبَ العجزِ والفشلِ، ووضَعَ النظرَ موضِعَهُ وَصَلَ بِدليلِ العقلِ إلى عرفانه، وَمَنْ بَدَّلَ رُوْحَهُ وَنَفْسَهُ وَوَدَّعَ في الطلْبِ راحته وأنسه، ولم يُعَرِّجْ في أوطانِ الوقفة ظفر بحكم الوصل إلى شهود سلطانه، والناسُ فيه بين مُوقِّقٍ ومخذولٍ، أو مؤيِّدٍ ومردودٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾.

يغشى الأفق، وما بين السماء والأرض فيستره بظلمته.

والليل لأصحاب التحير يستغرق جميع أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشداً.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾.

أنازَ وظَهَرَ، ووضَحَ وأسفر.

ونهازُ أهلِ العرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم، حتى لا يَخْفَى عليهم شيء، فسكنوا بطلوع الشمس عن تكلف إيقاد السراج.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾.

أي: «من» خَلَقَ الذكر والأنثى؛ وهو الله سبحانه:

﴿إِن سَعَى لَشَقَّ﴾.

هذا جوابُ القَسَمِ، والمعنى: إنَّ عملكم لمختلف؛ فمنكم: مَنْ سَعَى في طلب دنياه، ومنكم مَنْ سَعَى في شهواتِ نَفْسِهِ واتباعِ هواه، ومنكم مَنْ سَعَى في شهواتِ، ومنكم مَنْ في طَلْبِ جاهِهِ ومُنَاه، وآخر في طلبِ عقباه، وآخر في تصحيح تقواه، وآخر في تصفية ذكراه، وآخر في القيام بحُسْنِ رضاه، وآخر في طلب مولاة.

ومنكم: من يجمع بين سعي النَّفْسِ بالطاعة، وسعي القلب بالإخلاص، وسعي البدن بالقرب، وسعي اللسان بذكر الله، والقول الحسن للناس، ودعاء الخلق إلى الله والنصيحة لهم.

ومنهم مَنْ سَعِيهِ فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ وَمَا فِيهِ هَلَاكُ دُنْيَاهُ . . . وَمِنْهُمْ . . . وَمِنْهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ من ماله، ﴿وَاتَّقَى﴾ مخالفةً ربّه . .

ويقال: ﴿أَعْطَى﴾ الإِنْصَافَ مِنْ نَفْسِهِ، ﴿وَاتَّقَى﴾ طَلَبَ الإِنْصَافِ لِنَفْسِهِ . .

ويقال: «اتقى» مَسَاحِطَ اللَّهِ . ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾: بِالْجَنَّةِ، أَوْ بِالكَرَّةِ الآخِرَةِ،

وَبِالْمَغْفِرَةِ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ، وَبِالْشَّفَاعَةِ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَبِالْمُخْلَفِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ . . .

فَسَنِيْرُهُ لِلْيُسْرَى: أَي نُسَهِّلُ عَلَيْهِ الطَّاعَاتِ، وَتُكْرَهُ إِلَيْهِ الْمَخَالَفَاتِ، وَتُشْهَى إِلَيْهِ

الْقُرْبَ، وَتُحِبُّ إِلَيْهِ الإِيمَانُ، وَتُرْزَى فِي قَلْبِهِ الإِحْسَانُ .

ويقال: الإِقامَةُ عَلَى طَاعَتِهِ وَالْعُودُ إِلَى مَا عَمَلَهُ مِنْ عِبَادَتِهِ .

﴿وَأَمَّا مَنْ يَبْغِلْ وَاسْتَفْتَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرُهُ لِلْمُسْرَى﴾ .

أما من مَنَعَ الْوَاجِبَ، وَاسْتَفْتَى فِي اعْتِقَادِهِ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى: أَي بِمَا ذُكِّرْنَا،

فَسَنِيْرُهُ لِلْمُسْرَى؛ فَيَقَعُ فِي الْمَعْصِيَةِ وَلَمْ يُدْبِرْهَا، وَنُوقِفَ لَهُ أَسْبَابُ الْمَخَالَفَةِ .

ويقال: «أعطى» أَعْرَضَ عَنِ الدَّارَيْنِ، «وَاتَّقَى» أَنْ يَجْعَلَ لِهَما فِي نَفْسِهِ مَقْدَاراً .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ .

يعني: إِذَا مَاتَ . . . فَمَا الَّذِي يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ .

لأوليانا، الَّذِينَ أَرشَدْنَا هُمْ . وَيَقَالُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ بِنَصِيْبِ الدَّلَائِلِ .

﴿وَلَنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ .

مُلْكاً، نَعْطِيهِ مِنْ نِشَاءِ .

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ .

أَي: تَلْظِي .

﴿لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْآسَفَى﴾ .

أَي: لَا يُعَدَّبُ بِهَا إِلَّا الْآسَفَى، وَهُوَ:

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ .

يعني: كَفَرَ .

﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآلَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ .

يُعْطَى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ .

ويقال يَتَطَهَّرُ من الذنوب .

ونزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه . والآية عامة .

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ .

حتى تكون هذه مكافأة له . ولا يفعل هذا لِيَتَّخِذَ عند أحدٍ يَدًا ، ولا يطلب منه
مكافأة :

﴿إِلَّا نِعْمَةً وَجُودِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ .

أي : ليتقرب بها إلى الله .

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ .

يَرْضَى اللهُ عنه ، ويرضى هو بما يعطيه .

سورة الضحى

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم لا يُشبهه كُفُو في ذاته وصفاته، ولا يستفزه لهُو في إثبات مصنوعاته، ولا يعتريه سهُو في علمه وحكمته، ولا يعترضه لُغُو في قوله وكلمته.

فهو حكيم لا يلهو، وعليم لا يسهو، وحليم يُثبِت ويمحو؛ فالصدق قَوْلُه، والحق حُكْمُه، والخلق خَلْقُه والمُلك مُلْكُه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

«والضحى»: ساعة من النهار. أو النهار كله يُسمَى ضُحَى. ويقال: أقسم بصلاة الضحى.

ويقال: الضحى الساعة التي كَلِم فيها موسى عليه السلام.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: ليلة المعراج، و«سجا»: أي سَكَن، ويقال: هو عامٌ في جنس الليل.

ويقال: «الضحى» وقت الشهود. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ الذي قال: إنه لِيُعَانَ على قلبي^(١).

ويقال: ﴿الليل إذا سجا﴾ حين ينزل اللُّهُ فيه إلى السماء الدنيا - على التأويل الذي يصحُّ في وصفه.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَنَ﴾.

ما قَطَعَ عنك الوحي وما أبغضك.

وكان ذلك حين تأخر جبريل - عليه السلام - عنه أياماً، فقال أهل مكة: إن محمداً قد قلاه ربه. ثم أنزل اللُّهُ هذه السورة.

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المستند ٤/ ٢١١ - ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥٢/٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (تحاف السادة المتقين ٥٧/٥، ٥٧/٨، ٢٩٩/٨، ٥١٧، ٥٩/٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٤٣/٢) (البغوي ٦/ ١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٦٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠١) والمثني الهندي في (كتر العمال ٢٠٧).

وقيل: احتبس عنه جبريل أربعين يوماً، وقيل: اثني عشر يوماً، وقيل: خمسة وعشرين يوماً.

ويقال: سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذي القرنين وأصحاب الكهف، فوَعَدَ الجوابَ ولم يقل: إن شاء الله.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

أي: ما يعطيك في الآخرة خيرٌ لك مما يعطيك في الدنيا.

ويقال: ما أعطاك من الشفاعة والحوض، وما يُلبَسُك من لباس التوحيد - غداً - خيرٌ مما أعطاك اليوم.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

قيل: أفترضى بالعطاء عن المُعْطِي؟ قال: لا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾.

قيل: إلى عمه أبي طالب.

ويقال: بل آواه إلى كَتَفِ ظِلِّهِ، ورباه بلطف رعايته.

ويقال: فأواك إلى بساطِ القربة بحيث انفردت بمقامك، فلم يُشَارِكْ فيه أحدٌ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾.

أي: ضللت في شعابِ مكة، فهَدَى إليك عمك أبا طالبٍ في حال صباك.

ويقال: «ضالاً» فينا متحيراً.. فهديناك بنا إلينا.

ويقال: «ضالاً» عن تفصيل الشرائع؛ فهديناك إليها بأن عرفناك تفصيلها.

ويقال: فيما بين الأقوام ضلالاً فهدهم بك.

وقيل: «ضالاً» للاستنشاء فهداك لذلك.

ويقال: «ضالاً» في محبتنا، فهديناك بنور القربة إلينا.

ويقال: «ضالاً» عن محبتي لك فعرفتك أنني أُحِبُّكَ.

ويقال: جاهلاً بمحلِّ شرفك، فعرفتُك قَدَرَك.

ويقال: مستتراً في أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

في التفسير: فأغناك بمال خديجة.

ويقال: أغناك عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفقْد.

ويقال: أغناك بالنبوة والكتاب. ويقال: أغناك بالله.

ويقال: أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداءً؛ بلا سؤالٍ منك.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

فلا تُخَفِّه، وارفق به، وقربنه.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

أي: إِمَّا أَنْ تُعْطِيَهُ . . . أَوْ تَرُدَّهُ بِرِفْقٍ، أو وعدٍ.

ويقال: السائلُ عتاً، والسائلُ المتحيرُ فينا - لا تنهرهم، فإننا نهديهم، ونكشف

مواضع سؤالهم عليهم . . . فلا طِفْهم أنت في القول.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

فاشكُرْ، وصرِّحْ بإحسانه إليك، وإنعامه عليك.

سورة ﴿الم نشرح﴾

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ لَكَ الصِّرَاطَ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ عزَّزَ مَنْ التَّجَا إِلَيْهِ، وَجَلَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَفَازَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ تَوَسَّلَ بِهِ إِلَيْهِ؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ قَرَّبَهُ وَمَنْ شَكَا إِلَيْهِ حَقَّقَ لَهُ مَطْلَبَهُ، وَمَنْ رَفَعَ قِصَّتَهُ إِلَيْهِ قَضَى مَآرِبَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

أَلَمْ نُوَسِّعْ قَلْبَكَ لِلْإِسْلَامِ؟ أَلَمْ نُثَبِّتْهُ لِلْإِيمَانِ؟
وَيَقَالُ أَلَمْ نُوسِعْ صَدْرَكَ بِنُورِ الرِّسَالَةِ؟ أَلَمْ نُوسِّعْ صَدْرَكَ لِقَبُولِ مَا نُوْرِدُ عَلَيْكَ.
﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ وَاللَّيْلَةَ أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

أي: إثمك قبل النبوة.

ويقال: عصمناك عن ارتكاب الوزر؛ فَوَضَعَهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْجِبْهُ قَطُّ.

ويقال: خففنا عنك أعباء النبوة وجعلناك محمولاً لا متحملاً.

ويقال: قويناك على التحمل من الخلق، وقويناك لمشاهدتنا، وحفظنا عليك ما استحففت، وحرسناك عن ملاحظة الخلق فيما شرفناك به.
﴿اللَّيْلَةَ أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أثقله، ولولا حملنا عنك لكسير.
﴿وَوَضَعْنَا لَكَ وِزْرَكَ﴾.

بِذِكْرِنَا؛ فَكَمَا لَا تَصِحُّ كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ إِلَّا بِي، فَإِنَّهَا لَا تَصِحُّ إِلَّا بِكَ.

ويقال: رفعنا لك ذكرك بقول الناس: محمد رسول الله!

ويقال: أثبتنا لك شرف الرسالة.

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وفي الخبر: «لن يغلب عُسْرُ يُسْرَيْنِ»^(١) ومعناه: أن العسر بالألف واللام في

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرک ٢/٥٢٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٤٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/٧١٢)، والطبري في (التفسير ٣٠/١٥١)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/١٠٧) والمجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢١٣)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٢).

الموضعين للعهد - فهو واحد، واليُسْر مُنْكَرٌ في الموضعين فهما شيثان. والعُسْر الواحد: ما كان في الدنيا، واليسران: أحدهما في الدنيا في الخصب، وزوال البلاء، والثاني في الآخرة من الجزاء وإذا فُعُسِرُ جميع المؤمنين واحد - وهو ما نابهم من شدائد الدنيا، وَيُسْرُهُم اثنان: اليوم بالكشْفِ والصَّرْفِ، وغداً بالجزاء.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَإِذَا فَرَّغْتَ فَانصَبْ﴾.

فإذا فَرَّغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانصَبْ في الدعاء.

ويقال: فإذا فرغت من العبادة فانصب في الشفاعة.

ويقال: فإذا فرغت من عبادة نَفْسِكَ فانصَبْ بقلبك.

﴿وَلَيْكَ رِيكَ فَارْغَبْ﴾.

في جميع الأحوال.

ويقال: فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب في الشفاعة.

سورة النين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

اسم «الله» يدلّ على جلالٍ مَنْ لم يَزَلْ، ويُخْبِرُ عن جمالٍ مَنْ لم يَزَلْ، يبنه على إقبالٍ مَنْ لم يَزَلْ، يشير إلى إفضالٍ مَنْ لم يَزَلْ؛ فالعارفُ شهد جلاله فطّاش، والصفويُّ شهد جماله فعاش، والوليُّ شهد إقباله فارتاش، والمريدُ يشهد إفضاله فلا يطلب مع كفايته المعاش .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ .

أقسم بالثنتين لما به من عظيم المِنَّةِ على الخَلْقِ حيث لم يجعل فيه الثوى، وخَلَصَهُ من شائب التنغيص، وجعله على مقدار اللُّقْمَةِ لتكمله به اللدّة . وجعل في «الزيتون» من المنافع مثل الاستصباح والتأدّم والاصطباغ به .
﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ .

الجبل الذي كَلَّمَ الله موسى عليه . ولموضع قَدَمِ الأحبابِ حُرْمَةً .

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ .

يعني: مكة، ولهذا البلد شرف كبير، فهي بلدُ الحبيب، وفيها البيت؛ ولبيتِ الحبيبِ وبلدِ الحبيبِ قَدْرٌ ومنزلة .

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ .

في اعتدال قامته، وحُسْنِ تركيب أعضائه . وهذا يدلّ على أن الحقّ - سبحانه - ليس له صورة ولا هيئة؛ لأنّ كلّ صفةٍ اشترك فيها الخَلْقُ والحقُّ فالمبالغة للحقّ . . . كالعلم، فالأعلمُ اللهُ، والقدرة: فالأقدرُ اللهُ فلو اشترك الخَلْقُ والخالقُ في التركيب والصورة لكانَ الأحسن في الصورة اللهُ . . . فلما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ عَلِمَ أَنَّ الْحَقَّ - سبحانه - مُتَرْتَبٌ عَنِ التَّقْوِيمِ وَعَنِ الصُّورَةِ .

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ .

أي: إلى أرذل العمر وهو حال الخَرْفِ^(١) والهَرَمِ .

(١) الخَرْفُ: فساد العقل من الكبير أو المرض .

ويقال: ﴿أَسْفَلَ سَفِينٍ﴾: إلى النار والهاوية في أفبح صورة؛ فيكون أول الآية عامًا وآخرها خاصًا بالكفار.. كما أن التأويل الأول - الذي هو حال الهَرَم - خاص في البعض؛ إذ ليس كل الناس يبلغون حال الهَرَم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أي: غير منقوص.

ويقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَفِينٍ﴾ أي: إلى حال الشقاوة والكفر إلا المؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾.

أيها الإنسان.. مع كل هذا البرهان والبيان؟

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

سورة العلق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها يوجب أحد أمرين: «إِمَّا صَحْوًا وَإِمَّا مَحْوًا؛ صحواً لِمَنْ سمعها بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه، أو محواً لمن سمعها بشاهد المعرفة لأنه يتحير في جلال سلطانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

هذه السورة من أول ما نزل على المصطفى ﷺ لما تعرّض له جبريل في الهواء، ونزل عليه فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. فالناس كلهم يريدون - وهو ﷺ كان مُراداً. فاستقبل الأمر بقوله: «ما أنا بقارىء»، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، فقال له: «اقرأ كما أقول لك؛ ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾»^(١) أي خلقهم على ما هم به.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

العَلَق جمع عَلَقَة؛ كشجر وشجرة.. (والعَلَقَةُ الدمُّ الجامد فإذا جرى فهو المسفوح).

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

«الأكرم»: أي الكريم.

ويقال: الأكرم من كلِّ كريم.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

عَلَّمهم ما لم يعلموا: الضروري، والكسبي.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/١٣، ٦/٢٠٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٨/٥٩، ٩/٣٧)، ومسلم في (الصحيح الإيمان ب٧٣ رقم ٢٥٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/٥١، ٩/٦)، وعبد الرزاق في (المصنف ٩٧١٩)، (البغوي ٧/٢٦٨)، والحاكم في (المستدرک ٣/١٨٣)، والبغوي في (شرح السنة ١٣/٣١٧)، وأبو عوانة في (المسند ١/١١٠)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/١٣٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/٣٦٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/٢٢، ٨/٧١٥)، وأبو نعيم في (دلائل النبوة ١/٦٨)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/١١٨) وابن كثير في (التفسير ٨/٤٥٨).

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾ .

أي: يتجاوز جَدَّهُ إذا رأى في نفسه أنه استغنى؛ لأنه يَغْمَى عن مواضع افتقاره .
ولم يقل: إن استغنى بل قال: ﴿أَنْ رَّاهُ اسْتَفْتَحَ﴾ فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه، وكان مشاهداً لمحلِّ افتقاره - لم يكن طاعياً .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ .

أي: الرجوع يوم القيامة .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ .

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له؟ ففي الآية هذا الإضمار .

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْمَذْخَةِ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ﴾ .

لكان خيراً له؟

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ . كذّب بالدين، وتولّى عن الهداية .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ .

أي: ما الذي يستحقّه مَنْ هذه صفته؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة - وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ حَالَ المراقبة لم يَزْتَقِ منه

إلى حال المشاهدة .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَرَّهْتَهُ لَشَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِلَةٍ﴾ .

لنأخذن بناصرته (وهي شَعْرُ مُقَدِّمِ الرَّأْسِ) أخذٌ إذلالٍ . ومعناه لَشَوَدَنُ وَجْهَهُ .

وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِلَةٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿لَشَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ .

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَدَّحُ الزَّيْبَانِيَةِ﴾ .

فليدعُ أهل ناديه وأهل مجلسه، وسندعو الزبانية ونامرهم بإهلاكه .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

أي: اقترب من شهود الربوبية بقلبك، وقف على بساط العبودية بتفمسك .

ويقال: فاسجدُ بنفسك، واقتربُ ببيرك .

سورة القدر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة تُخَضِّرُ قلوبَ العلماءِ لتأملِ الشواهد، وتُشكِّرُ قلوبَ العارفين إذا وردوا المشاهد... فهؤلاء أحضرهم قَبَضَهم، وعلى استدلالهم نصرهم.

وهؤلاء بشرابِ محابته أسكَّرَهم، وفي شهودِ جلاله خَيَّرَهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

في ليلةِ قَدَرٍ فيها الرحمةُ لأولياته، في ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدَرَ نفوسِهِم، ويشهد فيها العارفون قَدَرَ معبودِهِم... وشتان بين وجودِ قَدَرٍ وشهودِ قَدَرٍ! فلهؤلاء وجودُ قَدَرٍ ولكن قدر أنفسهم، ولهؤلاء شهودِ قَدَرٍ ولكن قدر معبودِهِم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

استفهامٌ على جهة التفتيح لشأن تلك الليلة.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

أي: هي خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر. هي ليلةٌ قصيرةٌ على الأحياب لأنهم فيها في مسامرةٍ وخطاب... كما قيل:

يا ليلة من ليالي الدهرِ قابلت فيها بذرها بِبَذْرِ

ولم تكن عن شَفَقِي وَفَجْرِ حتى تولت وهي بَكْرُ الدهرِ

قوله جل ذكره: ﴿نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَّلَعِ

الْفَجْرِ﴾.

﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾: قيل جبريل. وقيل: ملكٌ عظيم.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: أي بأمر ربهم.

﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَّمَ﴾: أي مع كل مأمورٍ منهم سلامي على أوليائني.

﴿هِيَ حَتَّى مَطَّلَعِ الْفَجْرِ﴾: أي هي باقية إلى أن يطلع الفجر.

سورة البينة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله»: اسم عزيز تنصّل إليه المذنبون فعفّر لهم وجبرهم: وتوسّل إليه المطيعون فوصلهم ونصّرهم .

تعرّف إليه العالمون فبصّرهم، وتقرّب منه العارفون فقرّبهم... لكنه - سبحانه - في جلاله خيرهم .

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ .

«منفكين»: منتهين عن كفرهم حتى تأتيهم البيئنة: وهي رسول الله ﷺ، أي لم يزالوا مجتمعين على تصديقه؛ لما وجدوه في كتبهم إلى أن بعثه الله تعالى . فلما بعثه حسدوه وكفروا .

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ .

أي حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كتباً مطهّرة عن تبديل الكفار .

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ : مستوية ليس فيها اعوجاج .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ .

يعني: القرآن .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أُرِيدُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ .

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي موحدين لا يشركون بالله شيئاً؛ فالإخلاص ألا يكون شيء من حركاتك وسكناتك إلا لله .

ويقال: الإخلاص تصفية العمل من الخلل .

«حنفاء»: مائلين إلى الحق، عادلين عن الباطل .

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ... وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ : أي دين الملة القيمة، والأمة القيمة،

والشريعة القيمة .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مقيمين. ﴿الْبَرِيَّةِ﴾: الخليفة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

أي: خير الخلق، وهذا يدل على أنهم أفضل من الملائكة.

قوله جل ذكره: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

﴿جَزَاءُهُمْ﴾: أي ثوابهم في الآخرة على طاعتهم.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها الأنهار.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

فلم تبق لهم مطالبة إلا حَقَّقَهَا لَهُمْ.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

أي: خافه في الدنيا.

والرضا سرور القلب بمر القضا.

ويقال: هو سكون القلب تحت جريان الحكم.

سورة الزلزلة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» كلمة من تأملها بمعانيها ووقف على ما أودع فيها رتعت أسرارها في رياض من الأتس موبقة، وأينعت أفكاره بلوائح من اليقين مشرقة، فهي على جلال الحق شاهدة، وهي على ما يحيط به الذكر ويأتي عليه الحضر زائدة.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَامًا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْعَالَهَا﴾ .

أي: أمواتها، وما فيها من الكنوز والدفائن.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ .

يعني الكافر الذي لا يؤمن بها أي بالبعث.

﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَنْبَارَهَا﴾ .

يومئذ تخبر الأرض:

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ .

أي: إنما تفعل ذلك بأمر الله.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ .

﴿أَشْتَاتًا﴾ : متفرقين. ﴿لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ ليحاسبوا.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرًّا يَرَهُ﴾ .

فيقاسي عناءه.

سورة العاديات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الزَّيَّاتِ﴾.

«بسم الله» كلمة غيور لا يضلح لذكرها إلا لسان مصون، عن اللغو والغيبة، ولا يصلح لمعرفةا إلا قلب محروس عن الغفلة والغيبة^(١) ولا يصلح لمحبتها إلا روع محفوظة عن العلاقة والحجة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمَدْيَنَاتِ صَبَا﴾.

﴿وَالْمَدْيَنَاتِ﴾: الخيل التي تعدو^(٢).

﴿صَبَا﴾ أي إذا صبحن صباحاً، والضبغ: هو صوت أجوافها إذا عدون. ويقال: صبها هو شدة نفسيها عند العدو.

وقيل: ﴿وَالْمَدْيَنَاتِ﴾؛ الإبل.

وقيل: أقسم الله بأفراس الغزاة.

﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَا﴾.

تورى بحوافرها النار إذا عدت وأصابت سنايكها^(٣) الحجارة بالليل.

ويقال: الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب.

ويقال: هي الأسيئة.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبَا﴾.

تغير على العدو صباحاً.

﴿فَأَنْزَنَ بِهِ نَعْمَا﴾.

أي: هيخن به غباراً.

﴿فَوَسَطَنَ بِهِ جَمْعَا﴾.

أي: توسطن المكان، أي: تتوسط الخيل بفوارسها جمع العدو.

(١) انظر حديث القشيري عن الغيبة برسائه ص ٦٩، ٧٠.

(٢) العدو: الجري. (٣) السنايك: (ج) السنيك: طرف مقدم الحافر.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ .

هذا هو جواب القسم .

﴿لَكَنُودٌ﴾ : أي لكفور بالنعمة .

﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَٰهِدٌ﴾ .

أي : وإنه على كنوده لشهيد .

﴿وَإِنَّكُمْ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ .

أي : وإنه لبخيل لأجل حب المال .

قوله جل ذكره : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ .

أي : بُعث الموتى .

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ .

يُنَّ ما في القلوب من الخير والشر .

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ .

أفلا يعلم أن الله يجازيهم - ذلك اليوم - على ما أسلفوا، ثم قال على

الاستئناف : ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ .

ويقال في معنى الكنود: هو الذي يرى ما إليه من البلوى، ولا يرى ما هو به من

النعمى .

ويقال : هو الذي رأسه على وسادة النعمة، وقلبه في ميدان الغفلة .

ويقال : الكنود : الذي ينسى النعم ويعتد المصائب .

وقوله : ﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَٰهِدٌ﴾ ، يحتمل : وإن الله على حاله لشهيد .

سورة القارعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» كلمة إذا سمعها العاصون نُسُوا زَلَّتْهُمْ فِي جَنبِ رَحْمَتِهِ، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتْهم في جنب إلهيته .

كلمة مَنْ سمعها ما غادرت له شُغلاً إِلَّا كَفَّتْهُ، ولا أمراً إِلَّا أصلحته، ولا ذنباً إِلَّا غَفَرْتَهُ، ولا أريباً إِلَّا قَضَتْهُ .

قوله جل ذكره: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ .

القارعة: اسمٌ من أسماء القيامة، وهي صيغة «فاعلة» من القَرع، وهو الضرب بشدة . سُميت قارعة لأنها تفرعهم .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ .

تهويلاً لها .

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ .

أي: المُنْفَرَق . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضاً .

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ .

أي: كالصوف المصبوغ .

والمعنى فيه: أن أصحاب الدعاوى وأرباب القوة في الدنيا يكونون - في القيامة

إذا بُعِثُوا - أضعف من كل ضعيف؛ لأن القوى هنالك تسقط، والدعاوى تَبْطُلُ .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ .

مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بالخيرات فهو في عيشة راضية؛ أي مَرْضِيَةٍ .

ووزن الأعمال يومئذ يكون بوزن الصحف . ويقال: يخلق بَدَلٌ كُلُّ جِزءٍ مِنْ

أفعاله جوهراً، وتوزن الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ .

مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ مِنَ الطاعات - وهم الكفار - فأواه هاوية .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ هَأُتَى حَامِيَةٌ﴾ .

سؤال على جهة التهويل . ولم يرد الخبر بأن الأحوال توزن، ولكن يُجَازَى كُلُّ

بحالته مما هو كَسَبَ له، أو وَصَلَ إِلَى أسبابها بكَسْبٍ مِنْهُ .

سورة النكاثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ تقدّسَ في آزاله عن كل مكان، ولم يَحْتَجْ في آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان؛ لا يقطعه حدٌّ فأنتى يجوز في وَضْفِهِ المكان؟ ولا يقطعه عَدُّ فأنتى تجوز في وَضْفِهِ الزيادة والنقصان؟

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلْهَنَكُمْ الْكَأَثُ حَتَّى زِدْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

أي: شَغَلَكُم تَفَاخُرُكُمْ فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أنْ يَمُتَ.

ويقال: كانوا يفتخرون بأبائهم وأسلافهم؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء، وبمن مضى من أسلافهم.

فقال لهم: شَغَلَكُم تَفَاخُرُكُمْ فيما بينكم حتى عَدَدْتُم أَمْوَاتِكُمْ مع أحيائِكُمْ. وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةً الله.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

على جهة التهويل.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

أي: لو علمتم حقّ اليقين لارتدعتم عما أنتم فيه من التكذيب.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُنْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

أراد جميع ما أعظاهم الله من النعمة، وطالبهم بالشكر عليها.

ومن النعيم الذي يُسألُ عنه العبد تخفيفُ الشرائع؛ والرُّخْصُ في العبادات.

ويقال: الماء الحار في الشتاء، الماء البارد في الصيف.

ويقال: منه الصِّحَّةُ في الجسد، والفراغ.

ويقال: الرضاء بالقضاء. ويقال: القناعة في المعيشة.

ويقال: هو المصطفى ﷺ.

سورة العصر

قوله جل ذكره: ﴿يَسِّرْ لَنَا الْيُسْرَى﴾.

كلمة مَنْ سَمِعَهَا لم يَدْخُرْ عنها مَالَهُ؛ لأنه عَلِمَ أنه - سبحانه - يُحْسِنُ مَالَهُ، وَمَنْ عَرَفَهَا لم يُؤْتِرْ عليها نَفْسَهُ؛ لأنه لم يجد بدونها أَنَسَهُ.

كلمة مَنْ صَحِبَهَا لم يمنع عنها رَوْحَهُ؛ إذ وَجَدَ الحياةَ الأبديةَ له ممنوحة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

﴿العصر﴾: الدهر - أقسم به.

ويقال: أراد به صلاة العصر. ويقال: هو العشي.

﴿الْإِنْسَانُ﴾: أراد به جنس الإنسان. «والخسر»: الخسران.

والمعنى: إن الإنسان لفي عقوبةٍ من ذنوبه. ثم استثنى المؤمنين فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الذين أخلصوا في العبادة وتواصوا بما هو حق، وتواصوا بما هو حسنٌ وجميلٌ، وتواصوا بالصبر.

وفي بعض التفاسير: قوله: ﴿الذين آمنوا﴾ يعني أبا بكر، ﴿وعملوا الصالحات﴾: يعني عمر.

و ﴿تواصوا بالحق﴾ يعني عثمان، و ﴿تواصوا بالصبر﴾ يعني علياً - رضي الله عنهم أجمعين.

والخسران الذي يلحق الإنسان على قسمين: في الأعمال ويتبين ذلك في المال، وفي الأحوال ويتبين ذلك في الوقت والحال؛ وهو القبض بعد البسط، والحجبة بعد القرية، والرجوع إلى الرخص بعد إيثار الأثق والأولى.

﴿وتواصوا بالحق﴾: وهو الإيثار مع الخلق، والصدق مع الحق.

﴿وتواصوا بالصبر﴾: على العافية... فلا صبرَ أتم منه.

ويقال: بالصبر مع الله.. وهو أشدُّ أقسام الصبر^(١).

(١) انظر حديث القشيري عن الصبر برسالة ص ١٨٣ - ١٨٩.

سورة الهمزة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ مَنْ لا غَرَضَ له في أفعاله، اسمٌ من لا عِوَضَ عنه في جلاله وجماله. اسمٌ مَنْ لا يَصِيرُ العبدُ عن مختاراً، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ الفقير من دونه قَراراً، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكْمِهِ فراراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

يقال: رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ: أي كثيرُ الهَمْزِ واللُّمَزِ للناس وهو العيب والغيبة.
ويقال: الهَمْزَةُ الذي يقول في الوجه، واللُّمَزَةُ الذي يقول مِنْ خَلْفِهِ.
ويقال: الهَمْزُ الإِشَارَةُ بالرأس والجَفْنِ وغيره، واللُّمَزُ باللسان.
ويقال: الهَمْزَةُ الذي يقول ما في الإنسان، واللُّمَزَةُ الذي يقول ما ليس فيه.
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.

«جمع» بالتشديد على التكثير، وبالتخفيف.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.

أي: يَتَبَيَّنُهُ في الدنيا. . . كَلَّا ليس كذلك:

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾.

لِيَطْرَحَنَّ فِي جَهَنَّمَ. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ؟﴾ على جهة التهويل لها.

فهم في نار الله الموقدة التي يبلغ ألمها الفؤاد.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾.

مُطَبَّقَةٌ.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

«عمد»: جمع عماد. وقيل: إنها عُمُدٌ من نارٍ مُمَدَّدَةٌ وتُضْرَبُ عليهم؛ كقوله:

﴿أَحَاطَ بِهِنَّ سُرَادِقُهُنَّ﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقال: الغنى بغير الله فقراً، والأئس بغيره وخشّة، والعز بغيره ذلّ.
ويقال: الفقير من استغنى بماله، والحقير: من استغنى بجاهه، والمفلس: من استغنى بطاعته، والذليل: من استغنى بغير الله، والجليل: من استغنى بالله.
ويقال: بيّن أن المعرفة إذا اتقدت في قلب المؤمن أحرقت كلّ سنؤل وأرب فيه، ولذلك تقول جهنهم - غداً - للمؤمن: «جز، يا مؤمن . . فإن نورك قد أطفأ لهبي»!

سورة الفيل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ غيبيٌّ من أطاعةٍ أغناه، ومن خالفه أضلّه وأعماه.

اسمٌ عزيزٌ من وافقه رَفَاهُ إلى الرتبة العليا، ومن خالفه ألقاه في المحنة الكبرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

أَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَيْكَ فيما أنزل عليك عِلْمٌ ما فَعَلَ رَبُّكَ بأصحاب الفيل؟:

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيص اللّه البيت العتيق^(١) بالحفظ والكلاءة^(٢). وذلك: أن أبرهة^(٣) - ملك اليمن - كان نصرانياً، وبنى بيعة لهم بصنعاء، وأراد هدم الكعبة ليصرف الحج إلى بيعتهم.

وقيل: نزل جماعة من العرب ببلاد النجاشي، وأوقدوا ناراً لحاجة لهم، ثم تغافلوا عنها ولم يُطْفِئوها، فهبّت الرياح وحملت النار إلى الكنيسة وأحرقتها، فقصد أبرهة الكعبة ليهدمها بجيشه.

فلما قرب من مكة أصاب مائتي جملٍ لعبد المطلب، فلما أخبر بذلك ركب إليهم، فعرفه رجلاً، فقال له:

ارجع.. فإن الملك غضبان.

فقال: واللات والعزى لا أزعج إلا بإبلي.

فقيل: لأبرهة: هذا سيّد قريش ببابك؛ فأذن له، وسأله عن حاجته؛ فأجاب

أبرهة: إنها لك غداً، إذا تقدّمت إلى البيت.

فعاد عبد المطلب إلى قريش، وأخبرهم بما حدث، ثم قام وأخذ بحلقه باب

الكعبة، وهو يقول:

(١) البيت العتيق: الكعبة.

(٢) الكلاءة: الحراسة والحفظ.

(٣) هو أبرهة بن الصباح من ملوك اليمن في الجاهلية، حبشي لا صلة له بالعرب، ذكر ابن الأثير - في

خبر الفيل - أنه حين تكلم مع عبد المطلب كان بينهما ترجمان.

الأعلام ٨٢/١.

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمُ نَعُ رَخَلَهُ فَا مَنَعُ حَلَالِكُ
لَا يَسْغَلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ عَذْوًا مِحَالِكُ
إِنْ يَدْخُلُوا الْبَلَدَ الْحَرَا مَ فَا مَرُّ مَا بَدَالِكُ
فَأرسل اللّهُ عليهم طيراً أخضرَ من جهة البحر طِوَالَ الأعناق، في مناقر كل طائرٍ حَجَرٍ وفي مخليه حجران .

قيل : الحَجْرَةُ منها فوق العدس دون الحمص .

وقيل : فوق الحمص دون الفستق، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها .

وقيل : مُحَطَّطَةٌ بالسّواد . فَا مُطِرَتْ عليهم، وماتوا كُلُّهم .

وقيل : كان الفيلُ ثمانية؛ وقيل : كان فيلاً واحداً .

وفي رواية : إنه كان قبل مولده ﷺ بأربعين سنة .

وقيل : بثلاثة وعشرين سنة . وفي رواية «وُلِدْتُ عَامَ الْفِيلِ»^(١) .

قوله جلّ ذكره : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّن دُونِهَا أَنْبِيَاءَ وَيَضَلُّ السَّيْلَ﴾ .

أي : مَكَرَهُمْ فِي إِبْطَالِ .

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ .

﴿أَبَابِيلَ﴾ : مَجْمَعَةٌ وَمَتَفَرِّقَةٌ .

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ .

قيل بالفارسية : سَنُكَلٌ أَوْ كُكَلٌ - أَي طِينٌ طَبِيخٌ بِالنَّارِ كَالْأَجْرِ .

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْعُكُلِ﴾ .

﴿كَعَصِفٍ﴾ : كَأَطْرَافِ الزَّرْعِ قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَ . «مَأْكُولٌ» أَي ثَمَرَةٌ مَأْكُولٌ .

ويقال : إِذَا كَانَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ - وَهُوَ كَافِرٌ - أَخْلَصَ فِي التَّجَانُّهِ إِلَى اللَّهِ فِي

اسْتِدْفَاعِ الْبَلَاءِ عَنِ الْبَيْتِ - فَاللَّهُ لَمْ يُخَيِّبْ رَجَاءَهُ . . . وَسَمِعَ دُعَاءَهُ . . . فَالْمُؤْمِنُ

الْمُخْلِصُ إِذَا دَعَا رَبَّهُ لَا يَرُدُّهُ خَائِبًا .

ويقال : إِنَّمَا أُجِيبَ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا لِأَجْلِ الْبَيْتِ . . . وَمَا كَانَ اللَّهُ

لَا يَضِيعُ .

(١) أخرجه الترمذي (مناقب، ٢)، وأحمد بن حنبل ٢١٥/٤ .

سورة قريش

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ آفَةِ الْقُرَيْشِ النَّبِيِّ﴾.

«بسم»: الباء في «بسم» تشير إلى براءة سيرّ الموحدّين عن حسابان الجدثان^(١)، وعن كلّ شيءٍ ممّا لم يكن فكان، وتشير إلى الانقطاع إلى اللّه في السّراء والضراء، والشّدّة والرّخاء.

والسين تشير إلى سكونهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب.

والميم تشير إلى مئة اللّه عليهم بالتوفيق لِمَا تحقّقوا به من معرفته، وتخلّقوا به من طاعته.

قوله جل ذكره: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِذْ يُلَافُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.

«الإيلاف»: مصدر آلف، إذا جعلته يألف. وهو آلف ألفاً.

والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافٍ قريشٍ، أي ليألفوا رحلتهم في الشتاء والصيف.

وكانت لهم رحلتان للامتياز^(٢): رحلة إلى الشام في القيظ^(٣)، ورحلة إلى اليمن في الشتاء والمعنى: أنعم اللّه عليهم بإهلاكٍ عدوهم ليؤلّفهم رحلتهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ كأنه أعظمّ المنة عليهم وأمرهم بالعبادة:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾.

فليعبدوه لِمَا أنعم به عليهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ بعد ما أصابهم من القحط حينما دعا عليهم الرسول ﷺ^(٤).

(١) الجدثان: حدثان الأمر والشباب: أوله وابتدأه.

(٢) امتار لأهله: تطلب لهم الميرة، أتاهم بالميرة وهي الطعام من الحب والقوت.

(٣) القيظ: شدة الحر أو صميم الصيف.

(٤) قال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/٢٣، ٨/٥٥ -

﴿وَأَمَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ .

حين جعلَ الحرَمَ آمناً، وأجازهم من عدوهم .

ويقال: أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .

وَوَجْهِ المِنَّةِ في الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله؛ فَإِنَّ مَنْ لم يكن مكفياً الأمور لا يتفرَّغ إلى الطاعة، ولا تساعد القوة ولا القلبُ - إلا عند السلامة بكلِّ وجهٍ وقد قال تعالى:

﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِثِقَلٍ مِّنَ اللَّحْمِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فقدَّم الخوف على جميع أنواع

البلاء .

= (١٠٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢/١٩٨)، وابن كثير في (التفسير ٢/٣٤٤) والقرطبي في (التفسير ٣/٢٦٤، ٧/٢٦٣، ٢٠/٢٠٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٥٨٠، ١١/١٩٤).

سورة الدين

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» كلمة سماعها غذاء أرواح المحييين، ضياء أسرار الواجدين، شفاء قلوب المتئمين؛ بلاء مهج المساكين، دواء كل فقير مسكين .

قوله جل ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾ .

نزلت الآية على جهة التوبيخ، والتعجب من شأن تظلم اليتيم من الكفار .

فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾ ، وبالْحَسَابِ وَالْجِزَاءِ؟

﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ .

يدفعه بجفوة، ويقال: يدفعه عن حقه .

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ .

أي: لا يحث على إطعام المسكين، وإنما يدع اليتيم؛ لأن اللّه تعالى قد نزع الرحمة من قلبه «ولا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي»^(١) .

وهو لا يحث على طعام المسكين، لأنه في شح نفسه وأمر بخله .

قوله جل ذكره: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ

يُرَآهُنَّ﴾ .

السَّاهِي عَنْ الصَّلَاةِ الَّذِي لَا يُصَلِّي . ولم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون . .

ولو قال ذلك لكان الأمر عظيمًا .

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ١٩٢٣)، وأبو داود في (السنن ٤٩٤٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣١٠/٢، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٣/٢)، والبخاري في (الأدب المفرد ٣٧٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣٣٩/٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٦٨)، والمنذري في (الترويب والترهيب ٢٠٣/٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٩٧٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٧٨/١١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٨٣/٧)، والمجلوني في (كشف الخفا ٥٢٧/٢) .

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرْكَعُونَ﴾: أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس - لا إخلاص لهم.
 ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

الماعون: مثل الماء، والنار، والكلأ، والفأس، والقِذْر وغير ذلك من آلة البيت.
 ويدخل في هذا: البُخْلُ، والشُّحُّ بما ينفع الخَلْقَ مما هو مُمَكِّنٌ ومُسْتَطَاعٌ.

سورة الكوثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجلُّ هو إلا باستحقاقِ عُلُوِّه في آزاله .
اسمٌ عزيزٌ أعزُّ مَنْ شاءَ بأفضاله وإقباله؛ وأذلُّ أعداءه بسلاسله وأغلاله، والتخليدُ
في جحيمه وأنكاله .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ .

﴿الْكَوْثَرَ﴾: أي الخبر الكثير . ويقال: هو نهرٌ في الجنة .

ويقال: النبوة والكتاب . وقيل: تخفيف الشريعة .

ويقال: كثرة أمته .

ويقال: الأصحاب والأشياء . ويقال: نورٌ في قلبه .

ويقال: معرفته بربوبيته .

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ .

أي صلِّ صلاة العيد ﴿وَأَنْحَرْ﴾ التُّسُك .

ويقال: جمع له في الأمر بين: العبادة البدنية، والمالية .

ويقال «وانحر» أي استقبل القبلة بنحرك . أو ارفع يديك في صلاتك إلى نحرك .

ويقال: ضغ يمينك على يسارك في الصلاة واجعلها تحت نُحْرِكَ .

﴿إِنَّكَ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ .

أي: لا يُذَكَّرُ بخيرٍ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير .

سورة الكافرون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من آمن بها آمن من زوال النعمى، وحظي بنعيم الدنيا والعقبى، وسعد سعادة لا يشقى، ووجد ملكاً لا يفنى، وبقي في العز والعلو.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَكْفُرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

من أصنامكم:

﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

«ما» أعبد أي «من» أعبد.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾.

في زمانكم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

كرّر اللفظ على جهة التأكيد.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

أي: لكم جزاؤكم على دينكم، ولي الجزاء على ديني.

والعبودية^(١) القيام بأمره على الوجه الذي به أمر، وبالقدر الذي به أمر، وفي

الوقت الذي فيه أمر.

(١) القشيري هنا يشير إلى العبودية لكن الآيات تتحدث عن العبادة لكن هناك صلة وثيقة بينهما وبين العبادة وهذا يتضح من خلال حديث القشيري بالرسالة عن العبودية قال: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبودية أتم من العبادة فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة، فالعبادة للعوام المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخواص الخواص وسمعت يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له حق عين اليقين، والعبودة لمن حق اليقين وسمعت يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابذات، والعبودة صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يرض عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة. (الرسالة القشيرية ص ١٩٧، ١٩٨).

ويقال: صِدْقُ العبودية في تَرْكِ الاختيار، ويظهر ذلك في السكون تحت
تصاريف الأقدار من غير انكسار.
ويقال: العبودية انتفاء الكراهية بكلِّ وجهٍ من القلب كيفما صَرَّفَكَ مولاك.

سورة النصر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ كريمٌ يُبْصِرُ وَيَسْتُرُ، وَيَعْلَمُ وَيَخْلُمُ، ويمدح ولا يُفْضَحُ، ويعفو عن جميع ما يجترم العبدُ ويصفح؛ يَغْضَى العبدُ على التوالي، وَيَغْفِرُ الحقُّ ولا يُبالي.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ، و﴿الفتح﴾ فتح مكة.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

يُسْلِمُونَ جماعاتٍ جماعاتٍ.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾.

أَكْثِرْ حَمْدَ رَبِّكَ، وصلِّ له، وَقَدِّسه.

ويقال: صَلِّ شكراً لهذه النعمة.

﴿وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ وسَلِّ مغفرتَه.

﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ تَوَابًا﴾.

لِمَنْ تاب؛ فإنه يقبل توبته.

ويقال: نصره الله - سبحانه - له بأن أفناه عن نَفْسِهِ، وأبعد عنه أحكامَ البشرية، وصفَّاه من الكدورات النفسانية. وأما «الفتح»: فهو أن رَقَّاه إلى محلِّ الدنو، واستخلصه بخصائص الزلقة، وألبسه لباسَ الجمع، واصطلمه عنه، وكان له عنه، ولنَفْسِهِ - سبحانه - منه، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلِ من أسرارِ الحقِّ، وعَرَّفَه - من كمال معرفته به - ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشاً إليه.

سورة المسد

قوله جل ذكره: ﴿يَسِّرْ لَنَا الْيُسْرَى﴾.

«بسم الله» كلمة جبارة للمذنبين، تجبر أعمالهم، وتحقق آمالهم، وهي للعارفين تُصغّر في أعينهم أحوالهم، وتُكَمِّل - عن شواهدهم - امتحاءهم واستئصالهم، وتحقق لهم - بعد فنائهم عنهم - وصالهم.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

أي: خَسِرَتْ يداه.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

ما أغنى عنه ماله ولا كسبه الخبيث - شيئاً.

وقيل: ﴿ما كسب﴾: ولذّه.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

يلزمها إذا دخلها؛ فلا براخ له منها. وامراته أيضاً ستصلى النار معه.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

«مسد» شيء مفتول، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريق رسول الله عليه

الصلاة والسلام.

ويقال: سُخِّقاً لِمَنْ لَا يَعْرِفُ قُدْرَكَ - يا محمد. وُبُعْدَافاً لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ مَا

خَصَصْنَاكَ بِهِ مِنْ رَفْعِ مَحَلِّكَ، وإكبار شأنك. . . وَمَنْ نَاصَبَكَ كَيْفَ يَنْفَعُهُ مَالُهُ؟ والذي

أَقْمِينَاهُ لِأَجْلِكَ وَقَدْ (أَسَاءَ)^(١) أَعْمَالَهُ. . . فَإِنَّ إِلَى الْهُوَانِ وَالْخِزْيِ مَالَهُ، وَإِنَّ عَلَى أَقْبَحِ

حَالٍ حَالِ امْرَأَتِهِ وَحَالِهِ.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيه السياق.

سورة الإخلاص

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة عزَّ لسانَ ذَكَرَها، وأعزُّ منه قلبَ عَرَفَها، وأعزُّ من هذا رُوحَ أَحَبَّها، وأعزُّ من هذا سِرُّ شَهِدَها.

ليس كلُّ مَنْ قَصَدَها وَجَدَها، ولا كلُّ مَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها.
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

لَمَّا قال المشركون: أنسب لنا ربك. أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾
فمعنى «هو» أي: الذي سألتُم عنه «هو» الله. ومعنى «أحد» أي: هو أحد.

ويقال: «هو» مبتدأ، و«الله» خبره و«أحد» خبر ثانٍ كقولهم: هذا حلوا حامض.
﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

﴿الصمد﴾: السيد الذي يُضَمَدُ إليه في الحوائج، ويُقَصَدُ إليه في المطالب.
ويقال: الكامل في استحقاق صفات المدح.

ويرجع تحقيق قولٍ مَنْ قال: إنه الذي لا جوفَ له إلى أنه واحدٌ لا... (١)
في ذاته.

﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يُولَدٌ﴾.

ليس بوالدٍ ولا مولود.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

تقديره لم يكن أحدٌ كفواً له.

و«أحد» أصله وَحَدٌ، ووَحَدٌ، وواحد بمعنى، وكونه واحداً: أنه لا قسيمَ له ولا شبيهَ له ولا شريكَ له.

ويقال: السورة بعضها تفسيرٌ لبعض؛ مَنْ هو الله؟ هو الله. مَنْ الله؟ الأحد، مَنْ الأحد؟ الصمد، مَنْ الصمد؟ الذي لم يلد ولم يولد، مَنْ الذي لم يلد ولم يولد؟ الذي لم يكن له كفواً أحد.

(١) بياض في الأصل.

ويقال: كاشَفَ الأسرارَ بقوله: «هو». وكاشَفَ الأرواحَ بقوله: «الله» وكاشَفَ القلوبَ بقوله: «أحد». وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقي السورة.

ويقال: كاشَفَ الوالهيين بقوله: «هو»، والموحدِين بقوله: «الله» والعارفين بقوله: «أحد» والعلماء بقوله: «الصمد»، والعقلاء بقوله: «لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَكِّدْ». . . إلى آخره.

ويقال: لَمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أمرَ نبيِّنا بأنَّ يَرُدَّ عليهم فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. أي دُبَّ عني ما قالوا، فأنت أولى بذلك. وحينما بسطوا لسانَ الذمِّ في النبيِّ ﷺ تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم، فقال: ﴿تَبَّ وَالْقَلْبُ وَمَا يَسْتَرْوُونَ مَا آتَى بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢] وقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] أي أنا أذبُّ عنك؛ فأنا أولى بذلك منك.

ويقال: خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله: «هو» فاستقلوا، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال: «الله»، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم.

فقال: «أحد» ثم لمن نزل عنهم فقال: «الصمد».

ويقال: الصمدُ الذي ليس عند الخلقِ منه إلا الاسم والصفة.

ويقال: الصمدُ الذي تقدَّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهِمْ له، وعن إشرافِ معارفهم عليه.

ويقال: تقدَّسَ بصمديته عن وقوفِ المعارف عليه.

ويقال: تنزَّه عن وقوفِ العقول عليه.

سورة الفلق

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا تجلّى لقلبٍ فإن لاطفَهُ بجماله أحياء، وإن كاشفَهُ بجلاله أباده وأفناه؛ فالعبدُ في حالتي: بقاءٍ وفناءٍ، ومحورٍ وإثباتٍ، ووجدٍ وفقدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

أي امتنع واعتصم بربِّ الفَلَقِ. والفَلَقُ الصُّبْحُ. ويقال: هو الخَلْقُ كُلُّهم وقيل الفَلَقُ وادٍ في جهنم. ﴿وَمِنَ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

أي من الشرور كلها.

﴿وَمِنَ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

قيل: الليلُ إذا دَخَلَ. وفي خبر، أنه ﷺ أخذ بيد عائشة ونظَرَ إلى القمر فقال: يا عائشة، تَعَوَّذِي بالله من شرِّ هذا فإنه الغَاسِقُ إذا وَقَب^(١).

﴿وَمِنَ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

وهن السواحر اللواتي ينفخن في عُقَدِ الخيط (عند الرُّقية)^(٢) ويوهمنُ إدخال الضررِ بذلك.

﴿وَمِنَ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

والحَسَدُ شرُّ الأخلاق.

وفي السورة تعليمٌ استدفاع الشرور من الله. وَمَنْ صَحَّ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي صَحَّ تَحَقُّقُهُ بِاللَّهِ، فَإِذَا تَوَكَّلَ لَمْ يُؤَفِّقْهُ اللَّهُ لِلتَّوَكُّلِ إِلَّا وَالْمَعْلُومُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَكْفِيهِ مَا تَوَكَّلَ بِهِ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ الْعَبْدَ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى دَفْعِ الْبَلَاءِ عَنْهُ - فَإِنْ أَخَذَ فِي التَّحَرُّزِ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَفَهْمِهِ وَبصيرته في كُلِّ وَقْتٍ استراح من تعب تردُّدِ القلبِ في التدبير، وعن قريبٍ يُرْفَى إلى حالة الرضا. كُفِّي مُرَادَهُ أَمْ لَا. وعند ذلك الملك الأعظم، فهو بظاهره لا يفتقر عن الاستعاذة، ويقبله لا يخلو من التسليم والرضا.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢٠٦/٦)، والطبري في (التفسير ٢٠٠/٢٢٧).

(٢) الرقية: كلام يطلب به شفاء المريض ونحوه (ج) رُقِيَ.

سورة الناس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله الذي قصرت عنه العقول فوفقت، وعجزت العلوم فتحيرت، وتقاصرت المعارف فخرجت، وانقطعت الفهوم فدهشت. . وهو بنعت علائجه ووصف سنائه وبهائه وعز كبريائه يُعَلِّمُ ولكن الإحاطة في العلم به مُحَالٌ، ويُرى ولكن الإدراك في وصفه مستحيل، ويُعرف ولكن الإشراف في نعته غير صحيح.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

أَعْتَصِمُ بِرَبِّ النَّاسِ خَالِقِهِمْ وَسَيِّدِهِمْ.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

أي مالِكهم جميعهم.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾.

القادر على إيجادهم.

﴿مِن سِرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ﴾.

من حديث النفس بما هو كالصوت الخفي.

ويقال: مِنْ سِرِّ ذِي الْوَسْوَاسِ.

ويقال: من سرِّ الوسوسة التي تكون بين الجنَّة والناس.

«والخناس» الذي يغيب ويخنس عن ذكر الله. وهو من أوصاف الشيطان.

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

قيل: «الناس» يقع لفظها على الجن والإنس جميعاً - كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ

صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فسماهم نفراً، وكما قال:

﴿يُؤَدُّونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فسماهم رجالاً. . فعلى هذا استعاذ من

الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، والشيطان الذي له تسلط على الناس كالوسواس؛ فللنفس من قبل العبد هواجس، وهواجس النفس ووساوس الشيطان يتقاربان؛ إذ إن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة في الدين أو

إلى ارتكاب المعصية، أو إلى الخصال الذميمة - فهو نتيجة الوسواس والهواجس .

وبالعلم يُمَيِّزُ بين الإلهام وبين الخواطرِ الصحيحة وبين الوسواس^(١) .
 (ومما تجب معرفته)^(٢) أن الشيطان إذا دعا إلى محذورٍ فإن خالفته يدَعُ ذلك
 (ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . .)^(٣) غير
 مختلفة .

تم الكتاب بعونه تعالى

(١) قال القشيري عند حديثه عن الخواطر بالرسالة: والخواطر خطابات ترد على الضمائر، وقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس، وإذا كان من الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاءه في القلب فهو خاطر حق وجملة ذلك من قبيل الكلام، فإذا كان من الملك فإنما يُعلم صدقة بموافقة العلم. (الرسالة القشيرية ص ٨٣، ٨٤).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بياض في الأصل.

فهرس المحتويات

تفسير الآيات: ٢٤-٢٩ ٢٩

تفسير الآية: ٣٠ ٣٠

سورة الأحزاب

تفسير الآيات: ١-٣ ٣١

تفسير الآيات: ٤-٦ ٣٢

تفسير الآيتين: ٧ و٨ ٣٣

تفسير الآيات: ٩-١٣ ٣٤

تفسير الآيات: ١٥-١٩ ٣٥

تفسير الآيات: ٢٠-٢٣ ٣٦

تفسير الآيات: ٢٤-٢٦ و٢٨ و٢٩ ٣٧

تفسير الآيات: ٣٠-٣٥ ٣٨

تفسير الآية: ٣٦ ٣٩

تفسير الآيات: ٣٧-٤٠ ٤٠

تفسير الآيات: ٤١-٤٤ ٤١

تفسير الآيات: ٤٥-٥٠ ٤٢

تفسير الآيات: ٥١-٥٣ ٤٣

تفسير الآيات: ٥٤-٥٩ ٤٤

تفسير الآيات: ٦٠-٦٢ و٦٩ و٧١ ٤٥

تفسير الآية: ٧٢ ٤٦

تفسير الآية: ٧٣ ٤٧

سورة سبأ

تفسير الآيات: ١-٣ ٤٨

تفسير الآيات: ٤ و١٠ و١١ ٤٩

تفسير الآيتين: ١٢ و١٣ ٥٠

تفسير الآيتين: ١٤ و١٥ ٥١

تفسير الآيات: ١٦-١٩ ٥٢

تفسير الآيات: ٢١ و٢٤-٢٦ ٥٣

تفسير الآيات: ٢٧-٣١ ٥٤

تفسير الآيات: ٣٤ و٣٥ و٣٧-٤٠ ٥٥

سورة الروم

تفسير الآيات: ١-٥ ٣

تفسير الآيات: ٦-٩ ٤

تفسير الآيات: ١٠-١٨ ٥

تفسير الآيات: ١٩-٢٢ ٦

تفسير الآيات: ٢٣-٢٧ ٧

تفسير الآيات: ٢٨-٣٠ ٨

تفسير الآيات: ٣١-٣٤ ٩

تفسير الآيات: ٣٥-٣٩ ١٠

تفسير الآية: ٤٠ ١١

تفسير الآيات: ٤١-٤٣ و٤٦ ١٢

تفسير الآيات: ٤٧ و٤٨ و٥٠ ١٣

تفسير الآيات: ٥١-٥٥ ١٤

تفسير الآية: ٦٠ ١٥

سورة لقمان

تفسير الآيات: ١-٥ ١٦

تفسير الآيات: ٦-١١ ١٧

تفسير الآيات: ١٢-١٥ ١٨

تفسير الآيات: ١٦-١٩ ١٩

تفسير الآيات: ٢٠-٢٢ ٢٠

تفسير الآيات: ٢٣ و٢٦ و٢٨ و٣٠ و٣١ ٢١

تفسير الآيات: ٣٢-٣٤ ٢٢

سورة السجدة

تفسير الآيات: ١-٤ ٢٣

تفسير الآيات: ٥-١٠ ٢٤

تفسير الآيات: ١١-١٤ ٢٥

تفسير الآيتين: ١٥ و١٦ ٢٦

تفسير الآيتين: ١٧ و١٨ ٢٧

تفسير الآيات: ١٩ و٢١ و٢٣ ٢٨

تفسير الآيات: ٤٧-٣٦ ٨٩
تفسير الآيات: ٤٨-٥٠ و٥٦ و٥٧
و٦٠-٦٢ و٧٥ و٧٦ ٩٠
تفسير الآيات: ٧٧ و٧٨ و٨٣-٨٥

و٨٧-٨٩ ٩١
تفسير الآيات: ٩٧-١٠٢ ٩٢
تفسير الآيات: ١٠٣-١٠٥ و١١٤
و١١٧-١٢٠ و١٢٣ ٩٤
تفسير الآيات: ١٣٣ و١٣٩ و١٤٢-١٤٦ . ٩٥
تفسير الآيات: ١٤٩ و١٦١ و١٦٤
و١٧١-١٧٦ ٩٦
تفسير الآيات: ١٨٠-١٨٢ ٩٧

سورة صّ

تفسير الآيات: ١-٦ ٩٨
تفسير الآيات: ٧-٩ و١٢ و١٤-١٦ ٩٩
تفسير الآيات: ١٧-٢٠ ١٠٠
تفسير الآية: ٢١ ١٠١
تفسير الآيات: ٢٢-٢٥ ١٠٢
تفسير الآيات: ٢٦ و٢٧ و٢٩-٣١ ١٠٣
تفسير الآيات: ٣٢-٣٤ ١٠٤
تفسير الآيات: ٣٥-٣٩ ١٠٥
تفسير الآيات: ٤١ و٤٢ و٤٤ ١٠٦
تفسير الآيات: ٤٥-٥٠ ١٠٧
تفسير الآيات: ٥٥ و٥٧-٥٩ و٦١
و٦٢ و٦٤-٦٦ ١٠٨
تفسير الآيات: ٦٧-٧٢ ١٠٩
تفسير الآيات: ٧٥-٨٨ ١١٠

سورة الزمر

تفسير الآيات: ١-٣ ١١١
تفسير الآيتين: ٤ و٥ ١١٢
تفسير الآيتين: ٦ و٧ ١١٣
تفسير الآيتين: ٨ و٩ ١١٤
تفسير الآيات: ١٠-١٣ ١١٥
تفسير الآيات: ١٤-١٨ ١١٦

تفسير الآيات: ٤٢-٤٤ ٥٦
تفسير الآيات: ٤٦ و٤٨-٥٢ ٥٧
تفسير الآية: ٥٤ ٥٨

سورة فاطر

تفسير الآيتين: ١ و٢ ٥٩
تفسير الآيات: ٣-٥ ٦٠
تفسير الآيات: ٦-٨ ٦١
تفسير الآيتين: ٩ و١٠ ٦٢
تفسير الآيتين: ١١ و١٢ ٦٣
تفسير الآيات: ١٣-١٥ ٦٤
تفسير الآيات: ١٦-٢٤ ٦٦
تفسير الآيات: ٢٥ و٢٧ و٢٩ ٦٧
تفسير الآيتين: ٣١ و٣٢ ٦٨
تفسير الآيات: ٣٣-٣٧ ٧١
تفسير الآيات: ٣٨-٤١ ٧٢
تفسير الآيات: ٤٢-٤٥ ٧٣

سورة يسّ

تفسير الآيات: ١-٩ ٧٤
تفسير الآيات: ١٠-١٣ ٧٥
تفسير الآيات: ١٥ و١٦ و١٨-٢١
و٢٦-٣٠ ٧٦
تفسير الآيات: ٣١-٣٣ و٣٦ ٧٧
تفسير الآيات: ٣٧-٤٠ ٧٨
تفسير الآيات: ٤١-٤٥ و٤٧ ٧٩
تفسير الآيات: ٤٩-٥٢ و٥٤ و٥٥ ٨٠
تفسير الآيتين: ٥٦ و٥٧ ٨١
تفسير الآيات: ٥٨-٦١ و٦٥ ٨٢
تفسير الآيات: ٦٨ و٦٩ و٧١-٧٣ ٨٣
تفسير الآيات: ٧٤-٨٠ ٨٤
تفسير الآيتين: ٨٢ و٨٣ ٨٥

سورة الصافات

تفسير الآيات: ١-٥ ٨٦
تفسير الآيات: ٦ و٧ و١٠-١٣ و١٦-١٩ ٨٧
تفسير الآيات: ٢٠-٢٧ و٣٣-٣٥ ٨٨

١٤٨	تفسير الآيات: ٢٦ - ٣٠	١١٧	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٢
١٥٠	تفسير الآيتين: ٣١ و ٣٢	١١٨	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
١٥١	تفسير الآيتين: ٣٣ و ٣٤	١١٩	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٧ و ٣١
١٥٢	تفسير الآيات: ٣٥ - ٣٧	١٢٠	تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٤
١٥٣	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠	١٢١	تفسير الآيات: ٣٥ و ٣٦ و ٣٨ - ٤١
١٥٤	تفسير الآيات: ٤١ - ٤٤	١٢٢	تفسير الآيات: ٤٢ و ٤٣ و ٤٥
١٥٥	تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٩	١٢٣	تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٩ و ٥٢
١٥٦	تفسير الآيات: ٥٠ - ٥٤	١٢٤	تفسير الآيتين: ٥٣ و ٥٤

سورة الشورى

١٥٨	تفسير الآيات: ١ - ٥	١٢٦	تفسير الآيات: ٦٢ - ٦٥ و ٦٧ و ٦٨
١٥٩	تفسير الآيات: ٦ - ٨	١٢٧	تفسير الآيات: ٦٩ - ٧١ و ٧٣
١٦٠	تفسير الآيتين: ١٠ و ١١	١٢٨	تفسير الآيتين: ٧٤ و ٧٥

سورة غافر (سورة المؤمن)

١٦١	تفسير الآيات: ١٢ - ١٥	١٢٩	تفسير الآيات: ١ - ٣
١٦٢	تفسير الآيات: ١٦ - ١٩	١٣١	تفسير الآيات: ٤ - ١٣
١٦٣	تفسير الآيتين: ٢٠ و ٢١	١٣٢	تفسير الآيتين: ١٤ و ١٥
١٦٤	تفسير الآيتين: ٢٢ و ٢٣	١٣٣	تفسير الآيات: ١٦ - ١٨
١٦٥	تفسير الآيات: ٢٤ - ٢٦	١٣٤	تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠
١٦٦	تفسير الآيتين: ٢٧ و ٢٨	١٣٥	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٤
١٦٧	تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠		تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٦ و ٢٨ و ٣٤
١٦٨	تفسير الآيات: ٣٢ و ٣٦ - ٣٩	١٣٦	٣٦ و ٣٧
١٦٩	تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٤ و ٤٧	١٣٧	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٣
١٧٠	تفسير الآيات: ٤٨ و ٤٩ و ٥١ و ٥٢	١٣٨	تفسير الآيات: ٤٤ - ٥١
١٧١	تفسير الآية: ٥٣	١٣٩	تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٦

سورة الزخرف

١٧٢	تفسير الآيات: ١ - ٧	١٤٠	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦٠
١٧٣	تفسير الآيات: ٨ - ١٣	١٤١	تفسير الآيات: ٦١ و ٦٢ و ٦٤
١٧٤	تفسير الآيات: ١٥ و ١٦ و ٢٠ - ٢٤		تفسير الآيات: ٦٥ - ٦٧ و ٦٩ و ٧١

١٧٥	تفسير الآيات: ٢٦ و ٢٩ و ٣٢	١٤٢	٧٧ و ٧٢
١٧٦	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٦ - ٣٨	١٤٣	تفسير الآيات: ٧٨ - ٨٢

سورة فصلت

١٧٧	تفسير الآيات: ٣٩ - ٤٧	١٤٤	تفسير الآيات: ١ - ٧
١٧٨	تفسير الآيات: ٥١ و ٥٢ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٧	١٤٥	تفسير الآيات: ٨ - ١١
١٧٩	تفسير الآيات: ٥٨ - ٦٣	١٤٦	تفسير الآيات: ١٢ - ١٨
١٨٠	تفسير الآيات: ٦٧ - ٧١	١٤٧	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٥
١٨١	تفسير الآيات: ٧٢ - ٧٨		

٢١٣	تفسير الآيتين: ١٦ و ١٧
٢١٤	تفسير الآيتين: ١٨ و ٢٠
٢١٥	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٤
٢١٦	تفسير الآيتين: ٢٥ و ٢٦
٢١٧	تفسير الآيتين: ٢٧ و ٢٨
٢١٨	تفسير الآية: ٢٩

سورة الحجرات

٢١٩	تفسير الآيات: ١ - ٣
٢٢٠	تفسير الآيات: ٤ - ٧
٢٢١	تفسير الآيات: ٨ - ١٠
٢٢٢	تفسير الآيتين: ١١ و ١٢
٢٢٣	تفسير الآيات: ١٣ - ١٥
٢٢٤	تفسير الآيات: ١٦ - ١٨

سورة ق

٢٢٥	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٢٦	تفسير الآيات: ٥ - ١٠
٢٢٧	تفسير الآيات: ١١ - ١٦ و ١٩
٢٢٨	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٧
٢٢٩	تفسير الآيات: ٢٨ - ٣٢
٢٣٠	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٦
٢٣١	تفسير الآيات: ٣٧ - ٣٩
٢٣٢	تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٥

سورة الذاريات

٢٣٣	تفسير الآيات: ١ - ٦
٢٣٤	تفسير الآيات: ٧ - ١٤
٢٣٥	تفسير الآيات: ١٥ - ١٨
٢٣٦	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٢
٢٣٧	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
٢٣٨	تفسير الآيات: ٢٥ - ٣٧
٢٣٩	تفسير الآيات: ٣٨ و ٤٧ - ٥٥
٢٤٠	تفسير الآيات: ٥٦ - ٦٠

سورة الطور

٢٤١	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٤٢	تفسير الآيات: ٥ - ١٨

١٨٢	تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٦
١٨٣	تفسير الآيات: ٨٧ - ٨٩

سورة الذخان

١٨٤	تفسير الآيات: ١ - ٦
١٨٥	تفسير الآيات: ٧ - ١٢
١٨٦	تفسير الآيات: ١٣ و ١٥ - ١٨ و ٢٣ - ٢٩
١٨٧	تفسير الآيات: ٣٠ - ٤٢
١٨٨	تفسير الآيات: ٤٣ - ٥٢ و ٥٤ و ٥٦ و ٥٨

سورة الجاثية

١٨٩	تفسير الآيات: ١ - ٥
١٩٠	تفسير الآيات: ٦ - ١٠ و ١٢
١٩١	تفسير الآيات: ١٣ - ١٦ و ١٨
١٩٢	تفسير الآيات: ١٩ - ٢١ و ٢٣ و ٢٤
١٩٣	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٨ و ٣٦ و ٣٧

سورة الأحقاف

١٩٤	تفسير الآيات: ١ - ٦
١٩٥	تفسير الآيات: ٧ و ٩ - ١١ و ١٣
١٩٦	تفسير الآيات: ١٥ و ١٦ و ٢٠
١٩٧	تفسير الآيات: ٢١ و ٢٩ و ٣١
١٩٨	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥

سورة محمد ﷺ

١٩٩	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٠٠	تفسير الآيات: ٥ - ١١
٢٠١	تفسير الآيات: ١٢ - ١٤
٢٠٢	تفسير الآيات: ١٥ - ١٩
٢٠٤	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٤
٢٠٥	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٩ - ٣٢
٢٠٦	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٥ - ٣٨

سورة الفتح

٢٠٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٢٠٩	تفسير الآيات: ٣ - ٥
٢١٠	تفسير الآيات: ٦ و ٨ و ٩
٢١١	تفسير الآيتين: ١٠ و ١١
٢١٢	تفسير الآيات: ١٢ - ١٥

تفسير الآيات : ١٩ - ٢٣	٢٤٣
تفسير الآيات : ٢٤ - ٣٤	٢٤٤
تفسير الآيات : ٣٥ و ٤٨	٢٤٥
تفسير الآية : ٤٩	٢٤٦
سورة النجم	
تفسير الآيات : ١ - ٤	٢٤٧
تفسير الآيات : ٥ - ١١	٢٤٨
تفسير الآيات : ١٢ - ٢٢	٢٤٩
تفسير الآيات : ٢٣ - ٢٨	٢٥٠
تفسير الآيات : ٢٩ - ٣٢	٢٥١
تفسير الآيات : ٣٣ - ٤٢	٢٥٢
تفسير الآيات : ٤٣ - ٤٥ و ٤٨	٢٥٣
تفسير الآيات : ٤٩ - ٦٢	٢٥٤
سورة القمر	
تفسير الآية : ١	٢٥٥
تفسير الآيات : ٢ - ٥	٢٥٦
تفسير الآيات : ٦ - ١٣	٢٥٧
تفسير الآيات : ١٤ - ٢٠	٢٥٨
تفسير الآيات : ٢٢ - ٢٤ و ٣٣ - ٣٥	٢٥٩
تفسير الآيات : ٤٩ - ٥٥	٢٦٠
سورة الزمر	
تفسير الآيتين : ١ و ٢	٢٦٢
تفسير الآيات : ٣ - ٦	٢٦٣
تفسير الآيات : ٦ - ١٢	٢٦٤
تفسير الآيات : ١٣ - ١٨	٢٦٥
تفسير الآيات : ١٩ و ٢٠ و ٢٢ و ٢٤	٢٦٦
تفسير الآيتين : ٣١ و ٣٣	٢٦٧
تفسير الآيات : ٣٥ و ٣٧ و ٣٩ و ٤١	٢٦٨
تفسير الآيات : ٤٣ و ٤٤ و ٤٦ و ٤٨ - ٥٠	٢٦٩
تفسير الآيات : ٥٢ و ٥٤	٢٦٩
تفسير الآيات : ٥٦ و ٥٨ و ٦٠	٢٧٠
تفسير الآيات : ٦٢ و ٦٤ و ٦٦ و ٦٨ و ٧٠	٢٧١
تفسير الآيات : ٧٢ و ٧٤ و ٧٦ و ٧٨	٢٧٢
سورة الواقعة	
تفسير الآيات : ١ - ٦	٢٧٣
تفسير الآيات : ٧ - ١٢	٢٧٤
تفسير الآيات : ١٣ - ١٩ و ٢٥ و ٢٦	٢٧٥
تفسير الآيات : ٢٧ - ٣٢ و ٣٤ - ٤٧	٢٧٦
تفسير الآيات : ٥٦ - ٥٩	٢٧٧
تفسير الآيات : ٦٠ - ٧٠	٢٧٨
تفسير الآيات : ٧١ - ٨٠	٢٧٩
تفسير الآيات : ٨١ - ٨٥	٢٨٠
تفسير الآيات : ٨٦ - ٩١	٢٨١
تفسير الآيات : ٩٢ - ٩٦	٢٨٢
سورة الحديد	
تفسير الآيتين : ١ و ٢	٢٨٣
تفسير الآية : ٣	٢٨٤
تفسير الآية : ٤	٢٨٥
تفسير الآيات : ٦ - ١٠	٢٨٦
تفسير الآيتين : ١١ و ١٢	٢٨٧
تفسير الآيتين : ١٣ و ١٤	٢٨٨
تفسير الآيتين : ١٥ و ١٦	٢٨٩
تفسير الآيات : ١٧ - ٢٠	٢٩٠
تفسير الآيتين : ٢١ و ٢٢	٢٩١
تفسير الآيتين : ٢٣ و ٢٤	٢٩٢
تفسير الآيات : ٢٥ - ٢٧	٢٩٣
تفسير الآيتين : ٢٨ و ٢٩	٢٩٤
سورة المجادلة	
تفسير الآية : ١	٢٩٥
تفسير الآيات : ٢ و ٣ و ٥	٢٩٦
تفسير الآيتين : ٦ و ٧	٢٩٧
تفسير الآيات : ٨ - ١٢	٢٩٨
تفسير الآيات : ١٤ - ١٦ و ١٨ - ٢٠	٢٩٩
تفسير الآيتين : ٢١ و ٢٢	٣٠٠
سورة الحشر	
تفسير الآيتين : ١ و ٢	٣٠١

سورة التحريم

٣٣٢	تفسير الآية: ١
٣٣٣	تفسير الآيتين: ٢ و ٤
٣٣٤	تفسير الآيات: ٥-٨
٣٣٥	تفسير الآيات: ٩-١١
٣٣٦	تفسير الآية: ١٢

سورة الملك

٣٣٧	تفسير الآيات: ١-٣
٣٣٨	تفسير الآيات: ٤-١٢
٣٣٩	تفسير الآيات: ١٣-١٧ و ٢٩ و ٢٠
٣٤٠	تفسير الآيات: ٢٢ و ٢٣ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٠

سورة القلم

٣٤١	تفسير الآيات: ١-٤
٣٤٢	تفسير الآيات: ٥-٩
٣٤٣	تفسير الآيات: ١٠-١٧ و ١٩ و ٢٠
٣٤٤	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٢-٣٧
٣٤٥	تفسير الآيات: ٤٢-٤٦
٣٤٦	تفسير الآيات: ٤٧-٥١

سورة الحاقة

٣٤٧	تفسير الآيات: ١-٤ و ١١
	تفسير الآيات: ١٣ و ١٨-٢١
٣٤٨	و ٢٤-٢٧
	تفسير الآيات: ٣٨-٤٠ و ٤٣-٤٦
٣٤٩	و ٤٨-٥١

سورة المعارج

٣٥٠	تفسير الآيات: ١-٥
٣٥١	تفسير الآيات: ٦-١٧
٣٥٢	تفسير الآيات: ١٩-٢٦ و ٢٩-٣٢
	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٦-٣٨ و ٤٠
٣٥٣	و ٤٢ و ٤٣

سورة نوح

٣٥٤	تفسير الآيات: ١-٧
	تفسير الآيات: ٨-١٣ و ١٥ و ١٦
٣٥٥	و ٢١ و ٢٢ و ٢٦

٣٠٣	تفسير الآيات: ٣-٥
٣٠٤	تفسير الآيات: ٦-٨
٣٠٥	تفسير الآيتين: ٩ و ١٠
٣٠٦	تفسير الآيات: ١١ و ١٣-١٥
٣٠٨	تفسير الآيات: ٢٠-٢٣
٣٠٩	تفسير الآية: ٢٤

سورة الممتحنة

٣١٠	تفسير الآية: ١
٣١١	تفسير الآيات: ٢-٤
٣١٢	تفسير الآيات: ٥ و ٧-٩
٣١٣	تفسير الآيات: ١٠ و ١٢ و ١٣

سورة الصف

٣١٤	تفسير الآيات: ١-٤
٣١٥	تفسير الآيات: ٥ و ٦ و ٨ و ٩
٣١٦	تفسير الآيات: ١٠-١٤

سورة الجمعة

٣١٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٣١٩	تفسير الآيات: ٣-٧
٣٢٠	تفسير الآيات: ٨-١١

سورة المنافقون

٣٢١	تفسير الآيات: ١-٤
٣٢٢	تفسير الآيات: ٥-٨
٣٢٣	تفسير الآيتين: ٩ و ١٠

سورة التغابن

٣٢٤	تفسير الآيات: ١-٣
٣٢٥	تفسير الآيات: ٦-٩
٣٢٦	تفسير الآيات: ١١ و ١٢ و ١٤-١٦
٣٢٧	تفسير الآيتين: ١٧ و ١٨

سورة الطلاق

٣٢٨	تفسير الآية: ١
٣٢٩	تفسير الآيات: ٢-٤
٣٣٠	تفسير الآيات: ٧-١١
٣٣١	تفسير الآية: ١٢

سورة النبأ

٣٨٤	تفسير الآيات: ١-٣ و٦-١٠
٣٨٥	تفسير الآيات: ١١-٢٣
٣٨٦	تفسير الآيات: ٢٤-٣٦
٣٨٧	تفسير الآيات: ٣٧-٤٠

سورة النازعات

٣٨٨	تفسير الآيات: ١-٤
٣٨٩	تفسير الآيات: ٥-١٨
٣٩٠	تفسير الآيات: ١٩ و٢٠ و٢٤ و٢٦-٣١
٣٩١	تفسير الآيات: ٣٢-٣٥ و٤٠-٤٦

سورة عبس

٣٩٢	تفسير الآيتين: ١ و٢
٣٩٣	تفسير الآيات: ٣-٨ و١١-١٥
٣٩٤	تفسير الآيات: ١٦-٢٢
٣٩٥	تفسير الآيات: ٢٣ و٣٧-٤٢

سورة التكويد

٣٩٦	تفسير الآيات: ١-٧
٢٩٧	تفسير الآيات: ٨-٢٠
٣٩٨	تفسير الآيات: ٢٢-٢٤ و٢٦-٢٩

سورة الانفطار

٣٩٩	تفسير الآيات: ١-٨
٤٠٠	تفسير الآيتين: ١٧ و١٩

سورة المطففين

٤٠١	تفسير الآيات: ١-٦
٤٠٢	تفسير الآيات: ٧-١٥ و١٨ و٢٢
٤٠٣	تفسير الآيات: ٢٣-٢٨
٤٠٤	تفسير الآيات: ٢٩ و٣٠ و٣٤-٣٦

سورة الانشقاق

٤٠٥	تفسير الآيات: ١-٣ و٦-٨
٤٠٦	تفسير الآيات: ٩-١٤ و١٦-١٨
٤٠٧	تفسير الآيات: ١٩-٢٥

سورة البروج

٤٠٨	تفسير الآيات: ١-٣
-----	-------------------

سورة العجن

٣٥٦	تفسير الآيات: ١ و٣ و٦
	تفسير الآيات: ٧-١٠ و١٦ و١٨
٣٥٧	١٩ و٢١-٢٣ و٢٥
٣٥٨	تفسير الآيات: ٢٦-٢٨

سورة المزمل

٣٥٩	تفسير الآيات: ١-٤
٣٦٠	تفسير الآيات: ٥-٧
٣٦١	تفسير الآيات: ٨-١٨
٣٦٢	تفسير الآيتين: ١٩ و٢٠

سورة المدثر

٣٦٤	تفسير الآيات: ١-١٥
٣٦٥	تفسير الآيات: ١٦-٣٢
٣٦٦	تفسير الآيات: ٣٣-٤٦
٣٦٧	تفسير الآيات: ٤٧-٥٦

سورة القيامة

٣٦٨	تفسير الآيات: ١-٤
٣٦٩	تفسير الآيات: ٥-١٧
٣٧٠	تفسير الآيات: ١٨-٣٠
٣٧١	تفسير الآيات: ٣١-٣٩
٣٧٢	تفسير الآية: ٤٠

سورة الإنسان

٣٧٣	تفسير الآيات: ١-٣
٣٧٤	تفسير الآيات: ٤-٦
٣٧٥	تفسير الآيات: ٧-١٣
٣٧٦	تفسير الآيات: ١٤-٢١
٣٧٨	تفسير الآيات: ٢٢-٢٨
٣٧٩	تفسير الآيتين: ٢٩ و٣٠

سورة المرسلات

٣٨٠	تفسير الآيات: ١-٨
٣٨١	تفسير الآيات: ٩-١٧ و١٩ و٢٠
	تفسير الآيات: ٢٥-٢٧ و٢٩-٣١
٣٨٢	٣٥ و٣٦
	تفسير الآيات: ٣٨ و٤١ و٤٣ و٤٤
٣٨٣	٤٦ و٤٨

٤٣٣	تفسير الآيتين: ٧ و ٨	٤٠٩	تفسير الآيات: ٤ و ٥ و ٨ و ١١
	سورة التين	٤١٠	تفسير الآيات: ١٢ - ٢٠
٤٣٤	تفسير الآيات: ١ - ٥	٤١١	تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢
٤٣٥	تفسير الآيات: ٦ - ٨		سورة الطارق
	سورة العلق	٤١٢	تفسير الآيات: ١ - ٨
٤٣٦	تفسير الآيات: ١ - ٥	٤١٣	تفسير الآيات: ٩ - ١٧
٤٣٧	تفسير الآيات: ٦ - ١٩		سورة الأعلى
٤٣٨	سورة القدر	٤١٤	تفسير الآيات: ١ - ٥
	سورة البينة	٤١٥	تفسير الآيات: ٦ - ٨ و ٩ - ١٩
٤٣٩	تفسير الآيات: ١ - ٥		سورة الغاشية
٤٤٠	تفسير الآيات: ٦ - ٨	٤١٦	تفسير الآيات: ١ - ٧
٤٤١	سورة الزلزلة	٤١٧	تفسير الآيات: ٨ - ١٧
	سورة العاديات	٤١٨	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٦
٤٤٢	تفسير الآيات: ١ - ٥		سورة الفجر
٤٤٣	تفسير الآيات: ٦ - ١١	٤١٩	تفسير الآيات: ١ - ٣
٤٤٤	سورة القارعة	٤٢٠	تفسير الآيات: ٤ - ٧ و ١٣ - ١٩
٤٤٥	سورة التكاثر	٤٢١	تفسير الآيات: ٢٠ - ٣٠
٤٤٦	سورة العصر		البلد
٤٤٧	سورة الهزلة	٤٢٢	تفسير الآيات: ١ - ٦
	سورة الفيل	٤٢٣	تفسير الآيات: ٧ - ٢٠
٤٤٩	تفسير الآية: ١		سورة الشمس
٤٥٠	تفسير الآيات: ٢ - ٥	٤٢٤	تفسير الآيات: ١ - ٨
٤٥١	سورة قريش	٤٢٥	تفسير الآيات: ٩ - ١٥
	سورة الماعون (سورة الدين)		سورة الليل
٤٥٣	تفسير الآيات: ١ - ٦	٤٢٦	تفسير الآيات: ١ - ٤
٤٥٤	تفسير الآية: ٧	٤٢٧	تفسير الآيات: ٥ - ١٨
٤٥٥	سورة الكوثر	٤٢٨	تفسير الآيات: ١٩ - ٢١
٤٥٦	سورة الكافرون		سورة الضحى
٤٥٨	سورة النصر	٤٢٩	تفسير الآيات: ١ - ٣
٤٥٩	سورة المسد	٤٣٠	تفسير الآيات: ٤ - ٨
٤٦٠	سورة الإخلاص	٤٣١	تفسير الآيات: ٩ - ١١
٤٦٢	سورة الفلق		سورة الشرح (الم نشرح)
٤٦٣	سورة الناس	٤٣٢	تفسير الآيات: ١ - ٦